مكتشفو أفريقيا



تأليف

جوزفين كام

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور / السيد يوسف نصر

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة أسيوط سابقاً

مركز الاسكندرية للكتاب

٤٦ ش الدكتور مصطفى مشرفة

الأزاريطة ت ٤٨٤٦٥٠٨

مكتشفو أفريقيا

تأليف
جوزفين كام

ترجمة وتقديم وتعليق
دكتور : السيد يوسف نصر
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب – جامعة أسيوط سابقا

الإسكندرية

٢٠٠٧

مركز الإسكندرية للكتاب
٤٦ شارع الدكتور مصطفى مشرفة – سوتير (سابقا)
تليفون وفاكس : ٤٨٤٦٥٠٨ - ٠٣ – الإسكندرية
alexbookcenter@yahoo.com

تــرجمة كتــاب

Explorers into Africa
By
Josephine Kamm

تقديم المترجم

كان من دوافع ترجمتي لهذا الكتاب أنه من الكتب الهامة ، لأن مؤلفته إستخدمت فيه الكثير من النصوص المقتبسة من تقارير الرحالة أنفسهم ، وهذا في حد ذاته يعطي الكتاب أهمية علمية بالغة ، ومن ناحية أخري فإن هذا الكتاب تناول بشئ من التفصيل كل المحاولات الكشفية التي تمت في أفريقيا عبر العصور وحتى القرن ١٩ ، وإن كانت هناك بعض الثغرات التي قمت بإكمالها حتى تكتمل الصورة أمام القارئ الكريم ولذلك فقد تم إختيار هذا الكتاب من بين مجموعة من الكتب المتخصصة في هذا الموضوع " كشف أفريقيا " ومن هذه الكتب كتاب بعنوان "الكشف الإفريقي " African Discovery ، الذي يبدأ بمقدمة عامة ، ثم يتناول موضوع كشف جيمس بروس مباشرة لمنابع النيل الأزرق ، و لم يشر إلي فترات الكشف الأولي ، بل عرض إلي بقية المستكشفين. ومنها كتاب بعنوان ، African Exploration الذي يبدأ هو الآخر بمقدمة تضمنت بطريقة موجزة ، المحاولات الكشفية التي تمت في العصور القديمة، ولم يقم مؤلفه بالفصل بين المحاولات التي تمت قديماً ووسيطاً . ومنها كذلك كتاب بعنوان Exploring Africa and Asia فقد تناول هذا الكتاب الكشوف الجغرافية التي تمت في آسيا وأفريقيا . وبدأ الكشوف الأفريقية بمجئ البرتغاليين ، كما أنه لم يتناول الفترات القديمة والوسيطة ، ومنها أيضاً كتاب بعنوان Mungopark. The African Traveler ،الذي يقتصر على حياة منجو بارك وكشوفاته في غرب أفريقيا ، هذا فضلاً عن تناوله لبعض الرحالة الذين ساهموا في كشف منطقة غرب القارة . ومنها كتاب

بعنوان " السير ريتشارد بيرتون Sir Richard Burton، ويتناول تاريخ بيرتون واستكشافاته في هرر وشرق أفريقيا ، وكتاب آخر بعنوان " النيل" The Nile، الذي يتناول الفترة القديمة والعصر الإغريقي الروماني ومصر المسيحية وانتشار الإسلام في مصر وأفريقيا ومجيء الأوربيين والسير صمويل بيكر والجنرال غوردن ودافيد لفنجستون . وواضح إنه كتاب يضم موضوعات عامة ، بحيث لم يتخصص في الأعمال الكشفية لهذا لم نقم بترجمته .

ومن دوافع ترجمتي لهذا الكتاب الذي بين أيدينا Explorers into Africa ، وجود مادة تدرس في كلية الآداب بسوهاج ، تعرف باسم " موضوع من تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها " ضمن المناهج الدراسية بقسم التاريخ ، ورغم ذلك فلم يوجد من المراجع ما يخدم هذه المادة بصورة وافية . ولو قدر ووجد البعض من هذه المراجع فإنها لم تعالج هذه المادة بطريقة مرضية ومفصلة مما يجعل الطلاب في حيرة، هذا فضلاً عن أنني قمت بترجمة هذا الكتاب لأن الطلاب لم يكن في إمكانهم قراءة مثل هذا المرجع بسهولة ، وذلك لعدم إلمامهم باللغة الإنجليزية بصورة مرضية ، ولو حاولوا ذلك فإنهم يواجهون مصاعب جمة.

وقد استغرقت ترجمة هذا الكتاب سنتين تقريباً ، ونود أن ننوه إلي القارئ عن الأسباب التي ساعدتنا علي القيام بهذه الترجمة ، وهو أننا عندما كنا نعد لرسالة الماجستير سألنا أستاذنا المرحوم الأستاذ الدكتور/حسن عثمان سؤالا مفاده : إلي أي مدي نقف على درجة إلمامنا

باللغة الإنجليزية ؟ فقال لنا رحمة الله عليه أن نقرأ كتاباً باللغة الإنجليزية ونلم بما جاء به ، فهذا هو الدليل علي مدى فهمنا لهذه اللغة .

وعلي أثر ذلك إلتحقنا بالجامعة الأمريكية بقسم الخدمة العامة Division Public Service أو الـ D . P . S . ومما لا شك فيه أننا إستفدنا الكثير من هذه الدراسة ، ومع ذلك فإننا لم نكتف بهذا القدر منها ، بل أننا عندما قيدنا لدرجة الدكتوراه ، كان علينا أن نعمق فهمنا للغة الإنجليزية وبخاصة أجادتنا للترجمة التي هي غاية مقصدنا ، والتي يحتاج إليها طالب الدراسات العليا فبدونها لا يتمكن الدارس من الإطلاع على المصادر الأجنبية .

لذلك بادرنا بالإلتحاق بكلية الآداب جامعة القاهرة ، قسم اللغة الإنجليزية كطالب منتسب ، ومن حسن حظنا كان الإنتساب قد فتح عام ١٩٧٤ في هذا القسم ، وكان هذا الإلتحاق قاصراً على الطلاب الحاصلين على درجة الليسانس والبكالوريوس ، وفي أثناء فترة الدراسة في هذا القسم تتلمذنا علي أيدي أساتذة أفاضل ، تعلمنا منهم الكثير . ولم يكن الهدف من إلتحاقنا بهذه الدراسة الحصول على درجة علمية ، بل إجادة اللغة الإنجليزية ، ولم نترك هذه الدراسة إلا بعد أن حصلنا علي درجة الدكتوراه .

وقد مكنتنا هذه الدراسة من معرفة الترجمة معرفة جيدة . فقد قمنا بترجمة كتاب تاريخ غرب أفريقيا للمؤرخ فيج The History of West Africa By Fage ، وها نحن الآن إنتهينا من ترجمة كتاب المستكشفون في

أفريقيا للمؤرخة جوزفين كام The Explorers into Africa By Josephine Kamm . وقد تضمن هذا الكتاب ، على وجه التحديد عشرة فصول .

فقد تناول الفصل الأول من هذه الفصول المحاولات التي تمت بشأن الكشف عن أفريقيا سواء أكان ذلك من جانب الإغريق أو الرومان أو قدماء المصريين ، وإن كانت المؤلفة لم تعط المصريين قدرهم في هذا العمل، بل أنها تجاهلت معظم الأعمال الكشفية التي تمت من جانبهم .

وقد تناول الفصل الثاني من هذا الكتاب دور التجار Traders وبعثات التبشير Missionaries ، وبخاصة بعثة الجزويت التبشيرية التي جاءت إلي الحبشة ، وكان علي رأس هذه البعثة الأبوان لوبو وبيز ، ولكن علي الرغم من وصولهما إلي منابع النيل الأزرق ، إلا أنهما لم يتمكنا من الكشف النهائي عن منابع هذا النهر .

وجاء في الفصل الثالث دور الرحالة الإسكتلندي جيمس بروس James Bruce الذي جاء إلي شمال أفريقيا بعد وفاة زوجته المحببة إليه، وكان الملك جورج الثالث قد كلفه بأن يقوم برسم كل ما يقع تحت بصره من بقايا أثرية ، بحيث يحضرها معه إلي إنجلترا ، فمن شمال أفريقيا ، رحل بروس إلي الإسكندرية ، ومنها إلي القاهرة فأسوان ، ومن هناك عبر الصحراء الشرقية إلي القصير ، ومنها إتخذ طريقه عبر البحر الأحمر إلي مصوع فغندار فمنابع النيل الأزرق فسنار فأسوان ، فالقاهرة فانجلترا .

وتناول الفصل الرابع المغامر الإسكتلندي الطبيب منجو بارك الذي جاء إلي غرب أفريقيا من قبل الجمعية الأفريقية African Association وقد نجح منجو بارك في الوصول إلي بلدة بوسا ، ولكنه لم يتمكن من الكشف النهائي عن نهر النيجر ، وعاد إلي انجلترا ، ثم جاء بعد ذلك علي رأس بعثة كشفية من قبل الحكومة البريطانية لأن بريطانيا رغبت هذه المرة أن يكون العمل متسم بالصفة الرسمية وبخاصة بعد أن وصل نابليون إلي شبه جزيرة أيبريا ، فسارعت إلي الوصول إلي غرب أفريقيا حتى لا تكون خطوط مواصلاتها مع الهند عرضة للتهديد الفرنسي ، وبعد أن واصل منجو بارك رحلته أغتيل من جانب القبائل الأفريقية .

وتناول الفصل الخامس عدداً من الرحالة والمغامرين الذين جاءوا إلي غرب أفريقيا للمساهمة في حل لغز النيجر ، وكان من هؤلاء الرحالة الميجور هوفتون وكلابرتون ولاندر ولينج .

وتناول الفصل السادس عدداً آخراً من الرحالة كان من أشهرهم هنريش بارث ، وجيرهارد رولفس ، ولويس جوستاف بنجر ، وريتشاردسون، وفوجيل .... وغيرهم .

وتناول الفصل السابع الدكتور روبرت موفات ومجيئه إلي جنوب أفريقيا ، والمبشر الإستعماري ديفيد لفنجستون الذي تجول في جنوب أفريقيا حيث عبر القارة من الشرق إلي الغرب ومن الغرب إلي الشرق ، وكان لفنجستون قد نجح في كشف نهر الزمبيزي .

وتناول الفصل الثامن الرحلات التي اتجهت إلي منابع النيل ، وكـان من هذه الرحلات الرحلة التي قام بها بيرتون وسبيك ، وجرانت ، وسبيك والسير صمويل بيكر (رحلته الخاصة) ، والبعثة التي قادهـا غـوردون باشا، ومن الملاحظ أن المؤلفة لم تشر إلي البعثات الكشفية التي أرسـلها محمد علي في الفترة مـا بـين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، ولا إلي الحمـلات العسكرية التي أرسلها الخديوي إسماعيل منذ عام ١٨٦٩ م .

وجاء بالفصل التاسع دور هنري مورتون سـتانلي في أفريقيـا ، وبخاصة عندما جاء إليها بحثاً عن لفنجستون ، وبالفعل تمكن ستانلي من لقائه ، ولكن لفنجستون رفض العودة معه إلي إنجلتـرا ، وأصـر علـي مواصلة تجواله حتى تحل مشكلة الأنهار المجهولة في أفريقيا الوسطي .

وتناول الفصل العاشر الرحلة التي قام بها ستانلي من شرق أفريقيا، متتبعاً نهر لولابا وهو الرافد الرئيسي لنهر الكونغو إبتداء من المنبع وحـتى المصب (المحيط الأطلسي) وبذلك يكون ستانلي قد أنجز الكشف عن نهر الكونغو .

ومن الملاحظ أن معظم هؤلاء الرحالة والمغـامرين كـانوا مـن بريطانيا والسبب في ذلك يرجع إلي أنها كانت أسبق الدول الأوروبية في مجال التصنيع بل وفي مجال التقدم العلمي ، الذي تمثل في كثرة الجامعات الإنجليزية ، وأدي ذلك بالتالي إلي أن أصبح معظم هؤلاء الرحالة علي قدر كبير من العلم والمعرفة والثقافة ، وكان مـن أشـهر هـؤلاء الرحالـة البريطانيين : بيرتون وسبيك وجرانت ومنجو بارك وكلابيرتون وليـنج

وريتشارسون ، ولاندر ، وديفيد لفنجستون ، وصموئيل بيكر ، وجونستون ، وكاميرون .

وكان من أشهر الرحالة الفرنسيين رينيه كاييه الذي أرسلته الجمعية الجغرافية الفرنسية French Geographical Society إلي غرب أفريقيا، كي يصل إلي مدينة تمبكتو ويقوم بكشفها ، ومعرفة حقيقتها ونقل صورة كاملة عنها إلي الجمعية الجغرافية الفرنسية لأن تمبكتو كانت تمثل بالنسبة للأوربيين حلما ، فكانت بالنسبة لهم مدينة الذهب ، وزاد الاهتمام بها بعد رحلة ليو الإفريقي لها ، وما كتبه عنها وكان رينيه قد نجح في الوصول إليها ، وبعد ذلك عاد إلي فرنسا وحصل على المكافأة التي كانت الجمعية الجغرافية الفرنسية قد قررتها لأول مكتشف يصل إلي مدينة تمبكتو .

وكان من أشهر الرحالة الألمان هنريش بارث الذي لعب دوراً بارزاً في كشف منطقة غرب أفريقيا ، ومن المعروف أن دور ألمانيا في مجال الكشف الأفريقي جاء متأخراً أي جاء في القرن ١٩ ، ويرجع ذلك إلي أن ألمانيا كانت مقسمة إلي عدد من الولايات المستقلة كل منها عن الأخري ، ولم تتوحد إلا في القرن ١٩ ، (وليس هذا مجال حديثنا) لهذا جاء دورها متأخراً إلي هذا الميدان الكشفي .

وأما إيطاليا فلم يكن لها دور يذكر في مجال الكشف الأفريقي ، وبخاصة في مطلع العصور الحديثة وذلك لنفس الأسباب الألمانية

وأما البرتغال فكانت أسبق الدول الأوروبية مجيئاً إلي أفريقيا ، فبعد أن تأسس في أوربا النظام المعروف باسم الدولة الوطنية الحديثة

The Modern National State في مطلع العصر الحديث ، كان علي هذه الدول أن تحقق التوسع والتفوق على غيرها من الدول الأخرى ، وكان هذا لا يتأتي إلا بتحقيق شيئين أولهما التوسع القاري ، ونجم عن ذلك ما يعرف باسم الحروب الأوروبية (الإيطالية ، وحرب الثلاثين عاما ، وحروب لويس الرابع عشر والحروب السبعينية) وثانيهما التوسع الخارجي ونجم عن ذلك ما يعرف باسم الكشوف الجغرافية .

ولما كانت البرتغال في منأي عن الصراعات الأوروبية ، سارعت إلي القيام بحركة الكشوف الجغرافية ، وبخاصة في أفريقيا ، وذلك لأسباب منها فصل الشمال الأفريقي عن بقية الشعوب الأفريقية الواقعة جنوب الصحراء ، ومنها إيجاد علاقة وطيدة بينها بين الملك الحبشي ، فكانت خطتها ترمي إلي عبور القارة والإتصال بملك الحبشة ، ولكنها عجزت عن تحقيق هذا الهدف بسبب المظاهر الطبيعية التي كان من الصعب إجتيازها ، ولو كان هنري الملاح غامر في هذا العمل فمن المحتمل أن تكون قواته قد أبيدت عن آخرها ، ومنها أيضاً رغبة البرتغال في الوصول إلي الهند والاستئثار بتجارة جنوبي شرقي آسيا وحرمان العرب والمماليك في مصر والإيطاليين في أوروبا من الهيمنة علي هذه التجارة ، وقد نجحت البرتغال في ذلك .

ومن الملاحظ أن البرتغال لم تعمق وجودها في الساحل الغربي لأفريقيا لأن ذلك لم يكن ضمن تخطيطها ، فاكتفت بإنشاء عدد من المراكز الأمامية Outposts التجارية ، والحصون العسكرية على طول الساحل الغربي لأفريقيا ، وانتهي الأمر بالبرتغال إلي أن قامت بتأسيس

أكبر إمبراطورية إستعمارية في مطلع التاريخ الحديث ، ولكن هذه الإمبراطورية لم تدم طويلاً ، لأسباب منها عدم مقدرة قوات البرتغال العسكرية على حماية هذه الإمبراطورية والحفاظ عليها ، وثانيها صعوبة المواصلات التي كانت تربط بين برشلونة وبين ممتلكات البرتغال فيما وراء البحار فضلاً عن اتساع مساحة هذه الإمبراطورية ، فإذا كانت البرتغال قد أسست إمبراطوريتها بسهولة ويسر فإن هذه الإمبراطورية قد انتهت بسهولة أيضاً أمام منافسو البرتغال . ومن الجدير بالذكر أن دول أوروبا الأخرى لم يكن لها دور كشفي في أفريقيا بسبب مشاكلها الداخلية .

وبعد ذلك ننتقل إلي الحديث عن السمات التي إتسم بها هؤلاء الرحالة فقد إتسم هؤلاء الرحالة والمغامرين بسمات مشتركة تمثلت في التنكر الذي مارسه جميع الرحالة دون استثناء ، ويعني التنكر أن هؤلاء الرحالة كانوا يرتدون زى سكان البلاد التي يمرون من خلالها حتى لا يكون هناك من الأشياء ما يكشف أمرهم . هذا فضلاً عن أنهم كانوا يتقنون إجادة لغات ولهجات السكان الوطنيين ، فكان الواحد يتقن أكثر من لغة ، فمثلاً تعلم جيمس بروس اللغة العربية والفرنسية ، بل وتعلم جميع اللهجات الأفريقية ، وتعلم رينيه كاييه اللغة العربية ، وأتقنها عن ظهر قلب عندما كان في مراكش وقبل أن يبدأ رحلته إلي تمبكتو ، ووصل به الأمر أنه كان يقوم بقراءة القرآن وتفسير معانيه إلي السكان الوطنيين بحيث أنهم كانوا يثقون فيما يقول و لم يكتشفوا أمره إلاّ بعد أن غادر تمبكتو، وتعلم جون لويس بركها ردت اللغة العربية ، ولكي يتقنها عن

ظهر قلب سافر إلي سوريا ومكث بها فترة من الوقت عاد بعدها وهو يجيد العربية إجادة مطلقة .

ومن السمات التي اتسم بها هؤلاء " الجدية " وقد ظهر ذلك بصورة جلية في تحملهم للمشاق دون كلل أو ملل ، فلولا هذا ما تمكن بروس من المسير إلي الإسكندرية والوصول إلي الحبشة رغم ما اعترضه من صعاب ومخاطر شأنه في ذلك شأن دافيد لفنجستون وستانلي وصمويل بيكر وسبيك وجرانت .

وكان من هذه السمات أيضاً سمة التضحية ، فمما لا شك فيه أن هؤلاء الرحالة كانوا يضحون بكل غال ونفيس في سبيل تحقيق هدفهم الكشفي ، ومن أجل ذلك فقد تعرضوا لمخاطر جمة منها الأمراض الفتاكة. وكان من هؤلاء الرحالة الذين ماتوا نتيجة مغامرتهم جون لويس بركهاردت ، وكلابيرتون ، ودافيد لنفجستون ولم تقتصر حياتهم على الموت فحسب بل إن البعض منهم تعرض للإغتيال ، وخير مثال علي ذلك الجنرال هوفتون ومنجو بارك الذي اغتيل في منطقة غرب أفريقيا ، والمس تنييه.وفوجيل الألماني .

ومن السمات التي اتسم بها هؤلاء المكتشفون أيضاً حبهم لبلادهم، فقد عمل هؤلاء جميعاً وبلا استثناء لمصلحة أوطانهم ، وخير دليل علي ذلك يتضح من عبارة لنفجستون التي جاء بها ما نصه " والآن أصبحت أفريقيا مكتشفة فعليكم أن تفتحوا طريقاً للتجارة ولنشر المسيحية بين القبائل الوثنية " أي أن لنفجستون قال هذه العبارة بعد أن وقف علي ما تحويه هذه القارة من ثروات معدنية وزراعية وحيوانية .

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المكتشفين لم يأتوا إلي أفريقيا حبا في هذه القارة ، ولكنهم جاءوا إليها من أجل مصالح بلادهم التي كانت في مسيس الحاجة إلي تحقيق هدفين أولهما فتح أسواق جديدة في أفريقيا لتوزيع الفائض من إنتاجهم الصناعي ، وثانيهما أُهم كانوا في حاجة إلي الحصول علي المواد الخام الموجودة بوفرة في هذه القارة . إذن يمكن القول بأن مرحلة الكشف الجغرافي الأوروبي لأفريقيا كانت بمثابة " مرحلة الإستعمار السلمي " .

وفي ختام هذا التقديم يمكن القول أنه بعد أن تم الكشف عن المناطق المجهولة من أفريقيا ، تكالبت الدول الأوروبية علي هذه القارة ، وانتهي هذا التكالب بعقد مؤتمر برلين في الفترة ما بين ١٨٨٤ ، ١٨٨٥م، وفي هذا المؤتمر قسمت أفريقيا بين كل من بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا والبرتغال وبلجيكا . ويمكن أن نسمي هذه المرحلة "بمرحلة الإستعمار الأوروبي الفعلي لأفريقيا " كما يمكن أن نسميها "مرحلة النهب الإستعماري لموارد أفريقيا " .

وتجدر الإشارة إلي أنني علقت علي كل فصل علي حدة ، وفضلت أن يكون هذا التعليق في نهاية كل فصل ، حتى يتشجع القارئ علي قراءة هذا التعليق ، فغالباً ما يترك القارئ الهوامش دون قراءتها ، إلا في حالة الضرورة القصوي .

بعد هذا العرض أرجو من الله ألاّ نكون قد أغفلنا بعض النقاط التي كانت في حاجة إلي توضيح ، وإذا كان قد حدث ذلك فإن هذا النسيان لم يكن عن عمد بل حدث سهواً ، والكمال لله وحده ، ونود أن

نشير إلي أننا إستخدمنا في هذا التعليق عــــدداً مــــن المصــــادر الأصــــلية المتخصصة ، الأجنبية منها والعربية ، هذا فضلاً عن أننا أضفنا عدداً مــــن الخرائط التوضيحية ، التي توضح خط سير الرحالة حتى تساعد القــــارئ علي فهم ما جاء في هذا الكتاب . لهذا نرجو أن يحوز هذا المؤلف رضــــا أساتذة التاريخ الحديث في مصر والعالم العربي ، ومما لا شك فإن هــــذا الكتاب يعتبر إضافة كاملة وجديدة إلي المكتبة العربية .

والله ولي التوفيق

دكتور – السيد يوسف نصر

الفصـــــل الأول

الـــــرحالة الأول

الفصل الأول

الرحالة الأوائل

كان من الغريب حقاً أن يظل معظم داخل القارة الأفريقية غير معروف إلي الأوروبيين حتى منتصف القرن التاسع عشر ، والسبب في ذلك يرجع إلي جغرافية هذه القارة ومناخها ، هذا فضلاً عن أنها فقيرة في موانيها الطبيعية ، أي أنه لم يكن لها موانئ طبيعية وفيرة باستثناء ميناء خليج غينيا الكبير . هذا إلي جانب أن القارة الأفريقية تنقسم في مجموعها إلي عدد من المناطق المختلفة ، التي تختلف كل منها عن الأخرى ، وكان من هذه المناطق منطقة البحر المتوسط الخصبة ، التي تمتد جنوباً إلي مسافات بعيدة تجاه الصحراء الكبرى ، التي يبلغ عرضها آلاف الأميال ، والتي تعتبر بحق من أعظم صحاري العالم في المساحة . وتتميز هذه الصحراء بجفافها وشدة حرارتها ، ولهذا ينتشر فيها عدد قليل من الواحات والآبار ، وإلي الجنوب من هذه الصحراء توجد منطقة كثيفة الحشائش والغابات التي لا يمكن اختراقها ، ولكن علي الرغم من ذلك فإن نهر النيل الذي ينبع من منطقة جبلية ملاصقة لخط الإستواء قد اخترقها . وفضلاً عن ذلك ، فإن القليل من أنهار أفريقيا يكون صالحاً للملاحة (في معظم أجزائه) وعلي سبيل المثال نهر النيل ، وأما بقية أنهار القارة الأفريقية فهي إما مسدودة بالجنادل والشلالات والمستنقعات ، أو أن مصباتها مسدودة بالحواجز الرملية .

وعلي هذا فقد كان من الصعب جداً الوصول إلي داخل القارة الأفريقية بواسطة استخدام هذه الأنهار حتى بعد أن تمكن الإنسان من إختراع وسائل المواصلات الحديثة ، وكان من الصعب أيضاً الوصول إلي قلب القارة الأفريقية بالطرق البرية ، لأنها كانت غير ممهدة ، ولأنها كانت محفوفة بالمخاطر ، ولكن علي الرغم من كل هذا فقد قرر الرحالة إختراق بعض مناطق من القارة سيراً علي الأقدام ، وبخاصة بعد أن نفقت دوابهم وماشيتهم بسبب لدغات ذبابة تسي — تسي Tse – Tse Fly ، وكذلك بسبب الحشرات الحاملة للأمراض ، حتى أنه أصبح من المتعذر حصر الأشخاص الذين ماتوا بسبب حرارة الصحراء الشديدة ، فكان قد مات الكثير منهم بسبب الملاريا ، ومات البعض الآخر بسبب الحمي أو بسبب وقوعهم فريسة للقبائل المحلية . وإزاء كل هذه الصعوبات لم يكن من المدهش أن تظل أفريقيا مغلقة أمام العالم الخارجي .

ولكن علي الرغم من ذلك ، فإن وادي النيل كان معروفاً للمصريين القدماء ، فقد مكنهم فيضان النيل السنوي من ري حقولهم ، ومن المحتمل أن تكون معرفتهم لوادي النيل قد شملت الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط ، بل وحتى مدينة الخرطوم في السودان ، وكانت معرفتهم بسيطة بالنسبة لسواحل البحر الأحمر وشمال الحبشة ، أما معرفتهم بالنسبة لبقية القارة الأفريقية فكانت معدومة .

وعلي أية حال كان المصريون القدماء من أول المكتشفين لأفريقيا، مع أنهم لم يكونوا الشعب القديم الوحيد الذي أسس دولة متمدينة في الشمال الأفريقي ، فإلي جانبهم وجد الفينيقيون الذين كانوا تجاراً

وملاحين مهرة ، كما وجد أيضاً القرطاجيون الذين عملوا بالتجـــارة ، والذين كانوا يميلون إلي حب المغامرة ، فمكنتهم ذلـــك مـــن تأســيس المستعمرات . ومن الجدير بالذكر أن الإغريق أسسوا في تاريخ مبكــر في مصر مستعمرات لهم ، علي وجه التحديد في القرن السادس قبل الميلاد .

وكان المؤرخ الإغريقي هيرودوت Herodotus الذي زار مصر عام ٤٦٠ ق . م إعتقد بأن القارة الأفريقية كانت قد أرتيدت منذ بداية عام ٦٠٠ ق . م ، وطبقاً لما ورد في كتابات هيرودوت فإن نخاو[١] الفرعون المصري أرسل حملة كشفية تحت قيادة بحارة فينقيين مهرة ، كي يكتشفوا الطرف الجنوبي للقارة والمجاور للبحر ، وقد أوصاهم نخاو أن يبحروا من خلال البحر الأحمر ، ثم يعودوا بعد ذلك من خـــلال أعمـــدة هرقـــل Pillars of Hercules أو من خلال مضيق جبل طارق Straits of Gibraltar كي يصلوا إلي البحر الشمالي (البحر المتوسط) ثم يواصلون مسيرهم بعد ذلك إلي مصر ، وكانت البعثة قد بدأت رحلتها مارة من خلال البحــر الأحمر ، ودارت حـــول أفريقيـــا (حـــول رأس الرجـــاء الصـــالح) (The Cape of Good Hope) ثم مرت بعد ذلك بمحازاة ساحل غـــرب أفريقيا ، ومنها إلي مضيق جبل طارق ، ثم وصلت في النهاية إلي مصـــر للمرة الثانية بعد السنة الثالثة من بدء الرحلة . وفي أثناء تلك الرحلة كان أفراد البعثة يمارسون حرفة الزراعة وذلك بزراعة قطعة من الأرض ملائمة للزراعة علي الساحل ، فكانوا يبذرون الحبوب ثم ينتظرون حـــتى جـــني المحصول ، وبعد ذلك يواصلون مسيرهم .

---

[١] أنظر التعليق في نهاية الفصل .

ومن المحتمل أن يكون القرطاجيون قد أرسلوا عدداً من البعثات الكشفية ، ولكن لم تكن التفصيلات كاملة عن هذه البعثات باستثناء ما وجد من التفصيلات لأحدي هذه البعثات . وقد أتضح ذلك جليا من الترجمة اليونانية لقصة هانون Hannon القرطاجي ، ففي عام ٤٧٠ ق . م. قرر مجلس الشيوخ القرطاجي أن يرسل الأدميرال هانون علي رأس بعثة كشفية إلي منطقة غرب أفريقيا ، كي يؤسس مستعمرات علي ساحلها الغربي ، وكانت هذه البعثة تضم أسطولاً كبيراً . وقد تمكن هذا الأسطول على أقل تقدير من تأسيس مستوطنة واحدة ، كما تمكن من الوصول إلي رأس الفيرد ، بل ودار حولها ، كما تشير كل الإحتمالات أيضاً إلي أنه وصل إلي سيراليون ، وهناك وقع صدام بين رجال الأسطول القرطاجي وبين رجال قبائل الهمج القاطنين عند مصب نهر السنغال ، وكان هانون قد رأي أن الشعر يكسو أجسام السيدات الأفريقيات ، في هذه المنطقة ، حيث قام الهمج الموجودين عند مصب نهر السنغال بقذف القرطاجيين الغزاة بالحجارة ، ولكن علي الرغم من ذلك ، فقد تمكن رجال الأسطول القرطاجي من إلقاء القبض علي ثلاث سيدات منهن لم يستطعن عمل أي شئ ، بل كان كل ما فعلنه هو أنهن قمن بعضهن وخربشتهن ، هذا فضلاً عن أنهن لم يتبعن رجال البعثة في رحلة العودة . لذلك أضطر رجال الأسطول إلي قتلهن وسلخ جلودهن وإحضارها معهم إلي قرطاجة ، ولم يعرف أحد علي وجه التحديد أن هذه المخلوقات الهمجية كانت تنتمي إلي سلالة الغوريلا (القردة) أم كانت تنتمي إلي بعض القبائل البشرية

البدائية . وقد انقسمت الآراء أيضاً حول " الأنهار الموقدة " فقد لاحظ رجال البعثة لهب كبير " مشتعل في كل جانب" Kindled on every side .

ويبدو من المحتمل أن يكون هذا اللهب نتيجة للأعشاب المحترقة ، التي اشتعلت للإضاءة بمعرفة الوطنيين . وبعد ذلك عادت بعثة هانون إلي قرطاجة بسبب نقص المواد الغذائية اللازمة لرجالها ، فقد فشلوا في سد العجز الناقص في التموين اللازم للبعثة ، ولكن لم يكد يحل منتصف القرن الخامس عشر ، إلا وكانت البعثة الأوروبية تمر من خلال نهر سيراليون ، بل ووصلت إلي أقصي نقطة في جنوبه .

وفي خلال القرن الثاني قبل الميلاد ، هزمت روما قرطاجة ، وأطلق الرومان كلمة (أفريقيا) علي الشمال الأفريقي ، وفيما بعد امتد هذا الإسم علي حسب المعلومات الجغرافية إلي القارة الأفريقية كلها . ومن قبل أطلق الكتاب الإغريق والرومان كلمة (ليبيا) علي كل القارة الأفريقية .

وكان الرومان قد اكتشفوا طريقاً جديداً إلي حدود الحبشة ، وذلك بإرسال بعثة كشفية للكشف عن منابع النيل . ومنذ أيام الفراعنة فإن المؤرخين والجغرافيين قد تحيروا في غموض مصدر النيل الذي ظل مجهولاً حتى تم كشف العالم الجديد ، ويعتبر نهر النيل أطول نهر عرفه الإنسان ، وقد ترددت إشاعات مفادها أن هذا النهر ينبع من بعض المنابع العميقة التي توجد في قلب أفريقيا ، ولكن لا أحد يعرف مكانها علي وجه التحديد . وفي عام ٤٦٠ ق . م تتبع هيرودوت مجري النيل ووصل إلي الشلال الأول عند أسوان ولكنه لم يستطع أن يكتشف أي شئ محدد

من منبع هذا النهر ، وقال أنه سمع إشاعات عن نهر ضخم يعج بالتماسيح يقع على مسافات بعيدة صوب الجنوب الغربي من مصر ، وكان المقصود بهذا النهر " هو نهر النيجر " وكان هيرودوت Herodotus كغيره من الجغرافيين الذين سبقوه أو الذين جاءوا من بعده ، قد تصور أن هذا النهر ربما أن يكون المجري العلوي لنهر النيل ، واعتقد أيضاً أنه من المحتمل أن ينبع النيل من مكان ما في جنوب جبال أطلس ، ثم يسير مجراه نحو الشرق مسافة طويلة قبل أن يتجه نحو الشمال لتتدفق مياهه من خلال مصر إلي البحر الأبيض المتوسط ، أما بالنسبة لفيضانات النيل ، فاعتقد هيرودوت أنه من المحتمل أن يكون السبب في هذه الفيضانات يرجع إلي نقص في التبخر خلال شهور الشتاء ، التي تسمح بوجود مياه غزيرة تتدفق في النهر، وتتجه نحو مصبه ، وقد أستمر الجدل حول السبب في فيضانات النهر إلي أن تم الكشف عنه في نهاية القرن التاسع عشر . ولم تأت هذه الفيضانات عن طريق المجري الرئيسي للنهر ، بل يرجع السبب في وجودها إلي النيل الأزرق ، نتيجة للأمطار التي تسقط علي هضبة الحبشة .

وقد قاد نيرون البعثة الرومانية إلي بلاد النوبة (السودان) فكانت الأوامر قد صدرت إليه بأن يتتبع مجري النيل إلي منبعه وطبقاً لما ذكره سينكا Seneca الذي كان مرشدا Tutor لنيرون ، أنه قال " بعد أن قطعت البعثة رحلة طويلة رجعت بسبب وجود منطقة من المستنقعات الطميية الكثيفة النباتات المتشابكة ، وكان من المستحيل على البعثة اختراقها . وقد رأي رجال البعثة صخرتين كان النهر ينحدر بقوة هائلة من فوقهما ، وقد وجد بعض الشكوك في تحديد مكان الصخرتين بالضبط ، ولكن لم

يكن هناك شك في أن البعثة قد وصلت إلي مستنقعات منطقة السدود النباتية . وعلي الرغم من فشل البعثة في تحقيق هدفها الرئيسي ، إلا أنها كانت قد وصلت إلي النقطة التي لم يتمكن الأوروبيون من الوصول إليها مرة ثانية حتى بعد مضي ١٨٠٠ عام .

ولقد انتشرت قصة منطقة النيل في القرن الأول الميلادي ، فقد لاقت رحلات التاجر الإغريقي ديوجينس Diogenes إهتماماً كبيراً ، وكان هذا التاجر قد أدعي أنه قام برحلة إلي الداخل إبتدأها من الساحل الشرقي لأفريقيا ، وكان قد رأي أن الثلوج تغطي قمم الجبال المجاورة للبحيرتين الكبيرتين . هذا فضلاً عن أن الجغرافي مارينوس Marinus الذي أخبرنا بهذه القصة التي تقول ... أن مياه البحيرات تكونت من ثلوج الجبال ، وكونت بدورها مصادر النيل .

وكان كل من مارينوس Marinus of Tyre والجغرافي الفلكي بطليموس Great Astronomer علي حق عندما فكرا في مصادر بحيرات النيل . ولكن كان من الخطأ التفكير في أن مياه البحيرات كانت تتكون من مياه ثلوج الجبال . وتوضح لنا خريطة بطليموس الشهيرة ، التي رسمها للعالم المعروف آنذاك (عام ١٥٠ م) أن النيل ينبع من بحيرتين مستديرتين في قلب أفريقيا ، وتحصلان علي مياههما من جبال القمر .

وتوضح لنا خريطة بطليموس هذا أيضاً نهراً كبيراً آخر هو نهر النيجر الواقع إلي الغرب من نهر النيل ، الذي يصب في الغرب مباشرة ، ومع ذلك فإن معرفة بطليموس عن أفريقيا كانت غير كاملة ، ولكن رغم

ذلك فإن العمل الذي قام به لا يقدر بثمن بالنسبة للجغرافيين ، بل وظل خاضعاً للمجادلة لعدة قرون .

وفي أثناء الفترة القديمة كان شمال أفريقيا جزءاً من عـــالم البحـــر المتوسط ، بل وكان خاضعاً بأكمله إلي النفوذ الروماني ، ومع ذلك فلم يمتد نفوذ روما إلي المناطق الصحراوية حيث شـــيد البـــدو ، وســـكان الواحات منازلهم ، وكيفوا أنفسهم على المعيشة في هذه البيئة القاســـية . لهذا لم يوجد سبب يحتم على الرومان البحث والإختراق صوب الجنوب، كما لم تكن في الحقيقة حدود مقاطعتهم محمية من الجنوب بحدود طبيعية. لهذا اندفعوا ليشيدوا مراكز ومستوطنات يدافعون منـــها ضـــد تهديـــد ومهاجمة القبائل الصحراوية التي يعمل أفرادها قطاع طرق . وبعد هـــذا الإهتمام فقد أسدل الستار الذي لم يرفع إلا في العصور الوســـطي . وفي نفس الوقت حدثت تغييرات كبيرة في شمال أفريقيا حيث تمكـــن الـــنبي **محمد صلي الله عليه وسلم** من نشر العقيدة الإسلامية في شمال أفريقيا ، فقد تمكن أتباعه من العرب في خلال القرن السابع الميلادي من غزو مصر وفتحها ، بل ومدوا نفوذهم إلي مسافات بعيدة صوب الشمال الأفريقي، في اتجاه الغرب وهم بذلك يرفعون لواء دينهم ، فلم تعرقـــل الصـــحراء تحركهم بل تمكنوا من عبورها ونشروا عقيدتهم في قلب أفريقيا ، كمـــا احتلوا الساحل الشرقي الواقع علي مسافة بعيدة صوب الجنـــوب عنـــد زنجبار وهناك أقاموا صرح إمبراطورية عربية .

وقد قام العرب بنشر الدين والتجـــارة في الأمـــاكن الجديـــدة واستخدموا في ذلك العديد من طرق القوافل التجارية التي تعبر الصحراء

الكبري وتلتقي في تمبكتو التي كان يوجد بها مركز تجاري يقع بالقرب من نهر النيجر في السودان الغربي ، وكانت البضائع الثمينة تـرد إلي تمبكتـو لتباع في سوقها وقد تضمنت هذه البضائع الرقيق والذهب .

وكان العرب مشـهورين بعبقريتـهم وباهتمـامهم بالجغرافيـا وبالرحلات ففي خلال القرنين الثاني عشر م والثالث عشر م ، تمكـن العرب من الوصول إلي منطقة البحيرة الموجودة في أواسـط أفريقيـا . وهناك قصة تقول أن العرب أرسلوا بعثة لتبحث عن منبع النيل ، وبالفعل تمكن أفراد هذه البعثة من مشاهدة جبال القمر ، والبحيرة التي يخرج منها النهر . ورغم ذلك فإن الخرائط العربية التي وضعت لهذا الغرض ، وضعت على أساس خريطة بطليموس وأعماله التي ترجمت إلي العربية ، ولو تأكد قيام هذه البعثة فإنها بكل بساطة تكون تكراراً لبعثة مارينوس وديوجنيس التاجران الإغريقيان ومع هذا فإنه من المؤكد أن في ممارسـة المسـلمين لشعائر الحج للأماكن المقدسة تشجيعاً على السفر والتعرف على شعوب أخري . وفي القرن الرابع عشر م ، قام ملك مالي برحلة حج من السودان الغربي جذبت الأنظار إليها ، حيث حدد خط سير هذه الرحلـة علـي الخرائط التي وضعها كتالان Catalan .

وكان من أشهر الرحالة العرب إبن بطوطة الذي ولد في طنجة ، والذي قام في عام ١٣٢٤ م بسلسلة من الرحلات ، وكان عمره آنذاك ٢٢ عاما ، وكان الهدف من قيامه بهذه الرحلات هو زيارة جميع الأقطار الإسلامية في العالم ، فقد زار مصر وفلسطين ومكة ، بـل ووصـل إلي أماكن بعيدة أخري من العالم ، مثل روسيا والصين والهند ، كمـا قـام

برحلة علي طول الساحل الشرقي لأفريقيا ، ونزل في أماكن مختلفة ، ووصل في تجواله إلي كلوا التي تتبع في الوقت الحاضر تنزانيا . ولم يكتف إبن بطوطة بهذا القدر من السفر ، بل نجده يقوم برحلة أخري عام ١٣٥١ م من بلدة فاس Fez في مراكش ، فعبر الصحراء إلي بلدة تمبكتو ، وقد وقع ابن بطوطة في نفس الخطأ الذي وقع فيه غيره من الرحالة ، حيث توصل إلي نتيجة مفادها أن نهر النيجر يتصل بنهر النيل .

ولم يخرج إبن بطوطة بانطباع كبير عن تمبكتو ، بل أنه بعد قرنين من الزمان جاء بعده رحالة عربي مسلم يدعي ليو الأفريقي ، الذي تجول على نطاق واسع في غرب أفريقيا ، ووصف تمبكتو بأنها مركز تجاري على جانب كبير من الأهمية ، كما وصفها أيضاً بأنها غنية بثرواتها الكبيرة. وفي هذا الصدد كتب ليو الأفريقي كتابا عن ملك تمبكتو،وكان عنوان هذا الكتاب"تاريخ ووصف أفريقيا" The History and description of Africa فقد وصف ليو الأفريقي في كتابه هذا ملك تمبكتو بأنه يملك الكثير من الألواح والعصي الذهبية كما كان لديه أطباق وصولجانات من الذهب يزن البعض منها حوالي ١٣٠٠ رطل ، كما أنه وصف بلاط الملك بأنه مجهز تجهيزاً عظيماً ، وكان لهذا الملك حرساً خاصاً مكوناً من ٣٠٠٠ فارس ، بالإضافة إلي عدد كبير من جنود المشاه، الذين كانوا يتسلحون بالسهام والذين كانوا يقومون على خدمة الملك، ففي أغلب الأحيان كانت هذه القوات تقوم بمحاربة الشعوب التي ترفض أن تدفع الإتاوة للملك ، ففي هذه الحالة كانت قواته تبيع أسري هذه الهجمات في سوق تمبكتو . ومن الجدير بالذكر أن الأطباء ورجال الدين والقضاة والعلماء ،

كانوا يعيشون في بلاط الملك وعلى نفقته الخاصة . فضلاً عن ذلك فـإن ليو الأفريقي رأي سلعاً أوروبية كانت تباع في محلات تمبكتـو . فقـد جلبت إليها المخطوطات والكتب التي كانت تباع جميعها بأسعار أعلـي من أسعار السلع التجارية الأخرى ، وكان ملك تمبكتو يعيش في قصـر ملكي ، كما كان يوجد له مسجد فخم ، وفي الوقت نفسه كان أهـل البلدة يعيشون في منازل مسقوفة بالقش ، مما جعل بلـدهم تتعـرض في أحوال كثيرة لخطر الحرائق .

ولقد أثار تقرير ليو الأفريقي الكثير مـن الإشـاعات المختلفـة Rumours والمبالغات Exaggerations عن أهمية تمبكتو ، ممـا أدي إلي أن الرحالة الأجانب وبخاصة الذين كانوا لا يعرفون شيئاً عن داخل أفريقيا ، أن يخاطروا بحياهم لكي يعثروا على مدينة تمبكتو الغنية التي قيل أن منازلها لم تكن مسقوفة بالقش ، ولكنها كانت مسقوفة بالذهب ، ومع هـذا ، فإنه وقبل أن يحدث ذلك فإن عصراً جديداً في مجال الكشوف الجغرافيـة كان قد بدأ .

تعليق على الفصل الأول

من الواضح أن المؤلفة لم تقم بتوضيح دور مصر كاملاً في مجال الكشوف الأفريقية في العصر الفرعوني ، ربما لعدم إلمامها بهذا الدور ، أو ربما أن تكون غير مقتنعة به ، ومن المحتمل أنها لم تكن على دراية أو على علم بهذا الدور الكشفي في التاريخ القديم ، وهذا ما نرجحه ونؤيده . وهناك احتمال آخر هو أنها لم تركز على الفترة القديمة باعتبار أنها سوف تركز بشكل واضح على فترة العصور الحديثة ، فاعتبرت الفترة القديمة مجرد مقدمة . مع أن دراسة هذه الفترة تمثل الأساس الذي قامت عليه هذه الدراسة . لهذا كان من الضروري أن أقوم بإلقاء الضوء كاملاً علي دور مصر في هذه الفترة .

ومن المعروف لدينا ولعلماء التاريخ في دول العالم المتحضر أن مصر لم تكن في منأي عن بلاد النوبة ، أو بالأحري لم تكن بعيدة عن الأقاليم الأفريقية الواقعة في جنوب مصر أو فيما وراء حدودها الجنوبية ، فقد كانت هناك علاقات بين مصر وبين شعوب هذه المناطق منذ فجر التاريخ سواء أكان ذلك في المجال الثقافي أم العسكري أم الكشفي أم التجاري .

ويؤيد دور مصر هذه نصوص الدولة القديمة ، هذه النصوص التي تشير إلي أن مصر في هذه الفترة كانت ترسل بقواتها تجاه الجنوب لعدة أهداف منها تأديب القبائل الزنجية التي كانت تحاول الإغارة على حدود مصر الجنوبية ، وفي تلك الأثناء كانت هذه القوات تقوم بارتياد المناطق التي وصلت إليها ، والتي تقع في أغلب الظن في الجنوب الغربي من مصر ،

وقد شجع القوات المصرية على قيامها بهذه المهمة أنه لم تكن هناك حدود سياسية ، فكان في إمكان هذه القوات المصرية أن تتحول إلي أقصي نقطة يمكن أن تصل إليها صوب الغرب ، فربما وصلت هذه القوات إلي الشاطئ الشرقي للمحيط الأطلسي . وقد أشار فيج إلي ذلك في كتابه تاريخ غرب أفريقيا A History of West Africa حيث قال أنه يوجد تشابه في عـــادات وتقاليد ملوك غرب أفريقيا بالتقاليد المصرية القديمة .

ولكن على الرغم من ذلك فإن وولتر أمري ذكر أنه لا يوجـــد دليل على وجود أية مستعمرة مصرية لها نظامها الخاص في بلاد النوبـــة باستثناء وجود بعض المعسكرات الصغيرة والقلاع ، وذلك لحماية الطرق التجارية بل وحماية حدود مصر الجنوبية [١] .

ولكن يمكن القول أن بلاد النوبة وما جاورها كانت محط أنظـــار المصريين القدماء ، بل وكانت تحظي برعايتهم إذ أن الملك بيـــبى الأول كان قد كلف حاكم الجنوب المدعو " وني " أن يقوم علي رأس جيشـــه إلي الجنوب ، لكي يرتاد هذه المناطق [٢] ، وقد نجح جيش بيـــبي الأول الذي قاده " وني " في القضاء على القبائل المتمردة التي كانت تهدد حدود مصر الجنوبية ، بل وقامت هذه القوات بحفر خمس قنـــوات في صـــخور الشلال الأول الواقعة إلي الجنوب من أسوان ، وذلك لتسهيل الاتصال بين البلاد الواقعة بين مصر وبلاد النوبة [٣] .

---

(١) وولتر أمري ، ترجمة تحفة حندوسة : مصر وبلاد النوبة ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ١٣٣ .

(٢) د. محمد إبراهيم بكر : المدخل إلي تاريخ السودان القديم ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٢٥ .

(٣) د . أحمد فخري : مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٨ .

ولم تقف جهود مصر عند هذا الحد بل نجد أنه في عهد الأسرة الحادية عشر قام من مصر أحد الرواد الذي يدعي هينو Henou على رأس حملة إلي بلاد بونت ، وتكونت هذه الحملة من ٣٠٠٠ رجل ، وكانت هذه الحملة قد بدأت مهمتها من قفط حيث عبرت الصحراء الشرقية ، وفي تلك الأثناء كان هينو يأمر رجاله بحفر الآبار على جانب الطريق حتى يستخدمها رجاله في الشرب ، وواصلت هذه البعثة مسيرها حتى وصلت إلي ساحل البحر الأحمر ، ومن هناك سارت عبر هذا البحر، ومن بعده وصلت إلي بلاد بونت ، وهناك قام هينو بشراء البخور وكل منتجات هذه البلاد . وبعد ذلك عاد هينو من نفس الطريق البحري الذي سلكه في بداية الرحلة ، فوصل إلي القصير ، ومنها اخترق وادي روهانو حتى وصل إلي طيبة . ومن الجدير بالذكر ، أن هينو هذا يعتبر من الرواد العظام في عصره [١] .

ولم تتوقف الرحلات المصرية الكشفية عند هذا الحد ، بل نجد الملكة حتشبسوت أرسلت حملة إلي بلاد بونت مكونة من خمس مراكب مشحونة بالسلع المصرية المراد إستبدالها بالسلع الصومالية . وعندما وصلت إلي هناك اتجه قائدها وبصحبته ضابط وثمانية جنود إلي الأرض المقدسة ، وبدا كل شئ في هذه الأرض غريباً ، وبعد ذلك تقدم باروحو ملك بلاد بونت وزوجته وأولاده ومن خلفهم الخدم لتحية المصريين الذين سألهم الملك البونتي عن سبب مجيئهم إلي هذه البلاد التي لا يعرفها أحد .

---

[١] بيير مونتيه : ترجمة عزيز مرقس : الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسة ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

وبعد انتهاء الرحلة جلب رجالها البخور والذهب وسن الفيل والأبنوس ، في مقابل ما قدموه من سلع تجارية . وكان المصريون يسمون الأشياء التي يحصلون عليها من بلاد بونت بالجزية ، واعتبرت السلع التي تقدم من جانب مصر بالقرابين التي تقدم إلي إله بلاد بونت (حتحور) . وبعد أن أنهت البعثة مهمتها عادت إلي طيبة ، ودخل رجالها في موكب كبير ، وفي أيديهم أغصان خضراء ومن خلفهم عظماء بونت ليقدموا هداياهم إلي الملكة التي كانت في استقبالهم في حشد كبير من المواطنين ، وكان لهذه الرحلة أثرها العظيم في تدعيم علاقات مصر الخارجية [١] .

وقد سجلت أحداث هذه الرحلة العظيمة على جدران معبد الدير البحري ، فقد وضح من الرسوم صور المراكب والبحر الأحمر ولون مياهه وأسماكه التي من المحتمل أن تكون هذه الأنواع من الأسماك لا زالت موجودة حتى أيامنا هذه ، وهذه الرسومات خير دليل مادي على هذه الرحلة [٢] .

ومع ذلك ، فلم تتوقف رحلات مصر إلي بلاد الصومال ، ففي عهد رمسيس الثاني أرسلت مصر حملات أبعد من بلاد بونت ، فقد تحدث عنها الرواة ، والسبب في ذلك يرجع إلي حاجة المصريين إلي الأحجار الكريمة التي كانت توجد في بلاد باكتريان Bacterian والتي يربطها بسوريا ومصر طريق بحري . ففي البداية لم يذهب المصريون القدماء رأسا إلي البلاد التي تنتج الأحجار الكريمة بل اكتفوا بشرائها من

---

[١] د. السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية في القرن ١٩ ، القاهرة ١٩٧٩ ، (أنظر المقدمة) .
[٢] د. احمد فخري : المصدر السابق ، ص ص ١٣ – ١٤ ، ٢٧٥ .

بلد كانت تسمي تيفر Teffer ويقال أنها سيبار Sipar التي تقع على قناة تربط نهر دجلة بنهر الفرات .

وخير دليل على ذهاب المصريين إلي بلاد الرافدين ، أنه حدث في أحدي السنوات أن الفرعون المصري ذهب لزيارة بلاد نهارينا ، وبينما كان مشغولاً بتلقي تحيات الأمراء والأجانب تقدم إليه ملك باكتريسان وملك باختان ، وقدم له الأخير ابنته وهدايا أخري والتمس ملك باختان أن يتحالف مع الفرعون المصري الذي قبل هذا العرض . وبعد ذلك عاد الفرعون المصري إلي طيبة .

وبعد أن عاد الفرعون المصري إلي بلاده جاءه رسول من قبل ملك باختان وطلب المثول بين يدي الفرعون المصري وأخبره بمرض أخت الأميرة " زوجته " ، فعلي الفور بعث الفرعون بأشهر أطبائه لعلاج أخت زوجته ، ولكن هذا الطبيب لم ينجح في علاجها ، فجاء رسول آخر يطلب من الفرعون أن يرسل الإله إلي بلاد باختان كي يشفي الأميرة من المرض ، وكان هذا الإله هو خنسو المعبود الذي ينظم المصائر ، فأستقل مركباً كبيراً تحرسه خمسة مراكب صغيرة ووصل إلي باختان بعد سنة وخمسة أشهر . ومن الواضح أن هذه الفترة كانت طويلة ، إذ لم يعرف على وجه التحديد أن هذا الأسطول الصغير اخترق البحر الأحمر ودار حول شواطئ العرب أم تتبع شاطئ بلوخستان ثم صعد بعد ذلك في نهر السند ، ومنه إلي النقطة التي يتجمع فيها المسافرون المتجهون إلي مملكة باختان . وقد بقي إله المصائر في بلاد باختان ثلاث سنوات وتسعة أشهر. وبعد ذلك سمح له ملك باختان بالعودة إلي مصر ، بعد أن زوده بالهدايا

والتحف والجنود الأقوياء والخيول . وتعتبر لوحة اللوفر التي سجل عليها وقائع هذه الزيارة وثيقة رسمية في كل مظهرها ، بحيث لم يعد هناك مجال للشك في صحة هذه العلاقات [١] .

ورغم ذلك ، فلم تتوقف الحملات المصرية عند هذا الحد ، بل نجدها تستمر في عهد رمسيس الثالث الذي أبرم معاهدة مع ملك بابل تقضي بالسماح لأفراد قواته ، وموظفيه بعبور نهر الفرات ، وكان على أسطول رمسيس الثالث أن يمخر عباب نهر الفرات ، ثم يدور حول شاطئ شبه الجزيرة العربية ومنها يصل إلي بلاد بونت ، دون أن يتعرض إلي أي أحداث بفضل النفوذ القوي والخوف الذي يثيره مجرد سماع إسم فرعون مصر . وبعد ذلك تعود المراكب المصرية بمنتجات تونوتير Tonotir (اسم ملك الصومال) وببذور البخور مارة من خلال البحر الأحمر حتى خليج السويس ومنه إلي وادي النيل عن طريق قناة بيتوم .

هذا فضلاً ، عن أن زعماء أرض بونت كانوا يجيئون إلي مصر بواسطة المراكب المصرية ، أي أن المراكب المصرية كانت تجوب البحر الأحمر ذهاباً وإياباً ، فيمكن القول أن هذا البحر كان بحيرة مصرية ، وكان ينزل منها الصوماليون ومعهم منتجات بلادهم ، ثم يسيرون بعد ذلك على هيئة قافلة حاملين بضائعهم على ظهور الحمير وعلى أكتاف الحمالين حتى يصلوا إلي جبل قفط ، ومنها يركبون القوارب النهرية حتى يصلوا إلي طيبة ، وهم في حالة معنوية جيدة [٢] .

---

(١) بيير مونتيه : المصدر السابق ، ص ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ .
(٢) نفس المصدر : ص ٢٥٥ .

ومن الجدير بالذكر أنه في عهد الدولة القديمة كان يوجد خطاً ملاحياً يربط جبيل الواقعة على ساحل سوريا وشاطئ بلاد بونت ، كما كانت المراكب تبحر من جبيل حتى تصل إلي الشواطئ المصرية ، ثم تسير بعد ذلك في فرع تنيس (دمياط) ومن بعد هذا الميناء تسير في قناة تصل إلي وادي الطميلات الذي يعتبر أقصي الفروع الشرقية لنهر النيل ، ومع ذلك لم يكن هذا الفرع صالحاً للملاحة إلا في زمن فيضان النيل ، وبعد ذلك تصل هذه المراكب إلي خليج السويس بعد عبورها للبحيرات المرة ، ثم تواصل مسيرها إلي بلاد بونت [1] .

وخلاصة القول أن مصر في عصورها القديمة كانت دولة رائدة في مجال الكشف والارتياد فلم يقتصر ارتيادها على المناطق الواقعة فيما وراء حدودها الجنوبية أو الغربية بل وصل ارتيادها إلي سواحل البحر الأبيض الشرقية ، بل ووصلت إلي نهر الفرات ، بل وتمكنت مراكبها من المسير من شواطئها الشمالية إلي ميناء جبيل ، ثم تعبر بعد ذلك الفرات ، حيث تمر من خلال الخليج الفارسي فجنوب الجزيرة العربية ثم تصل في النهاية إلي بلاد الصومال . وبعد ذلك تمر من خلال البحر الأحمر إلي مصر ، كما كانت مصر ترسل الحملات عبر الصحراء الشرقية إلي البحر الأحمر التي تصل في النهاية إلي بلاد بونت وهكذا .

ورغم كل هذه الجهود التي قامت بها مصر في مجال الكشف الجغرافي في أفريقيا وآسيا ، إلا أنه عندما سيطر الإغريق على مصر نجدهم

---

(١) بيير مونتيه : نفس المصدر ، ص ٢٤٨ .

يواصلون ارتيادهم إلي أفريقيا وبخاصة إلي منطقة الساحل الغربي للبحر الأحمر .

ولقد أرسل البطالمة سلسلة من البعثات الكشفية لمعرفة أجزاء من أفريقيا الشرقية هذا فضلاً عن قيام هذه البعثات بالوقوف علي موارد هذه المناطق وسكانها . فقد تمكن فيلون قائد بطليموس الأول من كشف جزيرة الزمرد . وأهتم بطليموس الثاني بشواطئ شبه الجزيرة العربية وبسيناء وخليج العقبة ، بينما اهتم بطليموس الرابع بأفريقيا الشرقية ، فقد وصلت بعثاته إلي رأس نوتوس (رأس غرد فوي) هذا فضلاً عن أن البطالمة اهتموا بتجارة البحر الأحمر فأنشأوا المدن والمستودعات على الساحل الغربي لهذا البحر كما أسسوا عدداً من المدن منها هرؤنوبوليس الواقعة عند الطرف الشمالي للبحيرات المرة ، وإرسينوي على خليج هرؤنوبوليس، وميوس هورموس عند رأس أبي شعر ، وفيلوتيرا عند سفاجة ، وليوكوس ليمن عند القصير ، وبرينيكي في مواجهة أسوان ، وأسس البطالمة أيضاً عدداً من المراكز الخاصة بصيد الفيلة في بلاد النوبة والسودان كما اهتموا بإنشاء الطرق ، فقد أعاد بطليموس الثاني حفر قناة النيل ، كما اهتموا بالطريق الذي يبدأ من قفط وينتهي عند ليوكوس ليمن [١] .

ومن بعد البطالمة أرسل نيرون بعثة لكشف منابع النيل ، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها ، هذا فضلاً عن أن الرومان قد سيروا الحملات التأديبية وذلك لتأمين حدودهم الجنوبية . فإذا كان الرومان قد اتجهوا في

---

[١] د. إبراهيم نصحي : دراسات في تاريخ مصر في عصر البطالمة ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٢١ – ١٢٣ .

تجوالهم في أفريقيا صوب الجنوب ومع وادي النيل ، فنجـــد أن البطالمـــة إتجهوا مع الساحل الغربي للبحر الأحمر .

ومن المؤكد أن كل من البطالمة والرومان كانوا قـــد وصـــلوا إلي صحراء كلاهاري ، وهذا أمر غير مشكوك فيه ، ودليلنا على ذلك أنـــه اكتشف في الفترة ما بين ١٨٩٦ إلي ١٨٩٨ في قلعة جروســـفينور Fort Grosvenor (الواقعة إلي الشرق من منطقة بوندولاند Pondoland ، أي على بعد ١٦٠ كم من باسولاند التي تسمي في الوقت الحالي ليـــسوتو) وعلي عمق ١٨٠ سنتيمتر في مكان كوخ للوطنيين عند ساحل البحـــر "المحيط الأطلسي " وعاء يحتوي على ٢٨ قطعة نقود كان البعض منـــها متآكل لدرجة أنه لا يمكن التعرف عليها ، ولكن خـــبير مـــن المتحـــف البريطاني تمكن من تحديد أن الثلاث قطع الأقدم عمراً تنتمي على التوالي إلي عصر كل من بطليموس الأول والثاني والرابع ، أي في الفترة ما بـــين ٣٠٠ ، ٢٠٠ عام ق . م ، أما بقية القطع الأخرى التي أمكن التعـــرف عليها فكانت رومانية ضربت إثنين منها في الفتـــرة مـــا بـــين ٣١٣ ، ٢٩٦ق.م ، وكانت خمسة منها قد ضربت في الإسكندرية واثنين منـــها ضربتا في أنطاكية وسوريا وواحدة ضربت في سيزيكوس Cyzicus [1] .

إذن يمكن القول بأن البطالمة والرمان كانوا قد توغلوا إلي مسافات بعيدة في أفريقيا وبخاصة في المنطقة الواقعة إلي الجنوب من خط الإســـتواء . ولا يمكن الشك في هذا لأنه لم يكن هناك قوي سياسية يمكن لهـــا مقاومـــة التوسع البطلمي ومن بعده التوسع الروماني .

(1) Victor Ellenberger La fin tragique des Buchmen , Paris 1953 , p . 20 .

وأخيراً يمكن القول بأن مصر كان لديها إمكانات ضخمة مكنتها من أن تكون دولة لها سطوتها على كل من جاورها من دول . ولكـــن على الرغم من كل هذا الدور الفعال إلا أن مؤلفة هذا الكتاب لم تعتن بهذا الدور ، وهذا مما دفعني أن ألقي الضوء على الدور المصري لما له من أهمية ، ولا نعلم السبب وراء إغفال المؤلفة لهذا الدور ، ولا نعرف على وجه التحديد أكان هذا الإغفال عن عمد أم كان ذلك عن جهل ولكن يمكن القول أن هذا الإغفال كان مقصوداً ، لأنه من المعروف لنا جيداً أن الكُتاب الأوروبيين يميلون دائماً إلي بيان دور بلادهم الحضاري أكثر من غيرهم ، لذلك فهم لا يرغبون في إظهار دور مصر الحضاري في أفريقيا ، ويتضح ذلك جلياً في التاريخ الحديث ، حيث يعمدوا إغفال هذا الـــدور في كثير من كتاباتهم .

الفصــــل الثاني

التجـــــار والمبشرون

الفصـــل الثانـــي

التجـــار والمبشـــرون

بدأت السفن الأوروبية رحلاتها الكشفية إلي السواحل الأفريقية في خلال القرن الخامس عشر ، وذلك للبحث عن طرق جديدة للتجـــارة ، لأن التجارة التي كانت تتم بين أوروبا والعالم العربي كانت قد تأسست من قبل ، في منطقة شرق البحر المتوسط . وكان من أهم الـــسلع الـــتي تحتاجها أوروبا في ذلك الوقت ، التوابل والحرير والقطن طويل التيلـــة، وكانت هذه السلع ترد من الهند عبر الطريق البري إلي مـــوانئ البحـــر المتوسط الجنوبية ، ومن هناك كانت تشحن إلي الجهات المقـــصودة ، أي أنها كانت تتجه بعد ذلك إلي دول أوربا الغربية . وإلي جانب هذا الطريق وجد هناك طريق بديل آخر ، هو طريق البحر الأحمر ، الذي يبدأ مـــن باب المندب في الجنوب وحتى برزخ السويس في الشمال ، وفي السويس كان يتم تفريغ البضائع التي تنتقل بعد ذلك إلي موانئ البحـــر المتوســـط الجنوبية لتشحن مرة أخري إلي أوروبا . وتعتبر هذه العمليـــة التجاريـــة باهظة التكاليف بسبب سياسة الاحتكارات التي إتبعها حكام مـــصر في تعاملهم في تجارة الشرق ، فكان هؤلاء الحكام قد فرضوا الضرائب على السلع التجارية التي تمر من الأراضي المصرية قبل وصـــولها إلي الأســـواق الأوروبية. " ومما لا شك فيه أن الأوروبيين إستاءوا من هذا النظام المتبع في تجارة الشرق ، وفكروا بطريقة جدية في الاستيلاء على هذه التجارة ".

ويعتبر البرتغاليون ، أول الأوروبيين الذين وصلوا إلي هذا المسرح، لأنهم كانوا يعيشون في قلق بسبب رغبتهم في تنشيط حركة التجارة البحرية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخري كان البرتغاليون يرغبون في كسر الإحتكارات المصرية ، حتى يتمكنوا من نقل البضائع في سفنهم الخاصة بدلاً من نقلها في سفن تجار فينسيا (البندقية) الذين كانوا حلفاء للمصريين . وكان على (البرتغاليين) القيام بنقل وتوزيع السلع التجارية التي يحضرونها إلي أوروبا والتي تمر عبر البحر الأحمر . لهذا لم يفكر البرتغاليون بجدية في أهمية التجارة مع أفريقيا بل اكتفوا بالاستقرار في نقط على ساحل أفريقيا الغربي ، بحيث كانوا يشترون من القبائل الساحلية كميات صغيرة من السلع التجارية التي تمثلت في العاج وخام الذهب والفلفل الأسود ، واعتقد البرتغاليون بعد ذلك في أنه من المحتمل أن يكون في إمكانهم الإبحار حول أفريقيا إلي الهند كي يؤسسوا هناك وبطريقة مباشرة تجارة معها ، " أو بالأحري الإستيلاء على تجارة الهند ، وإن صح التعبير إحتكار تجارة جنوب شرقي آسيا " .

وكان اكتشاف البرتغاليين لسواحل غرب أفريقيا بمثابة الخطوة الأولي التي قاموا بها من أجل البحث عن طريق بحري جديد . ويرجع الفضل في هذا العمل إلي حث وتشجيع الأمير هنري إبن ملك البرتغال الذي كان يعرف بهنري الملاح ، ومع أن الأمير هنري لم يبحر مع البعثة ، إلا أنه كان شغوفاً بالقيام برحلات أكثر ، وفي نفس الوقت كان يمكنه أن يقوم بتوسيع إمبراطورية وتجارة البرتغال . وقد بدأ تدريجياً في تطوير بناء السفن وعلم الجغرافيا ، ولكن على الرغم من إرسال البعثات الكشفية

الأولي فإن المعلومات عـــن الشـــاطئ الغـــربي لأفريقيـــا لم تتعـــد رأس البوجادور Bogador الواقعة في منطقة ريودي أورو Rio de oro ، ولكن في عام ١٤٤٥ م ، وصلت سفن هنري إليَ رأس الفيرد Cape Verde ونهـــر السنغال . وفي عام ١٤٦٢ م ، أي بعدِ وفاة هنري الملاح بسنتين وصـــل البرتغاليون إلي خليج غينيا .

وقد استمرت البعثات الكشفية البرتغالية على طول ساحل أفريقيا الغربية ، فأكتشف ديجوكام Diego Cam عـــام ١٤٨٤ م مصـــب نهـــر الكنغو، وقد تمكن في تلك الأثناء من كشف أكثر من ١٤٠٠ ميل مـــن هذا الساحل . وفي عام ١٤٨٧ م ، قام مـــن بعـــده بـــارثلميو ديـــاز Bartholomew Diaz على رأس بعثة كشفية بدأت مهمتها من البرتغـــال وذلك لمواصلة الكشف الفعلي لساحل أفريقيا الغربية ، إبتداء من النقطة التي توقف عندها ديجوكام وهي مصب نهر الكنغو ، بحيث يواصل سيره صوب الجنوب ، كي يقوم بعملية مسح شاملة للساحل الأفريقي ، وقـــد تمكن مس الوصول إلي خليج وولفس ، الواقع في جنوب غرب أفريقيـــا، بعد ذلك واصل المسير حتى وصل إلي رأس الرجاء الصالح The Cape of Good Hope ودار من حوله ، وتتبع الساحل الأفريقي في اتجاه الشـــرق ، حتى وصل إلي نهر الفش الكبير The Great Fish River ، وبعد ذلك عاد إلي برشلونة التي وصلها عام ١٤٨٨ م مضيفاً بذلك مســـافة جديـــدة تم كشفها التي بلغ طولها ١٢٦٠ ميلا أضيفت إلي المسافة الـــتي اكتشـــفها ديجوكام .

وقد كلف هنري الملاح المغامر فاسكو دي جاما Vasco de Gama بمهمة اكتشاف طريق بحري إلي الهند ، وفي الوقت نفسه أبحر كرستوفر كولمبس من أسبانيا متجهاً إلي الهند فأندفع بحماسة صوب الغرب عبر بحر مفتوح إعتقاداً منه أنه يسير في الطريق الصحيح ، ولكنه بدلا من أن يصل إلي الهند وصل إلي جزر الهند الغربية في قارة أمريكا (الواقعة في المحيط الأطلسي) ، وفي تلك الأثناء كان فاسكو دي جاما قد أبحر بهمة ونشاط من جزر رأس الفيرد متجهاً صوب الجنوب ، وبعد بدء الرحلة بثلاثة شهور ، وصلت بعثته إلي منحني واسو . وقد شاهدت البعثة في الجنوب شواطئ خليج القديسة هيلانة المستقيم ، ومن هذه المنطقة دار فاسكو دي جاما حول هذه الرأس ، وواصل إبحاره شمالاً حتى وصل إلي ساحل ناتال وموزمبيق ، ومن الأخيرة وصل إلي مالندي في كينيا ، وهناك تمكن من الحصول على بحار عربي إستخدمه كدليل ، ومرة ثانية وبحماسة عبر بحر مفتوح . وفي ١٦ مايو عام ١٤٩٨ م ، ألقت السفينة بمراسيها عند كاليقوط Calicut أوكوزهسكود Kozhiskode الواقعة على ساحل كيرالا Kerala في الجنوب الغربي من الهند .

وبنجاح رحلة دى جاما حقق البرتغاليون هدفهم في كشف طريق جديد إلي الهند والشرق ، وبهذا العمل تمكنوا من إقامة عدد من المراكز التجارية على طول الساحل الغربي لأفريقيا . وفي السنوات التي تلت ذلك قاموا بتأسيس مراكز تجارية أخري ، ولكن رغم ذلك تناقصت قوة البرتغال ، مما دفع الدول الأوربية الأخرى أن تأمل في الإستيلاء على مكانة البرتغال التجارية في غرب أفريقيا ، وبالفعل قام بحارة من كل من

انجلترا وهولندا وفرنسا بزيارة ساحل غرب أفريقيا لتأسيس تجارة لهم مع القبائل التي كانت تسكن الساحل ، وقبل مضي وقت ليس بطويل أخذت التجارة الصغيرة في الاضمحلال وحلت محلها تجارة أكثر ربحاً ألا وهي تجارة الرقيق .

وعندما أسست الدول الغربية المستعمرات في العالم الجديد جلب إليها العبيد للعمل فيها . وكان الإمداد بالرقيق مستمر والسبب في ذلك يرجع إلي رؤساء القبائل الأفريقية ، الذين كانوا في صراع مستمر بسبب تجارة الرقيق ، فكان هؤلاء الرؤساء يرسلون مساجينهم إلي الساحل لبيعهم إلي الرحالة (المكتشفين الأوروبيين) ، وفي نفس الوقت لم يكن للتجار الأوروبيين الرغبة في تأسيس مستعمرات على ساحل غرب أفريقيا، ويرجع ذلك إلي أن المناخ في هذه المنطقة غير صحي ، فضلاً عن أن داخل القارة (الأفريقية) ، كان غير معروف بالنسبة لهم ، لذلك نجدهم يشيدوا سلسلة من المراكز التجارية الحصينة لكي يجمعوا فيها الرقيق ، قبل إرساله عبر الأطلنطي إلي العالم الجديد ، وقد زاد حجم هذه التجارة قبل ذلك بوقت طويل ، وكان قد تم الكشف عن حدود سواحل غرب أفريقيا ، فبهذا تحققت المعرفة عن داخل القارة الإفريقية .

وفي هذا المجال تمكن البريطانيون والفرنسيون من كشف المنطقة الممتدة من غينيا إلي السنغال ، بل وواصلوا كشفهم بعد ذلك حتى وصلوا إلي مجموعة الأنهار التي تعرف بأنهار الأويل Oil rivers ، والتي تصب مياهها في ساحل غينيا . وكانت هذه المنطقة معروفة للأوروبيين كسوق للرقيق ولزيت النخيل .

ولكن بعد ذلك زاد نشاط البرتغاليين في منطقة الكونغـــو ، وفي المنطقة الواقعة إلي الجنوب منها بحيث بدأوا يوطدون نفوذهم في أنجولا ، فأقاموا المراكز التجارية على طول الساحل الشرقي ، بــل وتوغلــوا إلي داخل القارة حيث أصبحت مملكة الحبشة هدفا لنــشاطهم التبــشيري ، وكان من بين أفراد الجزويت المبشرين رحالة مشهورين ، بل وبارزين ، من أمثال القس بدروبيز Pedro Paez وجيروم لوبو Jerome Lobo فكــان بدروبيز هذا شخصية بارزة وكان المسلمون في الجزيرة العربية قد أودعوه السجن لبضعة سنوات ، ولكنه في عام ١٦٠٣ تمكن مــن الوصــول إلي الحبشة ، لأنه كان تواقا إلي نشر العقيدة المسيحية ، وبعد أن وصــل إلي الداخل حققت بعثته نجاحاً هائلاً تمثل في اعتناق إمبراطور الحبشة وحاشيته للعقيدة المسيحية .

وفي عام ١٦١٣ رافق الأب بيز إمبراطور الحبــشة وجيــشه في مناورات عسكرية Military Manoeuvres ، وقد قادتهم هذه المناورات إلي مشاهدة بعض ينابيع المياه في جنوب بحيرة تانا ، تلك البحيرة التي عرفها المصريون القدماء . وقد فهم بيز على الفور أهمية هذه الينابيع ، وقال ما نصه " لقد صعدت إلي هذا المكان ، ولاحظت كل شئ بإنتباه كــبير ، فبينما كنت أنظر من حولي ... اكتشفت ينبوعين مستديرين من المحتمل أن يكون قطر إحداهما قدمين تقريباً . وقد ملأني هذا المنظــر ســروراً ، فعجزت عن التعبير ، وعندئذ قدرت حماس القدماء مــن قبلــي ، هــذا الحماس الذي ضاع سدي ، وكنت قد لاحظت هذين الينبوعين ، ولكن لم يكن لهما مخرج إلي السهل الواقع على قمة الجبل " وبعبارته :

" The fountains have no issue in the plain on the top of the Mountain ".

وكانت مياهها تتدفق إلي أسفل الجبل ، وكان الينبوع الثاني يوجد إلي الغرب من الينبوع الأول ، كما كان يقع في منطقة صخرية . هذا واصل الأب بيز اهتمامه بهذين الينبوعين ، وكتب تقريراً مفصلاً عن القطر الذي يحيط بهما .

وفي الواقع فوجئ بدرو بيز بمنبع النيل الأزرق الذي يتحد مع المجري الرئيسي عند الخرطوم ، والذي يسبب فيضان النيل ، وكان المبشر الآخر التابع لبيز يدعي الأب لوبو Father Lobo الذي فشل في محاولته إيجاد طريقاً مباشراً إلي الحبشة من مالندي الواقعة على الساحل الشرقي للقارة الأفريقية ، لهذا اضطر إلي دخول القطر (الحبشة) من ساحل البحر الأحمر ، وتجول في أماكن كثيرة من هذه البلاد . وتختلف الآراء حول إمكانية رؤية الأب لوبو لمنبع النيل الأزرق من عدمه ، فكان قد أدعي أنه زار شلالاته الكبيرة المعروفة باسم شلالات تسيسات Tisisat falls التي كانت مثار جدل لسنوات طويلة وكانت مساقط مياه الشلالات تحدث صوتاً كصوت الرعد ، لأنها كانت تنحدر من قمة مرتفعة إلي أسفل بحيث تسير في ممر ضيق ومع ذلك فإن القس لوبو أدعي أنه تمكن من الوصول إلي المنحدر الصخري (الجرف) وذكر أنه توجد هناك ستارة من المياه المتدفقة التي تنهمر على الحافة الصخرية في حوض النهر . وقال لوبو أنه شاهد من هذه النقطة ألف قوس من أقواس قزح Rainoows ، التي كانت قد تكونت بسبب أشعة الشمس الساطعة والتي تسقط على الشلال .

وقد عرف كل من بيز ولوبو والمبشرين البرتغاليين الآخرين الكثير عن مداخل الحبشة ، ولكن قبل مضي وقت طويل طرد المبشرون من القطر (الحبشة) . وفي عام ١٦٩٩ ، أي بعد مائة عام (على بعثة بيز) وصل إلي الحبشة فريق من المبشرين ، وكان بصحبة هذا الفريق طبيب فرنسي يدعي تشارلي بونسيه Jacques Charles Poncet الذي عين سفيراً لدي إمبراطور الحبشة من قبل ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وكان بونسيه هذا قد بدأ الرحلة من القاهرة ، ثم وصل إلي السودان ، ثم مر من خلال سنار الواقعة على النيل الأزرق ، وكانت سنار هذه عاصمة لإمبراطورية الفونج العظيمة ، التي كانت تضم معظم إقليم السودان الحديث ، وكانت أصول الشعب الفونجي غير معروفة ، مع أنهم كانوا قد تزاوجوا مع العرب واعتنقوا العقيدة الإسلامية .

ويقال أن الفونجيين كانوا يحصلون على ثرواتهم من مناجم الذهب الواقعة على حدود الحبشة ، وكان تجار سنار الأثرياء يمارسون التجارة مع التجار الهنود عن طريق ميناء على البحر الأحمر . وقد وصف بونسيه رحلته ، كما وصف أيضاً مدينة سنار وشعبها . وقد كتب بونسيه يقول أن النساء في سنار كن عبارة عن أشخاص غريبة الشكل للغاية ، فكن يلبسن ملابس حريرية زاهية ، وكن يتزين أيضاً بالخلاخل والحلقات الفضية . وكانت وجوههن ملطخة بالكحل . وكان ملك سنار يملك قصوراً كثيرة ، فكان يخرج في كل أسبوع في موكب لزيارة أحد هذه القصور المنتشرة في مملكته . وكان سوق سنار يعج بالبضائع التجارية وبالعبيد والجمال والفاكهة وبالعديد من السلع الأخري .

وفي عام ١٧٠١ جاء مبشر آحر من بفاريا يدعي ثيودور كرنب Theodore Krump ، وسلك نفس الطريق الذي سلكه بونسيه ، فقد مـر ثيودور من خلال مصر (فالسودان ثم سنار) وقد قام بوصف سـنار . وفي تلك الأثناء ، عبر بونسيه النهر وسافر إلي غندار عاصـمة الحبشـة الواقعة إلي الشمال من بحيرة تانا . وفي غندار استدعي إمبراطور الحبشـة بونسيه كي يقوم بمعالجته من مرض أصابه ، وبعد ذلك عاد بونسـيه إلي أوروبا عن طريق ميناء مصوع الحبشي الواقع على البحر الأحمر .

ولقد أعقب رحيل بونسيه فترة من الركود الكشفي الطويـل ، على الرغم من أن المبشرين كانوا يجدون من الوسائل ما يمكنـهم مـن الوصول إلي الحبشة ، ومع ذلك فلم يرغبوا في الاستقرار هناك حـتى أن هؤلاء الذين بقوا على قيد الحياة إنصرفوا عن هذه المهمة . وعلى هذا فقد مر سبعون عاماً قبل أن يري أوروبي آخر منبع النيل الأزرق ، لهذا فقـد ظل الغموض يخيم على المنبع الرئيسي للنيل دون حل ، رغـم إرسـال البعثات الكشفية إلي وادي النيل . وفي عام ١٧٣٧ ، سافر من القـاهرة بصفة فردية كل من الـدنمركي فردريـك نـوردن Frederick Norden والإنجليزي ريتشارد بوكوك Richard Pococke وقد نجحا في تتبع طريـق مجري النيل ، ووصلا إلي فيلة الواقعة جنوب أسـوان . وهنـاك ، قـام نوردون بعمل رسومات للنقوش الخاصة بالآثار الموجودة في منطقة فيلة . وقد تبعهما إلي وادي النيل رحالة آخرون ، ولكنـهم لم يقـدموا مـن المعلومات ما يستحق الذكر .

وفي الجزء الجنوبي من القارة كانت المستوطنات البرتغالية التي أنشئت مع بداية الإستعمار البرتغالي قد اختفت بسبب اضمحلال قوة البرتغاليين في القرن السادس عشر ، وفي خلال القرن السابع عشر بدأت السفن البريطانية والهولندية في استخدام ميناء رأس الرجاء الصالح To use the harbour the Cape of Good Hope واتخذوها كمحطة تقع في منتصف طريق الرحلة إلي الهند الشرقية . وفي عام ١٦٥٢ م احتل الهولنديون منطقة موقع كيب تون ، وأسسوا فيها مستعمرات ذات أهمية ، وفي السنوات الأولي من القرن الثامن عشر ، أرسل الهولنديون عدداً من البعثات إلي ناتال وخليج دىلاجوا Delagoa Bay الواقع على الساحل الجنوبي الشرقي ، وذلك للبحث عن مناطق جديدة صالحة للإستيطان ، وبدأوا بالتدريج في كشف المناطق الداخلية الواقعة في اتجاه نهر الأورانج .

التعليق على الفصل الثاني

يرجع السبب وراء التعليق على هذا الفصل إلي أن مؤلفة هذا الكتاب أشارت إلي بعض النقاط الهامة التي من أهمها طرق التجارة التي تربط بين الشرق والغرب والتي لم تفها حقها ، بل أنها أغفلت دراسة بعض الموضوعات التي من أهمها الكشوفات الجغرافية الأسبانية ، لذلك كان من المحتم توضيح هاتين النقطتين السابقتين .

فبعد انهيار القوي الصليبية في شرق البحر المتوسط فقد الأوروبيون الإتصال التجاري المباشر بإقليم وسط آسيا ، وعلى أثر ذلك حاولوا تدعيم الطريق البري الذي يربط بين أوروبا وفارس والهند . وكان هذا الطريق يمر من خلال أقاليم الدولة البيزنطية وبذلك تحاشي الأوروبيون المرور من خلال الأراضي العربية والمملوكية . وكان من أكثر التجار الأوروبيين إهتماماً بتجارة الشرق البنادقة والجنويين الذين فضلوا الطريق البحري إلي شرق البحر المتوسط . وعندما اشتدت هجمات القراصنة حوّل هؤلاء التجار الأوربيون طريقهم إلي الطريق البري الذي يبدأ من ساحل دلمشيا مارا بالقسطنطينية وآسيا الصغرى ، ثم يمر بعد ذلك بآسيا . وكان الأوروبيون في تلك الأثناء يعقدون معاهدات مع ملوك البلاد التي يمرون من خلالها بحيث تخول لهم هذه المعاهدات حرية المرور والتجارة ، ولكن بعد سقوط القسطنطينية عام ١٢٥٣،فقد هؤلاء التجار الأوروبيون هذا الطريق واضطروا إزاء ذلك إلي العودة إلي الطريق البحري القديم الذي ينتهي عند موانئ الشام ومصر،حيث كانت توجد مراكز تجمع السلع الشرقية الواردة من الصين والهند.وكان هؤلاء التجار الأوروبيون

يعقدون معاهدات تجارية مع حكام مصر والشام ، وقد ظلت هذه المعاهدات سارية المفعول حتى الفتح العثماني لبلاد الشام ومصر في الفترة ما بين ١٥١٦ ، ١٥١٧ م .

وكان من هذه الطرق البحرية طريق الصين — الهند — الخليج الفارسي ، ومن نهاية الخليج الفارسي تبدأ فروع هذه الطرق النهرية والبرية ، فيبدأ الطريق البحري من البصرة إلي بغداد ومنها يتفرع إلي فرعين يتجه الأول شمالاً حتى ديار بكر ، ويتجه الثاني غرباً إلي دمشق ، ومن الأخيرة يخرج منها فروع إلي موانئ ساحل البحر الأبيض المتوسط ، ومن دمشق يخرج فرع آخر في اتجاه الجنوب ماراً بجزاء الساحل إلي غزة ، ومنها يمر من خلال الصحراء إلي القاهرة ، ومن دمشق أيضاً يخرج فرع آخر يتجه شمالاً إلي حلب ومنها إلي آسيا الصغرى ليلتقي بالطرق القادمة من وسط آسيا ثم يتحد معها إلي القسطنطينية ، ثم يمر بعد ذلك إلي أوروبا . وقد توقف المسير في هذا الطريق أثناء غزو المغول لآسيا في القرن١٣ ، ولكن عاد استخدامه من جانب التجار بعد أن سيطر العثمانيون على آسيا الصغرى ، وقاموا بتأمين الطرق التجارية المارة بها ، بل وأصبح هذا الطريق يمثل الطريق الإحتياطي للتجارة الشرقية كلما تعطلت الطرق الأخرى أو أصابتها كوارث القراصنة وقطاع الطرق . ويخدم هذا الطريق في جزئه الرئيسي موانئ ومدن هرمز وسيراف وقيس والبصرة والأيلة (تقع عند مصب دجلة والفرات) .

وأما الطريق الثاني فهو الطريق البري الذي يمر من وسط آسيا فالهند فنهر الأثيل وهناك يلتقي مع طريق القوافل القادم من الصين ، ثم

يسير حتى يصل إلي بخاري ، وهناك يتفرع إلي فرعين يتجه إحداهما إلي بحر قزوين فنهر الفلجا فبلاد البلغار ، ويتجه الثاني إلي البحر الأسود ، ومن منطقة البحر الأسود يخرج منه فروع جانبية إلي حلب وساحل البحر المتوسط ، وبغداد وديار بكر ، ويتفرع منه أيضاً طريق ثالث غير مطروق يمر من أرمينيا فآسيا الصغرى فالقسطنطينية .

وفي خلال القرن الخامس عشر توقفت حركة التجارة في هذا الطريق أكثر من مرة في مدنه وموانيه بسبب اشتداد الصراع بين العثمانيين والتركمان والأوروبيين ثم بسبب الصراع بين الصفويين والمماليك كما تأثرت فروعه الأخرى بهذه العمليات الحربية التي اشتدت بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ م .

وأما الطريق الثالث فهو يبدأ من الصين وحتى الهند ، ومن الهند يخرج منه فرعان يتجه إحداهما إلي الخليج الفارسي ويتجه الثاني إلي البحري الأحمر ، ويخدم التجارة على هذا الطريق عدد من الموانئ في الصين والهند ، كان من أبرزها خانقو (كانتون) وزيتون وكينساي في الصين ، وجوجيرات وكمباي وديوفقليقوط وجوا وكولون ،وشول وكانانور وسورات في الهند ، هذا فضلاً عن وجود عدد قليل من المحطات التي تقع على ساحل كروماندل الشرقي وفي جزيرة سيلان . وقد سيطر على نهايتي هذا الطريق دولتان عظيمتان ، هما الصين التي تقع في النهاية الشمالية لهذا الطريق ودولة المماليك في مصر والشام التي تقع في نهايته الغربية .

وأما الطريق البحري الرابع ، فيبدأ من الشرق الأقصى وحتى البحر الأحمر ، وعند النهاية الشمالية للبحر الأحمر يتفرع هذا الطريق إلي فرعين يتجه إحداهما عبر سيناء إلي دمشق ومنها يصل إلي موانئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية ، ويتجه الطريق الآخر عبر الصحراء إلي النيل فالقاهرة أو إلي الإسكندرية ومنها إلي أوروبا . ومع ذلك فإن هذا الطريق تعترضه صعوبتان ، أولهما المساحة البحرية الشاسعة التي تبدأ من الصين وحتى الهند بما في ذلك البحر الأحمر ، وما فيها من تيارات بحرية وهوائية متعارضة معظم السنة ، وثانيهما كثرة الشعاب المرجانية التي تعترض الملاحة في البحر الأحمر ، وقد ذللت الصعوبة الأولي بعد وصول السفن العربية إلي المحيط الهندي في وقت تقدمت فيه المعلومات الجغرافية ، فقد لاءم البحارة أوقاتهم في مواعيد هبوب الرياح الموسمية . وقد تم التغلب علي الصعوبة الثانية بالإبحار إلي مسافات بعيدة عن أماكن تلك الشعاب المرجانية . ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، أصبح طريق البحر الأحمر أكثر الطرق التجارية أهمية بين الشرق والغرب وسبب ذلك يرجع إلي الغزوات التي انتابت آسيا ، فهو بعيد عن ميادين الحرب التي نشبت بين المماليك والمغول ، كما كان بعيداً عن ميادين القتال بين العثمانيين والأوروبيين والتركمان وإمارات آسيا الصغرى ، والصفويين ، والمماليك في مطلع القرن السادس عشر . فكانت هذه الإضطرابات السياسية والعسكرية سبباً في قطع الصلات التجارية وسد الطرق البرية القديمة بين الشرق والغرب . لهذا اضطر التجار إلي اللجوء إلي طريق البحر الأحمر الذي يمر من أملاك السلطنة المملوكية ، فكان أكثر الطرق أمناً ، وإن

كانت مرحلة السير فيه تكلف كثيراً من الجهد والمال والحراسة . لــذلك عمل المماليك على ضبط الطرق التجارية وحماية التجارة والتجــار مـــ عبث قطاع الطرق .

وقد أثري عمال سلاطين المماليك من التجارة على هذا الطريق ، فقد عملوا أولاً وسطاء بين تجار الشرق والغرب ، ثم تاجروا بأنفـــسهم واحتكروا هذه التجارة بعد أن إنتزعوها من التجار (الكارمية) ، بـــل وغالوا في إحتكارهم لها ، وبخاصة في السلع النـــادرة فـــأدي ذلـــك إلي مضاعفة أسعارها في أوروبا إلي أربعة أو خمسة أضعاف أسعارها في الهند . أضيف إلي ذلك أن المماليك فرضوا رسوماً جمركية باهظة على كـــل سعلة تجارية تمر من البحر الأحمر إلي مصر ودول أوروبا ، فالبضائع الـــتي كان ثمنها ٢٠,٠٠٠ جنيه كان يدفع عنها جمارك تقدر بنحـــو ٤٠٠٠ جنيه ، وفي ميناء بولاق النهري كانت البضائع التي تـــساوي ٣٠,٠٠٠ جنيه ، كان يدفع لها رسوماً قدرها ٥٠٠٠ جنيه ، هذا بخلاف الهدايا التي كانت تقدم لرجال السلطان وعمال الميناء لتسهيل حركة الشحن وحماية البضائع.

ونتيجة لهذا فقد أصبحت بلاد السلطان المملوكي مقـــصد تجـــار البندقية وجنوه وفلورنسا ، وقطالونيا ، وفرنسا ، وأصبح لهم وكـــالات وفنادق ومعاملات وحسابات جارية ومصرفية ، مع السلطان والأهالي ، وكان من أهم المدن التي خدمت التجارة على هـــذا الطريـــق القـــاهرة والإسكندرية ، وعلى البحر الأحمر القلزم والـــسويس والطـــور وجـــده وعدن، وفي الشام دمشق وبيروت وحلب .

وحتى نهاية العصور الوسطي كان التنافس شديداً بين القاهرة والإسكندرية ، في بيع وتوزيع سلع الشرق وسلع الغرب ، ولكن ظلت القاهرة نقطة تجميع السلع ، فكانت مركزاً لتوزيع تجارة الشرق إلي غرب أوروبا ومركزاً لتوزيع تجارة الغرب إلي الشرق ، ويرجع ذلك إلي موقعها المتوسط ، كما كانت أقصي نقطة يصل إليها التجار الأجانب الوافدين إلي مصر ، وكان بالقاهرة أحياء معينة مخصصة لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والعربية . وكان يوجد للتجار مخازن وقياسر ووكالات وفنادق وأماكن خاصة لدوابهم ولا سيما الوافدين من الشام وبلاد العرب والسودان ، وأحياناً من فارس [١] .

وكان من نتيجة هذا أن أصبح السلاطين المماليك في دولتي المماليك البحرية والبرجية في سعة عظيمة من المال ، وخير دليل على ذلك مبانيهم الشاهقة وآثارهم النفيسة ، فلم تكن موارد ثروتهم قاصرة فقط على الزراعة التي كانت أساس ثروة مصر ، بل أن الكثير من هذه الثروة كان يجمع من الضرائب المفروضة على التجارة الهندية ، عند مرورها من مصر إلي أوروبا وبخاصة قبل أن تهتدي أوروبا إلي كشف طريق رأس الرجاء الصالح الذي يربط أوربا بالهند [٢] .

ويمكن القول أن لكل هذه الأسباب والمبالغات في فرض الضرائب على تجارة الشرق المرسلة إلي الغرب أثره في تفكير أوروبا في ضرورة السيطرة على تجارة الشرق . وقد كان على رأس دول أوروبا دولتان هما

---

[١] د. نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطي ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ص ١١٧ - ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٢٥ ، ١٢٨ .

[٢] عمر الاسكندري ، وسليم حسن ، مراجعة أ . ج . سفدج : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلي قبل الوقت الحاضر ، القاهرة ١٩٢١ ، ص ٧٢ .

دولة البرتغال وأسبانيا ، وعلى الرغم من اتفاقهما على الفكرة إلا أنهما اختلفتا في طريقة التنفيذ ، ففي الوقت الذي وجهت فيه البرتغال جهودها نحو الجنوب ، كانت أسبانيا توجّه جهودها صوب الغرب لكي تصل إلي الهند .

وبعد ذلك يأتي الكلام عن حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية التي يرجع الفضل فيها إلي الأمير هنري الملاح الذي عاش في الفترة ما بين ١٣٩٤ ، ١٤٦٠ أي عاش ٦٧ عاماً ، فهو ثالث أبناء الملك البرتغالي جون الأول ، وقد أبلي بلاء حسنا في حروبه ضد المسلمين في مراكش وانتزع منهم سبتة Cebta عام ١٤١٥ م ، الواقعة على الشاطئ الشمالي لأفريقيا ، فعينه أبوه حاكماً عليها ، وجاش في صدره طرد المسلمين من مراكش ، ولكنه أخفق في احتلال طنجة عام ١٤٣٦ [١] عندئذ حول جهوده لاحتلال الشواطئ المراكشية الواقعة على المحيط الأطلسي وإخضاع أفريقيا الشمالية الغربية إبتداء من نهر السنغال ، وتم الإستيلاء بالفعل على غانا الغنية بالذهب ، وقام بنشر المسيحية هناك ، وقد أسس أكاديمية بحرية ومرصد في ساجرس Sagres الواقعة على الطرف الجنوبي للبرتغال ، وزوده بمجموعة ضخمة من المراجع والخرائط ، واستضاف صفوة من العلماء والجغرافيين الإيطاليين . وقد بدأت الكشوف في عهده عام ١٤١٩ [٢] .

---

(١) د. زينب عصمت راشد : المختصر في تاريخ أوروبا الحديثة ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص٤٢.
(٢) د. محمد شكري ، د ، محمد أحمد أنيس : أوروبا في العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٧ .

ويقول فيج في هذا الصدد أن الهدف من وراء جهود هنري الملاح هو الوصول إلي مملكة الحبشة المسيحية ، حتى يكون له حليفاً قوياً في الجنوب ، وذلك عن طريق عبور القارة من الغرب إلي الشرق ، ولكنه لم ينجح في ذلك ربما لوعورة الطريق وعدم مقدرة الجنود البرتغاليين عسى إتمام هذا الهدف . ونتيجة لذلك اضطر إلي إرسال حملات كشفية على طول الساحل الغربي لأفريقيا ، وقد تمكنت هذه الحملات من الدوران من حول جنوب أفريقيا والسير بحزاء الساحل الشرقي ، ثم عبرت بعد ذلك المحيط الهندي إلي شبه الجزيرة الهندية مركز تجارة الشرق ، " ولا مجال هنا للإستطراد وسوف أكتفي بما جاء في هذا الكتاب في هذا الصدد " .

وبعد ذلك ننتقل إلي الدور الأسباني لما له من أهمية ، لأنه لا يمكن إغفال هذا الدور لأن هدف أسبانيا كان الوصول أيضاً إلي الهند والسيطرة على تجارة الشرق شأنها في ذلك شأن البرتغال ، ولم يكن هدفها في حقيقة الأمر الوصول إلي العالم الجديد ، فكشف العالم الجديد تم بالمصادفة.

ودليلنا على ذلك أنه في ٣ أغسطس عام ١٤٩٢ خرج كريستوفر كولمبس على رأس حملة كشفية من ميناء بالوس Palos في أسبانيا وكانت هذه الحملة الصغيرة مكونة من ثلاث سفن . وفي ٣ سبتمبر وصلت هذه الحملة إلي جزر الكناريا ، ومنها استأنف كولمبس الرحلة في عرض المحيط الأطلسي ، واستمرت مدة الرحلة ٣٣ يوما وبعدها وصلت السفن إلي جزيرة أطلق عليها كولمبس اسم سان سلفادور San – Salvador وهي من ضمن مجموعة جزر لوكس Lucayes الواقعة عند مدخل مضيق فلوريدا .

ومنها اتجه جنوباً فوصل إلي الجزيرة التي أطلق عليها اســم كوبــا Cuba وأشار سكان هذه الجزيرة إلي جزيرة تقع إلي الشرق من كوبا ويعتقد أنه يوجد بها الذهب ، وقد وصل كولمبس في ٦من شهر ديسمبر من نفــس العام إلي جزيرة هايتي Haiti وأسماها كــولمبس هــسبنيولا Hispaniola ، وكان سكانها يملكون مقادير كبيرة من الذهب .

وفي عام ١٤٩٣ م عاد كولمبس إلي أسبانيا فوصلها في ١٥ مارس من نفس العام بعد أن كان قد زار ملك البرتغال ، وقد استغرقت هــذه الرحلة سبعة أشهر وأحد عشر يوما ، وبعد وصوله إلي بالوس غادرهــا متوجهاً إلي برشلونة حيث كان في استقباله الملك والملكة اللذين رفعاه إلي مصاف النبلاء .

وفي ٢٥ سبتمبر عام ١٤٩٣ قام برحلة إلي جزر الهنــد الغربيــة أكتشف خلالها جزيرة دومنيكــا Dominica ومــاري جالانــت Mari Galante وجواديلوب Guadeloupe وبورتوريكو Porto - Rico وجاميكــا Gamaica . وفي ٣٠ مايو سنة ١٤٩٨ قام برحلة أخري أكتشف خلالها جزيرة ترينداد وكان ذلك في أول أغسطس من نفس العام ، الواقعة عند مصب نهر الأورينكو ثم سار بمحاذاة الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية .

وفي عام ١٥٠٢ قام على رأس بعثة أخري سار خلالها بمحــاذاة سواحل أمريكا الوسطي مبتدئاً رحلته من ساحل هندوراس الواقعة عنــد رأس جراسياس ديوس Gracias Dios ووصل إلي بورتوبللــو Porto Bello أي وصل إلي مضيق بنما . وعقب عودته بفترة قصيرة مات في أســبانيا

عام ١٥٠٦ ودفن في أشبيلية فقد مات كولمبس وهو يعتقد أنه وصل إلي آسيا وأن الجزر التي اكتشفها هي جزر الهند الشرقية .

ومن بعده قام البحار الشهير ماجلان على رأس حملة كشفية في شهر أغسطس عام ١٥١٩ ، أي في عهد ملك أسبانيا شارل الأول الذي تولي العرش عام ١٥١٦ م والذي توج إمبراطورا باسم شارل الخامس عام ١٥١٩ م . وقد أبحرت حملته من ميناء سان لوكار San Lucar وسارت عبر المحيط الأطلسي ، ووصلت إلي ريودي جانيرو في البرازيل واكتشف ماجلان ممر مائياً طبيعياً يفصل بين أمريكا الجنوبية وجبال ثلجية تقع إلي الجنوب منها وقد أطلق ماجلان على هذا الممر ممر ماجلان . وفي ٢٠ من شهر نوفمبر دخلت الحملة المحيط الهادي وسماه ماجلان بهذا الإسم لأن مياهه كانت هادئة عن المحيط الأطلسي واتجهت الحملة بعد ذلك شمالاً فمرت بجزر مريانا ومنها وصلت إلي جزر الهند الشرقية وسماها ماجلان الفلبين تكريماً لولي عهد أسبانيا فيليب بن شارل الخامس الذي سيتولى عرش أسبانيا باسم فيليب الثاني ، ولقي ماجلان حتفه على أيدي سكان أحدى الجزر الفلبينية عام ١٥٢١ م ، وتولي قيادة الحملة من بعده أحد رجاله ويدعي جون سباستيان ديلكانو John Cebastian Delcano . وفي عام ١٥٢١ م وصلت الحملة إلي جزيرة تيدور Tidor .

وفي عام ١٥٢٢ م غادرت الحملة جزيرة التوابل ، في طريق عودتها إلي أسبانيا فعبرت المحيط الهندي . وفي ٦ مايو ١٥٢٢ دارت حول رأس الرجاء الصالح ثم دخلت مياه المحيط الأطلسي بعد أن قضت ثلاث سنوات ، وكان عدد رجالها منذ بدء الرحلة أكثر من مائتي رجل ، ولكن

بعد أن غادرت البعثة الفلبين أصبح عدد أفرادها ثمانية عشرة رجلا ، كما فقدت كل السفن ولم يبق إلا واحدة فقط ، وعندما وصلت إلي جزر ملوكس Moluccas المعروفة بجزر التوابل والواقعة إلي الشمال الغربي من استراليا حصلت هذه السفينة على شحنة من التوابل كي تغطي بها تكاليف الرحلة التي بدأت من أسبانيا وحتى الفلبين .

وكان من أهم النتائج التي حققتها الحملات البرتغالية والأسبانية على حد سواء ، إن هذه الحملات وبخاصة البرتغالية منها قد تمكنت من فرض هيمنتها على تجارة الشرق التي كانت من أهم أهدافها ، كما أن هذه الحملات الكشفية وجهت أنظار باقي دول أوروبا إلي القارة الأفريقية خاصة ، لما تتميز به هذه القارة من خيرات بشرية واقتصادية ، كما وجهت أنظارهم أيضاً إلي القارة الآسيوية بصفة عامة ، ففي الوقت الذي كانت فيه البرتغال تواصل رحلاتها حول أفريقيا كانت أسبانيا قد اكتشفت العالم الجديد وفتحت بذلك مجالاً جديداً للإرتياد والإستغلال والإستثمار ، وذلك لما تتميز به أمريكا من خصوبة التربة ووفرة الموارد الإقتصادية ، وقلة الأيدي العاملة . عندئذ لجأ الأوروبيون إلي استغلال أبناء أفريقيا في زراعة الأرض فنشأت نتيجة لذلك تجارة جديدة بالنسبة لأوروبا وتجارها هي تجارة الرقيق التي حققت نتائج إقتصادية إيجابية وحققت نتائج سلبية بالنسبة لقارة أفريقيا . إذن يمكن القول بأن الكشوف الجغرافية البرتغالية والأسبانية قد حققتا شيئين متكاملين أولهما يتمثل في اكتشاف البرتغاليين لسواحل أفريقيا الغربية ، التي ساهم أبناؤها

في تقدم العالم الجديد إقتصادياً ، ويتمثل ثانيهما في اكتشاف أسبانيا للعالم الجديد الذي ساهم في فتح مجالات جديدة أمام دول أوروبا .

وفضلاً عن هذا كله كانت هذه الحملات بمثابة البداية الحقيقية لعصر المستعمرات وعصر الإمبراطوريات والسيطرة والاستغلال ، الذي استمر زهاء خمسة قرون تقريباً . ولم تقتصر النتائج على هذا الحد ، بل كان منها الرواج الإقتصادي الذي ساد دول أوروبا الغربية التي تمكنت من فتح أسواق جديدة في البلاد التي سيطرت عليها ، وذلك لتوزيع الفائض من منتجاتها الصناعية في هذه المستعمرات ، وأدي ذلك بالتالي إلي أن عاد هذا بالنفع على أبناء الدول الإستعمارية .

ويضيف كل من الدكتورين محمد فؤاد شكري ومحمد أحمد أنيس في هذا الصدد " أن الكشوف الجغرافية البرتغالية والأسبانية قد حققتا لأوروبا زيادة كبيرة في حجم تجارتها ، فضلاً عن ذلك فإن أسبانيا تمكنت من جلب كميات كبيرة من معدن الفضة إلي أوروبا ، هذا المعدن الذي تسبب نقصه في عمل الأوروبيين بجدية لكي يصلوا إلي مناطق تجارة الشرق حتى يستولوا عليها من أيدي الوسطاء العرب أو المغاربة أو الأتراك، فقد أصبحت الفضة في عهد فيليب الثاني ذات شأن كبير على مجري الحياة في أسبانيا ، بل وسيطرت على تطور الحياة السياسية والدينية والإجتماعية والإقتصادية في أوروبا ، كما كان لها آثار بعيدة على مستقبل الطبقة المتوسطة ، وسبب ذلك راجع إلي كثرة الوارد من الفضة مما جعل النقد المتداول متوفر فتسبب هذا في رفع الأسعار ، فارتفعت بالتالي تكاليف الحياة والمعيشة ، وشعرت بالضنك الطبقات الفقيرة

وصاروا ينقمون على التجار وأصحاب المهن الـــذين يؤلفـــون الطبقـــة المتوسطة " [١] .

---

[١] د . محمد فؤاد شكري ، د . محمد أحمد أنيس : المصدر السابق ، ص ص ٥٦ ـ ٥٧ .

الفصـــــل الثالث

جيمس بروس في الحبشة

الفصل الثالث

جيمس بروس James Bruce في الحبشة

في عام ١٧٦٨ م قام رجل أسكتلندي يدعي جيمس بروس برحلة كشفية إلي أفريقيا ، وقد تميز بروس بقوة البنية ، فبلغ طوله ستة أقدام ، وتميز بصوته الجش وبشعره الأحمر . وقد إدعت أسرته أنها تنحدر من سلالة الملك الأسكتلندي القديم روبرت بروس Robert Bruce. وكان جيمس بروس هذا قد ولد في عام ١٧٣٠ م في مقاطعة كنيارد Kinnaird وكان وريث لأسرة ذات منزلة رفيعة ، فقد ماتت أمه عندما كان عمره عامين وتزوج والده بعد ذلك للمرة الثانية ، وأصبح عنده أكثر من تسعة أطفال . والتحق بروس بمدرسة في جنوب لندن عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة ، وذكر أستاذه أنه كان أثناء دراسته يتميز بالذكاء والجد، وكان يميل لوظيفة قس التي كانت تستهويه ، ولكن والده رفض هذه الوظيفة ، وأصر على ضرورة أن يكمل بروس دراسة القانون التي يكرهها بشدة ، وبعد أن أمضي فترة دراسته للقانون الإسكتلندي ، بجامعة أدنبرة Edinburgh University وبعد أن مكث سنة أو سنتين بالمنزل ، عاد بعد ذلك إلي لندن ، وتولي وظيفة في شركة الهند الشرقية، ومع ذلك كان في إمكانه أن يحصل على وظيفة في الهند أو في الشرق الأقصى .

وفي لندن غير جيمس بروس وجهة نظره بعد أن وقع في حب فتاة كانت إبنة لسيدة أرملة ، وكانت هذه الأرملة تدير أعمال زوجها

كتاجرة للنبيذ . ولما تم زواجه من هذه الفتاة ، دخل مشاركاً في شركة الخمور الخاصة بهذه الأسرة . وكان بروس في خلال هذه الفترة يقدس زوجته الشابة . وبعد مرور تسعة شهور من الزواج السعيد توفيت زوجته وتركته يائساً ، وفي تلك الفترة ، قرر أن الحياة يمكن تحملها فقط في حالة بعده عن الأماكن التي عرفها ، وفي حالة تحقيقه عملاً كبيراً ، لذلك إتجهت أفكاره صوب قارة أفريقيا التي لا تزال أجزاء كثيرة منها غير معروفة للعالم ، وبخاصة الغموض الذي خيم على نهر النيل . وكان لمساهمته في تجارة الخمور أثره عليه ، فقد جعلته هذه التجارة يرغب في زيارة الأقطار المنتجة للكروم ، وعلى هذا الأساس قضي السنوات الأولي القليلة من هذه الفترة في السفر والدراسة . ففي بداية الأمر تعلم اللغة الأسبانية والبرتغالية ، وكذلك العربية ، وفيما بعد تعلم الأمهرية (اللغة القديمة لإثيوبيا أو لغة الحبشة ، كما كانت تسمي حينذاك) . وأيضاً درس جيمس بروس فن العمارة ... والرسم ، وقرر أن يكون متفوقاً في هذه الفنون وتجلي ذلك في زيارته لإيطاليا وقيامه بعمل رسومات على جانب من الدقة لمعابد الإغريق الرائعة في باستيوم Paestum .

وكان هذا العمل من جانب بروس بمثابة الإعداد للرحلة المزمع القيام بها . وفي عام ١٧٦٣ م ، اتخذ بروس الخطوة الأولي صوب تحقيق هدفه ، فقد عينته حكومة الملك جورج الثالث King George III قنصلاً لبريطانيا في الجزائر ، التي كانت في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية التركية . وكان ملك بريطانيا قد منحه تصريحاً يخول له التجول في الجزائر وتونس ، فضلاً عن قيامه بعمل رسومات لبقايا الآثار الرومانية في هذه

المناطق من شمال أفريقيا ، وسبب ذلك يرجع إلي أن ملك بريطانيا كـــان جامعاً للآثار القديمة بدرجة كبيرة ، وكان القصد من ذلك أن تضـــاف هذه الرسومات إلي المجموعة الملكية .

وقبل أن يغادر بروس لندن إنشغل بزواجه من فتاة أســكتلندية ، تبلغ من العمر ست عشرة عاماً . فقد وعدته هذه الفتـــاة بجديـــة بـــأن تنتظره، حتى ينتهي من مهمته ، ولم يكن لدي أي منهما أدنى فكرة أنـــه ربما تمضي أثنتي عشرة سنة قبل أن يري أسكتلندا مرة ثانيـــة ، كمـــا لم يعرف بروس الوقت الذي سوف تتخلي فيه هذه الفتاة عنه سواء أكـــان ذلك بسبب الموت أم بسبب الزواج من شخص آخر .

ويمكن القول أن الظروف في الجزائر كانت تنذر بالخطر لأن الباي (الحاكم التركي) كان شريراً وقاسياً ، فكان يقتل أي شخص يضـــايقه أو يزج به في السجن ، ولم يستثني من السجن القناصل الممثلين للـــدول الأجنبية ، لهذا لم يشعر بروس بالأمان أبداً ، ومع ذلك فقد تمكن من أن يكيف نفسه مع هذه الظروف الصعبة لعدة سنوات ، قضي خلالها وقت فراغه في إنجاز تعلمه للغة العربية ، كما أنه أعد نفسه للقيـــام بالرحلـــة المرتقبة ، فضلاً عن تعليمه مهنة الطب تعليماً كافياً كي تمكنه هذه المهنة (مهنة الطب) من عبور الأقطار التي يمر من خلالها . زد على ذلك فأنـــه قام بشراء بعض الأجهزة العلمية ، التي تضمنت التلسكوبات وجهاز كبير لقياس الارتفاع والزوايا heavy quadra ، وثـــلاث كـــاميرات متنقلـــة للتصوير three aportable camera – obscura التي بواسطتها يمكن رؤيـــة صور الأشياء المحيطة ، وذلك من خلال حاجز . وفي الجزائر إنضم إليـــه

الفنان الإيطالي Italian artist الذي يدعي لويجي بالوجاني Luigi Balugani والذي كان عليه أن يعمل كسكرتير لجيمس بروس ، وقد ساعده في الرسومات التي تجمع من أجل الملك ، فكل من الرجلين قام بعمل أو برسم بعض الرسومات ، ولكن رسومات بالوجاني كانت أكثر دقة .

وفي عام ١٧٦٨ م ، تسلم بروس أيضاً من حكومة بريطانيا التصريح الذي إنتظره مدة طويلة ، كي يبدأ رحلته ، ففي بداية الصيف غادر بروس الجزائر متوجهاً إلي الإسكندرية ويعتبر ذلك بداية لمغامرته . وفي الوقت نفسه بدأ رحلته وهو متخفياً في زي عربي ، فضلاً عن إنه كان يتحدث اللغة العربية بطلاقة ، كما أنه تظاهر بأنه طبيب وفيلسوف، ومع ذلك فقد سلح نفسه بمرسوم كان قد حصل عليه من سلطان مصر يوصفه فيه بأنه نبيل إنجليزي ، وأنه أحد رعايا الملك جورج الثالث ملك بريطانيا ، وفي أثناء وجوده في مصر مارس مهنة الطب ، فاستمال بذلك البعض من مرضاه من ذوي النفوذ ، وحصل منهم على خطابات توصية إلي الشخصيات الهامة في سواحل البحر الأحمر والحبشة . فقد حصل على خطابين حرر أحدهما إلي حاكم ميناء مصوع بالحبشة وحرر الآخر إلي ملك سنار .

ولم يترك بروس أية فرصة دون اغتنامها فكان قد تعلم استخدام الأسلحة النارية ، لذلك حمل معه عدداً من المسدسات والبنادق القصيرة ، فضلاً عن أنه حمل معه كمية من ورق الرسم والكتابة ، زيادة على ذلك فإنه قرأ كل شئ استطاع قراءته عن النيل ، حتى وصل به الأمر إلي تمزيق صفحات بعض الكتب التي تتحدث عن النيل ، والاحتفاظ بها معه .

وكان قد اصطحب معه عدداً من الحمالين ، كما أنه أجر سفينة لتقله من القاهرة عبر النيل وحتى الشلال الأول الواقع إلي الجنوب من أسوان .

وكان بروس قد تحمل كل تكاليف الرحلة على نفقته الخاصة . ومن الملاحظ عليه أنه لم يحاول أثناء قيامه بهذه الرحلة أن يرفع العلم البريطاني على أي إقليم أو مقاطعة مجهولة ، كما لم يكن في نيته أيضاً تحويل المسلمين أو الوثنيين إلي العقيدة المسيحية أو أن يفتح طريقاً عاماً للتجارة ، بل كانت كل دوافعه علمية صرفة ، فكان هدفه الأساسي الكشف عن الغموض الذي خيم على منابع النيل ، بل وكشف كل ما يمكن كشفه من هذه المنطقة وشعبها . ولم يعرف من وجهة النظر الجغرافية أنه بحث أو اكتشف نهراً خطأ ، حيث أنه كان يعتقد في أن النيل الأزرق يمثل المجري الرئيسي للنيل . وكان بروس قد عرف كل هذه الإدعاءات من الآباء بيز ولوبو ، ومع ذلك فإنه كان أكثر استعداداً في عدم تصديقهما .

وقد تبع جيمس بروس طريق أسوان الذي سار فيه من قبل كل من بوكوك ونوردن ، وكان بروس قد توقف كي يتفحص بقايا طيبة القديمة ، وشجعه في ذلك أن هذا الطريق المتجه جنوباً كان مسدوداً بسبب نشوب الحرب الدائرة بين القبائل (القاطنة على جنباته) لذلك نجد بروس يعبر الصحراء الشرقية ويتجه إلي ساحل البحر الأحمر . ومن هناك ذهب على متن سفينة أقلته إلي مصوع الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر . وفي ابريل من عام ١٧٦٩ أبحرت السفينة من ميناء القصير

الصغير المزدحم بالناس الذي لم يستحق الذكر . وبعد ذلك اتجهت السفينة صوب الجنوب في خط متعرج عبر البحر الأحمر .

وكان بروس تواقا إلي مشاهدة خليج السويس وعرف بنفسه كيف أن الشباب اليهود خططوا للعبور من مصر إلي شبه جزيرة سيناء ، وسجلوا معلومات هامة عن الملاحة في البحر الأحمر ، وقد واجه بروس وجماعته وهم على متن السفينة ، نقص في الطعام والحطب ، ففي أوقات كثيرة كان بروس وجماعته لا يجدون من الطعام شيئاً يأكلونه ، فكان الطعام المتوفر لديهم ، عبارة عن خليط من الدقيق والمياه الباردة .

وفي شهر سبتمبر ، وبعد مضي خمسة شهور من بدء الرحلة وصلت السفينة إلي ميناء مصوع الميناء الرئيسي للحبشة ، ويبدو أن رئيس ميناء مصوع كان خسيساً ، لأنه رغم علمه مسبقاً بأن بروس كان على وشك الوصول إلي ميناء مصوع ، إلا أنه لم يهتم بمجيئه ، بل تصور أن بروس كانت تربطه علاقة قرابة بالملك جورج الثالث ، فدبر مكيدة لسرقته ، حتى ولو أدي ذلك إلي قتله (قتل بروس) . ولكن لما تبين لبروس ذلك لوح لحاكم مصوع بالتهديد بمرسوم السلطان المصري الذي كان يحمله معه كجواز سفر ، ومع ذلك فقد ظل جيمس بروس في شبه أسر لمدة شهرين ، وبعد ذلك استماله بروس إلي جانبه فتركه يغادر ميناء مصوع . وفي ١٥ نوفمبر عام ١٧٦٩ ، غادر بروس مصوع متجهاً صوب الداخل ، وكان برفقته الرسام بالوجاني وباقي أفراد المجموعة المكونة من عشرين شخصاً ، وكان من ضمنهم تاجر مسلم ، وحبشي أسمر اللون يدعي يس .

وكان الطريق الذي سلكه جيمس بروس طريقاً وعراً وجبليـــاً ، ولكن على الرغم من ذلك فقد تمكن بروس بمساعدة ياسين الحبشي مـــن حمل أجهزته ، والوصول إلي قمة المنحدر ، وقد أدي ذلـــك إلي تمـــزق أقدامه وإدمائها . ولكنه نسي كل متاعبه في غمرة بهجته بتجهيز معسكر لإقامة البعثة لأول مرة على أرض الحبشة .

ويصف بروس أرض الحبشة فيقول أنها عبارة عن هـــضبة يبلـــغ ارتفاعها ٦٠٠٠ قدم تقسمها أودية الأنهار والسلاسل الجبلية . ولكـــن على الرغم من ذلك تمكن بروس وجماعته من تسلق هذه الهضبة والوصول إلي عدوه Adowa ، وهي تمثل حصون الحبشة الرئيسية . ومن المعروف أن إسم الحبشة اشتق من كلمة عربية تعني التشويش أو اللخبطة "Confusion" فلو كان هذا يعني في الأصل اللخبطة التي تتضمن السلالات ، فإنه مـــن الممكن أن تمثل هذه اللخبطة أيضاً الأشياء الغامضة وغـــير المفهومـــة ، وكذلك تمثل الحرب الأهلية التي كان القطر ينغمس فيها ، ومن الممكـــن أيضاً أن تعني هذه اللخبطة التقاليد الهمجية والعقيدة المسيحية الأسميـــة . ويضيف بروس أن زمام السلطة في الحبشة كان في يد حاكم يدعي أنـــه ينحدر من سلالة سليمان بن داود . ولكن على الرغم من ذلـــك فقـــد ضعفت سلطة الإمبراطور ملك الملوك ، وكانت سلطة الحكومة في البلاد قد قسمت بين عدد من الحكام المحليين الذين كانوا في صراع مـــستمر ، وفي ثورات أدت إلي ضعف المملكة ، بل وأدت إلي انتشار الفوضـــى في البلاد . و لم يكن الإمبراطور هو أقوي رجل في الدولة ، بل كان الرجـــل القوي هو الراس The Ras (أو الوزير or Vizier) مايكل حاكم إقلـــيم

تجره Tigre ومن قبل، تسبب الراس ميتشل في قتل إثنين من الأبـاطرة ، فقتل الأول عن طريق الاغتيال وقتل الثاني عن طريق السم . وفي ذلـك الوقت حكم الراس ميتشل كثالث إمبراطور للحبشة وكان يعرف باسم تكلا هيما نوت Tecla Haimanot .

وكان من أهم الأبنية في عدوة ، القصر الذي كان يحكم منه الراس ميتشل تجرا . وكان هذا القصر عبارة عن سجن أكثر منه منـزلاً، فبالقرب منه كان يوجد المئات العديدة من الناس المكبلين بالسلاسل فقد ظل بعضهم أسيراً لمدة عشرين عاماً . وقد أدي ذلـك إلي أن أصبحت أسرهم تحيا حياة ضنكا ، بحيث لم يكن لدي هذه الأسر المقـدرة علـى تحرير الأسري ، ودفع الفدية ، للذين ظلوا في السجن ، وكـثيراً منـهم وضعوا في أقفاص حديدية وعوملوا معاملة الحيوانات المتوحشة .

وعندما وصل بروس إلي عدوة كانت الحرب على أشـدها بـين الراس مايكل وأمبراطور الحبشة ، لذلك اضطر بروس إلي الذهاب صوب اكسوم العاصمة القديمة لإثيوبيا ، وفي خارج أطلال هذه المدينة تبع بروس وجماعته بثلاثة جنود أثيوبيين كانوا يقودون أمامهم بقرة ، وبعد ذلـك أوقفوها فأعتقد بروس أنهم سيقومون بذبحها ، ولكن حدث العكـس ، فبدلا من ذبحها قاموا بقطع قطعة من اللحم من جسم هذه البقـرة ، ثم قاموا بعد ذلك بتغطية المكان المقطوع بالصلصال ، عندئذ ، أجبر الجنود الأحباش البقرة على النهوض وقادوها أمامهم ، كي تعـد لهـم وجبـة أخري، عندما يلتقون مع زملائهم في المساء . وأضاف بروس في قوله ما نصه " أنني لم أعتقد بعد ، أن هذه الطريقة في إعداد الطعام ، هي الطريقة

المألوفة بالنسبة للمواطنين ، وحتى بالنسبة لرجال الدين في كل مكان من البلاد (الحبشية) .

واستمر بروس ورفاقه ثلاثة شهور في تسلق كل الحواجز الجبلية الواقعة بين مصوع وغندار العاصمة ، وكانت مباني مدينة غندار عبارة عن أكواخ مبنية من الطين وذات سقوف بارزة ، وبها قصر محاط بسور ، ومطل على بحيرة تانا الواقعة إلي الجنوب من غندار ، وقد حصل بروس على منزل في مدينة غندار في الحي الإسلامي . وفي ذلك الوقت كان الراس مايكل والإمبراطور لا يزالان بعيدين . وقد وجد بروس أن الناس يموتون بالمئات من مرض الجدري Small Pox ويموت الآخرون بسبب الحمي ، لهذا أندهش بروس للغاية . وكان المواطنون يستخدمون في علاج هذا المرض دواء عبارة عن علبة معدنية يضع بها البعض من الحبر والصليب وصورة مريم العذراء ... وبعبارة المؤلف :

"This was Scarcely Surprising for the native " Cures " ranged from a medicine made of tinplate and ink to the application of a cross and a picture of the Virgin Mary".

وكان إبن الراس ميتشل الصغير مريضاً بالجدري Small – Pox مرضاً مزمناً أو ميئوس منه ، هذا فضلاً عن إصابة عدد من أطفال الأسرة المالكة بهذا المرض . وكان بروس قد نجح من قبل في علاج المرض في الحي الإسلامي ، لذلك أستدعي لعلاج هؤلاء الأطفال ، وكان بروس قد رفض علاجهم ما لم يقبلوا طرقه الخاصة في علاج هذا المرض . قال جيمس بروس ما نصه " أن الجدري مرض من الواجب مطاردته ، والقضاء عليه ، وأضاف أن المريض يحتاج أثناء المرض إلي فترة طويلة

للعلاج ، فلو أطعم السكان المرضي طبقاً لأهوائهم (أهواء السكان) البدائية فإن نصيحتي للمريض ستضيع سدي " .

ولقد كان الأطفال شديدي المرض حتى أن بروس منح تصريحاً على وجه السرعة ليعمل أي شئ هو يرغب فيه ، وقد وجد المرضي نائمين في حرارة الشمس ، وفي حجرات سيئة التهوية وتحت أكوام من البطاطين ، وكان أول شئ فعله بروس هو فتح النوافذ والأبواب وغسل الحوائط بالخل والماء الساخن . وقد أصر بروس على ضرورة وضع قواعد صحية صارمة ، هذا فضلاً عن توفير كمية من الهواء النقي . وقد شفي المرضي في تلك الحالة واستطاع بروس بطريقته البسيطة أن يمنع انتشار التلوث .

ولقد نجم عن النجاح الذي حققه بروس في علاج المرضي قيام صداقة بينه وبين الأميرة الشابة زوجة الراس التي تدعي إيثر Esther وكانت إيثر هذه أما لطفل (إبن ميتشل) كما كان لها طفلين من زوجها السابق. ومن الممكن رؤية جمال الأميرة أيثر في أحد النصوص الواردة في كتاب جيمس بروس . رحلات للكشف عن منابع النيل ،
Travels to discover the source of the Nile.
وكانت أيثر فاتنة الجمال وذكية . وقد سلم بروس بأنه وجد أنه من المستحيل أن يكون إلي جانب أيثر مدة طويلة من الوقت ، دون أن يفكر في الإرتباط بها إلي الأبد .

وعلى الرغم من البهجة التي كان يعيشها بروس في رحاب الأميرة أيثر إلا أنه أصبح نافذ الصبر ، ويرجع ذلك إلي رغبته في التوجه إلي مصادر النيل الأزرق ، الذي سماه الاثيوبيون آبيا Abia " مصدر المياه

" وبعبارته أبو المياه " The Father of waters " ولم يكن النهر بعيداً عـــن المنطقة التي يقف عندها ، ومع ذلك فلم يستطع الذهاب إليها ليواصـــل بحثه ، إلا إذا حصل على تصريح من الراس ميتشل . وبعد أن عاد كل من الراس ميتشيل والإمبراطور من الحروب ، كان لديهم انطباع كبير عن هذا الرجل الإسكتلندي ذو الشعر الأحمر الغامق المحلوق من الأجناب والمفتول من أعلي والمعطر على حسب الأسلوب الأمهري ، وبعبارة المؤلف :

Who had , had his red hair cut round , curled and perfumed in the Amharie fashion , and was dressed , like a perfect Abyssinian , in a cloak over chain – armour , with pistols stuck in his wide belt .

وكان مرتدياً زياً شبيه بالزي الكامل للمواطن الأثيوبي ، وارتدي أيضـــاً معطفاً ، من فوقه إرتدي درعاً على شكل سلاســـل حديديـــة – Chain armour ، وكان يعلق المسدسات في حزامه العريض . وقد أعجب كـــل من الراس ميتشل والإمبراطور بالحديث مع جيمس بروس لأنه كان يتقن الفروسية ، فضلاً عن أنه كان ماهراً في استخدام السيف وإطلاق النار . كما أعجبا بأسلوب قيادته وبثقته في نفسه ، رغم وجوده في وطن يكتنفه العنف والموت ومع ذلك فلم يشعر بأدنى خوف ، وقد أشار بـــروس إلي ذلك بصراحة . وهكذا فقد سحرهم هذا الزائر القادم من العالم الآخر ، وقد أجل كل من الراس ميتشل والإمبراطور رحيل جيمس بروس ، حيث مرت الأيام وهو في سعادة تامة ، فقد قضي هذه الفترة في الصـــيد وفي القيام بالبعثات العلمية القصيرة ، وفي تلك الأثناء عرف بروس أن الراس ميتشل كان قاسياً وطاغياً ، ولكن عندما تم اللقاء بينهما شـــعر بـــروس بانطباع غريب نحو ميتشل وفي هذا الصدد يقول بروس : " إن مايكـــل كان أشيب الشعر ، وكان مرتدياً زياً عبارة عن خيوط كثيرة وقصيرة ،

وكان منطلق التفكير ، بل ويتميز بحدة البصر . بينما كـان الإمبراطـور يتميز بالذكاء والوجاهة وحسن الإدراك ، وكان يصرف الأمور ويتحمل المسئولية كالبرتغاليين " .

وبعد أن مكث بروس مدة طويلة في هذه المنطقة ، طلـب منـه ميتشل والإمبراطور أن يصحبهما في حملتهما التالية إلي القطر الواقـع إلي الجنوب من بحيرة تانا Lake Tana الذي كان يحكم بواسطة شيخ يـدعي فاسيل Fasil وكان هذا الشيخ تابعاً لقبائل الجالا الشرسة والوثنية . وقد أعد هذا الشيخ جيشاً ليحارب به حكام أثيوبيا . وكانت هذه المنطقة هي المنطقة التي رغب بروس في كشفها . وقبل أن يصل بروس إلي المنطقـة القريبة من منبع النيل الأزرق ، كان فاسيل قد إستسلم ، وبذلك نجـح بروس في الوصول إلي النهر أي بالقرب من المنطقة التي يتدفق منها مـاء البحيرة (بحيرة تانا) عندئذ عاد بروس إلي جهة الجنوب الشرقي في اتجاه الشلالات الكبيرة ، المعروفة باسم (شلالات تسيسات The Tisisat falls) وبعد نصف ميل من خروج النهر من البحيرة ، يجتاز قنطرة مقوسة مبنية من الحجر a single – arched stone bridge ، كانت قد شيدت منذ مائـة عام مضت بمعرفة البرتغاليين ، وقبل أن يصل بروس إلي هـذه القنطـرة بمسافة طويلة إستطاع سماع هدير مياه الشلال . وكتب بروس يقول مـا نصه " لقد كان هذا المنظر أعظم منظر رأيته ، فقد كان الإرتفاع مبـالغ فيه ، لأن المبشرين كانوا قد قالوا أن ارتفاع الشلال يبلـغ حـوالي ١٦ ذراع Ells أو يبلغ خمسين قدماً . وفي الواقع أن معرفة ارتفاع هذا الشلال كان صعباً ولكن أغامر وأقول أنه يبلغ على وجه التقريب أكثر مـن ٤٠

قدما . وإلي حد بعيد ، فإن مياه النهر تزداد بواسطة الأمطـار ، بحيـث يشكل سقوطها مسطحاً مائياً واسعاً لا يفصله أي شئ ، ويبلغ عـرض هذا المسطح المائي نصف ميل إنجليزي ، وتمثل قوة اندفاع المياه والضوضاء رعباً حقيقياً ، ولمدة من الوقت أصابنا الذهول والدوار التام . وقد خـيم على المنطقة دخان سميك ، غطي منطقة الشلال وما حولها ، وقد خـيم هذا الدخان على المجري من أعلاه ومـن أسـفله ، وأدي ذلـك إلي أن حجب مجري النهر ومياهه عن الرؤية وكان هذا منظراً رائعـاً في تلـك العصور ، بل وأضاف بروس في قوله أن هذا المنظر سوف لا يمحـى أو يتبدد من ذاكرتي على مدي الحياة البشرية ... وكان واحداً مـن أهـم المناظر الجميلة أو المدهشة في شكلها ، وقد تعرض هذا المنظـر لتضـليل رجل دين متعصب وخسيس حيث أنه قلل من قيمة هذا المنظر ، بل أنـه شوهه " .

وكان رجل الدين هذا هو الأب لوبو Lobo لذا عقد بروس العزم على أن يكون هو الأوروبي الأول الذي تقع عينـاه علـى شـلالات تسيسات Tisisat Falls وقد عمل كل شئ بحيث لا يشك أي شخص في قصته واستند في ذلك على افتراضين كي يدعم بهما إدعائه ، أولهمـا أن لوبو غالي في تقدير عمق الشلال ، رغم أنه أقر بنفسه ذلك بقوله :

" أستطيع القول بأنه لم يعد وقت باقي في حياتي أتعهد فيه علـي أقل التقدير بالدقة في كشفي لهذه المنطقة " ثم أضاف بـروس يقـول في الواقع أن كل من تقدير لوبو وتبشيره ثبت فيما بعد أنهما غير دقيقين مع أن لوبو كان قريباً أو أقرب إلي الحقيقة . وأما الإفتراض الثـاني الـذي

افترضه بروس فيتمثل في أن الأب لوبو لم يتمكن من الوقوف بين المياه المنهمرة من المجري وبين المنحدر الصخري ، وعلي ذلك فهو كذاب وبخاصة عندما ادعي أنه اكتشف الشلال . مع أن بروس السباح القوي أو المتمرس لم يستطع القيام بمحاولة إيجاد ممر في الماء عند أسفل الشلال ، واقتنع أنه لا يوجد أي شخص آخر يقوم بمثل هذا العمل . وفي هذا فقد ارتكب بروس خطأ ، لأنه رأي الشلالات في فصل المطر ، بينما الأب لوبو رآهم (الشلالات) في فصل الجفاف ، ولم تكد تحل العشرينيات من القرن العشرين ، إلا وقد ثبت بطريقة حاسمة أنه لم يكن من الصعب بالمرة ، أثناء فصل الجفاف الوصول إلي الأرضية الصخرية الواقعة خلف الشلالات ، بالضبط مثل ما ادعي الأب لوبو .

وقد اضطر بروس في ذلك الوقت إلي العودة مع جيش الإمبراطور إلي مدينة غندار ، وقد مثل جيش الإمبراطور بأسري الحرب أي كان يقوم بقتلهم ، وفي تلك الأثناء مرض بروس بسبب تعرضه للحمي ، ورغم ذلك ، أنه بدأ بحثه بكل حرية في شهر أكتوبر عام ١٧٧٠ ، فقد انطلق ومعه بالوجاني الفنان الإيطالي ورجل يوناني آخر يدعي استريتس Strates ، الذي كان يعيش في أثيوبيا ، وعدد آخر من الحمالين الذين حملوا جهاز قياس الإرتفاع والزوايا . وفي تلك الأثناء ، كان الراس ميتشل قد نصح الإمبراطور أن يعين بروس حاكماً على بلدة جيش Gish، التي يوجد بها منابع النيل الأزرق والتي من المعروف أنها تنبع من هناك . وكانت جيش هذه لا تزال تحت سيطرة فاسيل Fasil رئيس الجالا المتمرد، الذي قام رجال قبيلته وللمرة الثانية بالإغارة على المنطقة الواقعة بالقرب

من غندار ، لذلك لم يستطع بروس المرور من خلال هذه المنطقة دون حصوله على تصريح من شيخ القبيلة . وفي تلك الأثناء ، وجد بروس فاسيل معسكراً بجيشه في الشمال الغربي من بحيرة تانا ، فعندما استقبله بروس وجده جالساً في خيمته على جلد أسد ، وكانت رأسه معصوبة ببعض الملابس القطنية الشبيهة بالفوطة القديمة . فقد لف فاسيل بأحكام حول نفسه عباءة ملطخة بالشحم ، وعندما تقدم بروس منه كي يحييه التحية المعتادة قبل شفتاه فقط بعد أن أزاح ملابسه بعيد (أي ملابس فاسيل) .

وكان فاسيل على علم تام بأن الهدف من تعيين بروس حاكماً لهذا الإقليم ، هو تمكينه من زيارة منبع النيل الأزرق ، ولكن مع ذلك فإن فاسيل قد تنصل من كل ما يعرفه عن أماكن تواجد منابعه ، وصاح فاسيل في بروس بقوله هل تعرف ماذا تقول ؟ فقال بروس أعني منابع الآبيا Abai ، فقال فاسيل لماذا منابع الأبيا يا بروس أن الله يعرف أن وطن الجالا Galla يسكنه شعب مرعب ومتوحش ، ثم أضاف في قوله لبروس أيضاً أأنت مجنون ؟ فمن المحتمل أن تعود من هذه الرحلة بعد عام.

وبعد ذلك ذكر فاسيل لبروس بتملق بأن منبع النيل معروف معرفة جيدة ، وأنه يوجد في داخل إقليمه ، وأضاف في قوله أنه من الموثوق فيه أنك ستكون وحيداً في هذه الرحلة ، في الوقت الذي سأكون فيه أنا بعيداً عن هذا المكان ، فرد عليه بروس بثقة إذا لم تحمن بقية الحبشة ، فأنا لن أستطيع حماية نفسي ، وعندئذ قال بروس لفاسيل أن كلمتك هي الوحيدة التي يمكن أن تفعل هذا أي تحميني .

وكان فاسيل يلطف من غضب بـــروس باســـتخفاف ، ولكـــن جيمس بروس ظل عنيداً . وكتب يقول ما نصه " أنا وجدتها الآن ، كما اعتقدت ، حيث أن آمالي في الوصول إلي منبع النيل الأزرق ، قد انتهت إلي الأبد ، كما ضاعت سدي ولسنوات عديدة كل متاعبي وكل أموالي وكل معاناتي ، ليس فقط بسبب عقبة كئود ، ولكن بـــسبب نـــزوات Whims شخص بربري " .

ولقد فشلت المجادلة والمناشدة مع الشيخ فاسيل ، فأضطر جيمس بروس إلي التفكير في استمالة هذا الشيخ وذلك عن طريق مهارته في كبح جماح الخيول البرية وفي إطلاق النيران على الطيور البريـــة وإصـــابتها في أجنحتها . عندئذ إستسلم فاسيل لمطالب جيمس بروس ، والدليل علـــى ذلك أنه أقرض بروس حصانه الخاص ، وطلب إليه أن يقـــوده أمامـــه ، وكان الحصان في أثناء ذلك مسرجاً وملجماً وهذه علامة على العطـــف على بروس ، وكانت هذه العلامة يفهمها شعبه (أي شعب فاســـيل) بحيث يكن الإحترام لبروس وزوده فاسيل أيضاً بدليل وبحماية سبعة مـــن صغار الشيوخ ، مع أن حمايتهم كان مشكوك فيها . وكتب بروس يقول في هذا الصدد ما نصه " أنا لم أر لصوصاً في حياتي أكثر مـــن هـــؤلاء اللصوص الذين رأيتهم في هذه البلاد " وبعبارته :

I never saw more thieves – like fellows in my life .

وهكذا فقد أعد بروس نفسه وذهب إلي مكان بحثه ، وتمكنـــت بعثته من الطواف حول الشاطئ الغربي من بحيرة تانا ، وبعد ذلك إتجهت صوب الجنوب ، ومر أفرادها من خلال قطعة جميلة من قطر ، ومن هذه المنطقة رأوا الجبال والأشجار الجميلة والشجيرات ، التي كانت تغطيهـــا

الورود المختلفة ، وتتزاحم عليها الطيور من كل الأنواع غير المألوفة والمزينة بريشها الأنيق المختلف الألوان . وفي الساعة الثانية من بعد الظهر وفي اليوم الثاني من شهر نوفمبر ، كتب بروس يقول " لقد أتينا إلي شواطئ النيل " ، وبعد يومين وصل بروس إلي نهاية مغامرته ، وقد تسلق ومعه بقية أعضاء البعثة الجبل الذي توجد على قمته كنيسة صغيرة . ويقول بروس عندما نظرنا من أعلي الجبل إلي أسفل ، رأينا على الفور من أسفلنا ، النيل نفسه تناقص حجمه في هذه المنطقة بطريقة غريبة ، بحيث أصبح شبه جدولا من المياه ، وفي هذه الحالة أصبح من الصعب على مياهه أن تدير طاحونة . ولم أتمكن من إشباع رغبتي إشباعاً كاملاً بهذا المنظر ، بل دار في تفكيري نبوءات قديمة كانت تدعوا إلي التخلي عن فكرة أن النيل سيظل غامضاً وخفياً .

ولقد أشار المرشد المرافق لجيمس بروس إلي المستنقع الصغير الموجود خلف الكنيسة وقال ما نصه " أنظر يا بروس إلي هذه الرابية المغطاة بالأعشاب الخضراء الواقعة في وسط هذا المستنقع ، فهناك يوجد ينبوعان للنيل ، فإذا أردت يا بروس الذهب إليهما فعليك أن تخلع حذاءك لأن الناس في هذه المنطقة من الوثنيين فهم لا يعتقدون في شئ تعتقد أنت فيه لكنهم يعتقدون فقط في هذا النهر الذي يصلون له ، كما لو كان هو الإله الخاص بهم ، ولكن من المحتمل أن تفعل الكثير بنفسك " .

وقد توقف بروس ليخلع حذائه ، وبعد ذلك سار ببطء بجانب تل يقع في اتجاه جزيرة صغيرة تكسوها أعشاب خضراء ، وقد غطيت كل جوانب هذا التل بغطاء كثيف من الورود ، وقد ظهر على سطح الأرض

الجذور النباتية المتنفخة التي تتساقط قشورها بسبب المسير مــن فوقهــا ويضيف بروس في قوله أن ذلك سبب لي السقوط مرتين أثناء مسيري قبل وصولي إلي حافة المستنقع Marsh . وقد نهض جيمس بــروس بنفــسه ، وبعد ذلك وصل إلي جزيرة مغطاة بالأعشاب ، كانت في شكل هيكل أو مذبح كنيسة ، ويضيف جيمس بروس لقد وقفت وأنا في غاية البهجــة والسرور على الجبل الرئيسي الذي يبرز من وسطها .

وإذا لم أعبد النهر بطريقة فعلية ، فإنه في هذه الحالة سوف أصاب بشعور غير طبيعي ، وأنه لمن السهل بالنسبة لي أن أخمن كثيراً ، بدلا من أن أصف ما يدور في ذهني في تلك اللحظة ، واستمر بروس واقفاً في تلك البقعة التي حيرت تفكيره ونشاط وهمة القدماء والمحدثين على مدي ثلاثة آلاف عام تقريباً رغم ما قام به أحد الرعايا البريطانيين قديماً ، وأضــاف بروس يقول " لقد حققت النصر هنا بتفكيري على كل الملوك وعلي كل جيوشهم " ، (أو بمعني آخر لقد حققت بنفــسي مــا عجــز الملــوك وجيوشهم عن تحقيقه) .

ولقد تجاهل جيمس بروس إدعاءات الأب بيز وكان يشك في كل ما قاله هذا القس الذي زار هذه المنطقة منذ ١٥٠ عاماً ، وكان بروس قد جعــل ادعاءاته في القمة ; Bruce was pitching his own claims far too high وصمم على أنه هو الأول على هذا المسرح بل وخدع بسبب ثقته العميقــة في نفسه . وعلى الرغم من أنه قام بالبحث عن المصدر الحقيقي للنيــل ، إلا أنه لم يجده ، بل أنه اكتشف النيل الأزرق الذي يزود النيل بمياه غزيــرة.

ففي الواقع يمثل النيل الأزرق الفرع الرئيسي للنيل الأبيض ، الذي توجد منابعه على مسافة ٢٠٠٠ ميل (من منبع النيل الأزرق) .

وكان رد الفعل الذي أعقب لحظة انتصار بروس هو تفكيره في الرحلة الطويلة الموجودة أمامه ، ولكن وبروح معنوية عالية ، التقط نصف جوزة هند مفرغة من الداخل وملأها بالماء من النيل وشرب نخب الملك جورج الثالث ، ودعي بروس إستراتيس Strates الإغريقي ليشرب معه ، ولم يوجد دليل في كتاب بروس يدل على أنه كان قد دعي بالوجاني ليشرب معه من النيل . ومن المشكوك فيه أن بالوجاني كان قد مات بسبب مرض الدوسنتاريا في غندار أثناء رحلة العودة . فكان بروس مصمماً على أن يحتفظ بالمجد لنفسه ، فتظاهر أن الفنان بالوجاني قد مات قبل أن تبدأ مرحلة البحث عن النيل . ولم يكن إستراتيس الرجل اليوناني الذي عاش في أثيوبيا منافساً لبروس فكان بروس قد ودع بالنسيان كل من بالوجاني والأب بيز والأب لوبو .

وبعد أن أمضي بروس عدة أيام في فحص وعمل المقاييس لتلك المنطقة عاد متخذاً طريقه إلي غندار . وفي أثناء غياب بروس في منطقة منابع النيل الأزرق هاجم رجال قبائل الجالا المدينة (يبدو أنها مدينة غندار) بعنف ،وعلي ذلك اشترك بروس في الحرب ، بحيث كان على رأس الفرقة الخاصة بحماية الإمبراطور ، وفي أثناء المعركة كان بروس يمثل الجندي الماهر في إطلاق النيران ، وكانت خدماته الطبية لها أثر كبير في نفوس الجرحي ، وقد تمكنت قوات الإمبراطور من هزيمة المتمردين ، وأجبر بروس على مشاهدة الأعمال الإنتقامية المرعبة التي يقوم بها الراس

ميتشل ، واحتج جيمس بروس على هـذه الأعمـال البربريـة ولكـن إحتجاجاته ضاعت سدي أمام أعمال الإعدام الوحشية . وقـد تسـاءل الراس ميتشل بالقول موجهاً حديثه إلي بروس ما نصه " هل من الممكـن أن يتسع قلبك لكل هذه الأشياء ؟ وأضاف ميتشل يقـول " أنـت يـا جيمس بروس رجل شجاع ، فنحن جميعاً عرفناك ، ورأينا هذه الشجاعة فيك ، ونحن جميعاً نلومك كغريب في هـذا الـوطن لأن عنايتـك أو اهتمامك بنفسك ضئيل ، فأنت تتأثر من كل هذه الأشياء شأنك في ذلك شأن إمرأة جبانة أو فتاة أو طفل " . فأجاب بروس رداً عليه مـا نصـه "سيدي أنا لا أعلم هل أنا شجاع أم غير شجاع ، ولكنني لـو رأيـت رجالاً يعذبون ، أو يغتالون أو يعيشون بين أجسام القتلى دون إكتـراث فأنا في هذه الحالة ليس لدي أية شجاعة " .

وقبل أن يغادر بروس الحبشة قضي عدة شهور في إعداد دراسـة عن الشعب الأثيوبي وعن تاريخه ، وجغرافية وطنه ، وقد ثبت أنها دراسة دقيقة للغاية وقد تمكن بروس من جمع مجموعة قيمة من الوثائق الأمهرية ، وجمع كذلك مجموعة من النباتات الحبشية والمعادن التي خطط أن يأخذها معه إلي أوروبا . وبعد ذلك حصل بروس على تصريح يخول له الخـروج أو مغادرة أثيوبيا . وقد أقام بروس حفلة وداع للأميرة إيثر وولدها الصغير الذي أنقذ بروس حياته . وكانت الأميرة الأثيوبية وولـدها يعيشـان في حالة تقاعد أو في حالة عزلة أو كانا يعيشان بمفردهما . ووصف بـروس حفلته هذه التي أقامها للأميرة إيثر وولدها بأنها كانت واحدة من أعظـم لحظات حياته " .

وفي شهر ديسمبر عام ١٧٧٢ ، غادر جيمس بروس أرض أثيوبيا وسافر في اتجاه الغرب ، واستمر في مسيره حتى وصل إلي إمبراطورية الفونج التي كانت تتكون من عدد من الأقاليم الصغيرة ، والتي يضم سكانها قبائل وأجناس مختلفة ، وهم متقاربون في اللون من البني الفاتح إلي الأسود Ebony . وقد وصف بروس كل شئ بعناية وبدقة ، ويعتبر بروس الأوروبي الأول الذي سجل أضرار ذبابة تسالتساليا Tsaltsalya كحشرة خطيرة فهي مثل ذبابة تسي — تسي Tse - Tse fly التي تلدغ الحيوانات لتصيبها بالمرض المميت ، وتجبر رعاة القطعان على مغادرة الأرض الرعوية إلي مناطق النباتات الصحراوية المتناثرة ، التي توجد في الفصل المطير ، حيث لا تتوالد هذه الذبابة في هذه المناطق الصحراوية .

وقد قضي بروس المرحلة الأولي من الرحلة في قطر شبه صحراوي، بحيث تشتد فيه حرارة الشمس ، حتى أن المجاري المائية والعيون الجوفية قد جفت ، وأدي ذلك إلي أن الحيوانات (بالطبع حيوانات البعثة) ضعفت بسبب الجوع والعطش ، فضلاً عن أن هذه الحيوانات كانت فريسة سهلة للأسود والضباع التي تكمن في الأدغال ، وفي نفس الوقت وصلت البعثة (بعثة بروس) إلي صحراء شاسعة لا يوجد فيها أشجار على الإطلاق ، وبعد ذلك وصلت إلي قرية مهجورة ، كان سكانها قد غادروها في العام السابق وبخاصة عندما أصبحت محصولاتها الزراعية غير كافية للغاية . وقد كتب بروس يقول ما نصه " لقد عسكرنا بين عظام الموتى ، فلا يوجد مكان خالي من هذه العظام " . وكانت البعثة قد قطعت في أسبوع مسافة طولها ٦٥ ميلاً ، ولكن أفرادها

كانوا في ذلك الوقت على مقربة من حوض النهر الذي لم يعد جافاً ، وعلى مقربة أيضاً من مدينة تيوا Teawa .

ولقد رحب الشيخ فضل شيخ مدينة تيوا بجيمس بروس وبرجاله ترحيباً حاراً ، وكان بروس قد حذر من قبل من أن هذا الشيخ الشرير سوف يعمل بكل جهده على عرقلة البعثة من الذهاب إلي سنار عاصمة إمبراطورية الفونج ولكن بروس تمكن من استمالة هذا الشيخ عن طريق إجادته لفن الفروسية والصيد ، فضلاً عن إجادته للأعمال الطبية ، وقد وصف بروس علاجاً للشيخ فضل ولزوجاته ولبناته ، ولولا هذا لفقد بروس حياته ، وعندما بدا على الشيخ فضل علامات العداء لبروس ، تدخلت زوجاته لصالح بروس ، فكان لبروس علاقات حب مع زوجات هذا الشيخ . وفي هذا الصدد كتب بروس يقول ما نصه : " لم يكن هذا شيئاً كريهاً في ربيع الحياة ، بل كان حيلة عرضية ، كما لم يكن إرتداء الزي والتحدث بلغتهم بسهولة وبطلاقة شئ تافه ، وأضاف أنني كرست جهدي في صداقة الجنس الجميل ، ومداومة الإحترام والتواضع لرجال الحاشية ، وعلى وجه العموم كنت خانعاً ، لأن هذا الأسلوب بصفة خاصة كان يلائم أمزجتهم وميولهم " .

ومن المحتمل أن يكون بروس قد أثار غيرة الشيخ فضل ، الذي رفض بإصرار أن يدع بروس يغادر مدينة تيوا ، ويرجع الفضل في تحرير بروس من هذا الأسر إلي صديقه الحبشي أو الأثيوبي ، الذي يدعي ياسين والذي تركه بروس يعود إلي قريته الخاصة . وعندما سمع ياسين بالمأذق الذي وقع فيه بروس ، أرسل ثلاثة جنود من المخصصين لنقل البريد ،

ومعهم خطابات تهديد بتدمير مدينة تيوا وحرق محاصيلها إذا لم يسمح لبروس بمغادرتها ، وعندئذ تراجع هذا الشيخ عن موقفه وبإيماءة تدل على الكرم ، قدم الشيخ لبروس حصانه الخاص وحذره أن الخيول لم تستطع أن تعيش في سنار . عندئذ رحل جيمس بروس وبعثه بعد أن شكر الشيخ فضل ، وكان بروس قد سافر ليلاً كي يهرب من حرارة النهار الحارقة .

ومن قبل كان كل من بونسيه الفرنسي وكرمب الألماني قد زار سنار أي قبل ذلك التاريخ بسبعين عاما ، وقد تأثر بونسيه بحجم وأهمية المدينة ، ولكن بروس وجدها في حالة بشعة للغاية بحيث يخيم عليها الإستبداد . وكان بروس قد وصلها أثناء فصل الجفاف الذي ترتفع فيه نسبة حدوث المرض والموت بوضوح . ولاحظ بروس أن المدينة احتفظت بكثافتها السكانية بسبب خطفها للعبيد من الجنوب . وقد كره جيمس بروس الشعب في سنار ، لأنه وجدهم في حالة كئيبة ومريبة . وكتب بروس يقول " يبدو أن الحرب والخيانة هما من أهم عمل هذا الشعب المرعب الذي يفصل من بقية الجنس البشري بواسطة سماء وصحاري لا يمكن إجتيازها ، وتعد هذه البلاد بقعة بغيضة " .

وقد قدم بروس لمقابلة الملك ، فوجده شاباً ضعيفاً متراخياً ، ذو بشرة بنية شبيهاً بأمه العربية ، وذو ملامح خشنة واضحة بحيث لا يمكن معها معرفة شخصيته واندهش هذا الملك عندما علم بأن بروس إختار أن يقضي سنوات عديدة في أفريقيا وتساءل بالقول " كيف يكون هذا ؟ " وأضاف قائلاً ما نصه " أنت يا بروس نبيل متعلم وتعرف كل شئ ، وتتحدث كل اللغات ، وأنت شجاع ، ولم تخف من السفر مع عدد قليل

من الرجال المسنين ، من خلال أقطار مثل هذا القطر ومثل أثيوبيا ، أليس من الأجدر بك أن تمكث في بلدك لتستمتع بالمأكل والمشرب ، بدلاً من التجوال مثل الرجل الفقير ، متعرضاً لكل أنواع الخطر " وبعبارته :

" Instead of wandering like a poor man exposed to all sorts of dangers" .

ومن قبيل التفسير ، فقد أجاب بروس على تساؤلات الملك بالقول " أن هذا التجول الذي أقوم به يعتبر نوع من أنواع الدروشة بحيث أن آخذ على عاتقي القيام بممارسة حياة التقشف والفقر ، وأنا مصمم على السفر في ظل ظروف صعبة وخطيرة ، بحيث أقوم بعمل كل الأعمال الطيبة التي أستطيع القيام بها إلي الفقير والغني على حد سواء ، كما أنني لا أقوم بإيذاء أي شخص " وبعبارته :

" By way of explanation Bruce replied that he was a sort of dervish pledged to lead a life of austerity , bound to travel in hardships and danger ,doing all the good I can to poor and rich and hurting nobody" .

ولما أخبر بروس الملك بأنه في إمكانه أن يسافر لسنوات عديدة ، استنتج الملك أن بروس قد تورط Committed في ارتكاب ذنوب كثيرة عندما كان شاباً ، فكان عليه أن يقضي مدة طويلة في تأدية أعمال مثل القيام بالتجوال في المناطق المجهولة حتى يكفر عن ذنوبه His Sins وأراد الملك أن يعرف من بروس هل كل الذنوب التي ارتكبها كانت مع النساء، فقد أجابه بروس بتواضع بقوله " من المحتمل أن يكون بعضها قد ارتكب مع النساء ، وقد أقنعت هذه الإجابة الملك الذي دعي بروس للجلوس على وسادة أثناء الوقت الباقي من المقابلة The interview .

وفي اليوم التالي ، عاد بروس ليحضر الهدايا ، وفي تلك الأثناء شاهد أحد خدم الملك يقوم بتدليك جسم سيده (الملك) بدهن فيل

كريه الرائحة ، وكان الغرض من هذا التدليك أن يظل جسم الملك قوياً وأن تظل بشرته ناعمة . واقترح الملك على بروس أن يحـاول معالجـة جسمه بهذا الدهان (المرهم الدهني) ، وقال الملك لبروس أن هذا الدهان يمنع شعرك من الاحمرار .

وكان هيكل السلطة في سنار ، كما في الحبشة ، فإن الشـخص المهيمن على السلطة لم يكن الملك ، ولكن كان الوزير الذي يدعي الشيخ عدلان والذي كان يمتلك قطيعاً من الفرسان العربية ، هذا فضـلاً عـن امتلاكه لجيش من الخيالة الذين كانوا يرتدون الخوز والدروع . ولكـن على الرغم من ذلك فقد شاهد بروس أن إمبراطورية الفونج كانـت في حالة من الفوضى والحرب الأهلية ، مثل التي كانت في أثيوبيا . وقد شكر بروس الملك ، وطلب منه أن يسمح له بمغادرة سنار ، ولكن الملـك لم يوافق له بمغادرة البلاد إلا بعد أن يستولي على كل ممتلكاته (ممتلكـات بروس) .

وفي شهر سبتمبر من عام ١٧٧٢ ، اتخذ بروس طريقه إلي النيـل الأبيض ، ثم يتوجه بعد ذلك إلي القاهرة التي تقع على بعد ٢٠٠٠ ميـل من النهر ، واستغرقت هذه المسافة ثلاثة أسابيع من السفر حتى وصل إلي نقطة التقاء النيل الأبيض بالأزرق أي عند موقع قرية الخرطوم في ذلـك الوقت ، ولاحظ بروس أن النيل الأبيض كان عميقاً ، بل وكان أكثـر استمراراً في جريانه من النيل الأزرق . وينبع النيل الأبيض من منطقة خط الإستواء التي تهطل الأمطار عليها على مدار السنة ، وكتب بروس يقول ما نصه : " أن النيل الأبيض لم يعان من نقص المياه التي يعاني منها النيـل

الأزرق خلال فترة الجفاف التي تستمر شهور وكيفما كان الحال ، فـإن هذا يدل على التناقض ، وقد أصر بروس على تسمية النهر الذي اكتشفه " بالنيل " وطبقاً لتقديره ، كان النيل الأزرق يمثل المجري الرئيسي للنيل ، ويمثل النيل الأبيض فرع للنيل الأزرق .

ورغم أن بروس كان يتمتع بقوة جسمانية وشجاعة غير مشكوك فيها ، إلا أنه كان يشعر في نفس الوقت بالتعب والإحباط . ومما زاد الطين بلة فقد أصيب بروس بمرض دودة غينيا Guinea Worm ، التي تمثل مرضاً طفيلياً ، وكان قد أصاب المرض أحد رجليه ، مما جعل المشي بالنسبة له مسألة صعبة . ورغم ذلك فقد وصل بروس إلي سوق مدينة شندي ، وكان ذلك في شهر أكتوبر من نفس العام ، واستقر في هذه المدينة لمدة أسبوعين . وبالقرب من هذه المدينة اكتشف بقايا مستعمرة قديمة ، وقضي بروس وقته في هذه المدينة في فحص إطلال هذه المستعمرة. وعاش بروس هذه الفترة على نفقة بلاط ملكة شندي ، التي كانت إمرأة غريبة الأطوار وتبلغ من العمر أربعين عاما فقد أصيبت بإحباط ، ولكنها فرحت عندما قبل بروس يدها وتعجبت سائلة هل تعرف أنه لم يقبل يدي أحد من قبل ؟ فقال بروس " إن هذا التصرف من جانبي يعني الإحترام ، وشرح لها أن هذا أمراً عادياً وأن ذلك يعني التحية ففي انجلترا يقتصر ذلك على الملوك والملكات . وقد زادها ذلك سروراً ، ومع هذا فإنها في الواقع كانت متملقة ، وقد منحت بروس دليلاً كي يصطحبه في الرحلة " ، وفي نهاية الشهر واصل بروس مسيرته مع أفراد بعثته المكونة من تسعة أفراد ، الذين كانوا جميعاً يركبون الجمال ، وفي

أثناء سير البعثة مرت ببعض الأطلال ، التي أرجعها بروس إلي أنها بقايـــا مروى القديمة عاصمة النوبة ،وتقول الأسطورة أن مروى أسست بمعرفة موسي Moses تشريفاً لأبنه الفرعون مير in honour of Merr الذي كـان قد تبني موسي .

وقبل أن يعبر بروس نهر العطبرة الرافد الأخير للنـــهر ، أو آخـــر روافد النيل ، مكثت البعثة بها بعض الوقت حتى يتمكن بروس من شراء بعض الأبل ، لأنه في ذلك الوقت كان على بعثتـــه أن تواجـــه عبـــور الصحراء التي تبلغ مسافتها ٤٠٠ ميل ، وكان بروس قد اختار عبورهـــا لأنه يفضل أطول الطرق التي تتبع نهر النيل . وفي ١١ من شهر نوفمبر من نفس العام ، وبينما كانت جمال البعثة محملة اغتسل جيمس بـــروس في النيل وقال ما نصه : " هنا أسمح لنفسي أن أقول لمعارفي القدماء أنه لمـــن الأمور المشكوك فيها أن نتقابل هنا مرة ثانية " .

And thus took leave of my old a quaintance , very doubtful if we should ever meet again .

وكان بروس يعتبر الرحلة في الصحراء كالكابوس بسبب حـــرارة الشمس وبسبب العواصف الرملية ، ففي تلك الأثناء ، كانت رجله قـــد آلمته كما تقرحت رقبته وأدميت قدماه ، وعلاوة على ذلك فقد نفقـــت الجمال الواحدة تلو الأخرى وعنـــدما وصـــلت البعثـــة إلي بئـــر مـــاء a waterhole كانت الفرصة سانحة لملئه بالجمال الميتة (البئـــر) . وبعـــد ثمانية عشر يوماً من المسير وصلت البعثة إلي أسوان ، وأبحرت مع النيل إلي القاهرة .

وقد قضي جيمس بروس عدة شهور في أوروبا قبل عودتــه إلي انجلترا . وفي إيطاليا غضب بروس عندما قابل النبيل الإيطالي الذي عرف بروس أنه كان قد تزوج من الفتاة التي تركها بروس في اسكتلندا متحدياً بذلك الرجل سيئ الحظ (بروس) وبذلك نشبت مبارزة كلامية فيمـا بينهما . وقد كتب الأمير الإيطالي الذي لم يسمع أبداً عن بروس اعتذارا جاء فيه " أنه يعتذر وأنه أخطأ خطأ غير مقصود " ، عند ذلــك رحــل جيمس بروس إلي لندن التي وصلها في شهر يونيو عــام ١٧٧٤ ، بعــد غياب دام أحد عشر عاماً .

ويقول الكاتب هورس وول بول Horace Walpole أن بروس خلق إحساساً مختلفاً في الدوائر الرسمية البريطانية ، وأن كل أوروبا لا يمكنها أن تذكر فقرة جديدة عن أفريقيا زيادة على ما ذكره بروس ، حيــث أنــه السبب الأول في ظهور أفريقيا إلي حيز الوجود .

ويرجع الفضل في ذلك إلي المستر جيمس بروس الذي عاش ثلاث سنوات في البلاط الأثيوبي ، فكان يتناول إفطاره كل صباح مع حاشــية القصر الذين يتناولون لحوم الأبقار النيئة .

وقد أعتبرت قصص ومغامرات جيمس بروس قصصاً من نســج الخيال بحيث أن معظم أجزائها لا يصدقها أحد ، وقد أعد الملك جورج الثالث إستقبالاً رسمياً لبروس وتسلم منه بكل امتنان جميع الرسومات التي قام هو والفنان بالوجاني برسمها ، ومع ذلك فلم يحظ بأي اعتراف رسمي، حتى أن الجمعيات العلمية أنكرت إدعاء بروس الخاص بالكشــف عــن منابع النيل .

وكان الدكتور جونسون Dr . Johnson واحداً من خصوم بروس المشهورين ، وكان جونسون هذا في ذلك الوقت رجلاً مسناً . وقد ألف جونسون كتاباً بعنوان راسليس أمير أثيوبيا Rasselas the prince of Abyssinia وقد قدم جونسون الحبشة في هذا الكتاب على نحو مثالي ، بحيث أنها تختلف عن الواقع ، كما أنه ترجم إلي الإنجليزية رحلة الأب لوبو إلي الحبشة Father Lobo's A Voyage to Abyssinia . وكان جونسون معجباً بالجزويت ، وغضب عندما نعته بروس بالكذاب والأفاق . وقد رد جونسون على ذلك بقوله أن بروس غير جدير بالثقة تماماً .

أدي الإستقبال الفاتر لجيمس بروس إلي الأذى والإهانة ، مما حتم عليه التقاعد ومراعاة شئونه في أسكتلندا ، وعاش حياة زوجية سعيدة ولكنها كانت حياة قصيرة . وعندما ماتت زوجته طلب منه أحد أصدقائه بإلحاح أن ينسي حزنه ، وذلك عن طريق كتابة تقرير عن مغامراته ، وبالفعل كتب بروس مذكراته في كتاب بعنوان " رحلات للكشف عن منبع النيل " Travels to discover the source of the Nile وقد نشر هذا الكتاب عام ١٧٩٠ م ، أي بعد سبعة عشر عاماً من عودته من أفريقيا ومن الممكن قراءة هذا الكتاب اليوم ، بحيث يحس القارئ بمتعة كبيرة . وقد أرتاب بروس في أن الكتاب سوف يقوده إلي المتاعب . وعلى هذا ، فقد ذكر بروس في مقدمة هذا الكتاب أنه سوف لا يجيب على أي إعتراضات تافهة ، أو تحامل Captious أو تفاهات من المحتمل أن توجه ضده ، وقال بروس ما نصه : " عندما رغبت في كتابة التقرير كتبته " وبعبارته : " What I have written , I have written "

وكان بروس على حق من كل هذه المضايقات . فقد تناول النقاد الكتاب وقاموا بنقده بطريقة قاسية وجاء في نقدهم أن القصص التي وردت في كتاب بروس كانت عبارة عن سخريات ، ورفض كثير من الناس تصديقها ، بل قالوا أنه لم ير أبداً أثيوبيا ، ولكن على وجه التقريب زار منبع النيل .

وبسبب كل هذا ، فقد أصبح بروس مغتاظاً ومتشائماً وتقوقع أكثر من مرة في صومعته التي ظل بها حتى وافته منيته عام ١٧٧٩ م ، وهو في سن الرابعة والستين من عمره،وقد حكم معاصروه على معرفته لرحلته بإجحاف .

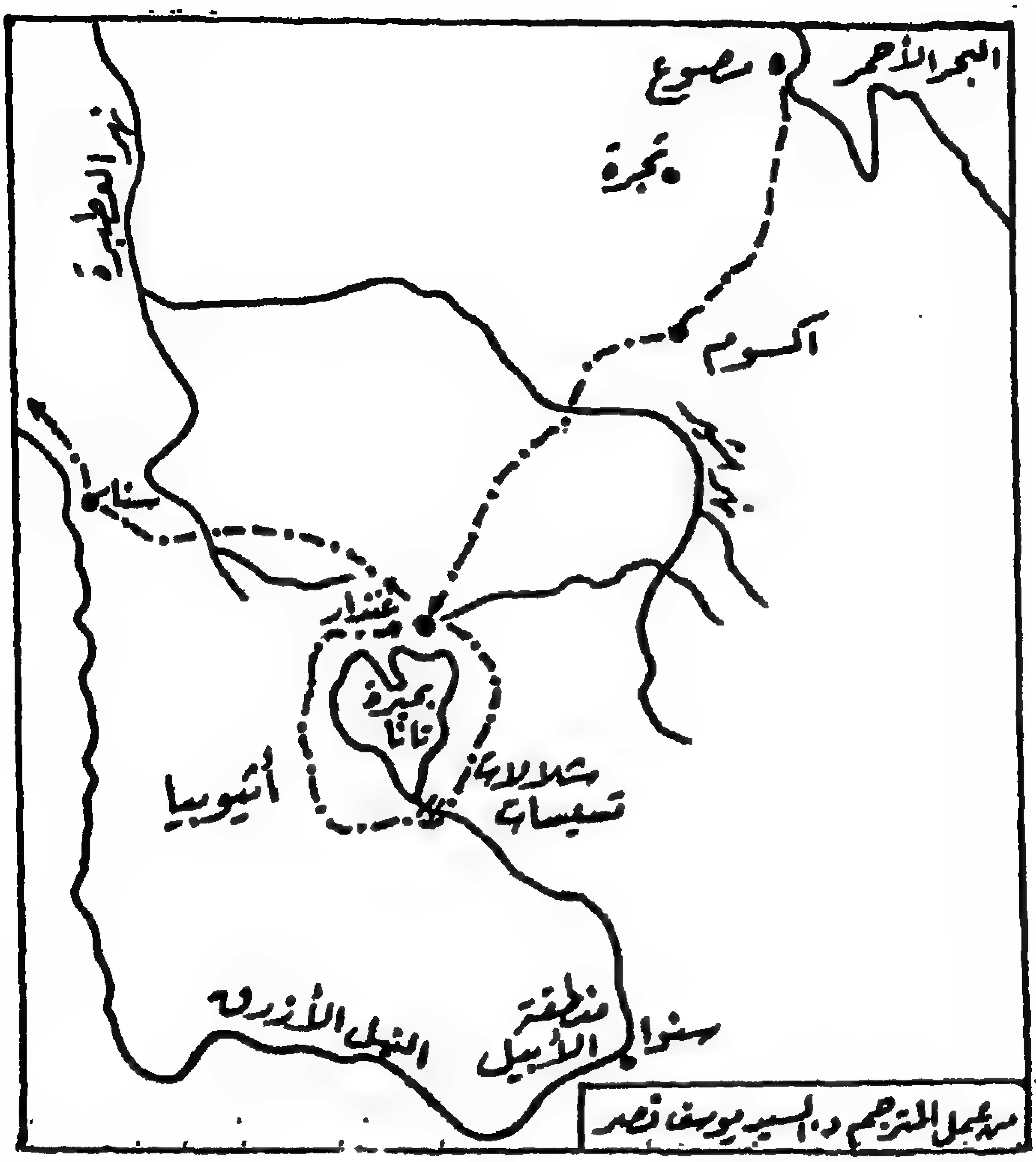
ولقد استمر الجدل حول المسائل الصحيحة والمسائل الخاطئة في تقرير بروس عن مغامراته ، وحتى إلي ذلك اليوم ، فهناك يوجد كثير من الناس الذين اعتقدوا في أن بروس كان أفاقا لأن كتابه في الحقيقة ، كان... يضم في صفحاته بعض المبالغات والمتناقضات . ولكن فيما بعد وجد الرحالة والمكتشفون أن كتابه يعتبر على جانب من الأهمية حيث أنه كان صحيحاً ودقيقاً ، ولا يوجد شك بالمرة في سفر بروس إلي الحبشة ، وزيارته لمنبع النيل الأزرق ، ومن المؤسف حقاً أن كبريائه وطموحه قاداه إلي أن يجحف أسماء مثل القسيسان بيز ولوبو ، وأن يخفي حقيقة أن بالوجاني كان قد رأي أيضاً منبع النيل الأزرق The fountains of the blue Nile وكان هذا عيباً خطيراً في رجل عرف بالشجاعة وسعة الحيلة ، والشهامة، والود والإنسانية .

وأخيراً فإذا كان بروس قد أكد ما رآه المكتشفون الأوائل ، فإنه قد سافر مسافات طويلة وتجول في مساحات شاسعة وقدم ثروة ذات قيمة عظيمة من المعلومات . وبهذه الطريقة فإنه فتح آفاقاً جديدة للرحالة الذين جاءوا من بعده ، ويمكن القول عنه بحق أنه أول مكتشف علمي لأفريقيا .



صورة المغامر جيمس بروس الذي جاء إلي الحبشة عام ١٧٦٨ ليكتشف منابع النيل الأزرق . من إعداد المترجم

الخريطة رقم "١" والخاصة ببعثة جيمس بروس عام ١٧٦٩



بدأ جيمس بروس رحلته من مصوع ماراً باكسوم فغندار ، ثم طاف حول بحيرة تانا وشاهد شلالات تسيسات . وبعد ذلك واصل رحلته حتى سنار ، ومنها وصل إلي مصر ، ثم سافر بعد ذلك إلي انجلترا .

التعليق على الفصل الثالث

نستخلص من دراستنا للفصل الثالث عبرا تاريخية على جانب كبير من الأهمية ، أولها أنه عندما تعرض بروس إلي صدمة وفاة روجته إنتابه اليأس ففكر أول ما فكر في السفر إلي أفريقيا ، القارة التي كانت أجزاء كبيرة منها لا تزال مجهولة ، كي يحقق لنفسه مجدا في مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية ، هذا من ناحية ، ولكي يشغل نفسه حتى ينسي همومه ، هذا من ناحية أخري ، ولكن قبل قيامه برحلته هذه كان عليه أن يعد نفسه إعداداً جيداً ، فتعلم عدداً من اللغات التي يحتاج إليها وهي الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والعربية ، فضلاً عن تعلمه الأمهرية (لغة الأحباش) وكان الهدف من وراء ذلك كله مواجهة كل الإحتمالات التي من الممكن أن تصادفه أثناء الرحلة فكان لديه المقدرة على التحدث مع أي شخص من غير بني جنسه ، أو قراءة أي مرجع بأي لغة . زيادة على ذلك ، تعلم مهنة الطب التي كانت غير معروفة تقريباً في أفريقيا كي يستخدمها أولاً كوسيلة لاستجداء عطف المسئولين في أي بلد يصل إليه ، والحصول منهم على ما يريد (وهذا ما حدث بالفعل مع بروس في الإسكندرية عندما قام بمعالجة كبار القوم فيها الذين حصل منهم على توصيات إلي حاكم مصوع وملك سنار) . وثانياً كي يقي نفسه من الأمراض التي يتعرض لها وبخاصة وأنه كان ذاهباً إلي قارة موبوءة بالأمراض المختلفة .

وفضلاً عن ذلك فقد أجاد بروس فن التنكر ، وذلك بارتدائه للزي العربي ، فأصبح وكأنه عربياً تماماً ، ولاشك أن هذا الأسلوب

سوف يمكنه بكل سهولة من التوغل في داخل هذه البلاد التي يتكلم سكانها العربية ، والذين يرتدون أيضاً الجلباب ، وبهذه الطريقة تمكن جيمس بروس على أقل تقدير أن يسهل لنفسه مهمته .

وإلي جانب هذا فإن جيمس بروس تميز بالجلد والجدية ، ويتضح ذلك من أنه تمكن ومجموعته من الصعود إلي تلال الحبشة والمسير بين صخورها ووديانها ، مما أصاب أقدامه بتقرحات كانت تؤلمه ، ولكن على الرغم من ذلك فإنها لم تمنعه من مواصلة مهمته ، وكان من الممكن أن تصيبه بمضاعفات خطيرة ، ولكنه تمكن بأسلوبه من التغلب على كل هذه العقبات التي اعتبرها بسيطة في سبيل تحقيق هدفه الأسمى ، ألا وهو الوصول إلي منبع النيل الأزرق .

وقد تميز بروس أيضاً بسعة الحيلة والذكاء ، ويتضح ذلك من مواقفه في مصر وذلك باستمالة كبارات القوم والحصول منهم على تصاريح تخول له تسهيل مهمته . كما نجح أيضاً في استمالة حاكم مصوع الذي رفض أن يسمح له بمغادرة الميناء إلا بعد أن يجرده من كل أمتعته ، ولكنه ألمح له بالتصريح الذي كان يحمله معه من مصر ، فيبدو أن هذا الحاكم قد تراجع عن قراره وسمح له بمواصلة المسير إلي داخل الحبشة . ومن الجدير بالذكر أن منطقة البحر الأحمر كانت تخضع للدولة العثمانية في ذلك الوقت وبالتالي فإن حاكم مصوع كان يتبع لهذه الدولة حتى ولو إسمياً . ومن حيله أيضاً أنه عندما توطدت علاقته مع الأميرة أيثر زوجة الراس مايكل إضطر إلي التخلص من هذه العلاقة حتى لا يتورط في مالا يحمد عقباه ، بل ويدخل نفسه في مشاكل هو في غني عنها .

وتتضح لباقته أيضاً مع الشيخ فاسيل حاكم منطقة بحيرة تانا الذي رفض السماح لبروس بزيارة النهر ، وقال بروس في هذا الصدد ما نصه : " لقد تعرضت لما كنت أتوقعه ، فقد ضاعت أمالي في الوصول إلي منبع النيل الأزرق ، بل إنتهت أمالي إلي الأبد ، وكما ضاعت ولسنوات عديدة كل متاعبي وأموالي ووقتي وكل معاناتي ، ليست بسبب عقبة كأداء ولكن بسبب حقد رجل همجي " . ولكن رغم ذلك فقد تمكن بذكائه من استمالة هذا الشيخ ، وذلك بمهارته في الفروسية وفي إطلاق النيران مما جعل هذا الشيخ أن يسمح له بالسفر تقديراً لكفاءته .

و لم تقف حيل بروس عند هذا الحد بل أنه قام بتصرفات ، ربما كان هو نفسه غير راض عنها ، ولكن ما دفعه لاقترافها هو رغبته في تحقيق هدفه الذي كرس حياته من أجله (كشف منابع النيل) . ويتضح ذلك من موقفه من شيخ مدينة تيوا ، الذي شك في سوء سلوك بروس مع زوجاته ، ولكن ، بروس تدارك الأمر قبل فوات الأوان ، وكف عن ممارسة هذا السلوك ، الذي من المحتمل أن يكون قد اقترفه عن طيب خاطر ، أو اقترفه لكي يحقق لنفسه التقرب من نساء القصر ويضمن لنفسه الإستمرار والإستقرار .

ولكن على الرغم من أنه أنهي رحلته التي بدأت من أسوان فصحراء شرق السودان فالبحر الأحمر ، فمصوع فغندار فسنار فأسوان فالقاهرة وأخيراً وصل إلي انجلترا ، إلا أنه لم يلق ترحيباً من المسئولين في بريطانيا بل قوبل بالنكران وعدم التصديق ، حتى أن الملك جورج الثالث نفسه لم يستقبله الإستقبال اللائق بمكتشف له قدره ، بل أستقبله بصفة

عادية و لم يأخذ عمله مأخذ الجد ، مع أن هذا الملك كان قد تسلم منه الكثير من الرسومات التي كان قد طلبها من بروس قبل بدء الرحلة .

وفضلاً عن ذلك كله ، فإن الجمعيات العلمية في بريطانيا لم تعترف بعمل بروس بل ورفضت تصديقه . و لم تنته المأساة عند هذا الحد، بل نجد بروس يتعرض إلي النقد اللاذع من جانب الكتاب . ويعتبر هذا في حد ذاته صدمة قوية لا تقل في ضراوتها عن الصدمة الأولي التي تعرض لها عند وفاة زوجته ، وربما لو كان بروس في كامل قوته لبحث عن مكان آخر يريح فيه نفسه أو ليبحث عن عمل آخر يقوم به كي يحقق مجداً آخراً.

وظل بروس هكذا يتعرض للنقد مدة طويلة وسبب ذلك يرجع إلي أنه لم يكن لديه أجهزة تصوير يصور بها كل الأشياء التي لمسها ورآها حتى تكون دليلاً مادياً على صحة رحلته ، وعلى صحة ما ذكر ، ولكن لسوء حظه لم تكن أجهزة التصوير قد وجدت بعد . ومما لا شك فيه أن عدم وجود أجهزة للتصوير لعبت دوراً هاماً فيما تعرض له بروس من نقم وإهانات .

ورغم ذلك كله فإنه يعاب على بروس أنه كان محباً لنفسه بل ومحباً للظهور وتحقيق المجد على غيره ، وقد أدي به ذلك إلي أن يكون ناكراً لجهد الغير ، ويتضح ذلك جلياً من مهاجمته للقسيسين بيز ولوبو اللذين كانا قد سبقاه في الوصول إلي منبع النيل الأزرق . كما أنه أغفل حق بالوجاني الرسام الإيطالي ، الذي كان يرافقه في هذه الرحلة حيث

قال بروس أن بالوجاني قد مات قبل أن يصل إلي منبع النيل الأزرق . وفي الحقيقة كان بالوجاني يرافقه في زيارته لمنبع النيل الأزرق .

ولكن على الرغم من كل المصاعب التي واجهها جيمس بروس والتي أتعبت حياته وجعلته يعيش حالة من اليأس أشد مما كان عليه الحال عقب وفاة زوجته وقبل بدء رحلته ، إلا أن الجمعيات العلمية في لندن ، وكذلك الرحالة الذين زاروا أفريقيا فيما بعد أقروا جميعاً بأهمية الرحلة التي قام بها بروس ، بل وأقروا بدرجة كبيرة بما جاء في كتابه من معلومات ، فقد تأكد بصورة لا تقبل الشك من أنه كان على صواب بل واعتبروه من الرحالة العظام الذين ساهموا بحق في الكشوف الأفريقية . ولكن لسوء الحظ فإن هذا التبجيل قد جاء متأخراً أي بعد فوات الأوان .

وكان من أهم نتائج رحلة جيمس بروس أنه تمكن من إلقاء الضوء على أحوال الحبشة فتعرض لعادات سكانها ولنظامها السياسي والإجتماعي كما قدم وصفاً غاية في الروعة لمناظرها الطبيعية ، هذا فضلاً عن أنه نقل لنا صورة عن حياة السكان في كل الممالك التي مر من خلالها مثل مملكة سنار وتيوا Tewa ومنطقة النيل النوبي .

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن القول بأن بروس كان رجلاً عظيماً ورحالة نشيطاً فقد لعب دوراً بارزاً رغم كل الصعاب التي اعترضت طريقه فلا يمكن بأي حال إنكار جهده في مجال الكشوف الأفريقية،وبخاصة أنه ذهب إلي أفريقيا في وقت كان لا يمكن الوصول إلي هذه المناطق إلا لمغامر لا يخشي الموت سواء أكان ذلك بسبب الإغتيالات أو بسبب الأمراض المتوطنة .

ومما يؤخذ على بروس في رحلته أنه لم يشر إلي سوق شندي ربما لأنه كان قد وصل إلي شندي في غير موعد انعقاد سوقها . مع أن جون لويس بركهاردت قد ذكر أن شندي ملتقي طرق التجارة ، فيخرج منها طريق يتجه إلي مصر وآخر يتجه شرقاً إلي الجزيـــرة العربيـــة وثالثـــاً إلي جنوب الحبشة ، ورابعاً يتجه غرباً إلي بحيرة تشاد . وكان من أهم السلع التي ترد إلي سوقها الإبل والعبيد واللحم واللبن والتبغ والبن وكان التجار يروجون لتجارة ريش النعام ، هذا فضلاً عن وجود التوابل والأحجبـــة والسروج .

وكانت الخيول تأتي إلي سوق شندي من دنقله والـــذهب مـــن الحبشة ، والخرز من مصر والملابس الجميلة من الهند ، والعطـــور مـــن الجزيرة العربية ، والأدوات الزجاجية من البندقية وشفرات الحلاقة مـــن ألمانيا، والورق من إيطاليا ، أي أن هذا السوق كان سوقاً عالمياً . ولكن رغم ذلك فإن كل هذه السلع المختلفة كانت لا تقارن بالسلعة البشـــرية (العبيد) فقد قدر جون لويس بركهاردت عدد العبيـــد الـــذين كـــانوا يصدرون من سوق شندي كل سنة بنحو ٥٠٠٠ عبد . وكان هذا العدد يشتمل على الفتيات اللائي يبلغن من العمر أقل من خمسة عشرة ســـنة ، وكان سعر الفتاة الواحدة ٢٥ دولارا أسبانيا ، بينما بلغ سعر الفـــتى ١٥ دولارا أسبانيا . وكانت أعمار الأطفال الذين يعرضون للبيع في ســـوق شندي تتراوح فيما بين ٤ ، ٥ سنوات [1] .

---

[1] Elspeth Huxley : Encyclopedia of Discoveries and Exploration , the challenge of Africa No. 12 London 1971 p. 81 .

الفصل الرابع

منجو بارك ونهر النيجر

الفصل الرابع

منجوبارك ونهـــر النيجر

عندما كان بروس يواصل تجواله (في الحبشة) إندلعت الشــرارة الأولي في الحرب الطويلة ضد تجارة الرقيق ، وقد ساهمت الدول الأوروبية في هذه الحروب . ففي عام ١٧٧٢ م ، أصدر اللورد مانســفيلد Lord Mansfield قاضي محكمة انجلترا العليا حكما قضائياً يقضي بتحرير كــل العبيد الذين يعيشون على التراب الإنجليزي .

وقد تمثلت المرحلة التالية في إلغاء تجارة الرقيق البريطانية وبعد ذلك بدأ التدخل في أفريقيا ، وكان على المؤيدين لإلغـــاء تجــارة الرقيـــق أن يخوضوا حرباً طويلة الأمد ضد المعارضين بقوة لسياسة إلغــاء الرقيـــق ، حيث كان لهم مصالح ثابتة في استمرار هذه التجارة . وفي عام ١٨٠٧ ، أصدر مجلس العموم البريطاني مرسوماً يقضي بأنه بعد شهر يناير من عام ١٨٠٨ ، ينتهي التعامل في تجارة الرقيق سواء في داخل أفريقيا أو في نقل العبيد منها إلي أي مكان آخر ، وقد أعلن أن هذه التجــارة أصــبحت محظورة وغير شرعية unlawful . وفي عام ١٨٠٧ ، خصصت نسبة مــن الأرض التي كان قد تم شراؤها من الملك المحلي عام ١٧٨٨ م ، كي تنشأ عليها مستعمرة تكون بمثابة مستوطنة للعبيــد الأفــريقيين المحــررين ، وأصبحت هذه المستعمرة تابعة للتاج البريطاني Crown Colony .

وفي غضون ذلك ، كانت السلطات أو الحكومات (الأوروبية) على علم بأنه في حالة إلغاء تجارة الرقيق فمن المحتم على هذه الحكومات

أن تحل تجارة شرعية محل تلك التجارة ، على أن تحدد المنطقة التي يمكن ارتيادها ومسحها وكشفها قبل أن تبحث إمكانيات هذه التجارة مع داخل أفريقيا .

وكان النصير الأول للكشف الأفريقي هو السير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks فقد ولد بانكس في عام ١٧٤٣ م ، وهو ابن رجل من ملاك الأراضي الأثرياء ، وتولي بانكس رئاسة الجمعية الملكية لما يزيد على ٤٠ عاماً ، وتعتبر هذه الجمعية أقدم هيئة علمية بريطانية ، بل وأكثرها شهرة . ويعتبر بانكس أيضاً العضو المؤسس للنادي الذي كان يلتقي فيه كل أسبوع ليتناول العشاء ، ومناقشة المواضيع العلمية . وفي السابع من شهر يونيو عام ١٧٨٨ م ترأس بانكس الحديث الذي انصب على أفريقيا وعلى داخلها المجهول ، وقبل نهاية الجلسة المسائية كون الأعضاء من أنفسهم رابطة كان الهدف منها تنشيط حركة الكشف الجغرافي للأقاليم الداخلية من أفريقيا ، وعرفت بإسم الرابطة الأفريقية :

"Association for promoting the Discovery of the Inland Districts of Africa " or the African Association as it came to be called .

وكان من أهداف الرابطة الجديدة إيجاد تجارة بين بريطانيا وغرب أفريقيا ، على أن تتبع مجري النيجر ، هذا النهر الذي لم يــراه أي أوروبي والذي تقع على شواطئه مدينة تمبكتو المتألقة . وقد اعتقد بعض الجغرافيين أن نهر النيجر فرع من فروع نهر النيل ، ولكن على الرغم من ذلك فإنهم لم يستطيعوا أن يقرروا أن هذا النهر ينبع من الغرب أم الشرق ، واعتقد البعض الآخر من الجغرافيين بأنه من المحتمل أن يكون هذا النهر أحد فروع نهر الكنغو أو ربما يكون هو نهر الكنغو نفسه . ومع ذلك فقد

كانت هذه تخيلات ، والسبب في ذلك يرجع إلي أن الكشف البريطاني لهذه المنطقة لم يكن قد تعدي بعد أنهار السنغال وجامبيا ، بل كان كل ما تم كشفه من هذه المنطقة هو عبارة عن كشف مسافات قصيرة كانت قد تمت في شبكة أنهار الزيت التي تصب مياهها في ساحل خليج غينيا .

وكانت الحاجة الملحة أمام الرابطة الإفريقية أن تقوم بتجنيد المتطوعين الذين يرغبون في الذهاب إلي غرب أفريقيا على وجه السرعة ، وقد سر سكرتير الرابطة الأفريقية عندما استدعاه أحد المتطوعين في صباح أحد الأيام وقال له أنه على أتم استعداد للقيام برحلة كشفية في اليوم التالي . وكان هذا المتطوع مغامر أمريكي ، يدعي جون ليديارد John Ledyard الذي يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً . وقد ولد ليديارد في بلدة جروتون الواقعة في ولاية كونيكتيكت Connecticut Groton ، وعندما وصل ليديارد إلي إنجلترا أول الأمر التحق بالقوات البحرية البريطانية ، ثم أبحر بعد ذلك مع الكابتن كوك في رحلته الأخيرة إلي البحار الجنوبية . وكان ليديارد قد تقابل مع السير جوزيف بانكس ، الذي أرسله على رأس بعثة تنطوي عليها مخاطر جسيمة إلي كامشاتكا Kamchatka في سيبريا Siberia وهناك لم يقدم طلباً للبقاء في سيبريا ، فأبعدته السلطات الروسية عن البلاد ، وعلى أثر ذلك عاد إلي لندن خاوي الوفاض . وفي ذلك الوقت وجهت الرابطة الأفريقية الدعوة إليه كي يذهب إلي مصر ، ومنها يعبر الصحراء الليبية حتى يصل إلي نهر النيجر . وكان ليديارد مصمماً على الوصول إلي مدينة تمبكتو ، ولكنه لم

يتمكن من الذهاب أبعد من القاهرة ، وذلك بسبب تعرضه للمرض الذي أودي بحياته .

وفي الوقت الذي كان فيه ليديارد في طريقه إلي مصر ، أرسلت الرابطة الأفريقية متطوعاً آخراً إلي شمال أفريقيا ، يدعي لوكاس Lucas وكانت الرابطة الأفريقية قد زودته بتعليمات مفادها القيام بعبور الصحراء، ثم التوجه بعد ذلك إلي نهر النيجر . وكل ما أمكن لوكاس القيام به هو جمع كمية من المعلومات التي تشير إلي وجود طرق تجارية تمر من الصحراء . وفي عام ١٧٨٩ م ، جاء من بعده رحالة آخر يدعي فردريك هورن Ferderick Horne man الذي بدأ رحلته من مصر ثم عبر الصحراء الليبية ووصل بعد ذلك إلي واحة مرزوق Marzuk التي كانت تمثل مركزاً تجارياً هاماً في ذلك الوقت ، وتمثل كذلك عاصمة لمنطقة فزان Fazzan ، وبعد أن غادر فردريك واحة مرزوق ، اختفي دون أن يترك أي أثر .ومن بعد اختفاء فردريك ، جاء رحالة رابع ، يدعي الميجور هوغتون Major Houghton الذي وصل إلي الساحل الغربي ، وبدأ سيره مع نهر جامبيا ووصل بعيداً إلي ميدينا Medina في السنغال ، وبعد ذلك نصب له رجال القبائل كمينا فاغتالوه وسلبوه أمتعته .

وبعد هذه النكسات الأولية تذكر بانكس طبيباً شاباً كان يعمل على متن سفينة ، وكان قد أحضر معه مجموعة من النباتات أثناء الرحلة التي قام بها إلي جزر الهند الغربية ، وكان هذا الطبيب يدعي الدكتور منجو بارك Mungo Park ، الذي ولد في عام ١٧٧١ م ، وكان هو الطفل السابع لفلاح أسكتلندي ، يعيش في سلكيرك شير Selkirkshire

الواقعة بالقرب من نهر يارو Yarrow ، وكان بارك قد تلقي تعليمه في المدرسة الثانوية بالمنطقة The Local grammar School وبعد ذلك أكمل دراسته الطبية في جامعة أدنبره The University of Edinburgh .

وكانت ممارسة مهنة الطب البسيطة في ذلك الوقت في أسكتلندا لا تشبع طموح ونشاط وتطلعات بارك حيث كان تواقاً للقيام بأي مشروع أو عمل يختبر فيه قوته وجسارته لذلك فإنه سافر إلي لندن حيث تقابل مع بانكس ، ولما علم بانكس برغبة بارك في السفر ، أستخدم بانكس نفوذه في الحصول على وظيفة لبارك ، بحيث يعمل كطبيب على ظهر سفينة ، وعندما سأله بارك عن نتائج رحلته الأخيرة دعاه بانكس للذهاب إلي غرب أفريقيا ، وذلك للبحث عن نهر النيجر .

وكان بارك طموحاً ، وكعهد بانكس به ، بل كان لديه حب إستطلاع ، وكان يتميز بقوة الملاحظة الدقيقة التي تكون علامة حقيقية من علامات العالم ، ولهذا قبل العرض الذي تقدم به بانكس على وجه السرعة . وفي عام ١٧٩٥ م ، أي وهو في سن الرابعة والعشرين أبحر منجو بارك من ميناء بورتسموث Portsmouth ووصل إلي نهر جامبيا بعد شهر من بدء الرحلة الخالية من الأحداث .

وكان بارك قد عرف جيداً أن الرحلة في الداخل لن تكون خالية من الأحداث وكان لديه إيمان لا حدود له infinite في قدراته الخاصة Capabilities وفي نوايا الرابطة الأفريقية . وفي هذا الصدد أعلن بارك ما نصه " ينبغي على أن أهلك في رحلتي ، كما ينبغي أن تهلك معي آمالي وتوقعاتي ، وينبغي علي كذلك أن أنقل جغرافية أفريقيا بحيث تصبح

معروفة أكثر لأهلَ بلدي ، وأن أفتح أمام طموحاتهم وأمـــام صـــناعتهم مصادر جديدة من الثروة ، وقنوات جديدة للتجارة ، وإنني على يقين من أنني في أيدي رجال شرفاء ، هؤلاء الرجال الـــذين لم يضـــنوا بالبـــذل والعطاء، وذلك لأن خدماتي الناجحة سوف تظهر لهم جدارتي " .

وقبل أن يبدأ بارك رحلته ، قضي عدة شهور في تعلم لغة الماندنجو Mandingo التي يتحدث بها سكان منطقة كبيرة من الداخل ، وكان بارك يهدف من وراء تعلم هذه اللغة التحدث إلي السكان المحليين دون مترجم. وفي نهاية العام ، غادر بارك بيزانيا Pisania الواقعة على نهر جامبيا ، وكان بصحبته إثنين فقط من الخدم الأفريقيين ، بالإضافة إلي أنه حمـــل معـــه كميات صغيرة من المعدات . وكان بارك في تلك الأثناء مرتـــدياً زيـــه الوطني (الزي الأسكتلندي) وقد تكون هذا الزي من بنطلـــون مثبـــت أسفل الركبة ، ومن معطف ثقيل زاهي الزرقة a Heavy bright blue Coat مزود بزرراير مذهبة with gilt buttons ، كما كان يرتدي قبعة صـــلبة وطويلة ، وقد ثبت أن هذه الزراير كانت مغرية للغايـــة ، وأنـــه مـــن الضروري مقاومة هذا الأغراء ، وقبل أن يمضي على بدء رحلـــة بـــارك وقت طويل ، سرق معطفه ومعظم أمتعته أو ممتلكاته ، ومع ذلك فقـــد نجح في الاحتفاظ بقبعته ، التي لم يقتصر إستخدامها كغطـــاء للـــرأس ، ولكنه إستخدمها كمكان يخفي فيه ملاحظاته التي شملت سكان غـــرب أفريقيا ومنتجاتهم وتجارتهم ، ونباتاتهم وحيواناتهم ، وكان منجو بـــارك دقيقاً في ملاحظاته تماماً لدرجة أنه لم يسجل حقيقة قابلـــة للشـــك أو للنقاش .

وفي البداية كان كل شئ على ما يرام حيث كانت البعثة تتجـه صوب الشرق مارة من خلال دول صغيرة يحكمها ملوك مـن الزنـوج الذين كسب بارك صداقتهم عن طريق إستعداده العاطفي وعـن طريـق أسلوبه السهل اللطيف ، وعن طريق مزاجه المعتدل غير المتغير . وفـضلاً عن ذلك فقد زودته هذه الصفات الجميلة بشجاعة هائلة .

وكان بارك مدركاً تماماً لمصير أسلافه ، ومع ذلك فإنه لم يتراجع عندما رأي المكان الفعلي في الغابة ، هذا المكان الذي أغتيل فيه الميجـور هوغتون Major Houghton .

وكان ملوك هذه الدول الوثنية في حالة حرب كل مع الآخـر ، وكان هدفهم الوحيد من وراء هذه الحروب هو الاستيلاء على المساجين (أسري الحرب) وبيعهم كعبيد ، وكانت تجارة الرقيق هـي الـشكل التجاري الوحيد ، حيث كانت تجارة مربحة للغاية ، وقد قرر بارك بـأن مالا يقل عن ثلاثة أرباع السكان من مجموع ما قابلهم كانوا عبيداً ، أما عن طريق أسرهم في الحرب أو أنهم إرتكبوا إحدي الجـرائم أو أنهـم لم يتمكنوا من دفع ديونهم . ولكن رغم ذلك فإن ملوك هذه البلاد نهبـوا أمتعة بارك بل وعطلوه ، ولكنهم لم يصيبوه بضرر ، وفي الواقع ، أهـتم هؤلاء الملوك بسلامته ، فقد توسلوا إليه ألا يذهب بعيداً عن بلادهم .

وفي ميدينا Medina الواقعة بالقرب من النقطة التي قتـل فيهـا هوغتون Houghton يقول بارك ما نصه : " وفي ميدينا طلب مني ملـك وولي Woolli بكل لطف أن أتخلي عن غرضي في الـسفر إلي الـداخل ، وقال لي ... لو تتبعت (خطوات هوغتون) فإنه من المحتمـل أن ألقـي

نفس المصير . وأضاف أنني أسيطر على السكان الذين يقطنون الجهة الشرقية مثلما أسيطر على سكان الوولي ، الذين سبق لهم أن شاهدوا الرجل الأبيض من قبل ويكنون له الإحترام . مع أن السكان في الشرق أو في الجهة الشرقية لم يروا الرجل الأبيض ، وأنه من الممكن أن يدمرونني . بعد ذلك شكرت الملك على قلقه علي بإخلاص ، وأخبرته أنني مهتم بهذه المسألة ومصمم على تنفيذها ، على الرغم من كل المخاطر التي تحيط بها ، فإنني سوف أقوم بالسفر وعندئذ هز الملك رأسه ، ولم يثنين عن عزيمتي ".

وقد زود هذا الملك منجو بارك بمرشد ليساعده في المرحلة التالية من رحلته . وكان بارك متجهاً إلي نهر النيجر ، وفي الطريق كان بارك يسجل كل ملاحظاته ، وعلى الفور توقف بارك ليتفحص نوع من الأثواب الخاصة بالتنكر والمصنوع من لحاء الشجر ، وكان هذا الثوب يخص غول غريب a strange bugbear وكان هذا الغول مألوفا بالنسبة لسكان مدن الماندنجو Mandingo وعرف باسم ممبوجومبو Mumbo Jumbo ،وكان الرجال هم الذين يرتدون هذا الثوب (ثوب الغول) كي تبقي نسائهم خاضعة لهم ، وفيما يتعلق بالرجال في هذه القبائل فإنهم لم يتقيدوا بتعدد الزوجات ، فكل رجل يتزوج أكبر عدد من السيدات ، يمكن أن يحتفظ به بسهولة ، وكثيراً ما يحدث أن الزوجات لا تتفق فيما بينهن ، وفي بعض الأحيان كان النزاع الأسري يصل إلي الذروة لدرجة أن سلطة الزوج لم يعد في مقدورها حفظ السلام في بيت الزوجية House hold . وفي هذه الحالة يستدعي الممبوجومبو وهو في كل الأحوال يكون الفيصل الحاسم .

وكان هذا الوزير القريب للعدل (الذي من المفترض أن يكون فيه الزوج نفسه أو أحد الأشخاص الذين يختارهم الزوج أيضاً) ، يرتدي هذا اللبس الحقير الذي أشرنا إليه فيما قبل ، وأن يتسلح بصولجان يمثل السلطة العامة ثم يعلن عن قدومه ... بصرخات مرتفعة وحزينة ... وبعد ذلك يبدأ تمثيله الصامت Pantomime وبخاصة عند اقتراب الليل ، وعلى الفور يحتشد سكان المدينة وبعد ذلك يبدأ الحفل بالأغاني والرقص الذي يستمر حتى منتصف الليل ، وعند هذا الحد يستقر رأي الممبوجومبو على المذنب ، وبعد ذلك يلقي القبض على الضحية ، وتنزع ملابسها وتصبح عارية ، وتربط في عمود وتجلد بعصا الممبوجومبو وسط صياح وسخرية المحتشدين ، ومن الملاحظ أن بقية السيدات يصحن بأعلي أصواتهن في هذه المناسبة على أخواتهن غير السعيدات .

وقبل أن يعبر منجو بارك الحدود بين دولة الوولى ودولة البوندو Bondu شاهد مباراة في المصارعة بين بطلين ، ولاحظ بارك في تلك الأثناء قرع الطبول ، التي بواسطتها تنتظم العاهم على أي مقياس . وعند الرقص الذي يعقب المباراة تواصل هذه الطبول القرع ... كي تحفظ النظام بين المتفرجين حيث كانوا يقومون بتقليد بعض من جمل الماندنجو Mandingo . وهكذا فقد أكتشف بارك حقيقة مفادها أنه طالما أن القرع على الطبلة يشبه أصواتاً للغة بسيطة فإنها واضحة ككلمة منطوقة لأي واحد يفهم اللغة .

ولقد واصل منجو بارك أبحاثه بكل جد واستقصاء فوصف في مذكراته الأساليب التي استعملها تجار الرقيق مع عبيدهم ، لمنعهم من

الهروب ، كما قام بارك بفحص تراب الذهب وكذلك قام بفحص صبغ الملابس القطنية بالنيلة وذلك من أجل الحصول على اللون الأزرق الممتاز، وحتى عندما سجن بارك وأحيط بالخيالة الذين جروا من خلفه وحاصروه والذين كانوا يدورون بنادقهم التقليدية من حول رؤوسهم كما لو كانوا يعذبون حيواناً متوحشاً ، فقد هدأ بارك من روع نفسه ، وذلك بتدوين الملاحظات عن الفروسية عند هؤلاء الناس .

ومع ذلك ، فقد انتظرته متاعب فيما وراء حدود الدول الوثنية الصديقة وقبل أن يبدأ بارك رحلته أعاد تجهيز نفسه بالإمكانيات المتواضعة المتاحة وذلك بمساعدة أحد التجار الأوروبيين ، وبعد ذلك واصل مسيره في داخل الممالك الإسلامية الكبيرة ، التي كانت شعوبها تعمل على نشر العقيدة الإسلامية بين الشعوب الوثنية . ويمثل هؤلاء المسلمون (أو المراكشيون) جزء من العرب وجزء من الزنوج ، الذين كانوا يحكمون بمعرفة سلاطين أو أمراء . وعلى الفور مر بارك من خلال مقاطعة يحكمها حاكم مسلم ، وفي تلك الأثناء تعرض للهجوم وللسرقة . وعند هذه المنطقة أعلن خدمه الزنوج أنهم لن يستطيعوا الذهاب أبعد من ذلك لخوفهم من وقوعهم فريسة في أيدي تجار الرقيق . لهذا اضطر بارك إلي مواصلة السفر بمفرده . . .

ولو أن خدم بارك أسرعوا بالعودة فكان من المحتمل نجاتهم من الأسر ، ونظراً لأنهم لم يفعلوا ذلك فقد تم أسرهم ، ولم يتمكن بارك من مساعدتهم لوقوعه هو أيضاً في الأسر ، وعاد بارك من الطريق الذي تبعه عند الحدود ، وطوال بقية حياته فإن منجو بارك كان دائماً يحلم بتلك

الأيام التي قضاها في السجن بواسطة المراكشيين ، الذين عاملوه بمنتهي القسوة ، وكان من أمثلة هذه القسوة أنه في إحدي المرات طلب أن يشرب ماء من أحد الآبار فاضطر رجل مسن إلي جذب دلو وملأه بالماء، وبمجرد أن اقترب بارك من الدلو ليمسكه بيده ، تذكر هذا الرجل المسن على الفور بأن بارك رجلاً أوروبياً " لهذا خشي الرجل المسن أن يتنجس دلوه من شفتي (.... بارك) ، فسارع بسكب الماء في حوض كانت ثلاث أبقار تشربن منه ، وكان على بارك في هذه الحالة أن يشرب مع تلك الدواب beasts .

وعلى الرغم من كل الإضطهادات التي تدعو إلي الشفقة والتي أجبر على تحملها من أجل حصوله على المعلومات كما أنه لولا وجوده لكان خدمه حتى الآن ينعمون بالحرية ، وأن بارك نفسه لم يفقد أعصابه وأراح عقله من دراسة اللغة العربية ، ولم يكن الموت بعيداً عنه ، فلولا شفقة بعض النساء لكان من المحتمل أن يموت جوعاً ، إذا لم يمت هو مقتولاً ، هذا فضلاً عن أن المراكشيين كانوا يحتقرونه بصفته مسيحياً ، ولم يصدقوا ببساطة أنه كان مكتشفاً ، بل أنه كان رسولاً لغزو مسلح ، والسمة الوحيدة التي بدا أنهم يقدرونها فيه هي لحيته الحمراء الوقورة ، وفي هذا الصدد يقول بارك ما نصه : " أعتقد في نفسي أنهم رأوا في هذه اللحية وقاراً بالنسبة لي كمسيحي " وبعبارة :

" I think , in my conscience he wrote they thought it too good a beard for a christian " .

وبعد ثلاثة شهور تقريباً قرر بارك بصفته أسيراً ، أن فرصته الوحيدة في الحياة هي الهروب . ويقول في هذا الصدد " أنني لو ذهبت إلي

الأمام بمفردي ، فإن ذلك يعني أنني سوف أواجه صعوبات جمة ... ومن ناحية أخري ، فإن عودتي إلي إنجلترا ، دون أن أنجز هدف بعثتي سوف يكون أسوأ من الحالة الأولي ، وبعبارته :

" And yet , if I went forward – singly , it was evident that I must sustain great difficulties , On the other hand , to return to England without accomplishing the object of my mission , was worse than either " .

ولهذا تستر في أحد خدمه السابقين الذي تصادف أنه كان مسجوناً في نفس المعسكر حيث تمكن من الهرب ، عندما كان المراكشيون نائمين وواصل منجو بارك مسيره بصعوبة لمسافة ميلين ، وعند ذلك سمع طلق ناري وقفز عليه ثلاثة من المراكشيين وهم يصيحون ويلوحون بأسلحتهم ذات الأنبوبتين أو ذات الماسورتين . وعندما يكون العقل البشري في حالة تأرجح بين الأمل واليأس لفترة من الوقت ، فإن الإنسان قد يصاب بالقلق والضيق ، بحيث لا يستقر على حال ، وفي هذه الحالة يصاحب الإنسان حالة من الراحة الكئيبة ، حيث يدرك أسوأ ما يمكن أن يحدث وهكذا كان موقفي . وبعبارته :

" He added tortured with anxiety , and hurried from one extreme to another , it affords a sort of gloomy relief to Known the worst that can possibly happen ; such was now my situation ... ".

ومن حسن الحظ أن هؤلاء المراكشيين أرادوا أن يسرقوه ، ولم يرغبوا في أخذه (بارك) أسيراً أو سجيناً ، بل رغبوا في الحصول على حزمة صغيرة كانت معه بها قليل من الملابس ، وبعد ذلك تركوه وحال سبيله ، وكان بارك في حالة شديدة من الضعف بسبب الجوع والعطش والحمي ، بل وانتابته الهواجس بصفة مستمرة ، بسبب خوفه من وقوعه في الأسر مرة ثانية ، لهذا ناضل بارك طوال هذه الرحلة حيث كان

متوجهاً إلي الجنوب الشرقي . وفي شهر يوليو عـــام ١٧٩٦ م ، التحـــق بجماعة من الهاربين من بطش المراكشيين ، وصحبهم إلي السوق الكبير في مدينة سيجو Segu الواقعة على نهر النيجر . وفي النهاية رأي منجو بارك نهر النيجر العظيم بعد بحث طويل تتلألأ مياهه تحت أشعة شمس الصباح ، ونهر النيجر متسع مثل نهر التيمــز Thames الموجــود في وستمنســتر Westminster ، وتتدفق مياه نهر النيجر ببطء في اتجاه الشرق . وقال بارك " أسرعت إلي ضفة النهر ، وشربت من مياهه ونهضت وقدمت الشــكر بحرارة في صلاتي إلي الله الأعظم لكل هذه الأشياء . وعند هذه النقطــة كللت مساعي .... بالنجاح " .

" I hastened to the brink , and having drank of the water , lifted up my fervent thanks in prayer to the Great Ruler of all things , for having thus for Crowned my endeavours with success " .

ولم ير منجو بارك نهر النيجر فقط ، ولكنه حــل واحــدة مــن المشاكل التي حيرت الجغرافيين في أوروبا ، فقد ثبت أن النهر يتدفق مــن الشرق وليس من الغرب .

وعند هذا الحد كان منجو بارك متعباً ، ومرتدياً زياً عبارة عــن خرق بالية ولكن مع ذلك ، كان لا يزال متمسكاً بالقبعة الطويلة الــتي كان يحفظ فيها ملاحظاته السابقة ، وفي الغالب ناضل منجو بارك حــتى قطع مسافة طولها مائة ميل ، بطول الضفة الشمالية للنهر * فقــد بــذل جهداً كبيراً كي يتتبع مجراه . وفي ذلك الوقت كان فصل الأمطار قد بدأ، وارتفع بذلك منسوب ماء النهر بصورة مخيفة ، ولم يعد مع بارك أموال ؛ ولكن لكي يواصل سيره ، كان عليه أن يتوغل أكثر من مرة في داخــل

* في حالة البحر نقول شاطئ البحر أو البحيرة أو ساحل البحر .

قطر إسلامي معاد ،وكان عليه أيضاً أن يتواجد بين شعب لا يستطيع أن يتحدث بلغة سكانه ، لهذا تخلي عن هدفه ، وواصل المسير لمدة إثني عشر يوماً إلي تمبكتو .

وقد عاد بارك من هذه الرحلة وهو في غاية الضيق ، وكان أثنائها مضطرباً ، ومع ذلك فقد كان عليه أن يقطع مسافة طولها ٣٠٠ ميل تجاه الغرب ، حتي يصل إلي كماليا Kamalia وقد خابت آماله بدرجة كبيرة ، وبعبارته : At the very Lowest ebb of his fortunes وقد رحب به تاجر رقيق مسلم ، يدعي كارفاتورا Karfataura الذي أبقي منجو بارك طرفه مدة سبعة شهور ، ولم يكن بارك أثناء هذه المدة أسيراً ولكنه كان ضيفاً شرفياً ، وقد عالج هذا التاجر المسلم بارك من نوبة حمي انتابته مدة طويلة. وعندما شفي بارك تماماً من مرض الحمي التحق بقافلة الرقيق التابعة لكارفا بحيث صحبها منجو بارك مسافة ٥٠٠ ميل ، حتي وصل إلي نقطة البداية في جامبيا . وهناك استقبله أحد أصدقائه من التجار الأوروبيين، كواحد خرج من القبر وبعبارته : As one risen from the dead فمن مدة طويلة كان هؤلاء التجار الأوروبيين قد تخلوا عن بارك لاعتقادهم أنه فقد ، وخشوا عليه أن يلقي نفس مصير هوغتون Houghton الذي كان قد اغتيل من قبل في نفس المنطقة .

وبعد ذلك ، وصل منجو بارك إلي لندن ، وكان ذلك في عام ١٧٩٧ م ، ومن محاسن الصدف أن يوم وصوله إلي لندن كان يوم عيد رأس السنة الميلادية ، وعلى الفور أخبر بارك السير جوزيف بانكس Sir Joseph Banks الذي كان فخوراً بإنجازات بارك بدرجة

كبيرة...وعلى أثـــر ذلـــك قـــررت الجمعيـــة الإفريقيـــة The African Association أن تبقي بارك في خدمتها ، حتى ينتهي من كتابة مذكراتـــه في صورة كتاب . وبعد ذلك عاد بارك إلي أسكتلندا لمقابلة والدته التي أصبحت في ذلك الوقت أرملة Widow بعد وفاة والده .

وقد عنون بارك كتابه بـــــ " رحلات في المناطق الداخلية مـــن أفريقيا " . وبالإنجليزية على النحو التالي :

" Travels in the Interior Districts of Africa "

وقد نشر هذا الكتاب عام ١٧٩٩ م . وكان متداولاً لدرجة كبيرة ، كما ثبت أنه لا غني عنه بالنسبة للمكتشفين التاليين أو الذين أتوا بعد ذلك إلي أفريقيا . وفي هذا الوقت ، تزوج منجو بارك من محبوبته أيلي Ailie ، أبنة الطبيب الجراح الذي درب بارك على مهنة الطب ، بحيث أصبح بارك في ذلك الوقت يمارس هذه المهنة كطبيب . وفي تلك الأثناء رغب جوزيف بانكس رئيس الرابطة الأفريقية في أن يرسل منجو بارك إلي أستراليا كي يكشف داخلية هذه القارة المجهولة ، ولكن بارك رفض هـــذا العـــرض والسبب في ذلك يرجع إلي زواجه السعيد للغاية ، لذا أصـــبح في هـــذا الوقت غير راغب في السفر إلي مسافات بعيدة .

وفي صباح عام ١٨٠٤ م ، صعد صديق بـــارك الـــذي يـــدعي Sir Walter Scott السير وولترسكوت الروائي المشهور ، التلال كي يزور الطبيب (منجو بارك) فوجده يلقي بالأحجار في بركة عميقة واقعة بين سلسلة صخور يارو Yarrow ، وكان منجو بارك في تلك الأثناء يراقـــب عن كثب الفقعات المائية أثناء صعودها إلي الســـطح ، وقـــد وصـــف

لوكارت سكوت Lockart Scott كاتب تاريخ حياة المشاهير هذا اللقاء الذي جاء فيه ما يلي :

" وهكذا ، قال سكوت ، يبدو أن هذه تسلية عديمة الجدوي ، بالنسبة لإنسان كان قد رأي دوافع كثيرة للقيام بمغامرة ، فرد منجو بارك بالقول ربما لم تكن تسلية عديمة الجدوى مثلما تفترض ، ولكن كان هذا الأسلوب الذي استخدمته هو بهدف التأكد من معرفة عمق نهر في أفريقيا، قبل أن أغامر بعبوره ، فمن المؤكد أن تكون محاولة الحكم صادقة، وبخاصة أثناء تصاعد فقعات الهواء إلي أعلي " .

وحتى هذه اللحظة ، لم يعرف سكوت Scott شئ عن مقصد منجو بارك الخاص بإمكانية قيامه ببعثة ثانية . ولكن سكوت قرر على الفور أن هذه التجارب التي أجراها بارك في يارو كانت متعلقة بغرض ما.

وكان سكوت على صواب ، لأن بارك كان قد تقرب من قبل إلي اللورد كامدن Lord Camden وزير المستعمرات الذي أخبر بانكس بما يلي :

" يبدو أن المستر بارك له الرغبة في التعهد بالقيام ببعثة إستقصائية إلي داخل أفريقيا ، وعلى وجه الخصوص كمحاولة للتأكد من مجري نهر النيجر " .

وقد اندهش سكوت من جرأة صديقه بارك الذي قبل قيادة بعثة أخري (إلي غرب أفريقيا) وكان السبب في ذلك يرجع إلي رغبة منجو بارك القوية في الإبحار نحو مصب نهر النيجر ، لدرجة أن زوجته المحببة إليه

وأطفاله الثلاث لم يثنوه عن عزمه بحيث يبقوه بالمنـزل ، وعندئذ بـدأ الرجلان معاً (بارك وسكوت) رحلة وداع ، وفي نقطة معينة ودع كل من الرجلين الآخر ، وعند هذه النقطة تعثر حصان بارك في حفرة عميقة. وقد بدأ هذا التعثر للروائي فألا سيئاً ، فضحك بارك وقال معقباً علـى ذلك بما نصه : إن التفاؤلات تتبع الذين يبحثون عنها ، وأضاف بـأن سكوت لم يره مرة ثانية " .

ولقد كان موقف المستكشف موقفاً خفيف الظل ، بل وموقفـاً شجاعاً راسخاً ، مع أن هذا الموقف لم يكن له ما يـبرره . وفي الواقـع كانت خفة الروح عند بارك فجائية ، وكانت مقدرته قد دفعتـه علـى إنجاز الكثير ، وجعله هذا عدم الصبر أو التأخير ، ومن ناحية أخـري ، فإن التفاؤل ساعده على تحمل المشاق بصورة قوية بل وكان يثق كثيراً في غيره من الناس . ويتضح ذلك من تفسيره للمخـاطرة الـتي شـرع في تنفيذها. وكانت خطته الرئيسية أن يسافر بالطريق البري من حامبيـا إلي نهر النيجر وبخاصة في فصل الجفاف ، وكان عليه أن يبحر هابطـاً مـع النهر، عندما تسقط الأمطار ، ويرتفع منسب المياه في النهر بحيث يكون في الإمكان عبور الشلالات ، ومن الملاحظ أن بعثة منجو بارك هذه المرة كانت على نفقة الحكومة البريطانية ، ولم تتكفل بها الرابطة الأفريقيـة . وفي عام ١٨٠٤ م ، وقبل وقوع معركة الطرف الأغر بفترة قصيرة كانت الحكومة البريطانية قلقة من إمكانية غزو نابليون لانجلتـرا ، لدرجـة أن الأعداد لحملة بارك قد تأجل في الوقـت ... الـذي أكتملـت فيـه الإستعدادات الخاصة بهذه البعثة (بعثة بارك) . أدرك بارك أنه من المؤمل

فيه أن يصل إلي نهر النيجر وبخاصة عند بداية فصل المطر لو سار كل شئ طبقاً للخطة . وفي تلك الأثناء ، لم يجرؤ بارك أن يطلب التأخير أكثر من ذلك ، فمن المحتمل أنه كان فخوراً لقيامه على رأس هذه البعثة ، وكان بانكس قد ذكر من قبل أنه من الممكن أن تكون هذه الرحلة واحدة من أعظم الرحلات التي ينطوي عليها مخاطر جمة ، وأضاف بانكس في قوله أنه من رأيه أن الأخطار لم تكن كبيرة لدرجة يصعب معها مواجهتها ، لأنه بدون مخاطر ، فإن الكشوف الجغرافية العظيمة لا يمكن أن تتم أبداً .

وفي بعض الأحيان ، تعرض بانكس وزملائه للنقد بسبب المخاطر التي أودت بحياة الرجال الآخرين ، مع أن بانكس كان قد خاطر في شبابه وبكل سرور بحياته بسبب الإهتمام العلمي . فلم يكن هناك بعثة قط يمكن أن يكفل لها قدر معقول من الأمان . ولم يكن لدي بارك نفسه أية مشاعر أو أحاسيس . ورغم أنه كان معروفاً بتحفظه ، وهدوء طبعه ، فإن مشاعره نحو الثروة والنفوذ والرعاية أخذت كثيراً من اهتمامه في هذه الأيام ، حتى أنه كان دائماً يخاطب بانكس في كل مراسلاته بكلمة "صديقي العزيز" .

وفي ٢ من شهر يناير عام ١٨٠٥ م ، وصل منجو بارك إلي ساحل غرب أفريقيا ، ومن هناك كتب خطاباً أرسله إلي منزله ، وقد جاء في هذا الخطاب ما نصه : " لو أن السيد جوزيف بانكس إستفسر عني أخبروه أنني أواصل عملي ، بقدر ما تمليه علي إرادتي ، وآمل في أن أكتب خطاباً آخرا من منطقة نهر النيجر في الرابع من شهر يونيو من نفس العام " .

ولو سافر منجو بارك بمفرده ، فمن المحتمل أن يصل إلي نهر النيجر مع بداية شهر يونيو ، وفي هذه المرة كانت بعثته تضم أكثر من ٤٠ شخصاً من الأوروبيين كان معظمهم من الجنود ، كما كانت تضم واحداً أو أثنين من الأصدقاء ، كما تضمنت أخو زوجته الذي يدعي الإسكندر أندرسون Alexander Anderson وقد أدرك بارك أن السفر في أثناء فصل المطر سوف يكون له نتائج خطيرة بالنسبة للرجال البيض ، الذين كانت تنقصهم مقدرة بارك وقوته البدنية غير العادية ، فعلي الفور صادف أفراد البعثة مصاعب جمة ، وفي نهاية شهر إبريل (من نفس العام) كتب بارك من جامبيا إلي بانكس " يؤكد عليه أنه في حالة سماعه إشاعات عن أحداث مؤسفة قد وصلته ، فينبغي عليه بقدر الإمكان أن يمنعها من الوصول إلي الجرائد ، كما يمنعها بكل الطرق من الوصول إلي آذان زوجته العزيزة أو أمه " .

وقد بدأت الأمطار في شهر يونيو ، واستمرت حتى منتصف أغسطس ومع ذلك إستطاع إحدي عشر أوروبياً من الوصول إلي نهر النيجر ، وأما الآخرون فقد ماتوا أثناء الطريق بسبب ضربة الشمس والحمي ، أو الدوسنتاريا . وقد زادت آمال بارك عندما رأي النهر ، وعندما حقق الوصول إلي قمة الحافة التي تفصل نهر النيجر عن الأفرع البعيدة لنهر السنغال. وقال منجو بارك ما نصه : " لقد واصلت المسير إلي مسافة قليلة قبل ذلك ، حتى وصلت إلي حافة التل ، ورأيت أكثر من مرة مياه نهر النيجر تنساب في مجراه الواسع على طول السهل ، ولم يتبق سوي عدد قليل من أفراد البعثة على قيد الحياة لكي يشاركوه هذه الفرحة :

فقد مات منهم ستة أشخاص قبل وصولهم إلي الجزء غير المكتشف من النهر ، وكان حزن منجو بارك ينصب على شقيق زوجته الذي كان ضمن الستة أشخاص المتوفين ، ولم تحدث أية حادثة طوال الرحلة حتى تضيف أقل قدر من الكآبة على تفكيري حتى رأيت شقيق زوجتي السيد أندرسون في قبره . ويقول منجو بارك ما نصه : " عندئذ أحسست بأني تركت وحيداً وبدون أصدقاء للمرة الثانية في وسط أحراش أفريقيا " وبعبارته :

" I then felt myself as if left a second time , Lonely and friendless , amid the wilds of Africa " .

ومهما كانت المشاعر التي تنتابه ، إلا أن جهوده لم تضعف . وبدا بارك للأحياء أنه في إمكانه الإنتقال إلي أي مكان على وجه السرعة في الوقت الذي كان يعتني فيه بمرضه ، وكان يعيش على المؤن الجافة المنقوعة في الماء ، هذا فضلاً عن أنه كان يبعد الأسود التي تهاجمه كما كان يطارد اللصوص .

وفي أحد الليالي عبَر منجو بارك نهر (النيجر) مالا يقل عن ستة عشر مرة كتمساح مندفع من تماسيحه ، وفي تلك الأثناء كان بارك يقوم بحمل الرجال (المرضى بالطبع) والأمتعة وبعد أن أدي هذا العمل بمغامرة شديدة ، سلم بأنه شعر ببعض التعب ، ولما رقد بسبب مرض الدوسنتاريا تناول دواء الكالوميل Calomel بكثرة ، فعلي أثر ذلك لم يستطع الحديث، ولا النوم لمدة ستة أيام بلياليهم ، ومع ذلك فقد شفي بارك من هذا المرض تماماً ، وبدأ في تشييد سفينة مسطحة ، تصلح للمسير في المياه الضحلة ، وكانت تعرف هذه السفينة باسم إسكونر Schooner ، وقد تم

بناؤها من بقايا قاربين كانا يتسرب منهما الماء ، وساعد في هذا العمل الذي استغرق ثمانية عشر يوماً جندي واحد ، وعندما اكتمل العمل في بناء هذه السفينة ، كان الأشخاص الذين ظلوا على قيد الحياة على أتم إستعداد لإنزالها إلي الماء .

وقبل أن يغادر منجو بارك هذا المكان ، أرسل دليله الماندنجو Mandingo guide إلي جامبيا وهو يحمل تقريره ... وخطاباته . وقد كتب بارك إلي جوزيف بانكس يقول " إن مرشده الجديد ، المدعو أمادي فاتومي Amadi Fatoumi يقول أن نهر النيجر بعد أن يمر من كاشنا Cashna يسير مباشرة إلي الجانب الأيمن أو إلي الجنوب ،ولم يسمع بعد ذلك من أي شخص أنه رأي نهاية هذا النهر " ، وقد أعطت هذه المعلومات الدليل الواضح عن إنحناءة نهر النيجر الجنوبية . وكتب بارك أيضاً إلي زوجته يقول : " أنه في صحة طيبة ، وأن معنوياته مرتفعة " ويضيف في قوله ما نصه : " أعتقد أنه من غير المحتمل أنني ساكون بانجلترا قبل أن تتسلمي هذا الخطاب " . ويضيف بالقول : " يجب أن تشعري وتتأكدي أنني أشعر بالسعادة عندما يتجه وجهي إلي وطني " كما كتب بارك إلي وزارة المستعمرات " يخبرها بأنه يأخذ على عاتقه مواصلة العمل حتى النهاية . وعلى الرغم من أن كل الأوروبيين الذين كانوا برفقتي قد ماتوا ، ورغم أنني كنت نصف ميت ، إلا أنني لازلت أواظب على العمل ، وإذا لم أستطع أن أحقق هدف رحلتي بنجاح ، فأنا ساكون على أقل تقدير قد أدركني الموت على ضفاف نهر النيجر .

وفي التاسع عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٠٥ م ، شرع بارك في السفر بجوار النهر ، ووصل إلي مدينة سان ساندنج Sansanding ، وكان برفقته ضابطاً واحداً هو الملازم ثاني المدعو مارتن ، وثلاثة جنود كان واحد منهم نصف مجنون ، هذا فضلاً عن ثلاثة عبيد من الأفريقيين . وفي العام التالي وصلت إشاعات عن موت بارك عند ساحل جامبيا ، وقد مضت فترة من الوقت قبل أن تتأكد هذه الإشاعات. ولكن لما وصل أمادي فاتومي إلي الساحل عقب على ذلك ، فأعطي ملخصاً عن القصة (قصة بارك) فقال أنه عندما كان يحاول شراء المؤن علم بالكارثة من أحد الأفارقة الذين ظلوا على قيد الحياة ، وفي السنوات القليلة التالية سدت بعض الثغرات في هذا الموضوع بمعرفة المستكشفين الآخرين ، ولكن مع ذلك فإن القصة الكاملة لم تعرف بعد .

وقد نجح بارك في الوصول إلي مملكة اليوري Yauri بعد أن قطع مسافة تبعد عن نقطة البداية بـ ١٠٠٠ ميل ،وقد وصف بارك وهو في منتصف الطريق الجانب الشرقي من النهر الضخم . ويمثل هذا العمل من جانب منجو بارك في حد ذاته عملاً كبيراً في مجال الملاحة . ولسوء الحظ، فإن بارك أهمل أن يقيم علاقات صداقة مع الشيوخ المحليين الذين كان بارك يمر من خلال أقاليمهم ، ومن المحتمل أن يكون السبب في ذلك راجع إلي أن منجو بارك كان متسرعاً في إنجاز مهمته ، بينما كان لا يزال لديه قوة كافية ، وقد سبقته التقارير التي كتبت عن قدوم رجل أبيض كافر an infidel white man ، لذلك نجده عندما يصل إلي شلالات بوسا يقع في شرك Ambush ، ومن الممكن أن تكون السفينة إسكونر

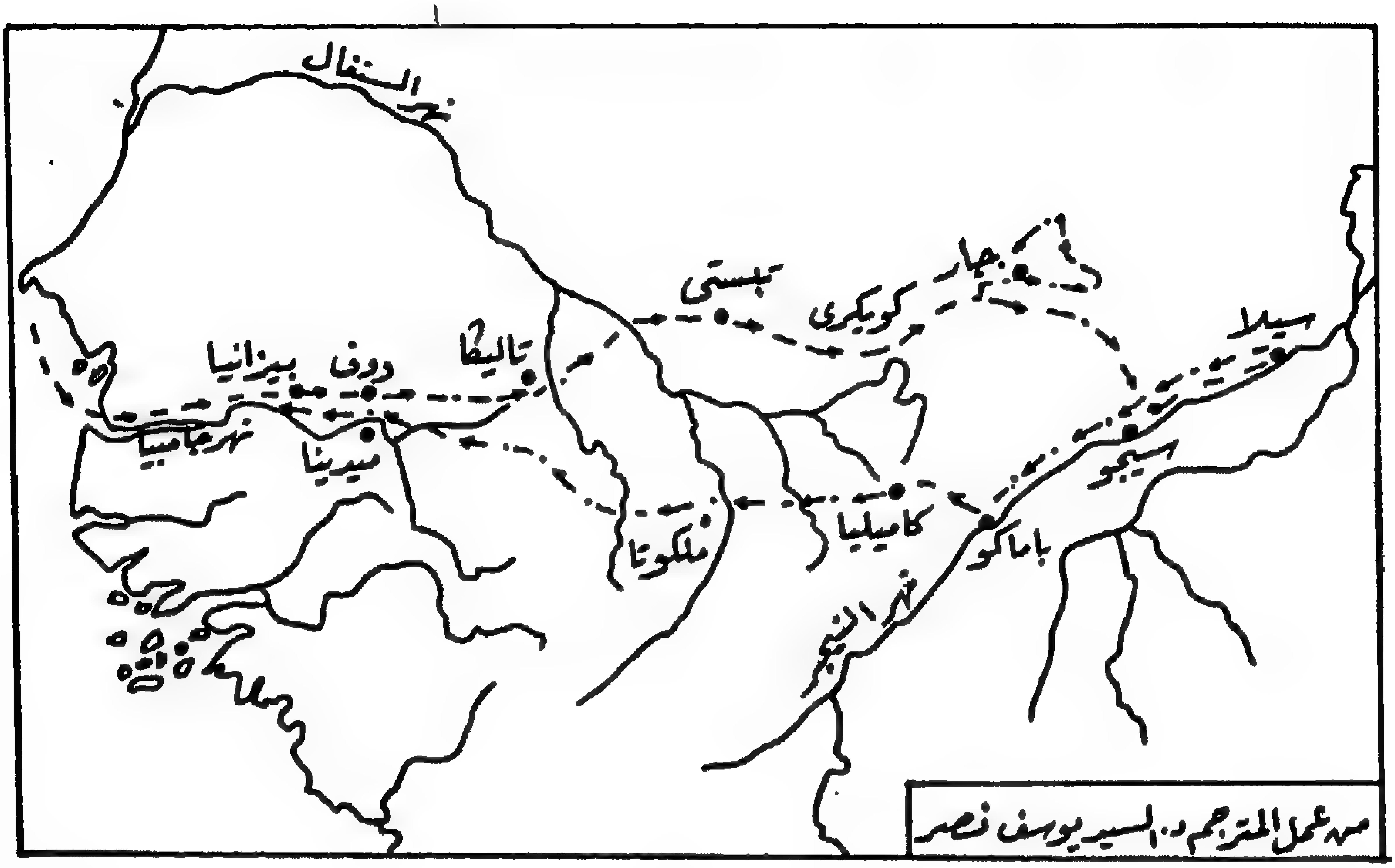
Schooner قد ارتطمت بصخرة أو أن السفينة قد هوجمت مـــن جانـــب الوطنيين ، وأن طاقمها دافعوا عن أنفسهم ، عند هذا الحد أصبح الموقف ميئوس منه . ومن المحتمل أن يكون كل من بارك ومارتن وواحد أو كل أفراد البعثة قد جرجوا ، لذلك أضطروا جميعاً إلي القفز في المـــاء بهـــدف الهروب من موت محقق ، عندئذ غرق جميع الرجال .

ومات بارك ، وهو على بعد مسافة ٧٢٠ ميل من هدفه ، وقـــد وقعت الحادثة مع أن البعثة كانت قد بدأت مهمتها في الموعد المحدد ، فلو كان بارك قد سلك في أسلوبه العادي أسلوب الصداقة ، ولو كان أكثر دبلوماسية في معاملاته مع الشيوخ الوطنيين ، فمن المحتمل جداً أن يكون قد نجح ، ولكن مع ذلك فإن إنجازاته كانت علامة بارزة (على الطريق). ويعتبر بارك الأوروبي الأول الذي وصل إلي النيجر ، ولاحظ أن منبع هذا النهر يقع في مكان ما عند المنحدرات الشرقية للجبال التي تشكل الحـــد الشمالي لما يعرف في الوقت الحاضر بدولة سيراليون . وكان بارك قد أبحر في النهر لما يزيد عن ١٠٠٠ ميل ، وأعطي الدليل الأول عـــن انحناءتـــه الجنوبية ، ولكن على الرغم من أنه لم يعط الإجابات الكاملة لكل الأسئلة المطروحة ، إلا أنه فتح الطريق أمام الآخرين من المستكشفين كي يجـــدوا حلا لهذه المشكلة .



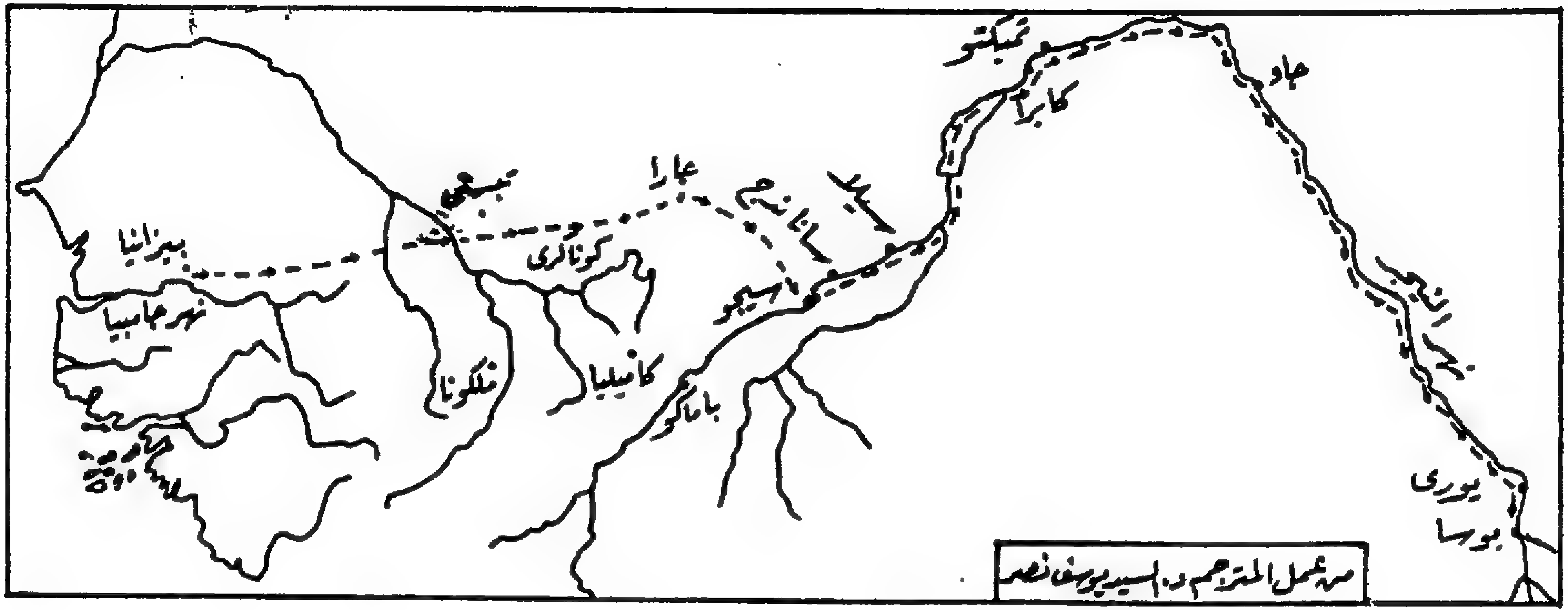
صورة المغامر منجو بارك الذي جاء إلي منطقة غرب أفريقيا عام ١٧٩٥ م ليكتشف منابع نهر النيجر . من إعداد المترجم .

خريطة رقم (٢) والخاصة ببعثة منجو بارك الأولي عام ١٧٩٥



بدأ منجو بارك رحلته الأولي من بلدة بيزانيا الواقعة على نهر جامبيا عام ١٧٩٥، ومنها عبر منطقة منابع نهر السنغال ، ثم وصل إلي بلدة سيجو الواقعة على نهر النيجـــر ، وسار بعدها مسافة ولكنه اضطر بعدها للعودة مع قافلة فوصل إلي نقطة البداية ، وبعـــد ذلك سافر إلي لندن فوصلها عام ١٧٩٧ م .

الخريطة رقم ٣ والخاصة ببعثة منجو بارك الثانية عام ١٨٠٥



غادر منجو بارك بلدة بيزانيا في اتجاه الشمال ، فوصل إلي بلدة جارا ، ومنها إتجه جنوباً إلي سيجو الواقعة على نهر النيجر ، ومن سيجو سار بجوار الضفة الشرقية لنهر النيجر ، حتى وصل إلي تمبكتو ، ومنها سار جنوباً مع نهر النيجر ، فمر ببلدة يوري ، ومن بعدها وصل إلي بلدة بوسا ، ولكنه أغتيل في هذه المنطقة .

التعليق على الفصل الرابع

أوردت مؤلفة هذا الكتاب ، في هذا الفصل عدداً من النقاط الهامة والجديرة بالدراسة ، ولكنها مرت عليها بصورة سطحية . وكان من أهم هذه النقاط ، تجارة الرقيق في أفريقيا ، ودور كل من جوزيف بـانكس وجون ليديارد ولوكاس وفردريك ، وهورنمان والميحور دانيال هوغتون . ولكن على الرغم من أهمية هؤلاء الأشخاص ودورهم في كشف الأجزاء المجهولة من القارة الأفريقية ، إلا أن مؤلفة هذا الكتاب لم توضح بشئ من التفصيل دورهم . لذا كان من الضروري على أن أقوم بإضافة ما يمكـن إضافته حتى نفي هؤلاء حقهم .

وبادئ ذي بدء ، يمكن القول أن بريطانيا بدأت في نهاية القـرن الثامن عشر في إلغاء تجارة الرقيق . فكان قاضي محكمة إنجلترا العليا قـد أصدر قراراً يقضي بإلغاء تجارة الرقيق عام ١٧٧٢ م ، والسبب في ذلـك يرجع إلي أن تجارة الرقيق لم تعد ذات قيمـة بالنسـبة لبريطانيـا ، أو بالأحرى لم يعد لها نتائج إيجابية وربما يرجع ذلك إلي أن مزارعها في العالم الجديد لم تعد في حاجة إلي أيدي عاملة ، بل وأصبح نقل العبيد يمثل عبئاً ثقيلاً على الخزانة البريطانية . ومن المحتمل أيضاً أن الأوروبيين في العـالم الجديد أصبحوا يعتمدون على الميكنة الزراعية ، ولم يصبحوا في حاجة إلي إستخدام عبيد أفريقيا ، وبخاصة بعد أن أصبحت بريطانيا متقدمة صناعياً فأصبحت تعتمد على الآله بدلاً من اعتمادها على الفرد . وكـان مـن نتيجة ذلك أن أصبح لديها فائض في الإنتاج الصناعي ، لهذا كان مـن المحتم عليها البحث عن أماكن جديدة لتصريف هذا الفائض من إنتاجها

(يعني ذلك فتح أسواق جديدة) فلم تجد أمامهـا إلا أفريقيـا الميـدان الخصب الثاني بعد العالم الجديد . ولكن السؤال هنا كيف تصل بريطانيا إلي أفريقيا ، لكي تصل بريطانيا إلي أفريقيا كان عليها أن تتذرع بإلغـاء تجارة الرقيق المنتشرة في هذه القارة ، لأنها تجارة ذات جذور متأصـلة في كيان المجتمع الأفريقي ، ولم تكن هذه التجارة وليدة التاريخ الحـديث أو وليدة الرجل الأبيض ، بل يرجع تاريخها إلي عصور سابقة ، ولكن زادت أهمية هذه التجارة بعد كشف ما يعرف بالعالم الجديد لخصـوبة تربتـه وحاجته إلي الأيدي العاملة القوية والرخيصة ،ولكن بعد اعتماد الأوروبي في العالم الجديد على الميكنة الزراعية الحديثة الناتجة عن التقدم الصناعي ، لم يعد في حاجة إلي عبيد أفريقيا ، ومن هنا وجدت بريطانيا السـبيل إلي التدخل والوصول إلي أفريقيا .

ولكن قبل أن تصل بريطانيا إلي أفريقيا كان لابد لها من معرفـة المناطق التي لازالت مجهولة من هذه القارة ، وشجعها على ذلك ما قام به جوزيف بانكس عالم الطبيعة البريطاني الذي عاش في الفتـرة مـا بـين ١٧٤٣ ، ١٨٢٠ ، والذي كان قد رافق الكابتن كوك في رحلته حـول العالم ، وكان بانكس قد ساهم في هذه الرحلة بمبلـغ ١٠,٠٠٠ جنيـه إسترليني (أي ما يعادل ٢٥,٠٠٠ دولار) وقام بانكس أثناء هذه الرحلة بعمل دراسة على النباتات التي جمعها من المناطق التي زارها كما سـاهم في إنشاء الحدائق الواقعة إلي الغرب من لندن [١] .

---

(1) Encyclopedia of discovery and Exploration , No . 13 , London , 1971 , p . 11 .

وكان بانكس قد أسس الجمعية الأفريقية الخاصة بتنشيط حركـــة الكشف للمناطق المجهولة من أفريقيا :

The Association for promoting the discovery of the Interior parts of Africa in London in 1788,introduced a new era in Africa Exploration[1]

وفي عـــام ١٨٣٠ ، أدمجـــت الجمعيـــة الأفريقيـــة The African Association في الجمعية الملكية التي عرفت باسم :

The Royal Geographical Society

وأما عن الكابتن جيمس كوك James Cook زميل بانكس الذي عاش في الفترة ما بين ١٧٢٨ ، ١٧٧٩ م ، فكان ملاح بريطـــاني قـــام بثلاث رحلات حول العالم ، كانت على جانب كبير من الأهمية ، بحيث أنها ساهمت في معرفة العالم بالمحيط الهادي واستراليا ، ودحـــض نظريـــة القارة الجنوبية المجهولة Terra Australis in Cognita وأثبت أن نيوزيلانـــد تتكون من جزيرتين منفصلتين بمضيق ضيق ، وتمكن كـــوك مـــن ملـــئ الفراغات الباقية على خريطة المحيط الهادي ، وذلك باكتشافاته الكـــثيرة لجزر ساندوتش Sandwich Islands ، وقد أنجزت بعثته الأولي في الفترة ما بين ١٧٦٨ ، ١٧٧١ ، فكان قد أبحر في محاولة لزيارة تاهيتي Tahiti ودار حول نيوزيلاند ، ورسم أثناء هذه الرحلة خريطة لجزء مـــن الســـاحل الإسترالي ، وقد تمت الرحلة الثانية في الفترة ما بين ١٧٧٢ ، ١٧٧٥ م ، وذلك عندما قام بمغامرة إلي المنطقة الجنوبيـــة The Antractic Circle وزار جزر عديدة في المحيط الهادي ، وقطع مسافة ٦٠,٠٠٠ ميـــل . وتمـــت الرحلة الثالثة في الفترة ما بين ١٧٧٦ ، ١٧٧٩ م ، وقام كوك أثنائهـــا

---

[1] David Mountfield : Ahistory of Exploration , England , 1976 , p . 67 .

بالبحث عن طريق الشمال الغربي ، وقام بمسح ساحل أمريكا الشمالية ، ووصل إلي مسافات بعيدة من الاسكا ، وأبحر من خلال مضيق بيرنج The Bering Strait وفي جزر هواي Hawaiian Islands ، قتل جيمس كوك بمعرفة واحد من سكان هذه الجزر[١].

وبعد ذلك ، نعود إلي دور الجمعية الأفريقية ، التي بدأت مهامها الكشفية في منطقة غرب أفريقيا ، ربما لقرب هذه المنطقة من الجزر البريطانية ، ومن المحتمل أن يكون ذلك راجع إلي وفرة مواردها الإقتصادية وبخاصة معدن الذهب الذي كان من أهم ثروات مملكة غانا في العصور الوسطي ، وكانت مدينة تمبكتو في ذلك الوقت مشهورة بالذهب أيضاً (سبق التعليق عليها) . وكما كان على الجمعية الأفريقية ضرورة القيام بالكشف عن نهر النيجر (ليس حباً في الكشف ولكن حباً في البحث عن الثروات الطبيعية التي كانت لا تزال مجهولة) ، الذي لا زال مجهولاً ، والذي يعتبر ثالث أكبر نهر في أفريقيا ، فهو ينبع من غرب القارة ويسير مجراه مسافة طولها حوالي ٢٦٠٠ ميل ، وقد تمت محاولات عديدة لتتبع مجري هذا النهر [٢] .

وكان من الرحالة الذين حاولوا الكشف عن مصادر نهر النيجر والذين لم تتعرض لهم المؤلفة بشئ من التفصيل الرحالة جون ليديارد John Ledyard الذي قضي بعض السنوات مع الهنود الأمريكيين ، وبعد ذلك أبحر مع الكابتن كوك حول العالم ، وسافر سيراً على الأقدام في فصل الشتاء من السويد ماراً بفنلندا Finland إلي روسيا Russia ، وبعد ذلك

---

(١) Encycolopedia of discovery and Exploration . Op . Cit . p . 22 .
(٢) Encycolopedia of discovery and Exploration . Ibid . p . 59 .

عبر سيبريا ، وكان يقصد من وراء ذلك الإبحار إلي أمريكا ، حتى يكون أول شخص يعبر القارة الأمريكية ، ووصل تأثيره إلي أبعد مدي . وعاد مرة ثانية إلي سيبريا في فصل الشتاء ، وخرج من الجهة الغربية وهو في حالة إفلاس ، وأخبر بانكس أنه تمكن من اقتراض مبالغ بسيطة بأسمه كي يتمكن من العودة To get Back to England ، واقترح بانكس على الفور أنه يجب أن يسافر ليديارد إلي أفريقيا ، وأجاب ليديارد أنه يوجد في فكره رحلة تالية وسأله بيوفوي Beaufoy ، متي يكون جاهزاً للقيام بهذه الرحلة، فأجاب ليديارد صباح باكر Tomorrow morning ، وقد بدأ ليديارد رحلته في يوم ٣٠ يونيو عام ١٧٨٨ م ، وكان عليه أن يذهب إلي مصر ، بعد ذلك يتجه إلي النوبا ومنها إلي جهة الغرب في داخل أفريقيا .

ومن القاهرة ، كان في إمكان ليديارد أن يرسل بعض المعلومات عن الطرق التجارية الموجودة على مسافات بعيدة في الجهات الجنوبية والغربية من تمبكتو ، وعن سوق الرقيق ، وعن أي مكان آخر ، ولكنه لم يذهب أبعد من ذلك ، وكان قد أعطي نفسه جرعة زائدة من (دواء الكبريتات) كي يعالج نفسه من مرض الصفراء الذي كان يشكو منه ، ثم تناول بعده ملح الطرطير القوي المقئ فمات من شدة الألم مع أنه عاش قوياً وشجاعاً [1] .

ومن بعده ، قام المستر سيمون لوكاس Mr . Simon Lucas الذي كان يترجم عن الشرق ، والذي كان قد قضي ثلاث سنوات في مراكش

---

[1] Kenneth Lupton · Mungopark . the African traveler Oxford , 1979 , pp . 27 , 28 .

كعبد ، وبعد أن حصل على حريته شغل وظيفة نائب قنصل لبريطانيا في مراكش لمدة ستة عشر عاماً ، وقد أهلته خبرته ومعرفته للعربية بأن يقوم على رأس بعثة كشفية من الساحل الشمالي لأفريقيا تجاه الجنوب (أي فيما وراء الصحراء) . وقد بدأ رحلته في شهر أغسطس عام ١٧٨٨ م .

وبعد أن وصلت البعثة إلي طرابلس ، حصل لوكاس على حماية وأمان الباشا ، وكان ذلك بمثابة مساعدة بسيطة يتمكن بها من الوصول إلي الداخل ، وكان لوكاس قد التحق بقافلة سارت على طول الساحل لمسافة بعيدة من مصراته Mesurata ، ولكنه بسبب المتاعب التي اعترضته اضطر للعودة إلي مصراته . وفي مصراته هذه علم من أحد الأشراف العظام الذي يدعي محمد ، بوصول تقرير مفصل عن بورنو ، وكان هذا التقرير قد وصل من فزان ، الواقعة في الجنوب الليبي ، وكان هذا التقرير يخص بورنو Borno وكاتسينا Katsina الواقعتين فيما وراء الصحراء ، كما يتضمن وصفاً عاماً عن أقطار الزنوج الواقعة في جنوب النيجر ، وبعد ذلك لم يعرف أي شئ عن مصير لوكاس . من المحتمل أنه مات في مصراته ولم يكمل مهمته ، وربما عاد إلي لندن بعد فشل بعثته في تحقيق هدفها .

ولكن في عام ١٧٩٠ م ، قدم بيوفوي Beaufoy تقريراً إلي الجمعية الأفريقية ، أيد فيه بوضوح المعلومات التي أوردها لوكاس في تقريره ، واستشهد بيوفوي بمصادر أخري . ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن لوكاس كان قد مات ، لأنه لو كان على قيد الحياة لكان من الأجدر به أن يقدم هو تقريره إلي الجمعية الأفريقية بدلاً من بيوفوي .

ومن بعـــد الرحالـــة الســـابقين يـــأتي دور دانيـــال هوغتـــون Major Daniel Houghton ، الذي كان في بعثة رسمية في مـــراكش عـــام ١٧٧٤ م وفي الفترة ما بين ١٧٧٩ ، ١٧٨٣ م ، كان الميجور دانيـــال يمثل الشخصية القوية في منطقة الجوري Goree ، وفي تلك الأثناء تعلـــم بعض اللغات المحلية ، وبعد ذلك قدم خدماته بدون أن يحقق نجاحاً يذكر إلي الحكومة البريطانية ، فقد قام بارتياد المنطقة الواقعة إلي الجنوب مـــن جامبيا Gambia ، وذلك في أكتوبر من عام ١٧٩٠ م ، فقد أبحر دانيـــال هوغتون من ميـــناء بليمـــوث Plymouth ، ولكنـــه عنـــدما كـــان في جونكاكوندا الواقعة على نهر جامبيا سمع خلسة من زوجـــات التجـــار الأفريقيين عن مكيدة تعرض حياته للخطر ، فاضطر بسرعة إلي الهـــرب صاعداً مع النهر ، وكان قد حصل على معلومات من تاجر يدعي جون ليدلي Dr . John Laidly ، عن هذه المنطقة ، ولكنه بعد ذلـــك واصـــل السفر إلي عاصمة مملكة الوولي الواقعة إلي الشمال من النهر . وعنـــدما التقي بملك الوولي ، طلب منه هذا الملك أن يقوم ببناء حصن تجـــاري في بلدة فتاتندا Fattatenda ، الواقعة على نهر جامبيا ، لأنها منطقة جميلة ولأن الملك رغب في أن يؤجرها إلي دانيال هوغتون بعشرة جنيهات في السنة . وكان الكابتن ليتليتون Littleton قد عاش فيها من قبل مدة أربع سنوات وفر خلالها مبالغ كافية ، ولكن هوغتون رفض عرض ملك الوولي ، لأنه كان عليه مواصلة السفر مهما كان الحال ، وبخاصة بعد أن فقـــد كـــل أمتعته بسبب نشوب حريق في بلدة " الميديتا " فضلاً عـــن ذلـــك فـــإن المترجم الذي كان مرافقاً له قد اختفي . وعندئذ ، لم يكن الذهب مهما

إلي ما وراء البوندو Bondu ، لأنه لم يوجد هناك مركز تجاري ، فأضطر بعد ذلك إلي الذهاب إلي بامبوك ، فهناك كانت توجد تجارة نشطة وبخاصة في الأسلحة ، وقد أستقبل هوغتون استقبالاً بارداً .

وبينما كان هوغتون في بامبوك قابل شريف من تمبكتو ، كان قد تعرف عليه أثناء تواجده في مراكش ، وقد عرف أن هذا الشريف ذاهب ليكتشف نهر النيجر ، وقد زخرف التجار مراكبهم بالصواري Masts ، هذه المراكب التي كانت تحمل السلع التجارية من تمبكتو وتتجه بها صوب الشرق إلي وسط أفريقيا . وكان دانيال هوغتون قد رغب في السفر على ظهر واحدة من هذه المراكب التي سوف تتجه إلي جين Jene الواقعة في اقليم بامبارا Bambara ، ويمثل هذا في حد ذاته البعض من المعلومات الهامة التي قام دانيال هوغتون بإرسالها ، فكان قد عرف أسماء لبعض الأماكن الواقعة في كل من الطريق الشمالي والجنوبي إبتداء من بامبوك وحتى تمبكتو، كما تضمنت هذه المعلومات باماكو Bamacoo وسيجو ويامينا Yamina ، وجين التي كانت عاصمة للبامبارا . وذكر هوغتون أن النهر يتجه شمالاً إلي تمبكتو ، وبعد ذلك يتجه نحو الشرق .

وفي عام ١٧٩٣ م ، قدم رينيل Rennell إيضاحات جديدة عن جغرافية أفريقيا ، فقد وفق بين المعلومات التي حققها دانيال هوغتون وبين المعلومات التي حققها دانفيل Danville ، وبين التقارير التي كتبت بمعرفة القناصل ، وكان رينيل هذا قد أغفل تقرير شابيني Shabeni مع أنه كان من الممكن أن يكون على جانب من الأهمية . وكان على رينيل أن يغير فكرته عن منابع نهر النيجر ، فكان قد سلم بأنه لا يزال يوجد هناك

غموض ، وتساءل في كيفية وضع حد لهذا الغموض Discounted وكان هيرودوت قد ذكر من قبل أن النيجر يتصل بالنيل ، وجاء هوغتون من بعده ليؤكد هذا القول . وذكر كل منهما أن شعب الهوسا يمثل مدينة أو وطن أو الكل معا ، واعتقد أيضاً أن وطن الهوسا هذا يقع بالقرب من النيل أي على بعد مسيرة أيام قليلة إلي الجنوب أو الجنوب الشرقي من تمبكتو .

وكان سكرتير الجمعية الأفريقية قد تسلم ملحوظة موجزة من دانيال هوغتون ، كانت هذه الملحوظة مؤرخة في الأول من شهر سبتمبر عام ١٧٩١ م ، وقد أرسلت هذه المعلومة من مكان يسمي سمبنج Simbing الواقعة فيما وراء بامبوك ، وتضمنت الرسالة التي تحوي هذه المعلومة تحيات دانيال هوغتون إلي الدكتور ليدلي Dr . Laidley وقد ورد بها أنه في صحة جيدة In good Health ، وأنه في طريقه إلي تمبكتو ، وأشارت إلي أن كل أمتعته كانت قد سرقت بمعرفة شخص يدعي إبن فوندا بوكار Fenda Bucar's Son . وبعد ذلك تسلم سكرتير الجمعية الأفريقية تقارير عن موته ، ولكن لم يعرف مكان مقتله ، ولا ظروف الحادثة ، وكانت الجمعية قد ترددت في إذاعة خبر موت هوغتون ، وتناست ذلك في نشوة الفرح الخاصة بتحقيق هوغتون النجاح في الوصول إلي هذه المناطق ، وبخاصة لم يكن منجو بارك قد وصل إليها بعد.

وعلى الرغم من موت هوغتون ، إلا أن الجمعية لم تكترث فيما يبدو بهذه الحادثة لأنها إعتبرت الكشف عن منابع نهر النيجر مسألة على

جانب من الأهمية بل ومسألة قومية إن صح التعبير . لهذا عقد اجتماع عام للجمعية عام ١٧٩٢ تقرر فيه أن تستمر الجمعية في مواصلة إرسال البعثات الكشفية إلي منطقة غرب أفريقيا . وفي مايو من العام التالي أى عام ١٧٩٣ م ،وقع اختيار الجمعية على شاب يدعي جيمس ويلز James Willis ، الذي كان من المحتم تعينه قنصلاً في تلك المنطقة [١] .

ولكن لم نسمع عن أي عمل قام به جيمس ويلز بعد أن اختارته الجمعية الأفريقية للذهاب إلي منطقة غرب أفريقيا ، فمن المحتمل أن تكون الجمعية إستبدلته بشخص آخر ، ربما لعدم كفاءته ، أو ربما لتعيينه في وظيفة قنصل فاضطرت الجمعية إزاء هذا الموقف أن تبحث عن رحالة آخر .

وفي يونيو من عام ١٧٩٧ م ، وقبل عودة بارك من رحلته الأولي من غرب أفريقيا إختارت الجمعية الأفريقية شاباً ألمانياً يدعي فردريك هورنمان Friedrich Hornemann الذي ذهب إلي القاهرة في الوقت الذي كانت فيه قوات نابليون تغزوها ، وكان نابليون قد قابله وتعرف عليه . وبعد ذلك بدأ فردريك رحلته صوب الغرب مع قافلة التجار والحجاج العائدين من مكة ، وفي تلك الأثناء تلقي فردريك هورنمان رسائل عن الغزو الذي تعرضت له منطقة غرب أفريقيا من جانب الشماليين ، وقد حمل له ذلك الخوف والرعب ، ففي ذلك الوقت كانت الإتصالات الإسلامية بشمال وغرب أفريقيا قوية ، ولكن فردريك تحدي كل هذه المصاعب وذلك بتنكره في زي رحالة مسلم ومع ذلك فقد انتابه الخوف،

---

[١] Kenneth Lupton : Mungo Park , Op , cit ., pp . 33 – 34 .

وبعد رحلة مسلية قطعها من الشمال عبر الصحراء الأفريقية وصل إلي واحة مرزوق في فزان ، وكان فردريك هذا قد أرسل قبل بدء هذه الرحلة تقريراً من طرابلس إلي إنجلترا .

وفي مرزوق سمع عن تيبو Tibu ، وقبائل الطوارق Tuarge كما سمع عن الأراضي الصحراوية ، في الجنوب والأقطار الواقعة في الشرق ، إبتداء من بورنو وحتى النيل .

وقد دونت هذه المعلومات في تقرير براون Browne W . G. الرحالة الذي لم يعمل لحساب الجمعية الأفريقية ، بل كان يعمل لحسابه الخاص . وكان براون هذا قد بدأ رحلته من دارفور الواقعة في غرب جمهورية السودان الحالية في الفترة ما بين ١٧٩٣ ، ١٧٩٦ م .

وكان هورنمان قد أكتشف أن كلمة الهوسا تطلق على مجموعة من الأقاليم التي تضم كانو Kano ، وكاتسينا Katsina ، التي لم تكن دولة منفصلة ، ورسم خريطة وضح عليها مواقعهم بطريقة دقيقة ، وذكر فردريك هورنمان أن نهر النيجر يتدفق صوب الشرق ويمر من خلال أقاليم الهوسا . وفي عام ١٨٠٠ ، أرسل فردريك هورنمان خطابين مختصرين من واحة مرزوق ولكن لم يتسلمها أحد . وفي عام ١٨٠٥ ، علم بأنه كان في كاتسينا منذ سنتين مضت ، وبعد ذلك سمع عنه أنه يواصل سفره نحو الجنوب . ولكن فيما بعد سمع أنه هلك بسبب تعرضه لمرض الدوسنتاريا عند بلدة باكاني Bakkanee الواقعة في إقليم النوب Nupe ، ومن المحتمل أن تكون باكاني هذه قريبة من التقاء الطريق الرئيسي بحوالي ٣٠ ميل شمال جيبا Jeppa ، الواقعة على نهر النيجر ، وفيما وراء أبعد نقطة وصل

إليها بارك. وكان فردريك على مسافة ٣٠٠ ميل من الشاطئ (من المحتمل أن يكون شاطئ المحيط) ومع ذلك فلم يتمكن من حل الغموض الخاص بأرض الهوسا أو بالنيجر [١] .

ورغم كل هذا الجهد الذي قامت به الجمعية الأفريقية من أجل الكشف عن مصادر نهر النيجر ، الذي سوف تتخذه بريطانيا فيما بعد طريقاً تجارياً هاماً بحيث يمكن من خلاله الوصول إلي ثروات القارة الأفريقية ، إلا أن هؤلاء الرحالة كانوا قد فشلوا جميعاً في مهامهم .

ومع ذلك فلم تذكر المؤلفة الأسباب التي حالت دون تأدية هؤلاء الرحالة لمهامهم ، ومن المحتمل أن يكون السبب وراء فشلهم راجع إلي صعوبة المسير خصوصاً ، وأنه لم يكن هناك وسائل مواصلات ، ومن المحتمل كذلك أنهم قد تعرضوا لأمراض خطيرة أودت بحياة الغالبية العظمي منهم، كما لم يكن لديهم المواد الغذائية الكافية التي تعينهم على مواصلة سفرهم ، علاوة على ذلك كله ، فلم يكن هناك طرق مدروسة أو معروفة لهم ، فلا شك أنهم لاقوا مصاعب جمة فاقت كل تقدير . ويرجع الفشل في مهمتهم أيضاً إلي أنهم كانوا يأتون على نفقة الجمعية الأفريقية التي كانت تقوم بتزويدهم بما يلزمهم من أمتعة ومؤن ، ولكن رغم ذلك فإنها لم تستطع أن تقدم لهم العون العسكري لأنها كانت جمعية خاصة ، بينما لو كان هؤلاء الرحالة يرسلون من قبل الحكومة البريطانية لكانت قد زودتهم بما يلزمهم من عتاد وجنود وأدوية ومؤن ، وفي هذه الحالة يكون في إمكانهم تحقيق الهدف المنشود .

---

[1] Kenneth Lupton : Op , Cit , pp . 130 – 132 .

ولكن على الرغم من فشل هؤلاء الرحالة إلا أن الجمعية الأفريقية African Association ، لم تتوقف عن القيام بمحاولات أخري ، وهذا في حد ذاته يجعلنا نقدر دور هذه الجمعية العلمية التي أخذت على عاتقها القيام بمثل هذه الأعمال النبيلة .

وفي عام ١٧٩٥ م حصلت الرابطة الأفريقية على طبيب شاب يدعى منجو بارك وكلفته بالقيام بمهمة الكشف عن منابع نهر النيجر ، ولكن على الرغم من فشله إلا أنه حقق نتائج على جانب كبير من الأهمية منها أنه ألقي الضوء على تجارة الرقيق التي كانت سائدة في هذه البلاد ، ووضح لنا الطرق التي بواسطتها كان يمكن الحصول على العبيد سواء أكان ذلك بالحرب أم بالقنص ، كما ألقي الضوء على العادات الإجتماعية لهؤلاء السكان التي كان الجغرافيون في أوروبا في أمس الحاجة إليها ، كما قام بتفحص تراب الذهب ، أي أن ذلك يعني إشارة على وجود معدن الذهب في هذه البلاد ، وأيضاً على تقدمهم في صناعة الأقمشة واستخدام النيلة في صبغها .

وبقي أن نضيف أنه مما لا شك فيه أن منجو بارك كان شخصية غير عادية ، شخصية تغلب عليها الجرأة والجسارة والإصرار على ضرورة نقل جغرافية أفريقيا إلي أوروبا ، ويتضح ذلك من قوله : " ينبغي على أن أهلك في رحلتي كما ينبغي أيضاً أن تهلك معي كل آمالي وتوقعاتي ، وينبغي علي كذلك أن أنقل جغرافية أفريقيا بحيث تصبح أكثر ألفة لأهل بلدي ... وأن أفتح أمامهم مصادر جديدة للثروة والتجارة .... " .

فمن الواضح من هذا التعبير أن الهدف من الكشف ليس في حد ذاته بقصد الكشف ، ولكن كان الهدف هو استغلال موارد أفريقيا ، وجعلها سوقاً رائجة للصادرات الأوروبية ، زد على ذلك فإن بارك كان شخصية جسورة وجريئة ، والدليل على ذلك أنه عندما قابل ملك الوولي الذي حذره من الذهاب أبعد من مملكته خشية أن يلقي نفس المصير الذي لقيه من قبله الميجور دانيال هوغتون إلا أن منجو بارك أصر على الذهاب إلي أقصي نقطة يمكن الوصول إليها .

وبعد أن أنهي رحلته الأولي عاد إلي انجلترا ولكنه لم ينس أفريقيا التي عاد إليها مرة ثانية دون أن يتأثر بأطفاله الصغار بل تركهم في سبيل أن يحقق هذا الهدف النبيل .

وفي النهاية ، يمكن القول أن بارك كان شخصية فذة لا تقل عن شخصية جيمس بروس في الجرأة وحب المعرفة وتحقيق المجد لنفسه ولوطنه، ولكنه يختلف عن بروس في أن بارك كان يريد أن يحقق لبريطانيا مطامعها في موارد أفريقيا وتجارتها ، بينما كان بروس يريد أن يحقق المجد لنفسه .

الفصـــــل الخامس

حـــل مشكلة النيجـــر

الفصل الخامس

حل مشكلة النيجر

لقد كانت حياة منجو بارك قصيرة ولكنها كانت حافلة بالأعمال الهامة ، ومع ذلك فقد انتهت نهاية محزنة ، فبعد موته باءت بالفشل كل المحاولات العديدة التي اتخذت لتتبع مجري نهر النيجر حتى منبعه . ففي عام ١٨١٥ م ، أرسلت ثلاث بعثات إلي منطقة غرب أفريقيا ، بدأت إحداها من بلدة كليبار الواقعة على ساحل غينيا ، وبدأت الثانية من مراكش ، والثالثة من مصر.ولكن هذه الخطة باءت بالفشل (لأسباب غير معروفة) . وعلى ذلك فقد اختارت الجمعية الأفريقية African Association رجل عظيم وشجاع ومتزن ، هذا الرجل هو جون لويس بركهاردت John Lewis Brchardt الذي كان عليه أن يتخذ الطريق المصري .

وكان بركهاردت سويسري الجنسية ، فقد عاش في انجلترا ، ودرس العربية في جامعة كامبريدج Cambridge University ، وكان عالماً لامعاً بحيث أنه في عام ١٨٠٩ عرض خدماته على السير جوزيف بانكس، الذي وافق على شرط أن يقضي جون لويس بركهاردت سنتين في سوريا كي يتقن خلالهما لغته العربية ، وبعد ذلك تجول في بلاد الشرق الأوسط للإستزادة بالمعلومات ، قبل القيام بمهمته الخاصة بنهر النيجر . وقد درب جون لويس بيركاردت نفسه على الحياة القاسية قبل أن يبدأ مهمته ، فعود نفسه على النوم في العراء ، والمشي حافي القدمين فضلاً عن عدم تناوله الطعام باستثناء إعتماده على الخضروات ، وكان

الهدف من وراء ذلك كله أن يعود نفسه على تحمل المشاق أثناء مروره من خلال الأقطار الإسلامية ، ويتضح ذلك من قوله الذي جاء فيه ما نصه : " لقد قدمت من هنا كتاجر هندي مسلم ، وبسرعة تلاشيت وسط الزحام في حلب Aleppo وقد أخبر بركهاردت الجمعية الأفريقية بذلك في خطاب أرسله من مالطة ، وفضلاً عن ذلك فقد قام بسفريات عديدة ، فزار أماكن أخري كثيرة منها مدينة باترا القديمة The ancient City of Petra التي لم يرها أوروبي منذ مئات السنين ، ثم وصل بعد ذلك إلي القاهرة عام ١٨١٢ م وفي هذا الوقت كانت معرفته للغة العربية تكاد تكون كافية ، وكان يرتدي زياً عربياً وبذلك تمكن من المرور من خلال مصر كعالم شريعة مسلم ، وبعبارة المؤلف :

" He passed as a Learned doctor of Muslim Law ".

ومن القاهرة تتبع مجري النيل ، وكان يسجل الملاحظات المفصلة عن الناس وعن الوطن الذي يمر من خلاله ، وعن الحياة البدائية والآثار القديمة . وكما قام بفحص المعابد العظيمة والهياكل الأثرية الضخمة في أبي سمبل * ، وبعد ذلك سافر إلي مسافة بعيدة صوب الجنوب حتى وصل إلي سوق مدينة شندي ، هذه المدينة التي كان بروس يتمتع بالغزل مع ملكتها . وعندئذ عبر جون لويس بركهاردت الصحراء النوبية إلي ميناء سواكن الواقعة على الساحل الغربي للبحر الأحمر . وبعد ذلك عبر البحر إلي الجزيرة العربية حيث كان متنكراً في زي تاجر سوري . وهناك أدي فريضة الحج في المدينة الإسلامية المقدسة (مكة) . ومن المحتمل أن يكون

* لقد رفعت بنجاح هذه المعابد حديثا من مواقعها الأصلية لكي تنقذ من الغرق بسبب تخزين [illegible] من بناء السد العالي في جنوب أسوان

بركهاردت قد أصبح مسلماً حقاً (والدليل على ذلك أنه عندما توفي دفن على الطريقة الإسلامية كما لو كان مسلماً) . ولو كان أي شخص قد ظن أن بركهاردت مسيحياً ، فمن المحتمل أن يكون قد لقي حتفه . ولكن لحسن حظه لم يشك أحد من الناس في ذلك ، وقبل مغادرته لهذه المنطقة كان قد تمكن من كتابة تقريراً عن المدينة (مكة) وعن الحجاج وعن الاحتفالات الخاصة بهم . وفي النهاية ، وبعد أن سافر شمالاً صوب فلسطين كي يزور جبل سيناء ، كان عليه بعدئذ أن يبدأ بحثه الخاص بنهر النيجر ، ولكن حدث ذلك بعد فوات الأوان ، لهذا إنتظر بركهاردت في مصر (بلاد النوبة) حتى تصل أية قافلة يستطيع اللحاق بها أو الإنضمام إليها كي تقله إلي منطقة منابع نهر النيجر ، ولكنه مات في هذه الفترة بسبب مرض الدوسنتاريا ، وكان آنذاك في الثالثة والثلاثين من عمره .

وفي عام ١٨١٦ ، قاد الكابتن تاكي Captain Tackey الذي كان يعمل في الأسطول الملكي (البريطاني) بعثة مكونة من ٥٦ فرداً من العلماء والجنود كي يكتشف نهر الكنغو ، ويكتشف أيضاً هل نهر الكنغو له اتصال بنهر النيجر أم لا ، ومع ذلك فقد باءت جهود هذه البعثة بالفشل ، بل وانتهت بكارثة ، فقد مات بسبب المرض الكثير من رجالها ومات تاكي نفسه بعد أيام قلائل من وصول البعثة إلي الكنغو .

وفي الوقت الذي كانت فيه بعثة تاكي في طريقها إلي الكنغو انطلق كل من الضابطين العسكريين الميجور بيدي Major Peddie والكابتن كامبل Captain Campbell من الساحل الغربي لأفريقيا، ولكن مات الكابتن بيدي بينما اضطر الكابتن كامبل إلي الرجوع إلي الساحل

بسبب مرضه بعد أن كان قد قطع مسافة مع نهر السـنغال (لم يعـرف طولها) . ثم تبعه بعد ذلك الكابتن وليام جراى Captain William Gray الذي اصطحب معه الطبيب دوتشارد الجـراح Staf – Surgeon Dochard حيث أنهما أبحرا مسافة وهما صاعدين مع نهر جامبيا ، وبعد ذلك ذهبـا بالطريق البري تجاه نهر السنغال، وقد نجحا في الوصول إلي منابع النـهر The upper Waters وواصل دوتشارد تقدمه إلي الأمام كـي يصـل إلي النيجر ، وبخاصة عند النقطة القريبة من سيجو Segu التي لم تبعد كـثيراً عن النقطة التي ركب منها بارك سفينته (أي عند مدينة سان ساندنج) . عندئذ التحق دوتشارد بالبعثة الرئيسية ، ولكن الشيوخ عرقلـوا تقدمـه بصورة واضحة بسبب خوفهم من قيام البعثة بالبحث عـن الـذهب . وهكذا فشل كل من جراى ودوتشارد Dochard ، وعادا إلي الساحل .

وبعد ثلاث سنوات ، وعلى وجه التحديد عام ١٨١٨ م ، وصل طبيب شاب يدعي جوزيف رتشي Joseph Ritchie الذي كان برفقتـه الضابط البحري جورج ليون George Lyon إلي طرابلس Tripoli ، وكان رتشي هذا قد عين نائباً للقنصل البريطاني في فزان ، وحسب التعليمـات التي صدرت إليه يتضح الآتي : " أن الهدف الأساسي من وراء تعيينـك هو التقدم تحت الحماية المناسبة إلي مدينة تمبكتو على وجه السرعة ... فلو تمكنت من الوصول إلي هذه المدينة ، فعليك ألا تفشل في جمع كل مـا يمكن جمعه من المعلومات الخاصة بمجري نهر النيجر ، وكـذلك معرفـة إمكانية تتبعك بأمان لمجري ذلك النهر حتى نهايته " .

وكانت تمبكتو نقطة التقاء للطرق التجارية التي تأتي من الشمال الأفريقي ، ومن المنطقة الواقعة في جنوب الصحراء ، فكانت معروفة للأوروبيين ، وبصفة أساسية من خلال وصف ليو الأفريقي ، الذي قال أنها تمثل مركزاً للثروة والثقافة .

وقد سافر كل من ريتشي وليون إلي الجنوب من طرابلس لكي يصلا إلي مرزوق Murzuk عاصمة فزان ، وهناك مات ريتشي بسبب تعرضه لمرض الحمي . لهذا لم يتمكن ليون من الوصول إلي تمبكتو ، ولكنه تمكن من جمع قدر كبير من المعلومات عن مرزوق ، والقطر الواقع إلي الجنوب منها ، قبل أن يضطر إلي العودة بسبب قلة التمويل ، وكما أن بارك قد صدم بسبب حجم تجارة الرقيق ، فإن ذلك قد حدث أيضاً لليون ، فكان تجار الرقيق العرب يقومون بالإغارة على القري ويأسرون الرجال والنساء الذين يشترون ويباعون كالماشية تماماً ، فضلاً عن ذلك كله ، فإن هؤلاء العبيد كانوا يسيرون مسافة طولها ١٥٠٠ ميل حتى يصلون إلي ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وفي أثناء هذه الرحلة المخيفة، كان الكثير منهم يفشل في الوصول حياً . وفي رحلة العودة التحق ليون بقافلة للرقيق وقد تأثر بسبب المعاملة الوحشية التي كان يلقاها الرقيق . ولاحظ ليون أن أصحاب الرقيق كانوا لا يسيرون دون أن يكون في أيديهم الكرابيج ، التي كانوا يستخدمونها على الدوام ، ويقول ليون ما نصه : " إنني لاحظت أن واحداً من تجار الرقيق يجلد عبيده بصفة مستمرة، وقد اضطررت مراراً إلي تجريده من هذا الكرباج " . وأضاف ليون في قوله " أنه عندما يستسلم عبد للموت يشك التاجر في وجود شئ

مريب داخل أحشائه ويأسف هذا التاجر لعدم استخدامه بشجاعة للعلاج المعهود ، الذي يتمثل في كي العبد في بطنه بقطعة من الحديد الساخن لدرجة الإحمرار " .

وعندما كان ليون في مرزوق ، لاحظ أن هذه القرية نفسها كانت مركزاً من مراكز الرقيق ، وهناك سأل ليون التجار الذين يزورون هذه القرية عن تمبكتو وعن النيجر ، واكتسب ليون انطباعاً مفاده أن هذه المدينة الأسطورية (مدينة تمبكتو) لم تكن مدينة على جانب من الثراء والأهمية مثلما تخيلها الأوربيون ، فلم ير واحدا من هؤلاء التجار الذين تواجدوا في مرزوق يعرف بالفعل نهر النيجر ، ولكن كان من المتعارف عليه في هذا الوقت أن هذا النهر يصب في بحيرة تشاد ، الواقعة في مملكة البرنو في السودان الأوسط . وعلى هذا الأساس أرسل ليون هذا الكم من المعلومات إلي لندن ، ونتيجة لذلك فقد صدرت إليه التعليمات بالتخلي عن بحثه الخاص بتمبكتو ، وعليه أن يرحل تجاه الجنوب إلي بورنو Bornu. ولكن هذه التعليمات لم تصل إليه لأنه كان قد بدأ الرحلة قبل ذلك إلي انجلترا .

ولقد مرت حتى الآن ثلاثين عاماً على إرسال الجمعية الأفريقية للرحالة الأول كي يحاولوا حل لغز النيجر ، فقد مات الكثير من الرجال الشجعان ، ولكن على الرغم من ذلك ، فلم تكن هناك نتائج ملموسة قد تحققت من استكشافات بارك ، بل ظل اللغز دون حل . وفي عام ١٨٢٠م مات بانكس ، وبعد ذلك كان من المحتم أن تخضع الجمعية الأفريقية إلي سلطة أجنبية ، ولكن السير جون بارو Sir John Barrow

الرجل المتحمس ، وراعي Patron حركة الكشوف في القارة الجنوبية ، والسياسي الذي عمل سكرتيراً في رئاسة البحرية في الفترة ما بين ١٨٠٤، ١٨٤٥ ، قد طلب بصفة مستمرة من الحكومة البريطانية ، أن تزوده بالأموال اللازمة لإرسال بعثات إلي المناطق النائية (في أفريقيا) . فكان هو الأداة الخاصة بتجنيد الرحالة ، وهو المخطط لبعثاتهم ، بل وهو الحارس لمصالحهم ، في الوطن عندما يكونون في أفريقيا .

وكان بارو هذا قد واصل البحث من حوله على الشخص المناسب الذي يحل محل ليون ، وقد عثر على الميجور الكسندر جوردون لينج Major Alexander Gordon Laing الذي كان يبلغ من العمر آنذاك سبعة وعشرين عاماً ، فقد خطط لينج بنفسه للقيام بمغامرة إلي تمبكتو . وكان لينج أسكتلنديا وسيما ونحيل البنية ، بحيث لم يكن قوي الجسم ومع ذلك فإنه كان يثق بنفسه ، وعمل مدرساً قبل أن يقرر التحاقه بالجيش ، وبدأ اهتمام لينج بالكشوف الأفريقية ، عندما تمركزت كتيبته في سيراليون التي أنشئت لتكون مستعمرة للعبيد المحررين .

وكان طموح لينج الأكبر هو أن يكون الأوروبي الأول الذي يري تمبكتو وقد طلب الحصول على تصريح ، فرفض طلبه . ولكن في عام ١٨٢١ م سمح له بالحصول على التصريح الذي يخول له قيادة بعثة صغيرة إلي الداخل (داخل أفريقيا) من أجل البحث عن منابع نهر النيجر ، وقد تمكن من تحديد أماكن هذه المنابع على الرغم من عدم وصوله إليها ، كما أنه وصل إلي نتيجة لم يستطع برهنتها وهي أنه لا توجد هناك إمكانية تدل على أن النيجر والنيل يمكن أن يكونا نهراً واحداً ، وكان لا يزال

يحلم بتمبكتو وبخاصة عندما تم تكليف بعثة في العام التالي بحيث تتبع إرشادات ليون التي تقول أنه من المحتمل أن يصب نهر النيجر في بحيرة تشاد .

وقد خطط لهذه البعثة تخطيطاً جيداً ، بل ونظمت أكثر من أي من البعثات السابقة سيئة الحظ منذ موت منجو بارك ، وكان على رأس هذه البعثة وولتر أودني Walter Oudney ، الطبيب الإسكتلندي ، الذي كان يبلغ من العمر واحدا وثلاثين عاماً ، وكانت اهتماماته الأساسية تتمثل في الكشوف ومعرفة التاريخ الطبيعي . وكان أودني هادئ الطبع ، ورجل متواضع ، وضعيف البنية Physically Frail ومع ذلك فقد كان مملوءاً بالحماس ، وكان العضو الثاني في هذه المجموعة شخص إسكتلندي، يدعي هيو كلابيرتون Hugh Clapperton الذي كان طويل القامة ، ووجيه الشكل ، ومرح exuberant ويكبر أودني بسنتين فقط وقد ذهب كلابيرتون إلي البحر في سن الثالثة عشر عاماً ، حيث كان يعمل خادم سفينة تجارية As a Cabin – boy in a merchantman ، وفي جبل طارق هرب كلابيرتون ، ولكنه أسر وفرض عليه العمل في الأسطول الملكي وأبحر حول العالم من الشرق إلي جزر الهند الغربية وكندا . وفي كندا قام كلابيرتون برحلات صيد مع الهنود الحمر ، وقد قبله الهنود الحمر على أنه واحداً منهم ، وكان كلابيرتون يأمل في الزواج من أميرة من الهنود الحمر.

وفي عام ١٨١٧ ، عاد إلي وطنه في أدنبره Edinburgh ، وأصبح في تلك الأثناء بلا عمل مع أنه كان يتقاضي نصف مرتب من الأسطول .

وفي أدنبره قابل أودني الذي عاش معه في نفس الشارع ، وعلى الرغم من اختلافهما في الطبائع إلا أنه كانت تربطهما صداقة متينة .

وكان الأوروبي الثالث في هذه البعثة الملازم ديكسون دنهام Lieutenant Dixon Denham ، الذي كان يعمل ضابطاً بالجيش (البريطاني) وكان في سن كلابيرتون ، وكان دنهام هذا متعجرفاً arrogant ومغروراً Conceited ، ومثيراً للمتاعب a born trouble – maker ، وكان يختلف جداً عن أودني السليم النية the straight for ward وعن كلابيرتون، الذي كان يحتقره علناً despised ، وكان دنهام قد قابل ليون الذي ملأه بالحماس للقيام بكشف أفريقيا . ولما كان له أصدقاء كثيرون في الوطن مع ذوي النفوذ ، فإنه كان في استطاعته إيجاد وظيفة على قدم المساواة مع أودني وأعلي من وظيفة كلابيرتون .

وفي بداية عام ١٨٢٢ رست هذه البعثة في طرابلس ، وبعد ذلك أخذت طريق القوافل الصحراوي الذي يصل إلي واحة مرزوق ، وقد تأخر تقدم البعثة ، وكان من بين الأشياء الأخري التي ساهمت في تأخيرها قلة التمويل ، وكان دنهام يحاول في الظاهر أن يخفف المصاعب ، ولكن في الحقيقة كان يعمل على تحسين مركزه ، وبعد ذلك رحل إلي لندن . ثم عاد مرة ثانية ، وانتابه الغضب الشديد ، لأنه وجد كل من أودني وكلابيرتون يشغلان وقتهما في كشف المنطقة الواقعة بين واحة مرزوق وبين واحة غات Ghat الواقعة في الجنوب ، دون إذن منه ، وغضب كل من أودني وكلابيرتون من دنهام ، بسبب تركه موقعه في هذه اللحظة الحرجة a critical moment ، ولكن على الرغم من ذلك فقد سويت

الخلافات فيما بينهم ، وعلى هذا التحقت بعثتهم بقافلة كانت متجهة إلي بورنو .

وقد عانت البعثة من السفر تجاه الجنوب عبر الصحراء بسبب حرارة الشمس الشديدة ، والعواصف الرملية العنيفة ، وبسبب النقص الشديد في المياه الذي يدعو لليأس . وفي نهاية يوم ملئ بالمتاعب وصلت البعثة إلي بئر ، ولكنها وجدته مردوماً بالرمال ، وكان على أفرادها أن يقضوا عدداً من الساعات في حفر هذا البئر كي يحصلوا على المياه ، وكان عليهم أيضاً أن يقضوا ساعات أكثر حتى يمكن للجمال أن تشرب، وهكذا ، فقد ناضلوا بجهد مضني ومتعب يوماً بعد يوم على طول الطريق الذي تتناثر strewn على جنابته الآلاف من الهياكل البشرية ، إنه لتذكار كئيب عن العبيد الذين هلكوا أثناء عبورهم الصحراء .

وعلى الرغم من كل هذه المصاعب التي واجهت البعثة ، إلا أن أفرادها ظلوا على قيد الحياة ، وكلما كانت الصحراء خلفهم أصبح السفر سهلاً حيث كانوا متجهين في طريقهم إلي بورنو . وفي الرابع من شهر فبراير عام ١٨٢٣ م ظهر فجأة وعلى مرمي البصر تماماً هدفهم الأول ، فقد كتب دنهام يقول ما نصه : " أن بحيرة تشاد الكبيرة بدت إلينا على مسافة ميل واحد من النقطة التي وقفنا عندها ، وكانت أشعة الشمس القوية المتوهجة الذهبية اللون تسقط عليها ، وفي هذه اللحظة خفق قلبي عند رؤيتي لهذا المنظر ، واعتقدت أن هذه البحيرة هي المفتاح إلي الهدف الكبير لبحثنا ... " .

وكان كل من دنهام وأودني وكلابيرتون من الأوروبيين الأوائـــل الذين رأوا بحيرة تشاد ، وكان دنهام على خطأ حينما اعتقد أن أفراد البعثة وجدوا المفتاح إلي لغز النيجر . وعند هذه المرحلة إفترق دنهام عن كل من أودني وكلابيرتون ، والتحق بمجوعة كبيرة من جنود البورنو المسلحين ، والمتجهين إلي قطر الماندارا الجبلي ، الذي يقع إلي الجنوب مـــن بحـــيرة (تشاد) . وكان يبدو على أودني علامات السل ، ومع ذلك فإنه كـــان شجاعاً ، (بل وأن روحه المعنوية كانت مرتفعة فقد سافر كل من أودني وكلابيرتون إلي الجنوب الشرقي كي يكتشفا نهر شـــاري Shari River ، وأثبتا أن هذا النهر لم يكن نهر النيجر . وبعد ذلك ، عاد دنهام إلي البحيرة (بحيرة تشاد) بعد أن تبين له Turned Out أن هذه البعثة (التي كان قد التحق بها) هي بعثة لصيد العبيد ، فغضب دنهام غضباً شديداً مثلما كان عليه الحال في واحة مرزوق ، وذلك لأن أودني وكلابيرتون كانا يواصلين الكشف بدونه . وفي الواقع فإنه كان قد غضب حتى وصل به الأمر إلي إخفاء تقرير كلابيرتون الخاص بهذه البعثة .

وكان من الحكمة للبعثة أن تنقسم إلي قسمين ، قسم تحت رئاسة دنهام الذي كان عليه أن يكتشف نهر شاري والطرف الجنـــوبي لـــبحيرة تشاد، وقسم يضم كل من أودني وكلابيرتون واللـــذين كانـــا عليهمـــا التجول غرباً في اتجاه نهر النيجر ، وكانا برفقتهما محمد الوردي M . El - Wordee وهو تاجر مسلم من فزان . وقد قادهما رحلتهما تجاه مملكـــة كانو Kano التي كانت قد هزمت حديثاً بمعرفة مسلمي الفولاني وقد تميز الشعب الفولاني بالوجاهة وبلون البشـــرة النحاســـي ،وكـــان هـــؤلاء

الفولانيون قد أسسوا إمبراطورية خاصة بهم ، وفرضوا سيطرتهم على شعب الهوسا . وكانت المهارة المحترفة لأدوني مطلوبة في ذلك الوقت بدرجة كبيرة . وكتب كلابيرتون يقول ما نصه : " لقد تحمل أودني متاعب جمة أكثر مما تتحمله صحته ، وقد وصلت أخبار البعثة قبل مجيئها إلي المدن والقري التي مررنا بها ، لذلك أحضر لنا سكان هذه المدن والقري جميع المرضي لكي نعالجهم " .

وكان العمل شاقاً بالنسبة لأودني الذي مات بمرض السل tuber culosis ، والذي قاومه بشجاعة منقطعة النظير ، وقد حزن كلابيرتون عليه حزنا عميقاً بصفته قائداً وصديقاً .

ولقد برهن فقدان هذا الصديق على أنه ضربة عنيفة a severe trial في أي مكان وزمان ، فبالنسبة لكلابيرتون فإنه كان صديقه وزميله في السفر ، ويقول كلابيرتون " لقد كان أودني يعمل تحت وطأة المرض ، والآن تركني وحيداً بين شعب غريب ، ولكنني سأواصل تقدمي من خلال قطر لم تطأه قدماً أوروبية حتى الآن ، ففقدان أودني كان خسارة كبيرة ذات تأثير قاسي لأقصي درجة " .

ولم يستطع كلابيرتون العودة في ذلك الوقت ولكنه إضطر في نهاية يناير عام ١٨٢٤ م ، إلي الذهاب إلي مدينة كانو المسورة ، وعاصمة المملكة ، ودخل كلابيرتون المدينة في شئ من الأبهة pomp ، وكان مرتدياً زيه البحري ومتوقعاً أن يستقبل ببعض مظاهر الحفاوة ، ولكنه حزن لخيبة أمله فيما وصفت به هذه المدينة ؛ ويقول كلابيرتون ما نصه : " توقعت أن أري مدينة مزدهرة وعظيمة ، ولكني وجدت العكس من

ذلك ، فقد بلغ طول المسافة المبنية بالمنازل ربع ميل تقريباً ، وفي أجـزاء كثيرة من المدينة إنتشرت في داخلها مجموعات منفصلة من البرك الكبيرة للمياه الراكدة . ويضيف كلابيرتون في قوله " ليتني وفرت متاعبي الـتي بذلتها في التزين ، وأضاف بحزن أو بمرارة ruefully ما نصه : " لم أر أي شخص يلفت رأسه نحوي ، ولكن الجميع قصدوا مصالحهم الخاصـة ، وسمحوا لي بالمرور دون أي ملاحظة " .

وقد أدرك كلابيرتون أن مدينة كانو كانت مكان التقاء القوافـل العربية القادمة من طرابلس ، وكان سوق الرقيق يتوسطها أو يمثل البورة أو يمثل مركز هذه المدينة . وبعد أيام قلائل رأي كلابيرتون هذا السـوق محتشداً بأفراد من جميع أنحاء أفريقيا ؛ من منطقة البحر المتوسط ، ومـن جبال القمر ، ومن سنار ، ومن بلاد الأشانتي ، وهنا أدرك كلابيرتـون مغزي عدم إهتمام أهل البلد بدخوله إلي البلدة في زيه البحـري . وقـد تفحص كلابيرتون سوق كانو باهتمام مصحوب بالرعب . ولاحـظ في هذه المناسبة أن العبيد المعدين للشحن كان يعني بهم عنايـة خالصـة ، فكانوا يفحصون من جانب المشترين المنتظرين كما لو كانوا حيوانات . وكان من نتائج هذه التجارة أن تفرقت الأسر بلا رحمة ، فلم يكـن في إستطاعة أي أم أن تحتفظ بأطفالها ، كما لم يستطع أي رجل أن يبقـي على زوجته . وعلى الرغم من أن العبيد كانوا يعاملون معاملة حسنة في أغلب الأحيان ، إلا أنهم كانوا يهلكون بسبب العبودية الأبدية .

ولقد لاحظ كلابيرتون أثناء مروره من خـلال مملكـتي كـانو وسكوتو ، اللتين كان حاكمهما يحكم أيضاً إمبراطورية الفـولاني ، أن

جميع مدنهم كانت خالية من السكان بل ومهجورة ، لأن السكان كانوا يؤسرون ويباعون في أسواق الرقيق ، وكان كلابيرتون قد تقرب من الحاكم المسلم الذي استقبله بكل ود . ويقول كلابيرتون لو أوقف هؤلاء الحكام تجارة الرقيق ، ففي هذه الحالةِ يكون في إمكانهم الإتجار مع بريطانيا في السلع المربحة ، لأن بريطانيا كانت قد ألغت تجارة الرقيق ، وعلى هذا فلا يمكن لملك بريطانيا توقيع معاهدة مع أي حاكم لا يزال يتجر في الرقيق .

ولقد وافق الحكام الأفارقة على أن ينظروا هذه المسألة ، بينما كان كلابيرتون قد عاد إلي انجلترا كي يحيط الحكومة (البريطانية) علماً بذلك ، وكان كلابيرتون قد طلب من الحاكم الرئيسي ، السلطان بللو ، سلطان سكوتو ، أن يسمح له بالتقدم إلي نهر النيجر ،الذي كان يوجد على مسافة مسيرة أيام قلائل إلي جهة الغرب . وكان السلطان بللو رجل نبيل وكان مرتدياً قميصاً فضفاضاً أزرق اللون مصنوع من القطن ، وكان النصف الأسفل من وجهه مغطي بشال يمثل عمامته المصنوعة من الشاش الأبيض ، كما كان هذا السلطان شخصية لطيفة ، ومع ذلك كان جافاً في تصرفه لذلك لم يسمح للرجل الأبيض كلابيرتون بالمسير إلي النهر (نهر النيجر) .

ولهذا فقد اضطر كلابيرتون إلي التخلي عن مهمته وأن يلحق بدنهام ، الذي كان ينتظره في كوكا Kuka القريبة من بحيرة تشاد ، وقد عبر الرجلان اللذان لم يكونا أصدقاء أبداً الصحراء مرة ثانية في أمان وعادا معاً إلي انجلترا ، ووصلا إلي لندن في شهر يونيو عام ١٨٢٥ م ،

أي بعد ثلاث سنوات ونصف من تاريخ رحيلهما . وعلى الرغم من فشل البعثة في تحقيق واجبها الأساسي ، إلا أنها اكتشفت بحيرة تشاد ، وقد دحضت إمكانية وجود اتصال بين النيجر والبحيرة ، وقد شاهد الرجلان شعوباً غريبة وبلاداً جديدة ، ومدن كبيرة وطرق تجارية قديمة . وعلى هذا ، فلم يعد الجغرافيون في حاجة إلي الاعتماد Rely on على ليو الأفريقي في معرفتهم للجزء الغربي من داخل أفريقيا ، لأنهم في ذلك الوقت ، كانوا قد حصلوا على كل المعلومات الجديدة والهامة .

وبعد ذلك ، شرع دنهام على الفور في إعداد كتاب بعنوان " سرد للأسفار والإستكشافات في شمال نيجيريا " .

Narrative of travels and discoveries in North of Nigeria.

وفي هذا الكتاب أدمج inserted دنهام وصف كلابيرتون لرحلته إلي كانو وسكوتو ، وبذل جهده ليبرز دوره الخاص في البعثة ، على حساب كل من كلابيرتون وأودني وبعبارة المؤلف :

" but he did his best to play up his own part in the expedition at the expense of Clapperton and Oudney's " .

ولم يذكر في كتابه هذا كشف كل من كلابيرتون وأودني لنهر الشاري ، وفي الوقت الذي كان فيه دنهام مشغولاً بإعداد كتابه ، كان كلابيرتون يعاني من تدهور في صحته ، ومع ذلك فلم تنهار معنوياته فكل تفكيره كان منصباً فقط في العودة إلي أفريقيا كي يكمل (مهمته) .

وقد إضطرب الأسكندر جوردون لينج من أن كلابيرتون أو بعض المستكشفين الآخرين قد هزموه في السباق إلي تمبكتو ، فضاعف من مجهوداته . وعندما كان في انجلترا في أجازة حصل على التصريح اللازم لكي يقود بعثة من طرابلس Tripoli إلي تمبكتو ، ومن تمبكتو يتتبع مجري

نهر النيجر حتى منبعه . وقد أبحر لينج في الخامس من شهر فبراير عام ١٨٢٥ م ، وكان برفقته رجل زنجي يعمل خادماً له الذي كان معه في سيراليون من قبل ، كما اصطحب معه أيضاً إثنين من الأفارقة من صناع المراكب في غرب أفريقيا ، وقد قصد الأسكندر جوردون لينج من ذلك أن يبحر هابطاً مع النهر مثلما فعل بارك من قبل ، وقد تعطل لينج في طرابلس عدة شهور ، وكانت هذه المدة كافية بالنسبة له كي يقع في حب مع إيما ورينجتون Emma Warrington ، الفتاة الجميلة ابنة القنصل العام البريطاني ، الذي كان هو نفسه الراعي الأكبر للكشوف الأفريقية . وقد تزوج الأثنان في الرابع عشر من شهر يوليو من نفس العام ، وبعد يومين من الزواج رحل لينج مع قافلة صغيرة تتضمن مترجم فضلاً عن خادم وعدد من صناع المراكب . وفي هذا الصدد يقول لينج : " سأعمل أكثر مما عمل غيري من قبل ، وأضاف يقول في تباه أنني سأوضح بنفسي أنني رجل المهام العبقري " وبعبارته :

" I shall do more than has ever been done before , he boasted ' and shall show myself to be what , I have ever considered myself , a man of enterprise and genius " .

ومع أن لينج كان متعجرفاً arrogant ، ومغروراً Conceited ، إلا أنه كان يختلف عن أودني المتواضع وعن كلابيرتون الذي اعتبره لينج منافسه ، كما أنه كان شجاعاً وذو عزيمة قوية . وقد اضطر لينج إلي مواصلة الكشف والتجول على أوسع نطاق على الرغم من اشتعال الحرب بين القبائل المحلية . وبعد شهرين من مغادرته طرابلس كان لا يزال أمامه مسافة يبلغ طولها أكثر من ١٠٠٠ ميل كي يحقق هدفه ، وكان لينج في تلك الأثناء وحيداً ومشتاقاً إلي زوجته . وقد علم من الخطابات

العديدة التي وصلت من (زوجته) عندما كان في القرية المجاورة لواحة غدامس Ghadames ، بأن كلابيرتون كان قد وصل إلي نقطة على الساحل (ساحل غرب أفريقيا) ، والشئ الذي لم يعرفه لينج هو أن الشاب الفرنسي الذي يدعي رينيه كاييه René Caillié قد انضم في السباق إلي تمبكتو .

وانطلق لينج مرة ثانية ، وعبر الصحراء إلي الجنوب ، وبعد ذلك كان عليه أن يصل إلي واحة صالح فوصلها في ديسمبر عام ١٨٢٥ م ، وكان أول أوروبي زار واحة صالح ، كما أنه كان يثير فضول الأهالي . ولقد دعي مرة ليظهر على سطح المنزل الذي يعيش فيه فوجد مائة إمرأة تحملقن بثبات إليه . هذا فضلاً عن أن لينج كان هدفاً للشك ، وقد إزدحمت واحة صالح بالتجار القادمين إليها من الشمال الغربي لأفريقيا ، وقد أذاع أحد هؤلاء التجار قصة مفادها أن لينج كان في واقع الأمر منجو بارك ، وكان هذا التاجر الذي أذاع هذه القصة قد جرح في وجهه بطلق ناري من مركب بارك ، لهذا أصر على قصته ، على الرغم من أن رحلة بارك الأخيرة قد انتهت ، ومضي عليها أكثر من عشرين عاماً ، فضلاً عن ذلك فإن لينج كان وقتها شاباً صغيراً .

واستنتج لينج أنه لا يزال يوجد أعداء لبارك في هذه المنطقة ، لهذا كان من الخطر بالنسبة له محاولة الإبحار هابطاً مع النهر (أي متجهاً نحو مصب هذا النهر) وعلى أية حال ، فإن تمبكتو كانت تعنيه أكثر من النهر ، وفي هذا الصدد كتب لينج إلي والد زوجته يقول " أنا لم أتواجد في تمبكتو بعد ، ولكنني أحاول الإقتراب منها ... أنا سوف لا أصل إلي

العاصمة الكبيرة قبل منتصف أو نهاية شهر يناير ، ولكن هذا في حد ذاته كان ذات أهمية ضئيلة ، وسوف أعمل كثيراً ، بحيث أجعل رحلتي أكثر أهمية ، وذلك بالتقدم بهدوء وبرزانة من خلال هذا القطر ، بدلاً من القيام بسباق مع كلابيرتون الذي يبدو أن هدفه فقط هو حرماني من الكشف.... " وعند هذه النقطة وصل كلابيرتون إلي مملكة اليوروبا ، التي كان يقطنها شعب ودود وعطوف ، وبينما كان كلابيرتون في أقصي الجنوب من تمبكتو ، كان لينج في أقصى الشمال من (تمبكتو) . وكان لينج يحاول الوصول إلي كانو وسكوتو ، ولم يحاول الوصول إلي تمبكتو .

وعندما غادر لينج واحة صالح مع قافلة كبيرة من التجار ، كان يأمل في أن تكون متاعب الرحلة قد انتهت to be over ، وفي هذه الفترة كان عليه أن يعبر الجزء الأوسط من الصحراء ، فكانت هذه المنطقة خالية من الواحات الكبيرة وتسكنها قبيلة الطوارق البدوية الشرسة ، وفي أحد الليالي ، وبينما كان لينج نائماً هاجم الطوارق المعسكر ، فقد جرح لينج في البداية بواسطة طلق ناري ، وعندما قفز ليدافع عن نفسه ، ضرب ضربة مريعة بالسيف ، كما طعن thrust طعنات في رأسه ورقبته وفي ذراعيه ويديه . وكان التجار قد هربوا عند أول علامة على بداية المتاعب، وكان قد قتل كل من مترجم لينج وواحد من صانعي المراكب ، بينما جرح بجروح بسيطة كل من صانعي المراكب الآخر ، وقد حمل لينج والخادم على ظهر الجمل وهو ميت أكثر منه حي ، كي يسير مسافة تزيد على ٤٠٠ ميل على طول طريق الصحراء ، حتى وصل ومن معه إلي مركز قيادة صديقه الشيخ سيدي محمد المختار الذي سمح للينج أن يمكث

في قريته حتى يشفي من جراحه . وفي تلك الأثناء ، أجتاح مرض الحمي الوبائي قرية هذا الشيخ ، فمات من بين سكانها الشيخ نفسه ومترجم لينج ، بينما ظل الرجل الذي يقوم ببناء المراكب حياً يرزق والذي كان مرافقاً للينج ، وقد أصيب لينج نفسه بمرض الحمي ولكنه شفي منه ، وبعد أن تأخر مدة طويلة ، تمكن أثنائها من استمالة الشيخ الجديد الذي خشي على سلامة لينج من أن يدعه يواصل السفر ، وقبل أن يغادر لينج منطقة هذا الشيخ الجديد في أول أغسطس من عام ١٨٢٦ م ، كتب لينج إلي والد زوجته خطاباً ، أعطاه إلي الجمال الذي كان عائداً إلي طرابلس (طرابلس الغرب) وقد جاء بهذا الخطاب ما نصه :

" أنا الآن العضو الوحيد من أفراد البعثة الباقي على قيد الحياة ، وموقفي مرض للغاية ، وقد حصلت الآن على تصريح للسفر إلي تمبكتو ، ولكن ذلك على حساب كل الذي حققته ، لأنه لم يكن أمامي خيار غير ذلك ، وكنت قد قبلت ذلك Consented ، لأنني كنت مدركاً تماماً ، أنني إذا لم أقم بزيارتها فإن العالم سيبقي يجهل هذا المكان ، وأنني لا أدعي تحقيق المجد الزائف حينما أقول أن هذه المدينة لن يزورها أبداً رجل مسيحي بعدي وقد شفيت بسرعة ، ولكنني عرضة الآن إلي آلام مرعبة في رأسي وهذه الآلام نابعة من قسوة جرحي ، وأرسل تحياتي وحبي إلي عزيزتي إيما التي أدعو لها أن تباركها السماء " .

وقد أقرض هذا الشيخ الشاب لينج حرساً مسلحاً ، ففي الثالث عشر من شهر أغسطس ، وصل لينج منتصراً إلي تمبكتو ، بعد أن قطع

مسافة طولها ٢٦٥٠ ميلاً ، ويعتبر الأوروبي الأول بل والرحالــة الأول ، الذي وصل في العصور الحديثة إلي هذه المدينة بمجهوداته الخاصة* .

وكانت مدينة تمبكتو هذه بعيدة كل البعد عن مدينة أحلام لينج ، فهي مدينة مملة وكئيبة باستثناء مساجدها ، وكانت منازلها مبنيــة مــن الطين ، كما لم يوجد لهذه المنازل أسوار لحمايتها ، أو لم يكن لها (أي لهذه المنازل) دفاعات طبيعية ، وكان سكانها من شعب الصنغي الــذي يقطن في منطقة النيجر ، وكان هذا الشعب يتعرض للسلب من جانــب قبيلة الطوارق التي تقطن الصحراء ، وكان لينج قد خاب أمله لذلك نجده لم يسمح لنفسه بمواصلة هذا الفشل ، فقد أمضي بالمدينة خمسة أسابيع ، ومن الواضح أنه قضاها في التحول في أنحائها ، ولما كان خائفاً من خطر تعرضه للهجوم من جانب الطوارق ، فإنه ذهب ليلاً إلي كــابرا Kabra ، ميناء تمبكتو الواقعة على نهر النيجر ، وعلى بعد مسافة خمسة أميال منه .

وهناك معرفة ضئيلة عن كيفية قضاء لينج بقية الوقت ، فقد وصل خطاب واحد فقط منه إلي القنصل العام في طرابلس جاء فيه ما يلي :

" من المحتمل أن تخبرك هذه الرسالة المختصرة جداً ، بما أريــد أن أخبرك به ، هذا فضلاً عن إخبار عزيزتي ايما ، وعن وصولي ورحيلي من العاصمة الكبيرة لأفريقيا الوسطي ، فلم يعد لدي وقت كي أعطيك تقرير عن تمبكتو ، ولكنني سأذكر لك باختصار شديد أنها التقت تماماً مع كل

* هناك احتمال قوي يفيد أن بحارا أمريكيا يدعي بنجامين روز Benjamin Rose (الذي عرف أيضاً باسم روبرت آدمز Robert Adams) كانت سفينته قد ارتطمت بساحل غرب أفريقيا عام ١٨١٠ م ، وعندئذ أخذ إلي تمبكتو كعبد ، وفيما بعد أطلق سراحه ، وأخذ إلي مراكش ، لكي يفتدي بمعرفة القنصل البريطاني ، ويرسل إلي لندن . وهناك أخبر بنجامين روز بانكس الذي قابله بأن تمبكتو كانت مكانا بائسا . وتختلف الآراء ، فيما اذا كان روز قد وصل بالفعل إلي تمبكتو أم أن ذلك مجرد اختلاق .

توقعاتي باستثناء حجمها (الذي لا يزيد في الاتساع عن أربعة أميـــال في المحيط) .

وفي هذا الوقت تخلي لينج عن أمله في تتبع نهر النيجر بحيث يصعد معه حتي يصل إلي منبعه . لذا قرر ألا يعود من الطريق الصحراوي الوعر، ولكن كان عليه محاولة الوصول إلي سيراليون وإلي ساحل غرب أفريقيا ، لهذا التحق بقافلة هذا الشيخ الذي قدم له الحماية في جزء من الطريـــق ، وبعد أن غادر لينج المدينة ، وقطع مسافة ٣٠ كيلو متر ، هاجم الشـــيخ وعبيده المسيحي الأوروبي (لينج) وقتلوه في منطقة منعزلة تسمي سهاب Sahab .

وفي تلك الأثناء ، كان لينج في لحظة انتظار (أي لحظة مغادرتـــه بلدة الشيخ الذي أواه) بحيث بدت عليه الشجاعة والجسارة . وكـــان يرغب في كتابة كتاب ، ولكن مذكراته لم تعينه على ذلك ، كمـــا أن تقريره كان قد اختفي ، وهكذا ، فقد ترك لينج من خلفه معلومات قليلة جداً ، عن مساحة شاسعة من أفريقيا المجهولة .

وفي الوقت الذي قتل فيه لينج ، كان كلابيرتون يتعقبه في أفريقيا منذ أكثر من عام ، وقد حمل كلابيرتون معه أوامر من الحكومة البريطانية تخبره بتأسيس علاقات صداقة بين بريطانيا والسلطان بللـــو ، ســـلطان سكوتو ، وأخذ معه أيضاً الهدايا المناسبة وخطاباً من الملك جورج الرابع (ملك بريطانيا في ذلك الوقت) إلي السلطان الأفريقي . وقـــد أحـــيط كلابيرتون علماً بأن يضغط على السلطان ويتضح ذلك مـــن الخطـــاب التالي: " أنه من أهم المزايا التي سيحققها السلطان أن يضع حداً نهائياً لبيبع

العبيد إلي التجار المسيحيين (الأوروبيين) وأن يعمل أيضاً على مع القوي الأفريقية الأخري من تسيير قوافل الرقيق التابعة لها من خلال أملاكه (أي أملاك السلطان بللو) وأن يخبره بالرغبة الملحة في الإلغاء الكلي لهذه التجارة غير الإنسانية وغير الطبيعية ، وبمجرد فتح الطريق بين راكا Rakah الواقعة على النيجر وبين ساحل البحر (ساحل المحيط الأطلسي)، فسوف يتسلم ما يرغبه من السلع التجارية وبأسعار أرخص عن الأسعار التي يشتري بها السلع التجارية التي تأتي إليه من خلال الطريق الطويل الذي يعبر الصحراء " .

وقد أخبر كلابيرتون بأن يجمع معلومات عن كافة أعمال تجارة الرقيق ، ويتضح ذلك من الخطاب التالي : " عليك أن تتبع مجري ذلك النهر الذي عرف في الماضي باسم كابرا Kabra (ميناء تمبكتو) وعرف في العصور الحديثة باسم النيجر Niger فإذا كان هذا النهر مخالفاً للأدلة Testimonies القديمة والحديثة ، فينبغي أن يوجد له انحناءة في مجراه من جهة الجنوب حتى يصب هذا النهر مياهه بعد ذلك عند انحناءة البنين ، بدلاً من استمراره في الجريان إلي جهة الشرق ، ولو وجد أنه يصلح للملاحة خلال مروره من مقاطعات السلطان ، أو وجد أي جزء منه يصلح للملاحة فمن المحتمل أن يؤكد الكشف الأهمية القصوي لتسهيل أهداف البعثة الحالية ، وفي المستقبل سيجعلنا ذلك نتعامل مع ذلك الحاكم" .

وأخيراً كان على كلابيرتون أن يكتشف بصفة شخصية منابع الأنهار التي تتدفق مياهها في البنين والبيافرا ثم تصب في خليج غينيا ، كما

كان عليه أن يثبت وبطريقة عملية أنه لم يسمع من قبل بأن الميجور لينج قد أخبره بأنه أنجز ذلك الهدف ، كما كان على كلابيرتون أيضاً أن يزور تمبكتو .

وكان بارك قد أعطي دليلاً واضحاً عن انحناءة النيجر التي توجد في الجنوب ، ومع ذلك فإن تقريره لم يبرهن على ذلك ، وقد اعتقد كلابيرتون أن نهر النيجر يصب مياهه في خليج البنين ، كما لم يكن لهذا النهر إتصال ببحيرة تشاد ، ولكن الآخرين وبصفة خاصة السير جون بارو Sir John Barrow كان مقتنعاً بأن الرحالة سيبرهنون على أن نهر النيجر هو نهر النيل .

وفي نوفمبر ، عام ١٨٢٥ م قام كلابيرتون على رأس بعثة من باداجري Badagri الواقعة على خليج البنين (لمقابلة) السلطان بللو سلطان سكوتو ، وكان برفقته أربعة أشخاص من الأوروبيين ، وقد تناقصوا في خلال أسابيع قليلة إلي واحد فقط وكان هذا الشخص هو الخادم الشخصي لكلابيرتون ، فكان شاباً واسع الحيلة a resourceful young Cornish man يدعي ريتشارد ليمون لاندر Richard Lemon Lander وقد ضمت هذه البعثة أيضاً باسكو Pascoe ، وهو رجل مسن من بلاد الهوسا ، وكان باسكو هذا يثير بعض المضايقات أثناء الرحلة،ومع ذلك فقد ثبت أنه كان يقدم أعظم مساعدة تطلب منه في أوقات الشدة أو في الأوقات العصيبة .

وأثناء مرور بعثة كلابيرتون من خلال أراضي اليوروبا احتفي بهم في كل مكان بالغناء والرقص ، وفي مدينة الواوا Wawa التي لم تبعد كثيراً

عن مدينة بوسا Bussa الواقعة على النيجر ، أقتفي أثر البعثة أرملة بريـــة تدعي زوما Zuma ، فهي امرأة باشوشة وبدينة ، وقد كتب لاندر يقول " تشبه روما بالضبط برميل المياه " ومع ذلك فإن روما هده كانت كريمة للغاية ، فقد قدمت الأطعمة لأفراد البعثة ، فضلاً عن أنها شملتهم بحبها ، وفي البداية حاولت أن تستميل لاندر ، الذي كان حديث عهد بفنـــون الغزل ، لهذا فقد أخذ المسألة على أنها فكاهة ، بحيث لم يبذل أي جهـــد لأبطال هذا المزح ، ولما تبين له أن زوما تأخذ المسألة بطريقـــة جديـــة ، رفضها رفضاً قاطعاً ، لذلك فقد اتجهت زوما بعواطفها نحو كلابيرتـــون الذي خلص نفسه من هذه العواطف عن طريق مغادرته للمدينة على وجه السرعة . وبعبارة المؤلف :

" Zoma who was extremely generous with presents of food and offers of love , first tried her arts on Lander , who was but a novice in the art of courtship , and imagining it to be altogether in jest , took little pains to spoil the fun by shrinking from it ., when he realized that she was in earnest the young man gave her' a flat refusal ; where upon she transferred her affections to Clapperton , who extricated himself by leaving the town in a hurry .

وفي تلك الأثناء ، فإن النحس قد أصاب أفراد البعثة وبخاصـــة في المدة الباقية من الرحلة ، فكان كلابيرتون قلقاً لأنه أراد أن يعرف حقيقة موت بارك ، في كل من بلدة واوا Wawa وبوسا Bussa ، حيث غـــرق بارك ، ووجد كلابيرتون الناس في هاتين البلدتين غير راغبين في التحدث في هذا الموضوع ، وفي هذا الوقت وصل أفراد البعثة إلي مدينة بوسا التي يزيد عدد سكانها عن ١٠,٠٠٠ نسمة ، ومرض كل مـــن كلابيرتـــون ولاندر بالدوسنتاريا ،وقد شفي كلابيرتون أولاً ، وقام بحمل خادمه وعبر به المجاري المائية التي لم يستطع هذا الخادم أن يعبرها بسبب ضعفه وعدم

مقدرته على السباحة . وبعد أن غادر أفراد البعثة بوسا عبروا نهر النيجر بواسطة معدية كومي Komie Ferry وسافروا جنوباً إلي مسافة كبيرة ، واتجهوا بعد ذلك إلي الشمال الشرقي متوجهين نحو مملكتي الزاريا Zaria وكانو Kano وقد سلك أفراد البعثة طريقاً جيداً ، وفي الوقت نفسه كان لاندر Lander لا يزال مريضاً ، وفي كانو إنقسمت البعثة إلي قسمين ، ضم القسم الأول لاندر وباسكو اللذان مكثا في الخلف ومعهما أمتعة البعثة . وأما القسم الثاني فضم كلابيرتون الذي أسرع بمفرده إلي سكوتو. وفي النهاية قابل السلطان مرة ثانية فوجده متورطاً في حرب مع حاكم بورنو ، وكان هذا السلطان بعيداً أيضاً ومشغولاً في خططه العسكرية بحيث لا يمكنه أن يعطي أية معلومات عن العلاقات التجارية التي ستنشأ مع بريطانيا .

وقد عقد كلابيرتون العزم على تنفيذ تعليمات هذا السلطان ، وأدي فشل البعثة ، إلي تحطيم روح كلابيرتون المعنوية . وأما لاندر فقد بدأ طريقه من كانو ، ووصل إلي المكان الذي يتواجد فيه كلابيرتون ، فوجده مريضاً وبائساً وزاد ضعفه يوماً بعد يوم ، بسبب حرارة الشمس الشديدة .

وفي يوم رأس السنة ، من عام ١٨٢٦ ، كتب كلابيرتون في تقريره ما نصه " لقد أعطيت خادمي ريتشارد جنيه انجليزي one Sovereign من الستة جنيهات التي تبقت معي ، وكان هذا الجنيه بمثابة هدية رأس السنة ، لأن ريتشارد كان يستحق هذا المبلغ ، ولم ير في أية مرة من المرات أنه في حاجة إلي شجاعة رجل إنجليزي ، وبعد ثلاثة

أسابيع علم كلابيرتون بهجوم الطوارق على لينج ،ولكنه لم يعــرف أن لينج قد مات من عدة شهور مضت .

وفي هذا الوقت ، كان كلابيرتون ضعيفاً ، حيث كان يرقد طوال اليوم على السرير الذي أعده له لاندر والذي وضعه في الظــل خــارج الكوخ، وبعد خمسة أيام متتالية كتب لاندر ، يقول " لقد كنت أحمــل (كلابيرتون) على أذرعي من الكوخ إلي السرير ، ثم أرجعه مرة ثانيــة عند الغروب " . وبعد ذلك زاد عليه المرض وأصبح غــير قــادر علــى الحركة، وفي خلال الأسابيع الأخيرة من حياته عرف كلابيرتــون أنــه سوف يموت وكان يمزقه شعور بالفشل والقلق على مصير لاندر عنــدما يموت هو نفسه (كلابيرتون) . وعمل لاندر كل شئ حتى النهاية لكي يتمكن من تخفيف معاناة سيده ، فقام بتمريضه وإطعامه كما كان يمزح له لعدة ساعات حتى يخفف عنه شدة المرض وحرارة الحمي ، كما كان يقرأ له يومياً في الإنجيل .

وعندما تحقق كلابيرتون من أن نهايته أصبحت وشيكة ، نــادي علي الشاب (لاندر) وقال له ما نصه " ريتشارد بعد وقت قريب سوف لا يكون لي وجود ، فأنا أشعر بالموت ، وغالباً ما هزني الحزن " وقــال ريتشارد " الله يرعي سيدي العزيز ، الذي سيعيش سنوات عديدة بعــد ذلك " فقال كلابيرتون " لا تتأثر كثيراً يا بني العزيز فأنا أتوسل إليــك ، لأنها إرادة الله ، وأنت لا تستطيع مساعدتي " .

وقد أخبر كلابيرتون لاندر أن يطلب من الســلطان بللــو Bello قرضاً ليشتري به جمالاً وطعاماً ، وبعد ذلك كان عليه أن يلتحق بأية قافلة

تتجه إلي فزان ، فإذا رفض السلطان طلبه فعليه أن يرسل خطاباً إلي القنصل (البريطاني) العام في طرابلس ، الذي سوف يرسل إليه المساعدة التي يحتاج إليها ، وأنه سوف يتأكد بأن لاندر سيعود بأمان إلي انجلترا .

وبعد ثلاثة أيام ، أي في يوم ١٣ من شهر إبريل عام ١٨٢٧ ، مات كلابيرتون بين أيدي لاندر ، وبوقار شديد نكس لاندر العلم البريطاني The Union Jack ، ويقول لاندر ما نصه " عندئذ كشفت رأسي وفتحت الكتاب المقدس (الإنجيل) والدموع تنهمر من أعيني ، ومع ذلك بدأت أقرأ الترانيم المؤثرة الخاصة بالجنازة على جثمان سيدي المحترم والتي كانت الكنيسة البريطانية تقوم بها ، وفي نفس اللحظة كان العلم البريطاني يرفرف ببطء وبحزن على هذا الجثمان " .

و لم يكن يبلغ كلابيرتون من العمر أربعين عاماً عند موته ولكن على الرغم من ذلك ، وبدون شك ، فإنه كان من أعظم الأشخاص الذين ساهموا في الكشوف الأفريقية لسنوات عدة ، ومع ذلك فإن إنجازاته لم تعط حقها . وكان دنهام مسئولاً إلي حد ما عن هذا الإهمال ، وكذلك السير جون بارو ، الذي أصر على اعتقاده بأن النيجر هو نهر النيل ، رغم كل الدلائل التي تشير إلي عكس ذلك .

وكان هناك أمر آخر يدعم صدق كلابيرتون هو أنه ترك خادمه لاندر يبذل قصاري جهده في تحقيق ما فشل هو في تحقيقه ، وكان لاندر هذا يتمتع بصفات ممتازة قوت من عزيمته التي لولاها لكان اليأس قد أصابه . وقد فقد لاندر سيده ، الذي قال في حقه أنه كان بمثابة والده (أي والد لاندر) . وفي تلك الأثناء كان لاندر مريضاً ومفلساً ، كما

كان هو الرجل الأبيض الوحيد الذي بقي في هـذه المنطقـة الـشاسعة والمجهولة في معظمها ، وكان صديقه الوحيد في هدا الوقت هو باسكو ، أحد شيوخ قبائل الهوسا الذي طلب لاندر منه بكل شجاعة أن يمكـث معه بدلاً من أن يظل في وطنه .

وكان لاندر أيضاً واحداً من الأشـخاص البـارزين في مجـال الكشوف الأفريقية ، فكان قد ولد في عام ١٨٠٤ م ، وكان الرابع مـن ستة أطفال لرجل يملك فندق في كورنش Cornish ، وكان لاندر حفيداً لمصارع مشهور ، كما كان قصير الطول ، وذو شكل مربع ، وقوي مثل جده ، وكان يتميز بعقل ناضج ومتفتح ، وأنه شخصية ساحرة وجادة ، ورغم أنه كان خادماً منذ الحادية عشر من عمره ، إلا أنه كان دائماً يميل إلي السفر . وقد رفض Turned down وظيفة بأجر كبير وفضل السفر إلي أفريقيا مع كلابيرتون .

والآن لن يتخلي عن الذهاب (إلي غـرب أفريقيـا) مـع أن كلابيرتون كان قد نصحه بالذهاب إلي الشمال بدلاً مـن المخـاطرة في الطريق إلي الساحل الغربي ، وأنه بعيداً جداً عن أن ينغمس في توقعـات حل أكبر مشكلة جغرافية موجودة ، التي حيرت الأوروبيين لمدة طويلة ألا وهي التأكد من أن نهر النيجر يتصل بالفعل بالبحر ، لذلك عاد لاندر إلي كانو ، وعندئذ توجه صوب الجنوب في اتجاه فوندا Funda الواقعة في بلاد النوب Nupe ، وهناك سمع الناس يتحدثون عن مدينة تقع على نهر النيجر .

وبعد أثني عشر يوماً من بدء الرحلة التي قام بها لاندر من مدينة فوندا * ، هاجمته عصابة من المسلحين التابعين لأمير الزاريا Zaria وحاولت اعتقاله ، ففي الظاهر كان على هذه المجموعة أن تحميه من حكام الفوندا، الذين كانوا أعداء لسلطان مملكة سكوتو ولما تحقق لاندر من سوء نية هؤلاء المسلحين اضطر للتخلي عن بحثه ، واتخذ طريقه عائداً إلي باداجري، وبصحبته باسكو الذي لا يزال معه ، وكان على لاندر أن ينتظر سفينة تقله إلي انجلترا .

وقد استغرقت هذه الرحلة سنتين ، منذ أن رسا لاندر وكلابيرتون في باداجري . وقد وجد لاندر هذا المكان مكتظاً بتجار الرقيق المولدين (المهجنين) Half - Caste Slave traders الذين قدموا من البرازيل ، وكان هؤلاء التجار البرازيليين ، أعداء للبريطانيين ، وكانوا يسعون لتحطيم تجارة الرقيق الدولية ، واعتقد هؤلاء التجار البرازيليين أن لاندر من المحتمل أن يكون جاسوساً بريطانياً a British Spy ، لذا أقنعوا بسهولة أحد الشيوخ المحليين الذي كان يعيش أيضاً على تجارة الرقيق بأن هذا الشاب (لاندر) يهدده في رزقه .

وكان هذا الشيخ المحلي ، هو الذي يحض على التضحية البشرية ، ويشجع الأعمال العنيفة الأخرى ، لذا قرر أن يبعد هذا الدخيل بعيداً ، وأمر أن يظهر لاندر أمام الكبار ، ويتضح ذلك من النص التالي :

" إحتشد هؤلاء الكبار عند كوخ ضخم .... وفي طريقي إلي هذا الحشد تجمع ما بين ٥٠٠ ، ٦٠٠ شخص ، بحيث أنني استطعت

* في الواقع أن فوندا هذه لم تقع على نهر النيجر ، ولكن تقع على رافده البنوي

التقدم بصعوبة . وكان هناك عدد كبير منهم مسلح بـــالبلط Hatchets ، والأقواس bows والسهام Arrows ، والحراب Spears وانتظــروا خـــارج الكوخ حتى خرجت ، وحال دخولي إلي الكوخ قدم إلي هؤلاء الرجـــال وعاء ، كان مملوءاً ... إلي الربع بسائل شبيه بالماء ، وأمرني هذا الرجل أن أشرب هذا السائل ، قائلاً " إذا كنت قد قدمت إلي هنا لتقـــوم بأفعـــال سيئة فإن هذا الشراب سيقتلك ، وأما إذا كنت لم تأت لفعل الســـوء ، فإن هذا الشراب لا يؤذيك بسوء . ولم يوجد أمامي حيلـــة أو وســـيلة resource تخلصني من هذا الموقف ، فعلي الفور وبدون تردد شربت كل محتويات الوعاء وجريت بسرعة إلي خارج الكوخ من خـــلال الرجـــال المسلحين إلي مكان أمتعتي ، وهناك تناولت دواءاً قوياً وكمية من الميـــاه الدافئة ، فعلي الفور طرد هذا الدواء الذي تناولته كل محتويات معدتي ، ولم أشعر بأي مؤثرات مؤلمة من هذا الطقس الديني ، وكان هذا الشراب مر المزاق ، بل ومزاقه غير مقبول ، وقد علمت أن هذا المشروب ثبـــت بصفة أساسية إنه سم قاتل " .

واندهش الرئيس المحلي بسبب بقاء لاندر حياً ، واعتقد فقط أنـــه من المحتمل أن يكون لاندر تحت حماية مقدسة ، وينبغي على لاندر نفسه أن يزود هذا الرئيس بعناية أرضية . ولذلك حذر الشيخ لاندر بأن تجـــار الرقيق ينتظرونه في خارج هذا المكان ليقتلوه ، ونصحه بألا يخـــرج مـــن كوخه بدون سلاح ، وفي خلال الشهرين التاليين إنتاب لاندر خوفاً على حياته ، ولكنه أنقذ بسبب وصول سفينة بريطانية أقلته عائداً إلي انجلترا .

وقد صحب باسكو المخلص لاندر في طريق العودة إلي انجلترا ولكنه بناء على رغبته عاد إلي وطنه أفريقيا .

ولقد وصل لاندر إلي أنجلترا في شهر أبريل عام ١٨٢٨ ، أي بعد عام من وفاة كلابيرتون . وفي هذا الوقت كان الشاب الفرنسي الجسور الذي يدعي رينيه كاييه R . Caillié الذي كان يكبر لاندر بخمس سنوات، قد حقق طموحه . وكان رينيه هذا إبناً لأسرة فقيرة ، فقد تعلم في مدرسة خيرية Acharity School ، وبعد ذلك تدرب على الأعمال التجارية ، ولكن بعد ذلك كره (العمل التجاري) وشغل وقته بالقراءة والتأمل ، وقد كتب عن قصة روبنسون كروزو Robinson Crusoe في مذكراته يقول :

" لقد ألهبت هذه القصة مشاعري القومية ، وكنت عديم الصبر ، فكنت تواقاً للقيام بمغامرات مثله (روبنسون كروزو) ، وكنت قد شعرت من قبل بطموح بحيث أجعل من نفسي شخصية بارزة ، وذلك بقيامي ببعض الإستكشافات الهامة لأن خريطة أفريقيا لم أر عليها أشياء محددة بل بلاد وأفكار تحدها الصحراء ، أو حتى بدون حدود ، فقد أخذت هذا مأخذ الجد أكثر من أي شئ آخر " .

وفي سن السادسة عشر ، ترك رينيه تجارته ، وذهب إلي البحر في سفينة كانت متجهة إلي السنغال ، وهناك علم بأن الكابتن جراي Captain Gray كان يتتبع طريق بارك حيث صعد مع نهر جامبيا . وبعدئذ شرع رينيه كاييه في السير على الأقدام كي يلحق ببعثة الكابتن جراي ووصل كاييه إلي نهر السنغال ، ووجد أن جراي غير قادر على الوصول

إلي دوتشارد Dochard ، عندئذ كان على بعثة جراي أن تتخلى عن مهمتها (وعاد رينيه كاييه بالتالي إلي فرنسا) .

ولكن في عام ١٨٢٤ عاد رينيه كاييه من فرنسا إلي السنغال مع أنه كان فاقد الأمل ، ولكن على الرغم من ذلك وصل السنغال وهناك زوده الحاكم الفرنسي لهذا الأقليم بالسلع والمؤن ومكنه هذا الحاكم أيضاً من البقاء في السنغال وقتاً كافياً ليبدأ في تعلم اللغة العربية ، كما كان عليه في هذه الفترة أيضاً أن يدرس الإحتفالات الدينية للمراكشيين ، وبعد ذلك سوف يتمكن رينيه كاييه من مداراة Lull غيرتهم وشكوكهم . وهكذا تمكن كاييه بسهولة من النفاذ إلي مسافات بعيدة ، في داخل أفريقيا .

وكان لدي كاييه فكرة جريئة تتمثل في أنه يسافر بمفرده ، وهو متنكر في زي رجل ورع مسلم ، وعلى هذا الأساس ، فقد مكث في السنغال ثلاث سنوات كي يتمكن من إتقان هذه الخطة ، وكانت القصة التي دبرها كاييه ، أو التي اختلقها تتمثل في أنه كان قد ولد في مصر من أبوين عربيين ، وأثناء الغزو النابليوني لمصر ، أخذه البحارة الفرنسيون وهو طفل إلي فرنسا ، وهناك عمل كاييه خادماً في فرنسا عندما كان طفلاً ، ومع ذلك فإن سيده أحضره إلي السنغال ومنحه حريته ، والآن يرغب في أن يصبح مسلماً ويتخذ طريق العودة إلي مصر ، كي يبحث عن أسرته .

وقد أتقن كاييه التنكر ، وذلك بارتدائه الزي العربي ، فضلاً عن أنه أجاد العربية ، فعرف محتويات القرآن ، وألم بعادات المسلمين . وفي

عام ١٨٢٧ م التحق رينيه كاييه بقافلة كانت متجهة إلي تمبكتو ، وقد صدم رينيه للوهلة الأولي ، وبخاصة عندما رأي مقبرة كل من الميجور بيدي Major Peddie ومقابر الأعضاء الآخرين الذين كانوا ضمن أعضاء بعثة النيجر المشئومة .

وعلى الرغم من بشرته البيضاء وأنفه المستقيم الذي جعله أكثر وضوحاً إلي الفولانيين الذين يتميزون بالبشرة النحاسية ، إلا أنه تمكن من تهدئة شكوكهم وذلك عن طريق ورعه الواضح ، ومع ذلك كان عليه أن يأخذ حذره ، بحيث لا يراه أحد أبداً عندما يكتب تقريره ، وهكذا ، وبمكر كان كاييه يضع أوراق بيضاء بين صفحات القرآن لكي يستخدمها في كتابة مذكراته .

وقبل أن يصل كاييه إلي الشاطئ الأيسر لنهر النيجر ، أصابه المرض والإنهاك بل وكان يعاني من تقرح في قدمه ، لم يلتئم أبداً ، عندئذ كان عليه أن يدع القافلة تواصل المسير بدونه ، وظل لمدة شهور عديدة غير قادر على الحركة ، لأن الإسقربوط كان قد هاجم عظامه ، مثل منجو بارك من قبله ، فهو مدان بحياته إلي شفقة سيدة عجوز كانت تقدم له الطعام ، بل وتقوم بتمريضه ، حتى أصبح قادراً على مواصلة رحلته .

واستغل رينيه فترة النقاهة في تجهيز أفضل الوسائل التي تمكنه من التقدم إلي النيجر بحيث أنه كان يأمل في الوصول إلي تمبكتو المدينة الغامضة التي كانت هدفاً من أهداف رحلته .

وبعد السير لمدة شهرين كان كاييه لا يزال ضعيفاً وخاضعاً لنوبات متكررة للمرض ، ثم وصل بعد ذلك إلي أحد روافد نهر النيجر ،

وعبر النهر بمعدية إلي جزيرة جين Jenne ، وهناك رحب به بعض الأثرياء الذين خدعوا Hoodwinked بتنكره وعملوا كل ما في استطاعتهم كي يساعدوه في طريقه . وفي نهاية مارس عام ١٨٢٨ م ، ركب رينيه كاييه مركب عبيد كانت متجهة إلي تمبكتو ، وقد تبعت هذه المركب مجري النهر (نهر النيجر) لمدة ثلاثة أسابيع ، وفي صباح التاسع عشر من شهر إبريل من نفس العام ، ألقي كاييه نظرته الأولي على الكابرا Kabra ، وهي ميناء تمبكتو . وقد استغرقت هذه الرحلة سنة بالضبط ، منذ التحاق كاييه بالقافلة التي بدأت المسير من السنغال . وفي خلال هذه الفترة تمكن رينيه كاييه من قطع مسافة طولها ١٥٠٠ ميل سار منها ١٠٠٠ ميل على الأقدام .

وعندئذ إتجه كاييه إلي تمبكتو في اشتياق لرؤية عجائبها ، وكانت الحقيقة خيبة أمل محزنة ، فبدت المدينة وكأنها لم تكن شيئاً يذكر ، بل كانت عبارة عن كتل من المنازل الرديئة ، المبنية من الطين ، ولم ير كاييه أي شئ في جميع الإتجاهات ، ولكنه رأي سهولاً للرمال المتحركة ذات اللون الأبيض ، الذي يميل إلي الأصفرار ، وبينما هو في حالته هذه فقد ملئ بالإعجاب لهؤلاء الرجال الذين شيدوا هذه المدينة في الصحراء ، وانتهت خيبة الأمل الذي كان قد أصيب بها أولاً .

وقد حمي كاييه نفسه بسبب تنكره هذا ، فقد عومل على أنه ضيف ممتاز ، وسمح له بالذهاب إلي أي مكان يرغب في زيارته ، فتجول في شوارع المدينة ، وزار المساجد وسوق الرقيق ، فلم تكن المدينة كبيرة ، ولا مزدحمة بالسكان ، كما كان يتوقع ، وكتب كاييه يقول ما نصه :

" لم تكن المدينة كبيرة ، بحيث تتناسب مع شهرتها فلم يوجد هناك ، مثلما يوجد في جين ، حيث يلتقي الغرباء من كل أجزاء السودان، وذكر رينيه كاييه أنه رأي في شوارع تمبكتو الجمال فقط ، التي وصلت من كابرا Kabra وهي محملة بالسلع التجارية التي أحضرها الأسطول الصغير Flotilla ، ورأي أيضاً السكان يجلسون على الحصير بحيث يتبادلون الحديث ، كما رأي المراكشيين وهم نائمين في الظل أمام أبواب منازلهم ، وباختصار فقد بدأ كل شئ له مملاً " .

واعتقد رينيه كاييه أن عدد سكان تمبكتو يتراوح فيما بين ١٠,٠٠٠ ، ٢٠,٠٠٠ نسمة ، ولازال سكان تمبكتو ينتابهم الخوف من قبيلة الطوارق المفترسة Rapacious Tuareg . وقد علم رينيه كاييه عن موت لينج عندما كان في مدينة جين ، و لم يتمكن كاييه من أن يتخلص من القلق على مصيره ، وعلى وجه الخصوص عندما استأجر لنفسه المنزل القريب من المنزل الذي كان يسكنه لينج ، ويتضح ذلك من قوله " فلقد كنت على دراية تامة بما يحيط بي من مخاطر و لم أستطع أن أبعد عن إحساسي أنه يمكن أن يكتشف أمري ، وفي هذه الحالة فإن مصيري سوف يكون أقسي من الموت أو العبودية " .

ومن حسن الحظ فإن تنكر كاييه كان تنكراً جيداً ، حتى إنه تمكن من أن يخدع شيخ تمبكتو الذي استقبله في قاعة إستقبال ، وسأله عن كيفية معاملة المسيحيين له في فرنسا infidel Christians ، وبعد أن قضي كاييه أربعة عشرة يوماً في مدينة تمبكتو غادرها دون أن يكتشف أمره حتى هذه اللحظة ، والتحق بقافلة متجهة bound إلي مراكش ، واعتقد أنه

إذا عاد بمفرده إلي الساحل الغربي فإنه لا يمكن لأي شخص أن يعتقد أنه زار تمبكتو .

وبلغ طول الرحلة التي قطعها رينيه كاييه عبر الصحراء ٩٠٠ ميل، ويقول كاييه " أن العواصف الرملية قد أحاطتنا بطبقة سميكة من الضباب المظلم ، حتى أن معظم المسافرين المنهكين قد قاسوا من متاعب العطش" .

واستمرت هذه الرحلة مدة ثلاثة شهور تقريباً،قبل أن تدخل القافلة مدينة فاس Fez المراكشية.وكان كاييه لا يزال متنكراً حتى هذه اللحظة،وواصل مسيره إلي طنجة حيث هرب على متن سفينة فرنسية،وقد قطع كاييه أثناء رحلته التي استغرقت ثمانية عشرة شهراً ، مسافة طولها ألفين وخمسمائة ميل ، قطعها في أقليم شاسع غير مكتشف . وكان رينيه كاييه الأوروبي الأول الذي زار تمبكتو وعاد حياً كي يتهيأ لكتابة تقريره، وقدم كاييه وصفاً جديداً لتمبكتو في كتابه " رحلات من خلال وسط أفريقيا إلي تمبكتو " Travels through Central Africa to Timbuctoo " ، وقد حصل على مكافأة صغيرة منحتها له الجمعية الجغرافية الفرنسية ، كما استحق وسام الشرف وهو عبارة عن معاش " a richly deserved Cross of the legion of Honour " ومات رينيه كاييه عام ١٨٣٩ م ، وكان عمره آنذاك أربعين عاماً .

وفي نفس الوقت ، عاد ريتشارد لاندر Richard Lander إلي (إنجلترا) وكتب تقريراً عن مغامراته ،كي يضمه إلي تقرير كلابيرتون الناقص ، وبعد أن أكمل ريتشارد لاندر تقرير كلابيرتون قام بنشر التقريرين في كتاب باسم ، تسجيلات البعثة الأخيرة للكابتن كلابيرتون " Records of Captain Clapperton's Last Expedition".

وقد تلقي ريتشارد العون من أخيه الأصغر جـون لانـدر John Lander الذي تمرن ليصبح طباعاً وجماعاً لأحرف الطباعة في جريـدة كـورنيش Cornish ، وكان جون لاندر الذي كتب عدة مقالات في النثر Prose وبعض قطع الشعر Verse ، مهتماً أكثر بالسفر عن أن يحيا حياة كاتب أو طباع ، ويرجع الفضل إلي أخيه ريتشارد لاندر في حبه إلي سحر أفريقيا . ولما طلب ريتشارد لاندر تصريحاً رسمياً يخول له السفر إلي أفريقيا كي يحل مشكلة النيجر ، فإن جون لاندر رغم عدم محاولته السـفر ، طلـب أن يذهب مع شقيقه .

ولم توضع عقبات في طريقهما (ريتشارد لاندر وأخيـه جـون لاندر) فقد وضح على الفور أن جون لاندر كان شريكاً مثالياً .

وفي يوم التاسع من شهر يناير عام ١٨٣٠ م ، أبحر الأخوان مـن ميناء بورتسموث Portsmouth ، وفي هذه المناسبة كتب ريتشارد لانـدر إلي وزارة المستعمرات البريطانية يقول " على أن أقضي على كل خطـر وكل إزدراء وكل صعوبة من المحتمل أن تهدد وتعرقل تقدمنا " . وكانت التعليمات الصادرة إليه أن يتبع مجري نهر النيجر للوصـل إلي نهايتـه ، ومعرفة إمكانية أنه يصب في البحر ، أو في بحيرة تشاد ، وبعبارته :

" His instructions were to follow the course of the Niger , if possible to its termination wherever that may be , either in the sea or in lake chad " .

وقد رسا الأخوان على ساحل غرب أفريقيا بحيث توقفا عند قلعة رأس الساحل وهما في طريقهما إلي باداجري لاستئجار بعـض الخـدم الإفريقيين ، الذين كان من بينهم باسكو المسن ، الـذي أحضـر معـه زوجتيه الأثنتين ، وفي باداجري كان الأخوان البريطانيان غير مألوفين تماماً

، حَيث أن ريتشارد لاندر قد هرب من موت محقق ، وعلم الأخوان أن رئيس المنطقة كان يعد ضحية بشرية مكونة من ثلاثة مائة شخص . و لم يستطع الأخوان القيام بأي عمل من شأنه منع هذه المذبحة الجماعية ، وكان الأخوان قد سرا لأنهما تمكنا من مغادرة هذا المكان قبل أن تبدأ هذه المذبحة .

وقد سافرت البعثة بطريق البر تجاه النيجر ، واستخدمت في ذلك الطريق القديم الذي قادها من خلال وطن اليوروبا ، وقد دهش الناس المحليون بدرجة كبيرة لرؤية أفراد البعثة وأحاطوا بالأخوين وهم يصيحون Shouting ويهللون بصوت مرتفع Squealing ، ولم يمنح السكان أفراد البعثة الراحة حتى عندما كان أفراد هذه البعثة في مسيس الحاجة إليها ، وبخاصة عندما سقط الأخوان فريسة لمرض الملاريا ، وكان الملك موجوداً في العاصمة كاتونجا Katunga ، واستطاع أن يري كيفية ما يعانيه أفراد هذه البعثة ، فأصدر أوامره إلي الأيبو Ebo رئيس الحرس ، وقد جاء بهذه الأوامر ما يلي:

" أنه في حالة قيام أي شخص سليط بمضايقتنا في أي وقت ، فإن الأيبو Ebo له الحرية في قتل هذا الشخص الذي يضايقنا ، ومن المحتمل أن يكون لهذا الإعلان نتائج مرضية ، والسبب في ذلك يرجع إلي الخوف من الأيبو الجلاد العام الذي ينفذ العدل ، حيث كان في نفس الوقت رئيساً للحرس ، لذلك فإن سكان كاتونجا Katunga قد أخفوا فضولهم وحبسوا أنفاسهم في مساكنهم .

وعندما وصل الأخوان إلي بوسا Bussa قـــابلا زومـــا الأرملـــة المشهورة القديمة Richard's Old Flame , the widow Zoma وكانت زوما هذه المرة بدينة عما كانت عليه من قبل ، ولم تحمل ضـــغينة لريتشـــارد لرفضه لعروضها ، وشرحت زوما لريتشارد لاندر أنها قد تشاجرت مـــع رئيسها المحلي وهي الآن تعيش في المنفي .

وقد قصد ريتشارد أن يسير مع النهر حتى يصل إلي بوسا ، ولكنه واجه مشكلة كبيرة تمثلت في كيفية توفيره للمراكب اللازمة وللمتطوعين اللازم تجنيدهم ، وبعد أن تأخرت البعثة بعض الوقت ، تمكنت من شراء قاربين عن طريق المبادلة بعدد من أبر الخياطة ، ثم شرع الأخوان بعد ذلك في الرحيل في العشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٣٠ م ، ولم يكن لـــدي البعثة أي فكرة على الإطلاق على المنعطفات التي تصادفها في هذا النـــهر الكبير ، ولا عن المخاطر والمصاعب التي من المحتمل أن تقابلها .

وكانت أولي هذه المشاكل التي واجهتها تتمثل في أن الميـــاه قـــد تسربت إلي المركب الكبير بدرجة كبيرة ، حيث أعيد تجديده في عديـــد من الأماكن ، واستخدمت البعثة هذين المركبين أطول مسافة ممكنـــة ، وبعد ذلك تخلت عنهما في مقابل حصولها على مركب أصغر ، كان قد قدم إليها من شيخ رحيم .

وبعد أن بدأت البعثة مهمتها ، بدأت أول مشكلة تواجهها ، وقد تمثلت هذه المشكلة في الصراع – الذي وقع بينها وبين أفراس النهر الـــتي ظهرت فجأة – والذي لا يمكن تصديقه ، ويتضح ذلك مما يأتي : –

" ظهرت هذه الأفراس بالقرب منا ، فكانت تخوض في المياه (تطرطش) وتزأر (أي يسمع لها شخير) وتغوص جميعها من حول المركب ، بحيث أصبحت البعثة معرضة لخطر وشيك ، وانصب تفكيرنا في كيفية تخويفهم ، وذلك بأن نطلق عليهم عياراً أو عيارين من الأسلحة، ولكن كل ما حدث أن أصوات الطلقات النارية أخرجت من المياه ومن المستنقعات كثيراً من رفاقهم غير المتوحشين ، بحيث أصبحت الحيوانات على مقربة منا ، فأصبحنا في خطر شديد " .

وقد دب الرعب في (البحارة) وصاحوا بصوت مرتفع من أن هذه الدواب (أفراس النهر) سوف تقلب المراكب وأنهم سوف يغرقون جميعاً ، ولكن الأخوين تحدثا بهدوء وبرزانة ، وحثا البحارة على التجديف بسرعة ، وحتى يتبع ذلك صوت صادر من التجديف مما يدعو الأفراس إلي المسير إلي الأمام .

وعند ايجا Egga وهي مدينة تقع في إقليم النوب Nupe الواقع على نهر النيجر ، هدد البحارة بالهروب ، وكانت مدينة الإيجا هذه واحدة من المدن الواقعة على حدود الهوسا ، وفيما وراءها يوجد قطر مسكون بقبائل متوحشة وهمجية ، وقال اللذان زارا هذه المنطقة من قبل وهما باسكو Pascoe ، ورجل آخر إنهما لا يستطيعان الذهاب أبعد من ذلك لخوفهما من أن يقتلا ، ولكن من المحتمل أيضاً إنهما يتعرضان لخطر مساوي لذلك الخطر لو مكثا في الإيجا ، لذلك إستمالهما الرجلان البيض (ريتشاد لاندر ، وأخيه جون لاندر) على البقاء معهما .

وبعد أيام قلائل أصبح خوفهم له ما يبرره فقد عسكرت المجموعة (البعثة) على شاطئ نهر النيجر وبالتحديد جنوب المنطقة التي يلتقي عندها نهر النيجر بفرعه البنوي ويتضح ذلك من النص التالي :

" لقد شاهدنا مجموعة كبيرة من الرجال كانت غالبيتها عارية الأجسام ، تجري بطريقة غير منتظمة ، نحو معسكرنا الصغير ، وكانت ملامح هؤلاء الرجال غير مألوفة بالنسبة لنا ، وكانوا جميعاً مسلحين بأسلحة مختلفة ، منها البنادق القديمة الطراز Muskets ، والأقواس Bows ، والسهام arrows ، والسكاكين knives ، والسيوف Cutlasses ، والأشواك barbs ، والحراب الطويلة Long Spears هذا فضلاً عن أنهم كانوا يحملون معهم أدوات أخري للتدمير instruments of destruction ، وكانت مجموعتنا أكثر انتشاراً ولكن لحسن الحظ فإننا رأيناهم من مسافة قريبة قادمين إلينا ، وكان لدينا الوقت كي نجمع رجالنا ، وكان تصميمنا أن نمنع إراقة الدماء كلما أمكن ذلك ، لأن عددنا كان قليلاً ، وهذا يتيح لنا فرصة الهروب بأي طريقة أخرى ، لهذا لم نضيع لحظة واحدة من وقتنا ، ورغبنا باسكو وجميع الناس التابعين إلينا في السير من خلفنا ، وذلك لمسافة قصيرة ، بحيث يحملون معهم البنادق والمسدسات Pistols . واشترطنا عليهم بكل دقة عدم إطلاق النيران إذا هم لم يبدأوا بإطلاق النيران علينا ، وقد ثبت أن الرئيس كان واحداً من الوطنيين فشعرنا أن هؤلاء الرجال جميعاً كانوا في صحبته ، ومشيت أنا وشقيقي ببطء ، وبدون سلاح تجاه هذا الرئيس ، وبينما كنا نقترب منه قمنا بعمل كل الإشارات والحركات التي يمكن عملها بأذرعتنا لنمنعه وشعبه من إطلاق

النيران علينا . وكان هذا الشيخ يحمل معه خنجراً يتدلى إلي جانبه وقوساً منحنياً وسهماً مصوباً إلي صدورنا ، وعندما كنا على بعد ياردات قليلة من هذا الرئيس كان قد شد حبل القوس ، وبالفعل كانت هذه لحظة حرجة ، وربما كانت اللحظة التالية هي آخر لحظة في حياتنا ، ولكن يد القدر منعت هذه الضربة ، وفي اللحظة التي كان فيها هذا الرئيس يجذب الحبل المميت إندفع نحوه الرجل القريب منه وشل حركة ذراعه ، وفي تلك اللحظة كنا نقف أمامه ، وعلى الفور رفعنا أيدينا إلي أعل فكل الرجال (رجال البعثة) أصبحوا كالأوراق المهتزة أو أصبحوا يهتزون كالأوراق . وقد نظر هذا الرئيس إلينا ووجه نظراته إلي وجوهنا ، وكان في تلك الأثناء راكعاً في الأرض وبدأ الضوء الوامض ينبعث من عينيه السوداتين المتقلبة ، وكان كل جسمه يهتز عن آخره . وبينما كنا نكابد التعذيب والخوف torture & timorous اللذين لم ينصرفا حتى أن تعبيرات ملامحنا وكل انفعالاتنا إختلطت بشئ غريب ، تمثل في خفض هذا الرئيس لرأسه ، وبجسارة أمسك أيدينا الممتدة إلي أعلي وانفجر في البكاء ، ويعتبر هذا علامة من علامات الصداقة ، واصطحبتنا السعادة ، ولم تعد الحرب وسفك الدماء قائمة أكثر من ذلك ، وقد ساد بيننا السلام والصداقة . وكان الشئ الأول الذي ينبغي عمله هو أن نقوم برفع الرئيس المسن من على الأرض ، وأن نوصله إلي معسكرنا .

وفي البداية لم يستطع أفراد البعثة أن يفهموا ، بماذا كان الشيخ يحاول أن يخبرهم ، ولكن عندئذ ظهر رجل كان على دراية بلغة الهوسا ، وترجم ما يقوله هذا الرجل ، ففسر بأن هذا الرئيس لم ير من قبل رجالاً

بيض ، وخشي هذا الرئيس أن يكون هؤلاء البيض " أبنـــاء الســـماء " Children of Heaven الذين سقطوا كي يثأروا منه بسبب ارتكابه لبعض الجرائم ، وأسرع الأخوان ليؤكدا للرئيس المسن بأهما لم يأتيا من مكان طيب كالسماء مثلما كان يتخيل ، وهنأنا أنفسنا بالإضافة إلي تهنئة هـــذا الرئيس على أن هذه المسألة انتهت بسلام .

وكان لتصرفهما الرفيع الشجاع الذكي ، أثره بدون أدنى شك في إنقاذ حياة كل أفراد البعثة ، وقبل أن تغادر البعثة قرية هذا الرئيس المسن قبلت بكل سرور هدية من الكولا وجوز الهند واليام ويرجع الســـبب في قبول هذه الهدية إلي نقص الأموال مع البعثة ، فإن ذلك جعـــل الأمـــر مستحيلاً عليهما كي يقوما بشراء مزيد من الطعام . عندئذ شرعا في بدء رحلتهما هابطين مع نهر النيجر ، وكان كل شئ ساكن ومقفر ، وكانت البعثة قد سجلت ذلك في تقريرها . ويقال أنه لا يمكـــن التمييـــز بـــين أصوات أفراد البعثة وصدي طرطشة المجاديف ، كما لم يســـمع تغريـــد الطيور ، ولم يتمكن أفراد البعثة من رؤية أي حيوان ، وبدت شـــواطئ النهر مهجورة تماماً ، وكان نهر النيجر العظيم صامت بعظمته .

وقبل مضي وقت طويل تحقق أفراد البعثة من أنهم يبحرون علـــى مقربة من البحر (المحيط الأطلسي) ، حيث أنهم وصلوا إلي الأقليم الذي لم تعد بشرتهم البيضاء تجعلهم موضع شك ، ويعني هذا أن هذه المنطقـــة كان يزورها التجار الأوربيين القادمين من الساحل الغربي . وفي الخامس من شهر نوفمبر رأي أفراد البعثة خمسين قارباً كبيرة قادمة نحوهم ورافعة الأعلام الأوروبية ، كانت هذه المراكب مسحوبة بواسطة الأفارقة الـــذين

كانوا مرتدين زياً أوروبيا ، وتخيلوا أنهم سوف يستقبلون بمودة ، ولكنهم على الفور اكتشفوا خطأ تفكيرهم ، وقام الأفارقة المسلحين بمهاجمة الرجلين البيض بسرعة واستولوا على كل أمتعتهما ، التي تضمنت جاكتة وحذاء ريتشارد الذي ذكر النص التالي :

" ففي نفس الوقت ، شوهد بعض الأشخاص الآخرين الذين أخذوا زوجة باسكو بعيداً ، وفقدت كل سيطرتي على نفسي ، وعزمت على أن أضحي بحياتي وهي أغلي شئ أمتلكه ، وشجعت رجالي على أن يسلحوا أنفسهم بمجاديفهم ويدافعون عن أنفسهم حتى النهاية ، وعلى الفور إستعدنا زوجة باسكو ، وبمساعدة شخص آخر من رجالي سحبناها من قبضة الرجل الذي يمسكها ، وفي نفس الوقت كان باسكو قد وجه ضربة إلي رأس الرجل الذي كان يمسك بزوجته بأحد المجاديف المصنوعة من الحديد والخشب ، عندئذ أرداه فاقد الوعي ، ولم نره بعد ذلك " .

ولحسن الحظ فإن الأفريقيين لم يتسموا بالشجاعة ولكن جون لاندر الذي كان في المركب الثاني ، كاد أن يغرق تقريباً في وسط هذه الضوضاء .

وقد تعقب الأخوان (ريتشارد لاندر ، وجون لاندر) اللصوص بكل شجاعة ، ولكن بدون تريث إلي مكان السوق المجاور لمدينة كيري الواقعة على النهر ، وبدلا من أن يستردان أمتعتهما نجد أنهما يقعان في الأسر ، كما قيد أتباعهما الثمانية بالحديد ، وقد أرسل الأخوان هابطين مع النهر إلي مدينة إيبو Ebo الكبيرة ، وهناك علما بأنهما وأتباعهما سوف يدفعان فدية ، وقد توقعا أن كابتن السفينة البريطانية التي لم تكن راسية

بعيداً عن نهر النون River Nun ، سوف يدفع فدية بجزية بالنسبة لهما . وعند هذه النقطة كان هناك تاجر أفريقي أطلق على نفسه اسم الملك بوي King Boy ، وكان هذا الشخص قد طلب أن يقوم بدفع هذه الفدية ، وذهب الكنج بوي ومعه ريتشارد لاندر ليبحث عن السفينة البريطانية ، وفجأة عرف ريتشارد لاندر أن كابتن السفينة موجود في منطقة مياه المد والجزر ، بحيث سمع " تلاطم الأمواج على الشاطئ " " The Sound of surf on the beach " وعندئذ تحقق أو أدرك أن نهاية بحثه قد اقتربت ، وفي اليوم التالي ، الموافق الثامن عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٣٠ م ، دخل ريتشارد نهر النون The Nun المصب الرئيسي لنهر النيجر ، وفي تلك الأثناء رأي ريتشارد السفينة البريطانية ، عندئذ صعد على ظهرها ، فوجد أن أربعة أشخاص من طاقمها قد ماتوا ، بسبب تأثرهم بمرض الحمي ، ووجد أن قبطان السفينة وأكثر من أربعة من طاقمها مرضي ، وفي ظل هذه الظروف الرهيبة ، رفض هذا القبطان أن يساهم بأي شئ في هذه العملية المالية ، ويتضح ذلك من النص التالي :

" لم أسمع أبداً عن استعمال هذه الألفاظ المخجلة العنيفة والهجومية " . فقد قال قبطان السفينة البريطانية الراسية على ساحل المحيط الأطلسي الشرقي ما نصه : " تكون مخطئاً لو توقعت إنني سوف أتعامل معك وأن أعطيك مطلبك (دفع حسابك ، لن أدفع شيئاً) وقال ريتشارد لاندر ، لقد أصابتني الدهشة بحيث أصبحت لم أستطع الرد ، بل وأصابني الرعب ، بسبب هذا المسلك الذي سبب هذا الفزع ، وانكمشت منه واستطعت بصعوبة أن أصدق ما سمعت حتى أن أذني قد

توقفت عن السمع بسبب تكرار نفس هذه الألفاظ ، وخاب أملي لهـذا المسلك الهمجي من جانب شخص من أبناء وطني ، فبقدر الإمكـان لم أستطع أن أصدق كل ما حدث ، بل وقهرتني مشاعري ، وكنت على أتم إستعداد أن أغرق بحزني وخجلي " .

وفي ذلك الوقت كان على ريتشارد لاندر أن يخبر الملك بوي بأنه لم يستطع دفع الفدية . عندئذ وافق التاجر بكرم على التخلي عن مطلبه حتى ترسل النقود من انجلترا ، وعلى هذا فإن الحكومة البريطانية سـوف تقوم بدفع الكفالة (الفدية) وتسلم للملك بوي المبلغ نقـداً ، بحيـث يكون أكثر من الفدية The ransm – money ، وفي نفس الوقـت أخـذ الأخوان ريتشارد لاندر وجون لاندر وأتباعهما علـى مـتن الـسفينة البريطانية ، بحيث اتجهت بهم جميعاً إلي جزيرة فرنانـدوبو The Island of Fernando po ، ثم عادا بعد ذلك إلي انجلترا عن طريـق البرازيـل الـتي وصلاها في شهر يونيو عام ١٨٣١ م .

ووافق يوم الثامن عشر من شهر نوفمبر عـام ١٨٣٠ م ، اليـوم الأول الذي رست فيه سفينة ريتشارد لاندر على الـساحل الأفريقـي ، فكان هذا اليوم يوماً عظيماً بالنسبة لتواريخ الكشف الأفريقي ، فكـان ريتشارد لاندر قد تتبع بحجري نهر النيجر ، كي يبرهن بإقناع عن أنه يصب في جداول خليج البنين ، وبهذا انتهي العمل من أطول بحث ، فـالأخوين أكملا معاً ، وبإنتصار عمل بارك ولينج وكلابيرتون ، ومن أجل القيـام بكل هذا الكشف الهام لمجري ومصب نهر النيجـر ، كافـأت الجمعيـة الجغرافية الملكية ريتشارد لاندر بالميدالية الذهبية .

The first Gold Medal of the recently founded Royal Geographical Society .

وكانت الجمعية الجغرافية الملكية قد ضمت إليها في ذلك الوقت الجمعية الأفريقية African Association المحتضرة . وبعد ذلك كتب الأخوان مذكراتهما في كتاب بعنوان : تقرير عن بعثة كشف مجري ومصب نهر النيجر :

" Journal of an Expedition to explore the course and termination of the Nile " .

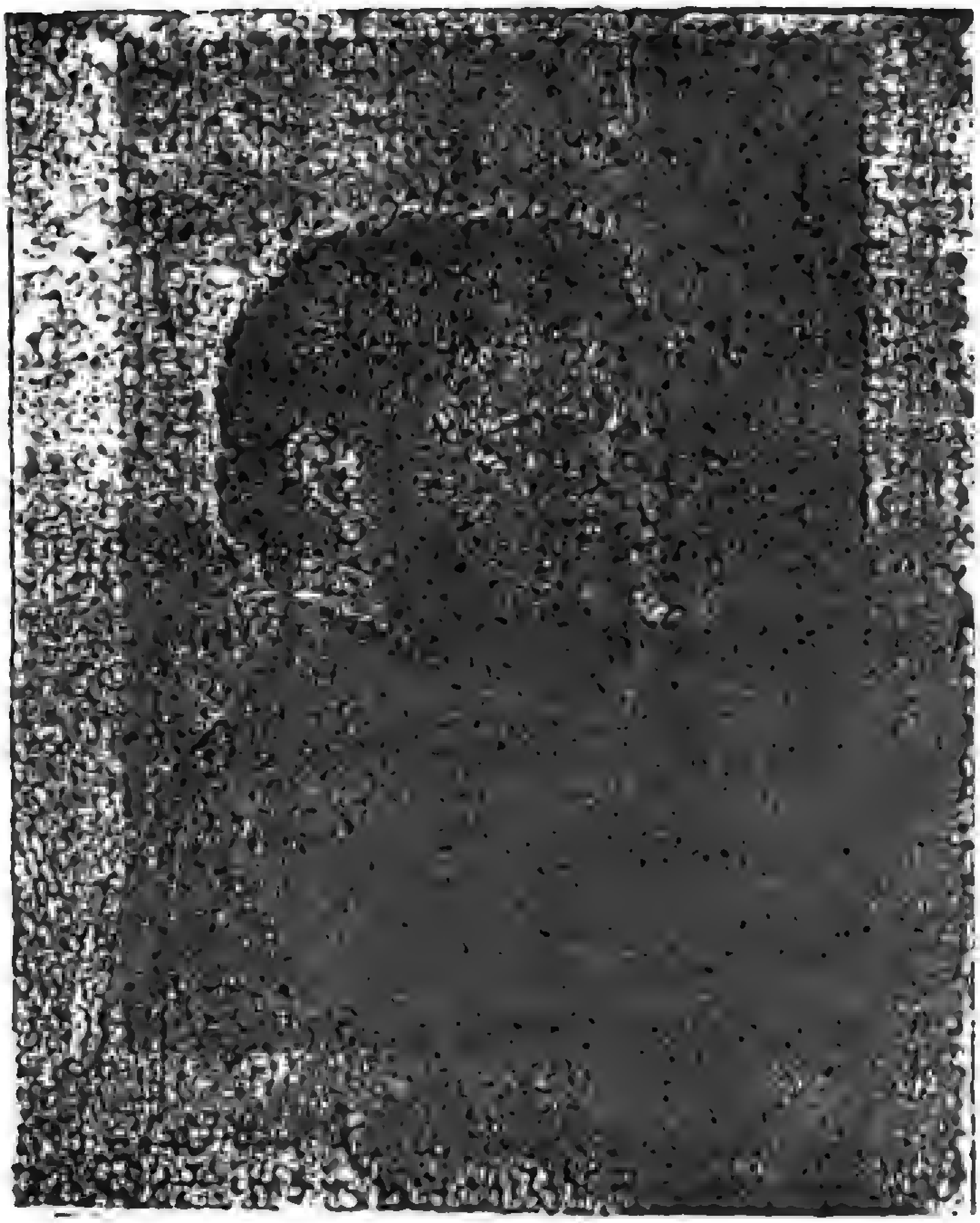
وعلى الرغم من العنوان الضخم ، إلا أن هذا الكتاب كان كتاباً متواضعاً وخفيفاً ومسلياً ، ويشتمل على مادة علمية على جانب كبير من الأهمية .

وكانت المحاولة الثانية لتحرك الحكومة البريطانية هي كيفية إستخدام نهر النيجر كطريق عام للتجارة مع داخل غرب أفريقيا ، ولكن في ذلك الوقت كان جون لاندر لا يزال يعاني من مؤثرات الرحلة السابقة، ومع ذلك فقد حصل على عمل في إنجلترا ، بينما ذهب ريتشارد لاندر كمرشد مع البعثة التجارية الأولي . ومن البداية ، فقد سار كل شئ بطريقة خاطئة ، فكانت هذه البعثة التجارية قد وصلت بصعوبة إلي دلتا نهر النيجر قبل أن ينتشر مرض الحمي بين الرجال البيض . فالرؤساء وشعوبهم خافوا جداً من أن تدمر تجارتهم الخاصة ، وعلى هذا الأساس لم يقيموا علاقات صداقة مع البعثة التجارية ، أو بمعني آخر أنهم عقدوا العزم على معاداتها . ورغم ذلك فإن ريتشارد لاندر ، كان لديه إيماناً قوياً عن طيبة قلوب هؤلاء الناس ، ولكن عندما وصل أفراد البعثة التجارية إلي مصب نهر النون The Nun mouth تصادموا مع الملك جاكيت King

Jacket ، وهو رئيس عديم الرحمة وكئيب ، وقد أعطاه أفراد البعثة هدية من التمباك والخمور Rum التي قبلها بحقد ، وسمع أفراد البعثة هذا الرئيس يقول بلغته الخاصة أن الرجل الأبيض سوف لا يصل هذه المرة إلي مدينة إيبو Ebo .

وبعد ذلك ، ألقي ريتشارد لاندر الضوء على التهديد (الذي تعرضت له البعثة التجارية من جانب الوطنيين) ، فبعد أن سار أفراد البعثة مسافة طولها حوالي ٦٠ ميلاً أطلق رجال القبائل المختبئين تحت أشجار شاطئ النهر النيران على مركب ريتشارد لاندر ، فأصابته هذه عيرة النارية بجروح ، ومع ذلك فقد زادت ثقته بنفسه للغاية ، ويتضح ذلك جلياً من وقوفه في المركب وتلويحه بقبعته ، وحاول في يأس أن يقنع البحارة بأن هذه الأعيرة النارية كانت صورة من صور التحية . وعلى الرغم من أن جرحه لم يكن خطيراً إلا أنه تسمم Septic ، وعلى أثر ذلك مات المكتشف الشاب الواثق من نفسه ، ومات أيضاً باسكو Pascoe عند النهر ، بسبب السم الذي دسه له الشيخ المحلي .

وكان ريتشارد لاندر قد مات قبل سن الثلاثين أي في عام ١٨٣٤ م ، بينما عاش أخوه جون من بعده أربع سنوات فقط .

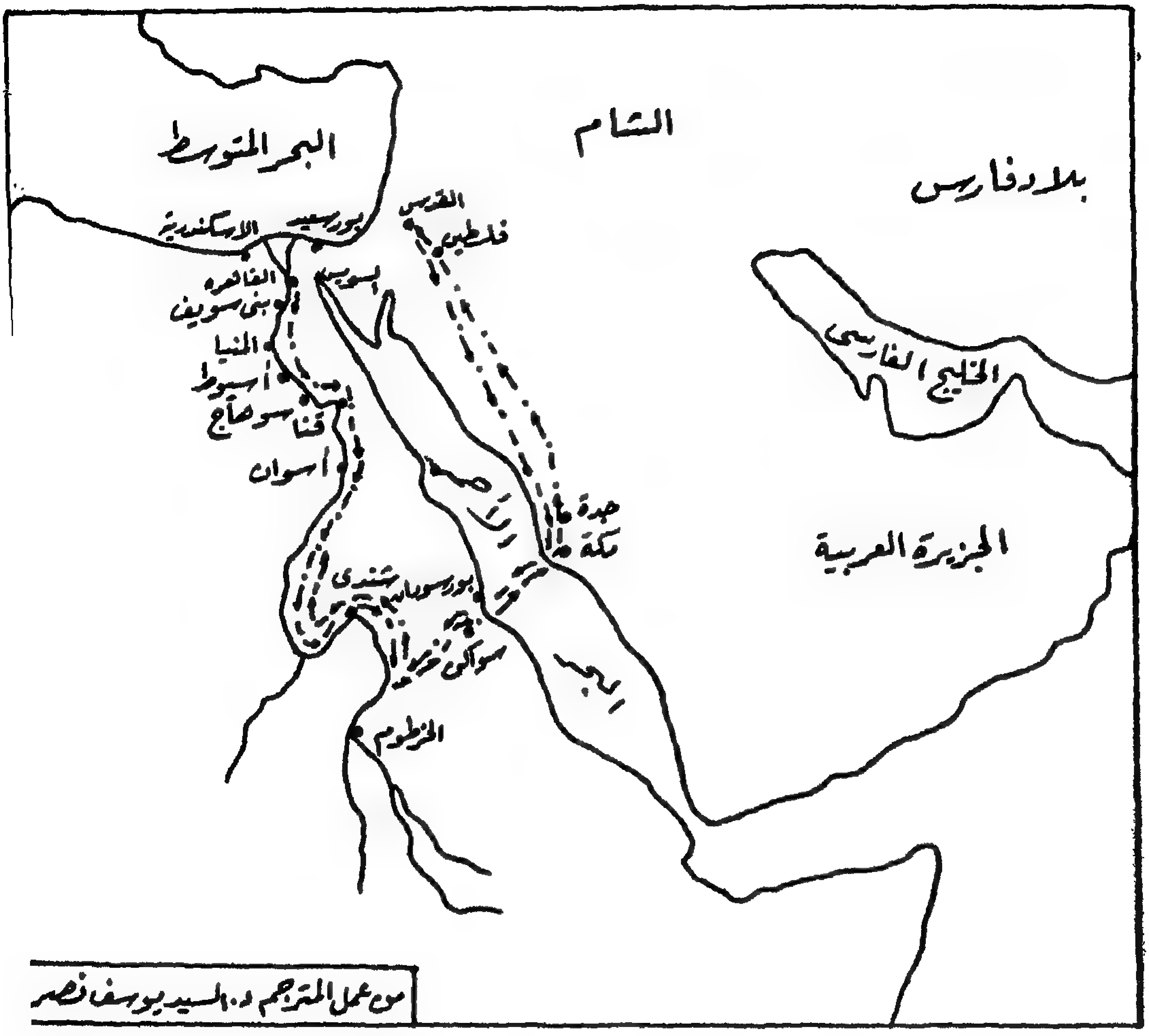


صورة المغامر جون لويس بركهاردت الذي جاء إلى بلاد النوبة عام ١٨١٢ ، ليكتشف نهر النيجر من جهة الشرق . من إعداد المترجم .



صورة المغامر كلابيرتون الذي جاء إلي غرب أفريقيا ليكتشف بحيرة تشاد ومنابع نهر النيجر عام ١٨٢٢ . من إعداد المترجم .

الخريطة رقم ٤ والخاصة ببعثة جون لويس بركهاردت ١٨١٢



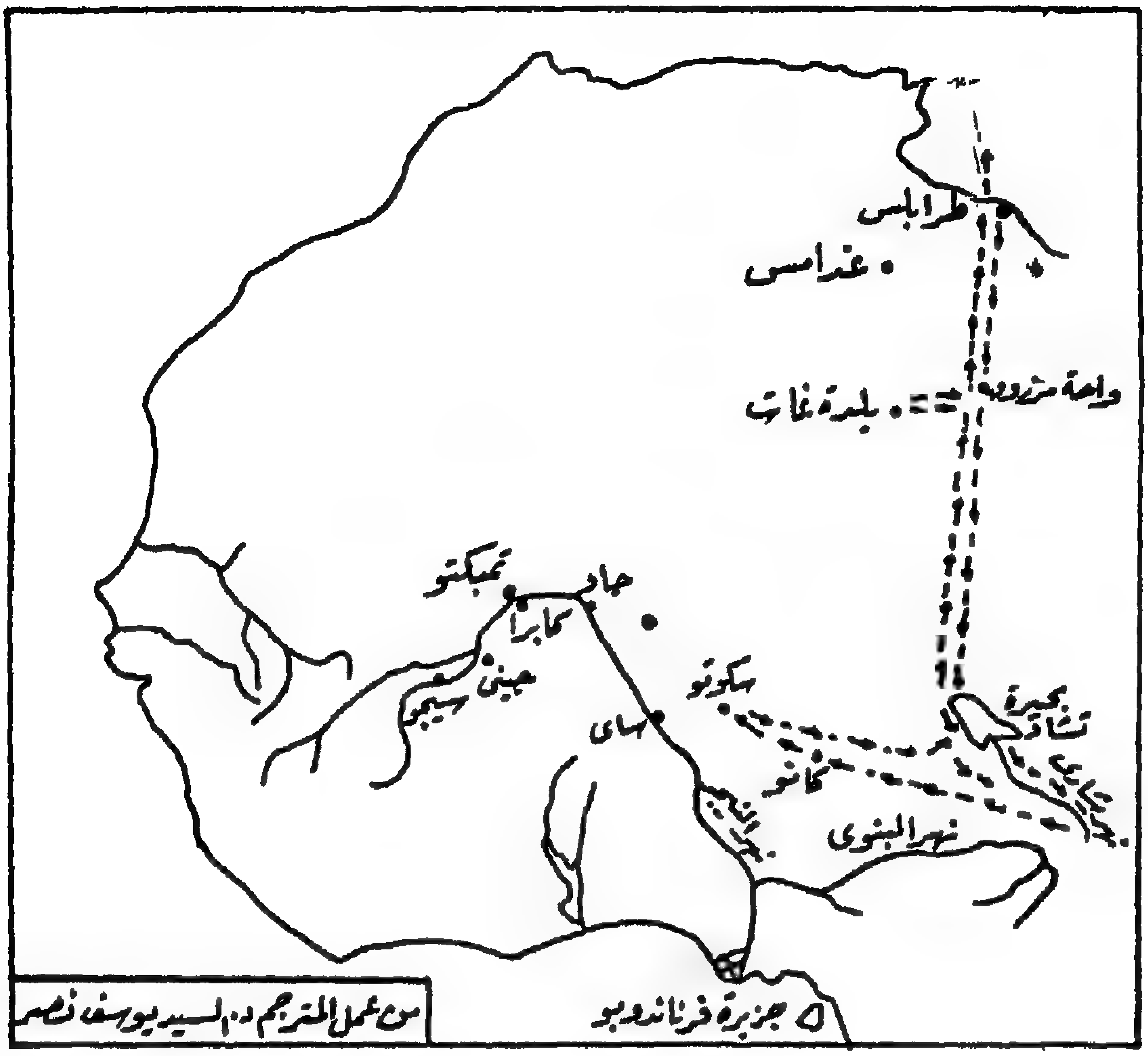
بدأ جون لويس بركهاردت رحلته عام ١٨١٢ من القاهرة ، ثم وصل إلي مدينة شندي ، ومنها وصل إلي سواكن ، ثم عبر البحر الأحمر إلي مكة ، ثم سار شمالاً إلي فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة ، ثم عاد من نفس الطريق فوصل إلي بلاد النوبة ، وهناك لم يتمكن من اللحاق بأية قافلة متجهة إلي غرب أفريقيا ، ولكنه مات متأثراً بمرضه عام ١٨١٥ م ، وكان عمره آنذاك ٣٣ عاماً .

الخريطة رقم ٥ والخاصة ببعثة لينج عام ١٨٢٥



بدأ لينج رحلته عام ١٨٢٥ م من طرابلس ماراً بغدامس فواحة صالح فتمبكتو ، وبعد أن مكث لينج فيها مدة خمسة أسابيع غادرها متجهاً صوب الغرب نحو نهر السنغال ، ولكنـــه اغتيل من قبل رجال الشيخ الذي كان يستضيفه في تمبكتو والذ صحبه إلي جهة الغرب .

الخريطة رقم ٦ والخاصة ببعثة " أودني وكلابيرتون ودنهام عام ١٨٢٣



بدأت هذه البعثة مهمتها من طرابلس مارة بواحة مرزوق ثم تجولت في المنطقة الواقعة بين مرزوق وغات ، وبعد ذلك وصلت إلي بحيرة تشاد ، وعندها إفترق أفراد البعثة ، فذهب دنهام إلي جنوب بحيرة تشاد ليكتشف أرض المالدار ، بينما ذهب كل من أودني وكلابيرتون إلي جهة الجنوب الشرقي ليكتشفا نهر الشاري . وبعد ذلك إتجها جهة الغرب ليكتشفا نهر النيجر . ومن هناك إتجها الرجلان إلي كانو ، ولكن مات أودني قبل الوصول إلي المدينة ، ومن بعدها وصل كلابيرتون إلي سكوتو ، وبعد ذلك رحل إلي كوكا حيث كان دنهام في انتظاره ، وسافر الرجلان في اتجاه الشمال عبر الصحراء الكبري ، حيث وصلا إلي انجلترا عام ١٨٢٥ م .

الخريطة رقم ٧ والخاصة ببعثة كلابيرتون الثانية عام ١٨٢٥



بدأت هذه البعثة مهمتها في نوفمبر عام ١٨٢٥ ، من بلدة باداجري الواقعة على خليج البنين ، ومرت بمدينة كاتونجا ووأوا ، ثم وصلت إلي بوسا ويوري . ومن هناك عبرت البعثة نهر النيجر واتجهت إلي الشمال الشرقي أي إلي مملكتي الزاريا وكانو ، وبعد ذلك واصل كلابيرتون المسير إلي سكوتو ، وهناك مرض ومات في ١٣ من شهر إبريل عام ١٨٢٧ م .

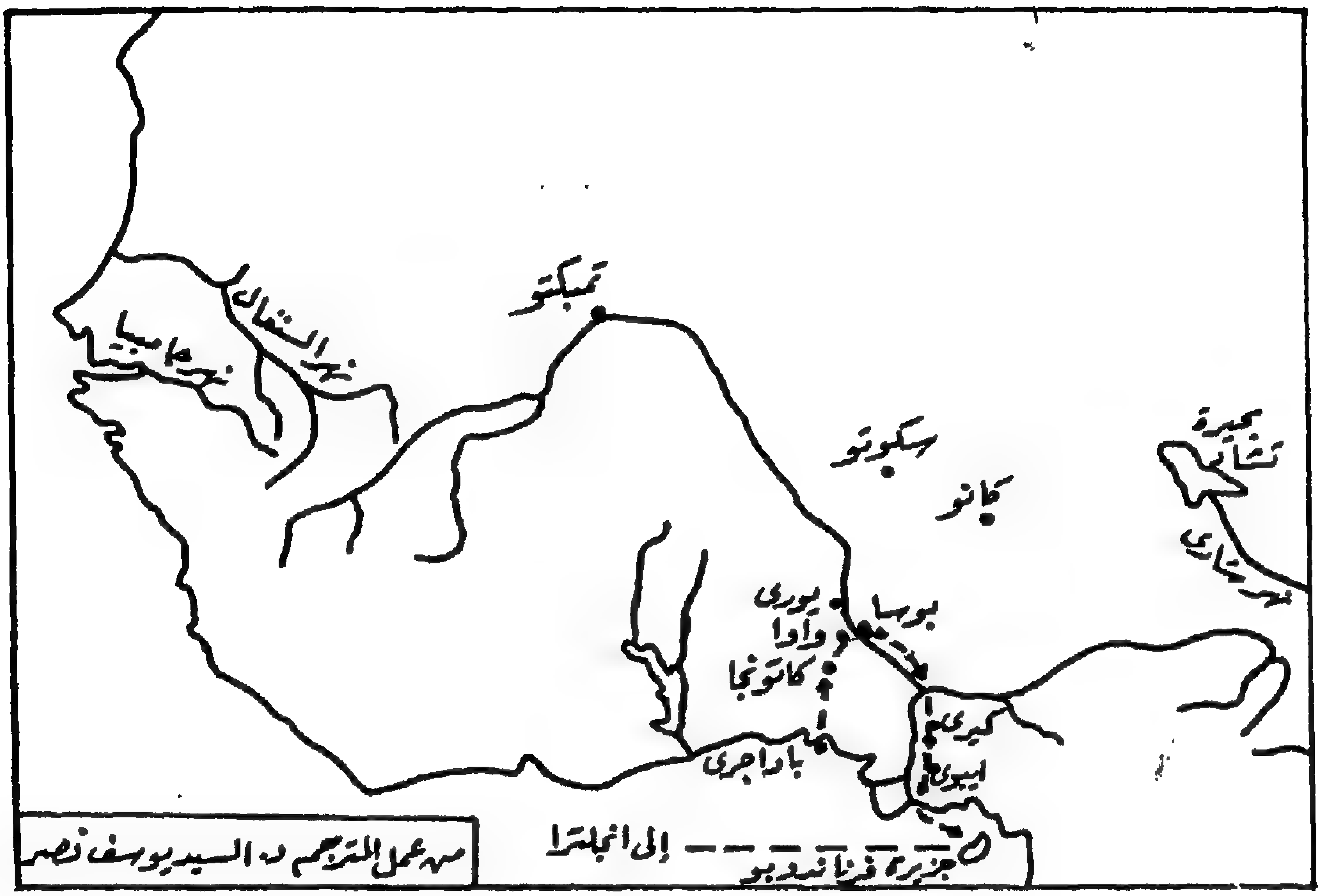
وبعد ذلك عاد لاندر من سكوتو إلي كانو ، ومنها اتجه إلي الجنوب نحو فوندا الواقعة على نهر البنوي ، ثم غادرها إلي باداجري ، ومنها سافر إلي انجلترا على سفينة بريطانية فوصلها عام ١٨٢٨ م .

الخريطة رقم ٨ والخاصة ببعثة رينيه كاييه عام ١٨٢٧ - ١٨٢٨



بدأ رينيه كاييه رحلته عام ١٨٢٧ من طنجة فالرباط ففاس فتفليت فتوديني فتمبكتو ، التي مكث بها أربع عشر يوما ، واستغرقت رحلته ١٨ شهراً ، وقطع مسافة طولها ٢٥٠٠ ميل.

الخريطة رقم ٩ والخاصة ببعثة ريتشارد لاندر وجون لاندر عام ١٨٣٠



بدأت بعثة كل من ريتشارد لاندر وجون لاندر مهمتها في يناير عام ١٨٣٠ ، من ميناء بورتسموث إلي ساحل غرب أفريقيا ، ومن باداجري بدأ رحلتهما فمرا بمدينة كاتونجا وواوا ، ثم وصل إلي بوسا ، ومنها رحلا إلي مدينة إيجا الواقعة في اقليم النوب ، ومنها اتجهت البعثة صوب الجنوب فوصلت إلي مدينة كيري ومنها إلي مدينة إيبو ، ثم دخلت البعثة بعد ذلك إلي نهر النون وهو الفرع الرئيسي لنهر النيجر ، وكان ذلك عام ١٨٣٠م. وبعد ذلك سافر أفراد البعثة إلي انجلترا فوصلاها عام ١٨٣١ م .

التعليق على الفصل (٥)

من الملاحظ على هذا الفصل ، أنه يتميز بكثرة عدد صفحاته ، أي أنه أكبر حجماً عن باقي فصول الكتاب ، والسبب في ذلك يرجع إلي أن المؤلفة كانت قد ضمنته أكثر من رحالة ومكتشف ، سواء الذين كانوا قدموا من شمال أفريقيا إلي وسطها أم الذين قدموا من جهة الغرب، وكان من الأفضل أن تقسم المؤلفة هذا الفصل إلي قسمين قسم تقصره على الرحالة القادمين من شمال أفريقيا (من طرابلس ومصر) وقسم آخر تقصره على الرحالة القادمين من مراكش وجامبيا ، حتى يكون هناك تناسق بين فصول الكتاب .

وبعد ذلك علينا أن نوضح أنه على الرغم من فشل المحاولات الأولي التي قامت بها الجمعية الأفريقية ، إلا أنها لم تتوقف عن إرسال البعثات الكشفية الواحدة تلو الأخري ، حتى تتمكن في نهاية الأمر من الكشف الكلي عن هذه المناطق المجهولة من أفريقيا ، فأختارت الجمعية الأفريقية أول ما اختارت جون لويس بركهاردت John Lewis Burckhardt الذي بدأ مهمته الكشفية عام ١٨١٢ م .

وكان بركهاردت هذا بدأ مهمته من القاهرة ، متتبعاً مجري نهر النيل حتى وصل إلي أسوان ، ومن هناك واصل المسير حتى وصل إلي شندي ، التي قام بوصف سوقها (الذي سبقت الإشارة إليه في تعليقي على الفصل الثالث) ، وتمكن بركهاردت أيضاً من إلقاء الضوء على كافة النواحي في البلاد التي مر من خلالها ، فقد زار آثار أسوان وسوق إسنا للإبل ، ثم قام بوصف النيل فضلاً عن مشاهدته للأماكن الخالية من

الصخور ، وقد سجل ملاحظاته عن الهجمات التي قام بها المماليك ضد الشايقية ، وذكر أنه ليس أمام المماليك في الحالة الراهنة إلا واحداً من إثنين ، إما أن يوجهوا للصعيد ضربة يائسة وأخيرة إذا واتتهم الفرصة واحتمال نجاحهم في ذلك ضعيف ، نظراً ليقظة محمد علي ، وأما أن يحاولوا الإستيلاء على ميناء من موانئ البحر الأحمر ، وهناك يعززون قواهم بإمدادات جديدة وبخاصة من رقيق جورجيا ، لأنهم كانوا لا يقبلون بين صفوفهم غير هؤلاء الأفراد . وفضلاً عن ذلك فإنه ألقي الضوء على أحوال سكان هذه المناطق من الناحية الإجتماعية والإقتصادية والسياسية [١] .

وبعد ذلك سافر بركهاردت إلي الجزيرة العربية ، وهناك أسلم وأدي فريضة الحج وسمي نفسه " إبراهيم بن عبد الله " ثم عاد بعد ذلك إلي النوبة ، حيث انتظر قدوم أية قافلة متجهة إلي تشاد ، ولكن لسوء حظه لم يعثر على أية قافلة ، وسبب ذلك يرجع إلي أنه من المحتمل أن تكون القوافل المتجهة من النوبة إلي غرب أفريقيا قد مرت أثناء الفترة التي قضاها في الجزيرة العربية ، ومن المحتمل أيضاً أن تكون هذه القوافل قد توقفت بسبب الإضطرابات السياسية التي سادت هذه المناطق ، وبسبب الهجمات التي يقوم بها المماليك ضد الشايقية ، وضد غيرهم من السكان وهذا احتمال ربما أن يكون قريباً إلي الواقع ، ومن المرجح أيضاً أن تكون طرق القوافل قد انتقلت إلي جهة أخري بعيداً عن هذه المنطقة ، وكان بركهاردت في حالة من اليأس الشديد لأنه كان يخشي أن تتهمه الجمعية

---

[١] جون لويس بركهاردت ، ترجمة فؤاد اندراوس : رحلات بركهاردت في بلاد النوبة والسودان ، ١٧٨٤ م ، ١٨١٧ م . القاهرة ، بدون تاريخ . من ص ١٠ وما بعدها

الأفريقية بالكسل والخمول ، واستمر هكذا حتى وافته منيته عام ١٨١٧م، ودفن بمصر وانتهت مهمته بالفشل ، لأنه لم يلتزم بتعليمات الجمعية الأفريقية ، بل أنه أخذ يتجول في بلاد النوبة والجزيرة العربية دون أن يحقق أية نتيجة [١] .

ومن الواضح أن فشل بركهاردت في الوصول إلي نهر النيجر عن طريق النوبة ، جعل الجمعية الأفريقية تتجه إلي تغيير خططها فقررت أن توفد عدداً آخراً من البعثات الكشفية ، بحيث تسلك طريق غرب أفريقيا (البعض منها) بحثاً عن منابع نهر النيجر الذي كان من المعتقد أنه يمثل أحد فروع النيل ، أو أنه هو النيل نفسه . وسلك البعض الآخر من هذه البعثات طريق شمال أفريقيا بحيث تتجه إلي مدينة تمبكتو الأسطورية ، فقد جاء في كتابات إبن بطوطة وليو الأفريقي أن مدينة تمبكتو كانت مدينة غنية بثرواتها الذهبية وبثقافتها ، بل ووصل الأمر إلي القول بأن منازلها وقصورها كانت مبنية بألواح من الذهب ، وقد آثار ذلك حفيظة الأوروبيين الذين رغبوا بشدة في الوصول إلي هذه المدينة ، حتى أن الجمعية الجغرافية الفرنسية The French Geographical Society قررت منح مكافأة مالية لأول رحالة أوروبي يصل إلي هذه المدينة ثم يعود بعد زيارته لها حياً .

وقد وقع الإختيار على الرحالة الفرنسي رينيه كاييه الذي خاب أمله بعد وصوله إلي مدينة تمبكتو التي وجدها على غير ما قرأ عنها في الكتب بل وعلى غير ما سمع . فقد ذكر أن هذه المدينة كانت عبارة عن

---

(١) John Lewis Burckhardt : Travels in Nubia , Published By the Association For promoting the discovery of the Interior parts of Africa , London , 1819 .

مجموعات من المنازل الرديئة المبنية من الطين والمسقوفة بالقش ، وإلي جوارها رأي كاييه سهولاً للرمال المتحركة ذات اللون الأبيض المصفر ، ولكن رغم خيبة أمله في رؤيته لهذه المدينة ، إلا أنه أعجب إعجاباً شديداً بالرجال الذين قاموا ببناء هذه المدينة في هذه المنطقة المقفرة ، وقد تجول رينيه كاييه في شوراعها ، وزار مساجدها وسوق الرقيق فيها ، وكتب يقول ما نصه :

" لم تكن تجارة المدينة كبيرة بحيث تتناسب مع شهرتها فلم يوجد فيها ما يوجد في مدينة جين " . ورأي كاييه في شوارعها الإبل وهي محملة بالسلع التجارية التي أحضرها أسطولها الصغير ، أي أن حركة التجارة فيها كانت مزدهرة ، ورأي كاييه السكان وهم يجلسون على الحصير في الشوارع ويتبادلون الحديث ، وشاهد أيضاً المراكشيين نائمين في الظل أمام أبواب بيوتهم ، عندئذ بدأ كل شئ بالنسبة له مملاً . وذكر كاييه أن عدد سكانها كان يبلغ ما بين ١٠,٠٠٠ ، ٢٠,٠٠٠ نسمة ، ولاحظ أن الخوف كان ينتاب سكانها بمجرد سماع اسم قبيلة الطوارق الهمجية ، التي يقطن أبناؤها الصحراء الكبرى .

واستغرقت رحلة كاييه إلي تمبكتو ثمانية عشرة شهراً ، قطع خلالها مسافة طولها ٢٠٠٠ ميل ، وبذلك يكون كاييه الأوروبي الأول الذي زار تمبكتو وعاد حياً .

وبعد عودة كاييه كتب كتاباً عن تمبكتو بعنوان :

Travels through Central Africa to Timbuctoo.

وقد منحته الجمعية الجغرافية الفرنسية المنحة المالية التي كانت قد وعدته بها . وبعد ذلك مات رينيه كاييه عام ١٨٣٩ ، وهو في الأربعين من عمره .

ومما لاشك فيه أن رينيه كاييه قد أزاح الغموض عن هذه المدينة (تمبكتو) ، التي زادت شهرتها بعد كتابات كل من ابن بطوطه ، وليو الأفريقي .

وكان لينج قد أضاف بعد زيارته لهذه المدينة أنها مملة وكئيبة ، باستثناء مساجدها ، وذكر أنه لا توجد فيها أية دفاعات لحمايتها . وذكر أيضاً أن سكانها كانوا من الشعب الضنغي الذي يقطن منطقة النيجر ، فكثيراً ما يتعرض هذا الشعب للغزو والسلب من جانب قبيلة الطوارق .

ويمكن القول بأن الجمعية الأفريقية لم يكن لها الفضل في كشف الغموض عن مدينة تمبكتو ، بل يرجع الفضل إلي كل من رينيه كاييه ، ولينج الذي وصل إليها على نفقته الخاصة .

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء الرحالة الذين أرسلوا عن طريق الجمعية الأفريقية ، أو الذين قاموا برحلات على نفقتهم الخاصة ، كانوا على جانب كبير من الإخلاص في العمل والمثابرة والتضحية . ولكن رغم ذلك فإن درجة التضحية كانت تختلف من رحالة إلي آخر ، وفي الغالب وبدون استثناء فإنهم ضحوا بحياتهم عن طيب خاطر ، فمنهم من مات في أفريقيا موتة طبيعية ، ومنهم من مات نتيجة لاغتيال القبائل ، أو نتيجة لتعرضه لمرض خطير .

ومن الملاحظ أيضاً أن الجمعية الأفريقية لم تقم بهذه الأعمال حباً في أفريقيا وشعبها ، ولكن حباً في البحث لمعرفة ما تحويه هذه القارة البكر من ثروات بشرية وطبيعية ونباتية وحيوانية ، حتى تفتح الطريق أمام بريطانيا بصفة خاصة ، والدول الأوروبية بصفة عامة لاستغلال هذه الموارد ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كي تفتح هذه الدول الأوروبية أسواقاً جديدة لها في هذه المناطق الأفريقية ، لتصريف الفائض من إنتاجها الصناعي بين السكان الأفريقيين .

ولكن لنا أن نتساءل بالقول ، لماذا سبقت بريطانيا غيرها من دول أوروبا في مجال الصناعة ؟ والإجابة على ذلك هو أن الصناعة قد ظهرت في بريطانيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، في حين ظهرت في فرنسا في الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وفي ألمانيا في الربع الثاني من النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وفي بقية دول العالم بعد ذلك التاريخ [١] .

ويمكن تعليل سبق بريطانيا في مجال الصناعة الحديثة بالنسبة لأوروبا ، إلي أنها تقع على هامش أوروبا ، فقد أثر هذا الموقع تأثيراً كبيراً على اقتصادياتها وتطور الحكم والحياة السياسية فيها ، فانفصالها عن أوروبا جعلها في مأمن عن موجات الغزو الأوروبي ،التي كانت تجتاح أوروبا من وقت لآخر ، ومنح شعبها قسطاً كبيراً من الأمان ، بحيث مكنهم ذلك من متابعة نشاطهم السياسي والإقتصادي دون ضغط

---

[١] دكتور أمين مصطفي عفيفي ، ود . أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ أوروبا الإقتصادي ، القاهرة ١٩٥٤ . ص ٢٠١ وما بعدها .

واستبداد ، فشاع في انجلترا جو من الحرية السياسية والحكم الدستوري[١].

زيادة على ذلك فإن إنتاج انجلترا الصناعي يتميز بالتنوع والدقة والمتانة ، كما أنها حققت أرباحاً طائلة من التجارة الخارجية التي لم تنافسها فيها دولة أوروبية أخرى ، وكانت لندن تمثل أكبر الأسواق المالية والتجارية ، فقد تجمعت فيها رؤوس الأموال ، بسبب ممارستها للتجارة الخارجية منذ القرن ١٦ ، وبسبب إنشاء بنك انجلترا عام ١٦٩٤ ، الذي كان له أكبر الأثر في زيادة رؤوس الأموال ، وفي تنظيم الأعمال الإقتصادية .

وقد ساهمت الأيدي العاملة في هده النهضة الصناعية في بريطانيا ، بسبب تمتع انجلترا بالحرية السياسية والدينية ، حيث كانت انجلترا ملجأ للمضطهدين من الأوروبيين ، فلجأ إليها الفلمنكيون من الأراضي المنخفضة والهجنوت من فرنسا . وامتازت هذه العناصر بنشاطها وحدة ذكائها ومهارتها في الصناعة ، فقد أنشأت هذه العناصر المغضوب عليها في أوروبا صناعات كثيرة ومختلفة في انجلترا ، منها صناعة المنسوجات الحريرية والتيلية والورق والأواني الخزفية [٢] .

وكان من نتيجة ذلك أن بريطانيا كانت سباقه في مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية ، ليس من أجل الكشف في حد ذاته ، ولكن من أجل إيجاد مناطق نفوذ كي تجعل منها مناطق تجارية جديدة ، وخير دليل على

---

[١] Shaikh . A J and Mannur . H G · A short Economic History . Delhi . 1971 . pp . 3 - 16

[٢] حسين كامل سليم : تاريخ أوروبا الإقتصادي في القرن التاسع عشر . القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ص ١٨٦ ـ ١٨٩ .

ذلك أنه بعد أن اكتمل الكشف عن منطقة غرب أفريقيا ، وهر النيجر سارعت بريطانيا بإرسال بعثة تجارية كان على رأسها ريتشارد لاندر الذي يرجع الفضل إليه وإلي أخيه جون لاندر في الكشف النهائي عن نهر النيجر ، وكان ريتشارد لاندر هذا على دراية تامة بهذه المناطق وبسكانها. ومن المعروف أن الهدف من هذه البعثة التجارية هو معرفة مدى صلاحية نهر النيجر للملاحة ، لاستخدامه كطريق نهري تجاري ، هذا فضلاً عن معرفة ما تحويه هذه البلاد من موارد اقتصادية هامة ، زيادة على معرفة الكثافة السكانية لهذه المناطق ، التي ستكون سوقاً إستهلاكياً لمنتجات بريطانيا الصناعية [1] .

---

[1] فيج جي ، دي ، ترجمة د. السيد يوسف نصر ، مراجعة د . بهجت رياض صليب . تاريخ غرب أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص ص ٢٥٠ ـ ٢٥٣ .

الفصل السادس

الرحلات في شمال وغرب أفريقيا

الفصل السادس

الرحلات في شمال وغرب أفريقيا

لقد فقد مكتشفون كثيرون حياتهم بسبب البحث عن نهر النيجر، لذلك فإنه بعد موت ريتشارد لاندر تم تحذير المكتشفين ، بألا يضحوا بأرواحهم في مخاطر غير ضرورية ، مع أنه كان لا يزال هناك مناطق لم تكتشف بعد في منطقة النهر (أي نهر النيجر) وفي المناطق المجاورة لحدود الصحراء ، ولكن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجد أشهر ثلاثة رحالة ، إثنان منهما من الألمان ، هما العالم هنريش بارث Scientist Heinrich Barth ، وجرهارد رولفس Scientist Gerhard Rohlfs الذي بدأ حياته في أفريقيا بالعمل في الكتيبة الفرنسية التي تعمل بالخارج،وأما الثالث فكان رجل فرنسي يدعي لويس جوستاف بنجر Louis Gustave Binger.

ولد هنريش بارث في عام ١٨٢١ ، في هامبورج Hamburg ، وأكمل دراساته في جامعة برلين Berlin University ، وزار بعد ذلك أفريقيا للمرة الأولي . وفي عام ١٨٤٩ ، إنضم تحت رعاية البعثة البريطانية، التي أرسلت لتقوم بكشف المنطقة الواقعة جنوب الصحراء ، وهناك زار الممالك الإسلامية ، وقد قاد هذه البعثة رجل إنجليزي ، يدعي جيمس ريتشارد سون ، الذي كان برفقته أيضاً رجل ألماني يدعي لودويج أفرويج Ludwig Overweg .

وكان بارث هذا شاباً على قدر كبير من التعليم ، لهذا كان لديه مقدرة لتعلم اللغات Had a gift for Languages ، فقد تعلم الإنجليزية

والعربية ، كما لم يكن لديه صعوبة في إتقان لغات الشـــعوب الأفريقيـــة المختلفة ،

He had no difficulty in mastering the tongues of various African Peoples .

وكان قبل ذلك قد تجول في أجزاء قليلة الأهمية من سوريا وآسيا الصغري Asia Minor،وكان بارث يعمل على تحقيق المعرفة أكثر من رغبته في حب المغامرة،التي دفعته إلي الإلتحاق ببعثة ريتشارد سون Richardson expedition، وكان قوياً لدرجة كبيرة ، ومع ذلك فإنه كان مرناً ، ولكن عندما تدعو الحاجة إلي الشدة كان عليه أن يثبت أنه يجمع بين الشجاعة وسعة الحيلة resourceful .

وكان ريتشاردسون يزيد على الأربعين عاماً ، لذا فهو أكبر كثيراً من بارث وأفرويج ، الذي كان يبلغ من العمر ستة وعشـــرين عامـــاً . وكان ريتشاردسون رجلاً جاداً ، ومتخصصاً أصلاً في شئون الكنيسة ، (أي كانت مهمته نشر العقيدة المسيحية) ، فكان قد نزل إلي طـــرابلس Tripoli عام ١٨٤٣ م تحت رعاية جمعية الإنجيـــل Under the aegis of a Bible Society ومنها سافر تجاه الجنوب إلي واحـــة مـــرزوق Murzuk ، وكانت أهدافه محددة ، فهي تتمثل في نشر المسيحية ، كما كان عليه أن يستبدل تجارة الرقيق بالتجارة المشروعة ، وأما الأعمال الكشفية فلم يكن مكلف بها بصورة رسمية ، لهذا كان يقوم بكشف ما ترغـــب الحكومـــة البريطانية في كشفه ، ويتضح ذلك من النص التالي :

" أنا مقتنع للغاية بأن السفر إلي أفريقيا ينبغي أن يلقـــي عنايـــة خاصة، ليس في محاولة تحقيق السرعة ، ولكن ينبغي التقدم ببطء ، كمـــا

ينبغي أن نتحسس طريقنا ، ونؤمن أنفسنا ضد أية مفاجـــأة Surprise ، فعلينا أن نقلل ونحدد مناطق استكشافنا كي تسجل المسائل بصدق كلما أمكن ذلك ، ويمكن أن ننجز السفر في أفريقيا بنجاح لو تم خطوة خطوة piecemeal or bit by bit ، فهنا بعض الشئ وهناك البعض الآخر ، والآن نكتشف جزيرة ، وفيما بعد نكتشف خط على الساحل ، ثم نكتشـــف فيما بعد إقليماً داخلياً ، وبعد ذلك نكتشف إقليماً صحراوياً...وهكذا".

وعلى هذا ، فإن الحذر يلازم بارث الذي كان يرغـــب بصـــفة مستمرة في أن يكون بعيداً هنا وهناك ، فكان قد غادر طرابلس في بداية عام ١٨٥٠ م فعبرت بعثته الصحراء ، ووصلت في خلال شهر إلي واحة مرزوق . وقد خطط أفراد البعثة لمواصلة المسير تجاه الجنوب ، مارين من خلال غات Ghat ، وأغادس Agades ، لكي يصلوا إلي مملكـــتي كـــانو Kano ، وبورنو Borno ، وفي النهاية وصلت البعثة إلي غات التي كان قد زارها من قبل كل من أودني وكلابيرتون عـــام ١٨٢٢ م ، وفي الوقـــت الذي كان فيه بارث متعباً ونافذ الصبر انطلق بمفرده ليتسلق حافة عالية ، ورغم ثقته بنفسه ، إلا أنه ضل طريقه في أراضي رملية في الصـــحراء ، بحيث ظل بمفرده لما يزيد على ٢٤ ساعة ، عاني خلالها آلام العطـــش ، فاضطر لقطع وريد to open a vein من جسمه وشرب البعض من دمه ، وكان سيهلك لو لم يعثر عليه أحد أفراد قبيلة الطوارق ، الـــذي بـــدافع إنساني حمله على ظهر جمله إلي المعسكر ، وتساءل ريتشاردسون متعجباً، لقد مكثت أنت يا بارث في الصحراء ٢٨ ساعة بدون مياه ، لذا يمكـــن لأفراد الجماعة أن تصدق بصعوبة إنك على قيد الحياة ، وقـــالوا أنـــه لا

يمكن لأي فرد أن يحيا بدون مياه لمدة أكثر من ١٢ ساعة عندما يضل طريقه في الصحراء خلال حرارة الصيف . وقد استوعب بارث الدرس . وكتب يقول :

" إنه من الملاحظ أن الإنسان الأوروبي يفقد قواه بسرعة تحت وطأة هذه الظروف المناخية القاسية في يوم واحد ، إذا لم يتناول طعامه العادي " وأضاف يقول بفخر يشوبه التواضع ، " ولكنني تمكنت من أن أظل على قيد الحياة لليوم الثاني " .

وقضي أفراد البعثة أسبوعاً في غات Ghat ، ولكن لم يمض وقت طويل على مغادرتهم غات ، إلا وقد أسرتهم جماعة من الطوارق ، فأستولت هذه الجماعة على ثلث المؤن والأمتعة ، التي كانت بحوزة أفراد البعثة قبل أن تطلق هذه الجماعة سراحهم ، وبعد ذلك انقسمت البعثة إلي قسمين ، قسم تحت رئاسة بارث الذي كان عليه الذهاب إلي كانو ، وقسم تحت رئاسة ريتشاردسون الذي كان عليه الذهاب إلي مدينة زندر Zinder ، الواقعة إلي الشمال من كانو والخاضعة خضوعاً إسمياً إلي مملكة البورنو ، وكان إفرويج قد اتجه إلي بحيرة تشاد ، واتفق أفراد البعثة على أن يلتقوا جميعاً في كوكا القريبة من بحيرة تشاد ، وكتب ريتشاردسون بكآبة يقول ما نصه : " لقد ترك كل منا الآخر ، وهو يحمل معه بعض الإنفعال . وقد تفرق هؤلاء الرحالة في وسط أفريقيا ، وساروا في طرق مختلفة ، وكان من الصعب عليهم أن يضعوا في حسابهم أنهم سوف يلتقون مرة ثانية " .

وكان ريتشاردسون هو الشخص الوحيد الذي فشل في الوصول إلي المكان المتفق عليه ، فكان قد وصل إلي زندر ، في الرابع من شهر يناير عام ١٨٥١ م ، وهناك انزعج من التقاليد البربرية التي يعضدها السلطان المحلي والتي تتمثل في معاملة العبيد ، فكان السلطان هو الذي عين نفسه جلاداً ، بحيث كان يقوم بقتل ضحاياه ، وذلك بفتح شروخ في صدورهم ، ثم يقوم بتمزيق قلوبهم وإخراجها من صدورهم ، وكانت عمليات الإعدام مستمرة ، وفي هذا الجو الكئيب مرض ريتشاردسون ومات .

وفي تلك الأثناء ، وصل بارث إلي مدينة كانو وهو في حالة تعب شديد ، ولكن نزعته لخلق صداقات ولمعرفته باللغات جعلاه يستغيث بالأمير . وعندما انهي بارث فحصه للمدينة (مدينة كانو) ، قدم له الأمير هدية كانت عبارة عن ٦٠,٠٠٠ كوريز Cowries (الكوريز عبارة عن عملة كانت تستعمل في هذه المنطقة) ، وتمكن بارث بهذه النقود أن يشتري جمالاً لتقله إلي بورنو ، حيث كان يهدف من وراء ذلك إلي استقصاء أحوال تجارة المملكة ، وكانت رحلته مليئة بالمخاطر . لذا كتب بارث يقول في هذا الصدد ما نصه " بالأمس كان الطريق معرضاً لمهاجمة اللصوص ، وكان لدي خادماً واحداً فقط كنت أعتمد عليه، فهو الذي كان في حقيقة الأمر يلازمني عندما كنت على غير ما يرام ، أي عندما كنت لم أتمكن من النهوض من فراشي ، وعلى الرغم من ذلك فقد كنت مملوءاً بالثقة " .

وقد وصل بارث إلي كوكا Kuka ، قبل شهر من وصول أفرويج Overweg إليها ، ولما علم بارث بموت ريتشاردسون، تولي هو مسئولية قيادة البعثة ، وقام بتنفيذ فحصه لبحيرة تشاد ، وكتب بارث عن خصائص هذه البحيرة يقول ما نصه " من الواضح أن هذه البحيرة تتميز بالضخامة ، بحيث تتغير حدودها كل شهر ، لذلك يكون من غير الممكن رسم خريطة دقيقة لها ، وفي الواقع كنت قد رأيت في هذا اليوم (يوم الرابع والعشرين من شهر إبريل عام ١٨٥١ م) إن الأراضي التي تحيط بالبحيرة أراضي منخفضة وكلها مستنقعات ، وعلى الفور أصبحت مدركاً ، أنه من المستحيل تماماً القيام بعملية مسح شاملة لشواطئها ، حتى ولو سمحت لنا دول الأقطار المحيطة بها بالدخول إلي منطقة البحيرة كي نتمكن من القيام بعملية المسح الشاملة " .

وأصبح بارث منزعجاً بشكل متزايد عن أفرويج ، الذي كان مريضاً ومكتئباً بحيث رأي عليه علامات الإختلال العقلي ، ومع ذلك فإن الرجل الشاب (بارث) رفض أن يتخلي عن مهمته ، وبدأ الإثنان معاً في الذهاب إلي يولا Yola الواقعة إلي الجنوب ، التي تمثل المدينة الرئيسية لاقليم أداماوا Adamawa ، ومن هنا واصل طريقهما إلي منابع نهر البنوي The upper waters of the Benue أكبر روافد نهر النيجر ، الذي كان جزءه الأسفل فقط هو الجزء المعروف ، وفي يولا كتب بارث يقول ما نصه :

" إن البنوي Benue تتدفق مياهه من الشرق إلي الغرب ، في مجري عريض ، ويمر من خلال قطر مفتوح تماماً ، ويوجد في هذا القطر سلسلة متقطعة من الجبال الواقعة على مسافة بعيدة ، ويضيف بارث في قوله :لقد

حددت الآن بعيناي وبكل وضوح إتجاه وطبيعة هذا النهر العظيم ، فقد نظرت نظرات طويلة وصامتة على هذا المجري ، ومرت بذلك لحظة من أسعد لحظات حياتي " .

ومن المحتمل أن يكون كشف أعالي البنوي مساهمة أساسية من بارث في مجال المعرفة الجغرافية ، وبعد ذلك كان يريد الذهاب بعيداً تجاه الجنوب ، ولكن حاكم اليولا رفض أن يدعه يواصل السفر . لذلك تتبع طريقه إلي كوكا Kuka ، بحيث قام برحلة قصيرة إلي الشمال من بحيرة تشاد ، وترك أفرويج يواصل فحصه للبحيرة ، وبعد ذلك شرع بارث في محاولة الوصول إلي المناطق الواقعة جنوب باجرمي Baghirmi ، واكتشف بعد ذلك نهر شاري Shari R ، الواقع في بوجومان Baugoman ولم يسر بارث أي شئ بالكامل رغم ما بذله من جهد وتنقيب في تاريخ المدينة ، هذا فضلاً عن بحثه عن ظروفها الحاضرة ، وقد لاحظ أن حاكمها كان عليه أن يدفع جزية سنوية تقدر بمائة من العبيد إلي سلطان بورنو .عندئذ عاد بارث إلي كوكا حيث وجد أفرويج مريضاً ومختل العقل ، وبعد ذلك بفترة قصيرة مات أفرويج ، وظل بارث الأوروبي الوحيد الذي ظل حياً ، ولكنه كان في حالة ضعف تام .

واتخذ بارث من موت صديقه فلسفة له حيث أعلن ما نصه : "لقد عزمت على الفور في الشروع للقيام برحلتي إلي نهر النيجر ، لمعرفة بلاد وشعوب جديدة " ، فلم يثبط موت أفرويج من عزيمة بارث . وكتب بارث خطاباً أرسله إلي أهله جاء فيه ما نصه : -

" وجدت قوايا تتضاعف فشعرت بأنني عملاقاً كـبيراً وكنـت غارقاً في أحلام تحقيق النجاح ، في مهمة بارك المستكشف الوحيد الذي أكن له إعجاباً غير محدود " .

وبعد أن حقق بارث هذه الإنجازات وصلت إليه من انجلترا النقود والتعليمات التي تخبره بالتقدم على وجه السرعة نحو تمبكتو ، فسافر بارث عن طريق سكوتو وساي Say الواقعة على نهر النيجـر . وفي سـكوتو إستقبله السلطان ، الذي أعطاه بارث عدداً من الهدايا التي تضمنت زوج من المسدسات المرصعين ترصيعاً ثميناً ، هذا فضلاً عن منحه عبـاءة مـن الحرير الأحمر المخطط بخطوط صفراء ، وكذلك منحه بنطلـون أحمـر اللون، وثلاث من العمائم ، وزوجين من أمواس الحلاقة ، ونصف دستة من المرايا ، وكان هذا السلطان هو إبن السلطان بللـو الـذي رفـض الإهتمام بالمعاهدة التجارية مع بريطانيا التي بسـببها تحطمـت مشـاعر كلابيرتون الذي مات كسير القلب . وقد عبر بارث عن أسفه بطريقـة كلها تأثر عندما سمع عن الحادثة .

واقترب بارث من تمبكتو ماراً من خلال الطريق الذي تبعه الرحالة الفرنسي العظيم رينيه كاييه René Caillié ، فقد فعل بارث مثلما فعـل كاييه ، فقام بارتداء الزي العربي مع أن هذا المسلك كان مخالفاً لضميره ، ولكن بينما كان كاييه يهتم إهتماماً كبيراً بالمحافظة على تنكره ، نجد أن بارث ، كان يعتمد على الشيخ باكي Bakcay ، وعندما دخـل بـارث المدينة كان منهك القوي ، وانتابه اليأس بسبب عدم وجود شيخها فيها .

ولما علم أحد أبناء الشيخ بدخول كافر مسيحي (أوروبي) إلي المدينة ،

أشاع على أثر ذلك إشاعة مفادها أن هذا المسيحي هو في الحقيقة ابــن لينج ، وقد أقسم هذا الإبن (إبن الشيخ) أنه سوف يقتل بــارث . وفي أثناء هذه الأزمة مات هذا الرجل (إبن الشيخ) فجأة وفي غموض . وقد استقبل أتباعه موته بأنه علامة على التدخل الإلهي ، وكــدليل علــى أن بارث يجب ألا يتعرض للأذى ، وأرجعت العناية الإلهية الشيخ البــاكي El – Bakay ، الذي أتاح الفرصة لبارث بأن يقوم بعمل دراسة متأنية عن المدينة ، وعلى الرغم من أن بارث كان يؤكد الدقة المتناهيــة في تقريــر رينيه كاييه عن رحلته (أي رحلة كاييه) إلا أنه لم يلبث أن علق بقسوة على عدم الدقة الكبيرة التي تميز بها تقرير كاييه . وكان بارث دائماً كثير النقد للناس ، بخلاف منجو بارك ، فقد كان متسرعاً في توجيه النقد إلي المستكشفين الذين سبقوه فيما يتعلق بعدم دقة ملاحظــاتهم ، وفي هــذه المناسبة يقول بارث ما نصه " وبالإجمال فإنه وصف شكل منازل تمبكتو وصفاً جيداً ، وكان الخطأ الوحيد الذي ارتكبه في تقديمه هو ذكره بــأن منازل المدينة كانت تبدو متفرقة ومنعزلة ، وكانت شوارعها في الواقــع مغلقة تماماً ، أي أن هذه المساكن كانت تشكل بصفة مستمرة صــفوفاً متعرجة " .

فبقاء بارث على قيد الحياة ، جعله في الواقع يتمكن من قضاء مدة طويلة تصل إلي ثمانية شهور في تمبكتو . وفي الواقع يرجع ذلك إلي علمه وإلي مقدرته على تكوين صداقات بحيث أن الباكي Bakay كان مسروراً لمقابلته للرجل الأوروبي ، الذي تمكن من قراءة القرآن ، والذي تمكن من مناقشة مفاهيم الإسلام Muslim Observances ، وكتب بارث ما نصه :

" أنا لم أتقدم إلي الأمام ، دون أن أترك صديقاً مخلصاً من خلفي ، وهكذا تأكدت من أنني لو رغبت في أن أقتفي أثر خطـواتي الـسابقة ، فإنني من المحتمل أن أفعل ذلك بأمان " .

وبعد أن غادر بارث تمبكتو أبحر هابطاً مع نهر النيجر إلي مدينـة ساي Say ، عندئذ سافر بالبر من خلال سكوتو إلي بورنو ، ولازال حتى ذلك الوقت يحمل معه أنواعاً مختلفة من الهدايا المناسبة ، ففي كل مكـان كان يقف فيه كان بارث يقدم مرآة إلي أجمل إمرأة ، أما بـاقي النـساء فكن يتسلمن منه أبر الخياطة . وفي مرة من المرات طلب من بـارث أن يرتدي ملابسه الأوروبية ، فأخرج من أمتعته بدلة سوداء ولبسها فـأدت إلي خلق فكرة غير محببة عن الزي الأوروبي .

وكان قد وصل إلي علم بارث أن بعثة بريطانية أخرى في طريقها إلي أواسط أفريقيا ويرأسها عالم ألماني شاب هو الدكتور أدوارد فوجيـل Edward Vogel ، ولم يمض وقت طويل على مغادرته كانو إلا وقد رأي شخصاً ذو ملامح غربية يتقدم نحوه ، كان هذا الشخص رجل شاب ذو هيئة جميلة ، وكان مرتدياً زياً مثل الزى الذي كان يرتديه بارث ، فكان مرتدياً على رأسه عمامة بيضاء ملفوفة بكثافة حول رأسه ، وبرفقته أثنين أو ثلاثة رجال من السود ، كانوا ممتطين الخيول .

وقد أخبر أحد الأفارقة ، وهو خادم سابق لبارث بـأن الرجـل الشاب ، هو المستر فوجيل Vogel ، الذي أندفع نحو بارث بحيث أصابت الدهشة كل من الرجلين واستقبل كل منهما الآخر من على ظهر حصانه بحرارة شديدة .

وقد علم بارث أن فوجيل كان متصايقاً لاعتقاده بأن بارث كان قد مات ، وأنه أرسل تقريراً إلي أهله عن وفاته . وعندئذ قرر بارث أن يعود بنفسه إلي الوطن كي يثبت أنه لا يزال على قيد الحياة ، ولم يمت بعد . وبعد ذلك تفرق الرجلان ، فكان على فوجيل أن يكمل اكتشافات بارث ، فاتجه إلي جنوب بحيرة تشاد لكي يكتشف الأقليم الواقع بين البحيرة ونهر النيل . ووصل فوجيل أثناء رحلته عبر أفريقيا إلي بلدة واداي Wadai التي تقع في ثلث المسافة من النيل ، وهناك تم اغتياله . وبعد مقتله أرسل من أجله مالا يقل عن سبع بعثات للبحث عنه وإيجاده. وقد نجحت بعثة واحدة فقط من السبع بعثات في الوصول إلي واداي ، وكانت هذه البعثة تحت قيادة رجل ألماني آخر يدعي موريس فون بورمان Maurice Von Beurmann . وفي عام ١٨٦٣ م اغتيل بورمان أيضاً .

وفي هذا الوقت عبر بارث الصحراء ، إلي واحة مرزوق ، ومنها إلي طرابلس ومن الأخيرة وصل إلي انجلترا ، وكان ذلك في خريف عام ١٨٥٥ م ، بعد رحلة دامت أكثر من خمس سنوات . وتعتبر هذه الرحلة سجل للتحمل البطولي ، حيث نتج عنها نتائج جغرافية عظيمة وعلى جانب كبير من الأهمية . وفي عام ١٨٦٥ م ، كافأت الجمعية الجغرافية الملكية The Royal Geographical Society بارث بميدالية الجمعية patron's Medal . وحتى ذلك التاريخ فلم تتبع كشوف بارث بجهود كشفية أخرى ، حتى أن بارث ظل غير معروف للعامة ، ولكن فيما بعد جذب الإهتمام والإنتباه إلي الاكتشافات الهامة في جنوب أفريقيا ، وذلك عن طريق كتابه " رحلات واكتشافات في شمال ووسط أفريقيا في الفترة ما

بين ١٨٤٩ ، ١٨٥٥ ، Travels and discoveries in North and Central Africa , 1849 – 1855 وقد شرح بارث في هذا الكتاب العمل الضخم الذي قام به .

وفي هذا الصدد يقول ما نصه " تضمنت سفرياتي منطقة شاسعة من هذا القطر الذي يمتد فيما بين خطي عرض ٢٤° شمال وجنوب خط الإستواء ، ويمتد كذلك فيما بين خطي طول ٢٠° إلي الشرق والغرب ، بحيث تعتبر هذه المنطقة أعرض جزء في القارة الأفريقية . وقد اشتملت رحلاتي أيضاً على موضوعات كثيرة ومتنوعة ، فبعد أن عبرت الصحراء الشاسعة * التي تتميز بالتربة القاحلة والمناظر الكئيبة ، صادفت أثناء سيري أراض خصبة بها أنهار كبيرة ، وصالحة للملاحة تمتد حتى البحيرات الوسطي Extensive Central lakes ، وتتزين هذه الأراضي بأجمل أنواع الشجر ، وتنتج أصنافاً مختلفة من الحبوب مثل الأرز rice ، والسمسم Sesame ، والفول السوداني ground – nuts ، الذي ينتج بوفرة غير محدودة، وقصب السكر Sugar – Cane ، ألخ . علاوة على ذلك فإن هذه الأراضي تنتج القطن Cotton ، والنيلة Indigo ، ويعتبر معظم هذه الغلات سلعاً تجارية ذات قيمة ، فكل أفريقيا الوسطي Central Africa إبتداء من باجرمي Baghirmi في الشرق ، وحتى تمبكتو في الغرب ، غنية بهذه المنتجات . ولم ينسج الوطنيون الذين يعيشون في هذه المناطق قطنهم فقط بل كانوا يصبغون القمصان التي يصنعونها صناعة محلية بالنيلة التي يرزعونها. وكان نهر النيجر ، هو النهر الذائع الصيت عندهم ، الذي يعتبر

---

* يعني بالصحراء الشاسعة " الصحراء الإفريقية الكبرى " وهي أعظم وأكبر صحراء في العالم . " المترجم " .

منفذاً لهذه المناطق ، وذلك باستخدام رافده البنــوي Benue ، الــذي تم اكتشافه بمعرفتي (بارث) ، وقد زودت الطبيعة هذا الرافد بمسطح مائي شاسع وصالح للملاحة ، ويبلغ طوله في داخل القطر ، أكثر مــن ٦٠٠ ميل ، أما رافده الغربي فتكتنفه الشلالات Rapids في مسافة يبلغ طولهــا ٣٥٠ ميلاً من الساحل ، ولكن حتى عند هذه النقطة فإنه من المحتمل أن يكون صالحاً للملاحة في الحالة الراهنة حيث أننا إذا سرنا إلي المنبع فــإن النهر يمثل طريقاً عاماً للملاحة لما يقرب من ١٠٠٠ ميل في قلب وســط أفريقيا الغربية ، الغني بكل ما ينتج " .

وكان بارث متباه تماماً بسبب إدراكه لأهمية إنجازاته التي تمثلت في رحلته إلي تمبكتو ، واكتشافه لأجزاء من نهر النيجر ، ويتضح ذلك مــن قوله :

" ورغم أن مصير منجو بارك ظل غير محدد ، وغير معروف للعالم المتحضر ، إلا أنني نجحت لدرجة كبيرة في كل توقعاتي ، بحيث لم يعــد تاريخ مقتله معروف في كل هذه المناطق الشاسعة التي قام باكتشــافها ، والتي كانت غير مكتشفة حتى أمام التجار العرب على وجه العموم ، بل ظلت غامضة أكثر من أي جزء آخر في أفريقيا . وفضلاً عن ذلك كلــه نجحت أيضاً في تأسيس علاقات صداقة مع معظــم الرؤســاء الأقويــاء القاطنين على طول النهر من ناحية منبعه ، وحتى المدينة الغامضة نفسها . لذلك لا يوجد مجال للشك في الطريق الذي تعقبته بنفسي ، ومع ذلــك فقد تركت مقداراً كبيراً من العمل لخلفائي من بعدي كــي يطــوروه .

وكان لدي اقتناع بالشعور بأنني فتحت أمام المهتمين بالنواحي العلمية في أوروبا منطقة شاسعة من القارة الأفريقية المنعزلة عن العالم
A most extensive tract of the secluded African world .
فلم يقتصر العمل على هذه المنطقة المعروفة معرفة بسيطة فقط ، بل فتحت اتصالاً منتظماً بين الأوروبيين وبين هذه المناطق كلما أمكن ذلك " .

وقد عاد بارث إلي ألمانيا ، وبعد ذلك قام بنشر كتابه . وفي عام ١٨٦٣ م عمل بارث أستاذاً للجغرافيا ، ومات بعد ذلك بسنتين أي وهو في الرابعة والأربعين من عمره . وكان بارث أثناء السنتين اللتين سبقتا موته يقوم بالسفر إلي بلاد الشرق الأوسط .

ولقد مضي بعض الوقت قبل أن يتم تقييم وتقدير الأعمال الكشفية التي قام بها بارث . ولكن في عام ١٨٩٠ م وصف مكتشف آخر يدعي جوزيف طومسون Joseph Thomson عمل بارث في كتابه الذي كتبه بعنوان منجو بارك والنيجر Mungo Park and the Niger ، يقول فيه ما نصه : " لم يسبق من قبل أن كتب عن حقائق جغرافية وسلالية Thnographical ولغوية philological في المجال الأفريقي كالتي كتبها بارث " .

وقبل ذلك بسنوات عديدة ، وعلى وجه التحديد عام ١٨٥٤ م ، أي في أعقاب تقرير فوجيل عن موت بارث ، أرسلت بعثة إلي أفريقيا تحت قيادة قبطان بحري طبيب يدعي وليام بلفور بياكي A Naval Surgeon , William Balfour Baikie ولكن هذه البعثة فشلت في عمل اتصال مع بارث ، وتمكنت فقط من إثبات أن نهر النيجر وبعض روافده

مثل البنوي Benue كانت صالحة لملاحة السفن التجارية . وكان الأكثر أهمية من ذلك أن هذه البعثة أثبتت القيمة الحقيقية للكنين Quinine المانع للملاريا المخيفة Dreaded Malaria ، حيث أن البعثة قطعت رحلة طولها ٣٠٠٠ ميل إلي منبع نهر البنوي ، دون أن يموت أي عضو من أعضائها متأثراً بمرض الحمي .

وبعد ذلك ، فقد اكتشف رحالة ألماني آخر يدعي جيرهارد رولفس Gerhard Rohlfs ، مناطق شاسعة ومجهولة في الشمال الأفريقي ، فقد بدأ هذا الرحالة عمله عام ١٨٥٥ ، عندما كان يبلغ من العمر ٢٣ عاماً ، فكان قد التحق بالكتيبة الفرنسية التي تعمل في الجزائر The French foreign legion in Algeria كمساعد صيدلي .

وقد اشترك جيرهارد عام ١٨٥٧ في الحملة الفرنسية التي أرسلت إلي أفريقيا ، والتي كان من نتائجها هزيمة الكابيلي Kabylie ، وبعد ذلك بخمس سنوات بدأ جيرهارد رولفس رحلاته الكشفية التي بدأها من طنجه Tangier ، متنكراً في زي طبيب مسلم .

وفي الستة عشرة سنة التالية تجول جيرهارد رولفس في مساحات شاسعة (من أفريقيا) فزار فاس Fez ، ومراكش Morocco ، واتجه بعد ذلك في مسيره إلي الساحل الشمالي الغربي هابطاً إلي وادي سوس Wady Sus قبل عودته إلي الداخل ، أي إلي تافيليت Tafilet التي زارها رينيه كايليه René Caillié ، في أثناء رحلة العودة من تمبكتو . وفي عام ١٨٦٣ م ، حاول أن يعبر الصحراء إلي تمبكتو ، ولكنه فشل في ذلك ، وفي السنة التالية وبعد زيارته إلي تافيليت Tafilet للمرة الثانية ، سافر إلي الجنوب

الشرقي ليكون الأوروبي الأول الذي زار واحة توات Tuat وبعد ذلك بدأ العودة إلي طرابلس عن طريق واحة غدامس ، بحيث كان لينج قد أعتقل Detained فيها أثناء رحلته إلي تمبكتو . وفي عام ١٨٦٥ م ، عبر الصحراء من طرابلس وتقدم إلي بورنو ، ومن بعدها توجه إلي البنوي ، ثم هبط بعد ذلك مبحراً حتى وصل إلي إلتقائه بالنيجر .

وبعد سنوات قليلة أي في عام ١٨٦٩ م ، كان هناك في نفس المنطقة الشاسعة ألماني آخر يدعي ناشتيجال Nachtigal . G ، الذي بدأ رحلته من طرابلس ومنها نفذ إلي الصحراء الكبري حتى وصل بعيداً إلي هضبة تبستي Tibesti ، وهناك وجد طريقاً جديداً يوصل إلي كوكا Kuka، وتمكن هذا الرحالة من إكتشاف المناطق الواقعة في الشمال والجنوب الشرقي من بحيرة تشاد ، وبدلاً من أن يعبر الصحراء إلي طرابلس ، عاد إلي القاهرة مستخدماً طريق واداي Waday الذي قتل فيه فوجيل ، وتقع واداي في إقليم دارفور التابع إلي أقليم كردفان .

وفي عام ١٨٧٤ م ، وبعد أن قضي رولفس سنتين تجول أثنائهما في أثيوبيا قاد بعثة عبر الصحراء الليبية إلي واحة سيوة ، وقد استغرقت هذه الرحلة وقتاً أقل من شهر . وفي عام ١٨٧٨ م ، ذهب رولفس مرة ثانية إلي طرابلس ، وهناك خطط للذهاب إلي واداي ، ولكنه فشل ، ولم يصل إلا إلي واحة الكفرة Kufra ، وتمثل هذه الرحلة رحلته الرئيسية والأخيرة ، التي بسببها كان قد كوفئ بالميدالية الذهبية من قبل الجمعية الجغرافية الملكية .

وفي عام ١٨٨٥ م ، أي وهو في سن الثالثة والخمسين عين في وظيفة جديدة ، هي وظيفة قنصل عام لألمانيا في زنجبار ثم مات بعد ذلك في عام ١٨٩٦ م .

وبعد ذلك يأتي لويس جوستاف بنجر Louis Gusave Binger وهو ثالث المكتشفين الأساسيين ، الذي كان قد ولد في عام ١٨٥٦ م ، وعاش حتى أصبح معمراً ، ومات في عام ١٩٣٧ م ، وكان بنجر جندياً، وجاء في بادئ الأمر إلي أفريقيا في خدمة عسكرية . وكانت رحلاته التالية تهدف إلي تحديد خطوط الحدود الدولية ، وفي الوقت نفسه إهتم لويس جوستاف بنجر بالكشوف الجغرافية أكثر من اهتمامه بضم هذه المقاطعة إلي فرنسا . وكانت رحلته الأولي هي أهم رحلاته التي استمرت من عام ١٨٨٧ م ، وحتى عام ١٨٩١ م ، فقد قاد هذه البعثة إلي وطن مجهول ، يقع جنوب انحناءة النيجر . وكان الاعتقاد السائد في ذلك الوقت أن وادي النيجر كان عريضاً للغاية ، ولكن أثبت بنجر عكس ذلك ، إذ أثبت أن وادي النيجر كان ضيقاً تماماً . وقد أثبت بنجر كذلك أن نهر الفولتا ينبع بالقرب من مجري نهر النيجر ، وتمكن لويس جوستاف بنجر أيضاً من أن يدحض وجود سلسلة لجبل ضخم ، كانت قد ظهرت على عدد من الخرائط الموجودة في ذلك الوقت ، كان هذا القطر يمتد في غير انتظام حتى يصل إلي خط عرض ١٠° شمال خط الاستواء .

وقد كافأت الجمعية الجغرافية الملكية بنجر بالميدالية بسبب الكشوفات التي قام بها . وفيما بعد ، أي في عام ١٨٩٢ م ، توغل لويس جوستاف بنجر في داخل قطر مجهول وكبير جداً إلي أكثر من ١٢٠٠

ميل . وكان بنجر يهدف من وراء ذلك إلي إقامة خط للحدود بين ساحل الذهب البريطاني The British Gold Coast (غانا في الوقت الحاضر) وبين ساحل العاج الفرنسي The French Ivory Coast ، وقد عين بنجر حاكماً لساحل العاج عام ١٨٩٣ م .

وأكمل المكتشفون الآخرون كشوفات بنجر ، وعلى وجه الخصوص ، ما قام به رجل فرنسي يدعي مونتيل P . L . Monteil الذي بدأ رحلته من السنغال عام ١٨٩٢ م ، ثم عبر انحناءة النيجر عند ساي Say ، وسافر إلي بحيرة تشاد عن طريق سكوتو وبورنو ، وبعد ذلك عبر الصحراء من عند بحيرة تشاد متجهاً إلي طرابلس .

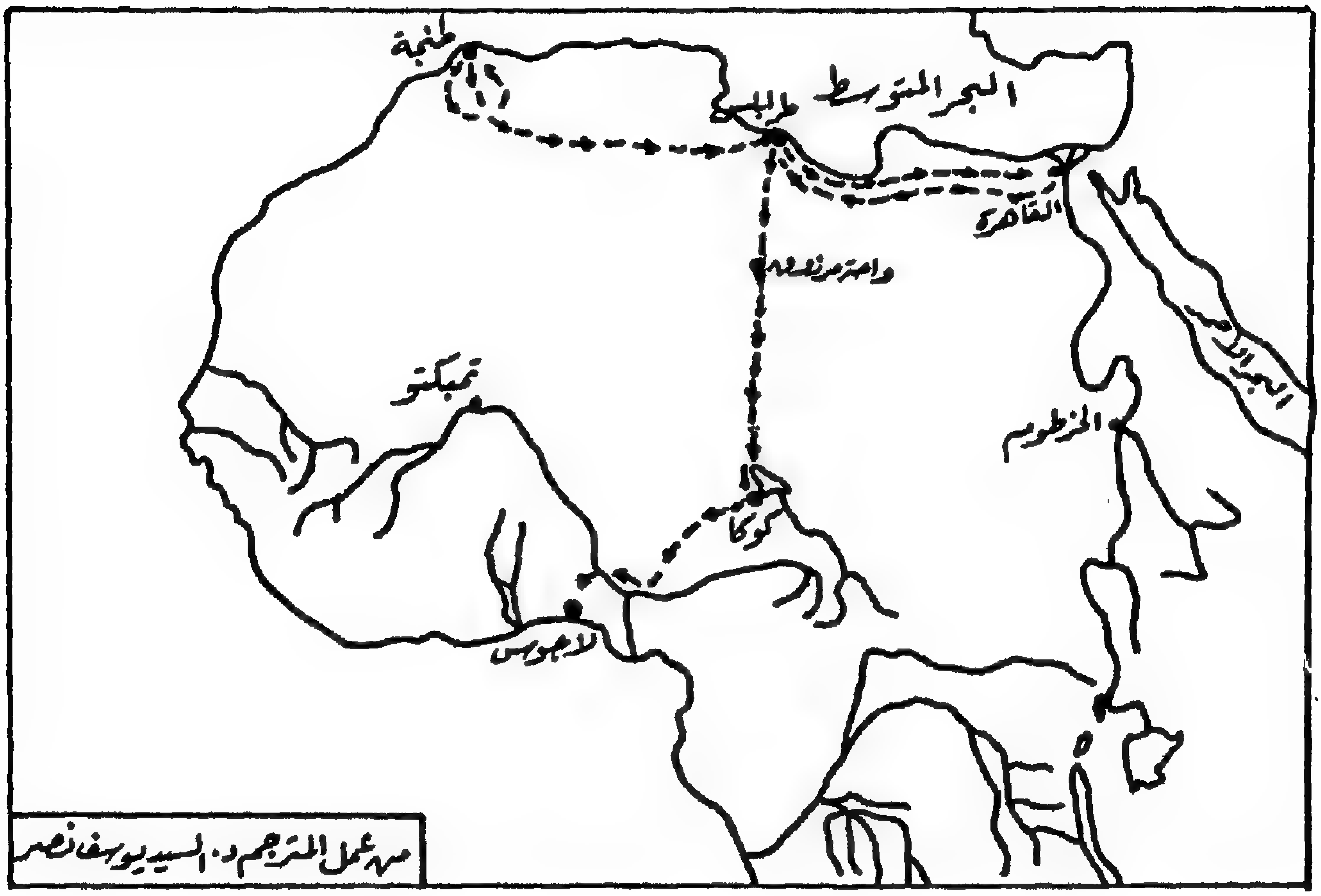
وحتى ذلك الوقت كان يوجد في مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية ما يمكن القيام به ولكن بحلول هذا الوقت كانت الكشوف الجغرافية الأفريقية قد أفل نجمها ، بسبب تقسيم القارة الأفريقية International Scramble for Africa بين بريطانيا الدولة الإستعمارية ، وبين بقية القوي الأوروبية الأخرى (الرئيسية) .

الخريطة رقم ١٠ والخاصة ببعثة ريتشاردسون عام ١٨٥٠



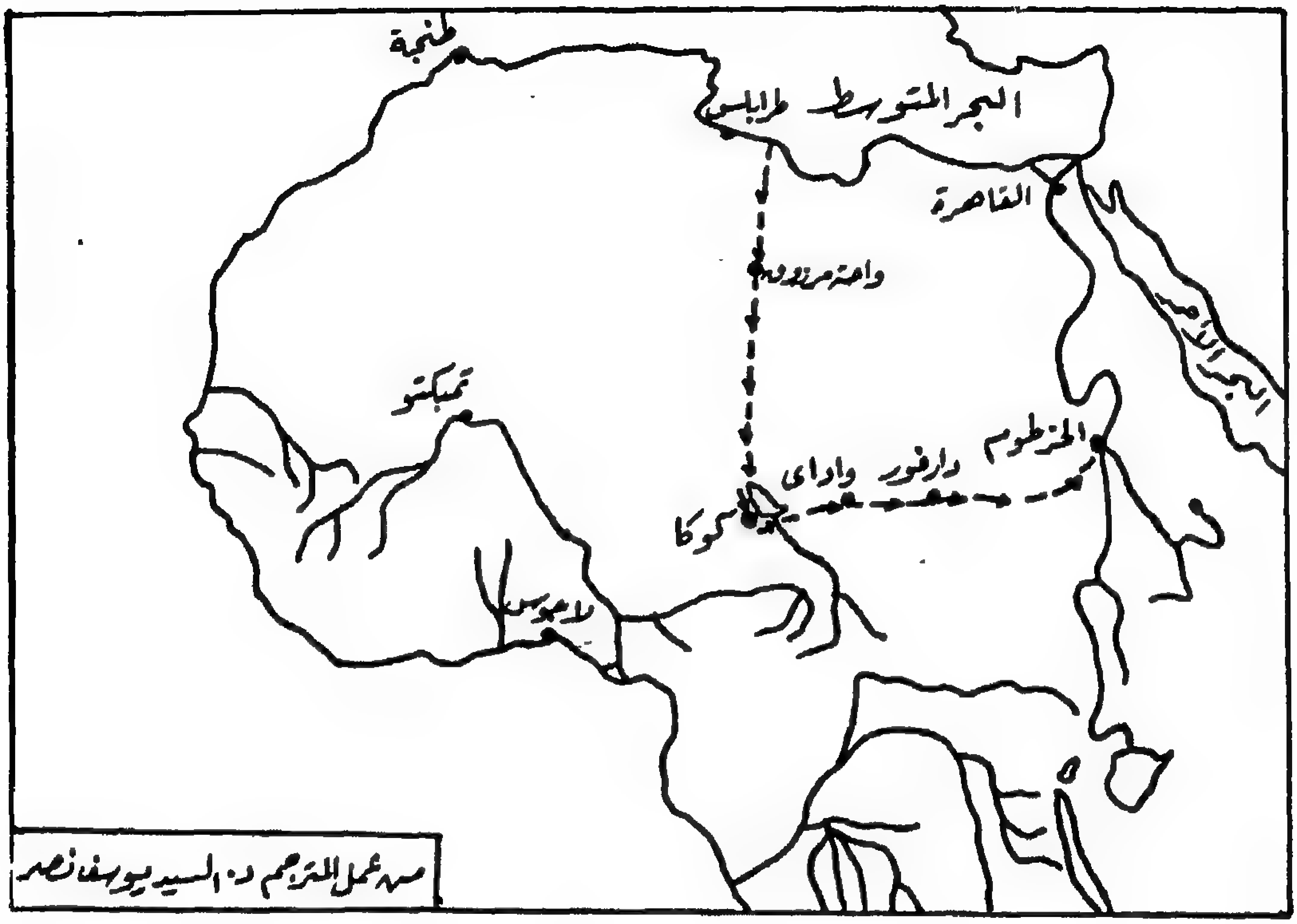
بدأت هذه البعثة مهمتها من تونس عام ١٨٥٠ م ، فمرت بطرابلس وإير وأغـادس ، ثم اتجه قسم منها برئاسة ريتشاردسون إلي زندر ومنها يتجه إلي كوكا . واتجه القسم الثـاني الذي كان تحت رئاسة بارث إلي كانو ، وبعد ذلك يلتقي أفراد البعثة في كوكا ، ثم يتجـه بارث بعد ذلك شمالاً لكشف المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد . ولكـن بعـد ذلـك وردت تعليمات إلي البعثة من انجلترا تحثها على السفر من كوكا إلي كانو فسكوتو فجاو فتمبكتو ، ثم تعود من نفس الطريق إلي كوكا ، ومنها تتجه شمالاً عبر الصحراء الكبرى إلي انجلترا التي وصلتها عام ١٨٥٥ م .

الخريطة رقم ١١ والخاصة ببعثة رولفس عام ١٨٦٢ م



بدأ رولفس رحلته في الفترة ما بين ١٨٦٢ وحتى عام ١٨٧١ من طنجة ، ففاس ثم عاد إلي طنجة ، ومنها اتجه إلي طرابلس فمصر ، ثم مرة ثانية إلي طرابلس ، ومنها اتجه جنوباً إلي واحة مرزوق فكوكا ، ثم اتجه غرباً وعبر نهر النيجر إلي لاجوس .

الخريطة رقم ١٢ والخاصة ببعثة ناشتيجال عام ١٨٦٩



بدأ ناشتيجال رحلته من طرابلس عام ١٨٦٩ ، واتجه جنوباً إلي مرزوق ، ومنها اتجه إلي كوكا ، ثم مر من جنوب بحيرة تشاد ماراً ببلدة واداي ودارفور ، ثم وصل بعد ذلك إلي الخرطوم عام ١٨٧٤ م .

التعليق على الفصل (٦)

في هذا الفصل تناولت المؤلفة عدداً كبيراً من الرحالة والمستكشفين ولكنها لم توضح بصورة كاملة دور كل رحال على حدة ، في مجال الكشف الأفريقي ، بل نجدها تركز على ثلاثة أو أكثر فقط وأشارت مجرد إشارة إلي باقي هؤلاء الرحالة الذين لا يقلون في الأهمية عن غيرهم . فليس من المعقول أن يترك هؤلاء الذين جاءوا إلي أفريقيا ، دون إبراز دورهم مهما كانت قيمته .

وفضلاً عن هذا ، فإنه كان يوجد هناك عدد آخر من الرحالة لم تتعرض المؤلفة إليهم نهائياً ، لا من قريب ولا من بعيد مع أن البعض من هؤلاء الرحالة إما أن يكون قد قام برحلة بمفرده أم قام برحلة من قبل حكومته ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر ، الرحلة الخاصة التي قام بها ريتشاردسون إلي أفريقيا ، ثم بعد ذلك اختارته بريطانيا لقيادة بعثة أخرى إلي الصحراء الكبرى نظراً لخبرته السابقة في هذا المجال .

وزيادة على ذلك فإن المؤلفة لم تقم بتوضيح البعثات الألمانية والفرنسية بل تركت للقارئ التخمين في هذا الموضوع ، واكتفت بعرضها لعدد كبير من الرحالة من مختلف الجنسيات ، مما يجعل القارئ في حيرة من عدم معرفته لطبيعة هذه البعثات ، فهل هي بعثات رسمية ، أي أنها أرسلت من قبل حكومات أوروبا أم هي بعثات غير رسمية ، يقوم بها أفراد مغامرون مثل لويس جوستاف بنجر Lowis – Gustave Binger وجيمس ريتشاردسون James Richardson في رحلته الأولي ، وأدوارد

فوجيل Edward Vogel وموريس فون بورمان Maurice Von Beurmann وجوزيف تومسون Joseph Thomson ، ووليام بلفور بيـــاكي William Balfour Baikie ، وجوستاف ناشتيجال Gustav Nachtigal وبي . الــ . مونتيه P . L . Monteil .

ولكن على الرغم من كثرة أسماء هؤلاء الرحالة إلا أن المؤلفـــة لم تبرز إلا دور عدداً قليلاً جداً منهم ، كما ذكر آنفاً . لذلك رأينا أن نقوم بإلقاء الضوء بإيجاز على الرحالة الذين لم تتعرض المؤلفة لتاريخهم ، ومن المعروف أن هؤلاء المنسيين كان لهم دور لا يقل في أهميته عن الدور الذي قام به غيرهم .

وكان من هؤلاء الرحالة الذين لم تتعرض لهم المؤلفـــة بالدراســـة جون دافيدسون John Davidson الذي كان قد سافر من قبل ، وعلـــى نطاق واسع إلي أوروبا الشرقية ، وإلي وسط وشمال أمريكا ، وبعد ذلك وجه اهتمامه إلي الصحراء الكبرى ، وكانت خطته أن يعبر الصحراء من خلال طريق القوافل ، الذي يمر من أرض موريتانيا الصــــحراوية Waste Land ، ولكنه كان قد حذر من اختيار هذا الطريق بسبب الحرب القبلية، ومع ذلك فلم يرجئ دافيدسون الرحلة بل بدأها عـــام ١٨٣٦ م ، مـــن موجادور Mogador (تعرف في الوقت الحاضر باسم الساويرا Essaouira) الواقعة على ساحل مراكش وقد استغرقت هذه الرحلة ســـتة أســـابيع ، ولكنه لم يكملها لأن التجار العرب قاموا بقتله ، حيث أنهم خشوا علـــى أن يكون مجيئه مقدمة لتدمير تجارتهم . وبعد ذلك أبدت بريطانيا اهتماماً خاصاً بطريق الصحراء وبصفة خاصة منذ السبعينات من القرن ١٩ .

ومن بعده قام جيمس ريتشاردسون James Richardson الـــذي ينتمي إلي جمعية الأنجيل البريطانية A British Bible Society عام ١٨٤٥ م برحلته الأولي من طرابلس ، وتجول على نطاق واسع كرجـــل أوروبي . ففي البداية كان قد تقدم صوب الجنوب الغربي مــــن واحـــة عيـــدامس Ghudamis ومنها اتجه إلي الجنوب حتى وصل إلي واحة غات Ghat . وقد تمكن من قطع مسافة طولها ٤٠٠ ميـــل . وفي غـــات قوبـــل جـــيمس ريتشاردسون بحفاوة بالغة من قبل السلطان الذي أعطاه هدايا ليأخـــذها معه إلي الملكة فيكتوريا . وفي تلك الأثناء سجل ملاحظات تفصيلية عن تجار الرقيق.وبعد ذلك ، بدأ رحلة العودة إلي ساحل البحر المتوســـط ، ومن هناك سافر على متن سفينة إلي لندن .

وقد قطع جيمس ريتشاردسون أثناء هذه الرحلة مـــسافة طولهـــا ٧٠٠٠ ميل عبر الصحراء . وكان لتقريره آثار بالغة الأهميـــة وبخاصـــة بالنسبة لما يتعلق منه بالمعاملة القاسية التي كان العبيد يلقونها من قبل تجار الرقيق (النخاسة) . وقد حرك هذا التقرير مشاعر النـــاس في بريطانيـــا بصورة فعالة ، ومن الجدير بالذكر أن المؤلفة لم تتناول هذه الرحلة ، بل تناولت الرحلة الثانية التي قام بها ريتشاردسون .

ونتيجة لهذه الرحلة أصبحت الحكومة البريطانية مهتمة اهتمامـــاً كبيراً بفكرة حصر طرق القوافل التي تربط بين واحات الصحراء وبـــين المدن الواقعة على الحافة الجنوبية للصحراء . وبعد عودة ريتشاردسون من رحلته بسنوات قليلة ، قررت الحكومة البريطانية ، إرسال بعثة رسمية وهى التي أشارت إليها المؤلفة لكشف هذه الطرق لكي تحصل على معلومـــات

أكثر عن تجارة الرقيق . وكانت الحكومة البريطانية قد قررت أن يتـولى ريتشاردسون رئاسة هذه البعثة الذي طلب أن تكون بعثة هـذه علـى المستوي العالمي ، كما طلب أن يكون أعضاؤها أكثر تقـدماً في مجـال الكشف الجغرافي الأفريقي ، منه في مجال المغامرات الرومانسية التي كانت تحدث في الماضي .

وعندما علم السفير البروسي في لنـدن بـذلك اقتـرح علـى ريتشاردسون إسم شاب ألماني يدعي هنريش بارث الذي كان له خـبرة سابقة في مجال الكشف في الشرق الأوسط وفي شمال أفريقيا ، وعنـدما سأل ريتشاردسون هنريش بارث أن ينضم إلي بعثته وافق على الفـور ، وبدأ هنريش بارث في تدريب نفسه تدريباً جيداً ، كي يعد نفسه علـى تحمل مهام البعثة . وكان العضو الثالث في هذه البعثة هو أدولف أفرويج Adolf Overweg ، وفضلاً عن ذلك فقد ضمت هذه البعثة عدداً آخراً من المرشدين والخدم ، وكانت قد بدأت مهمتها عام ١٨٥٠ ، ويبدو أنهـا كانت معدة إعداداً جيداً .

وكان أفراد هذه البعثة قد حملوا معهم إلي جانب الأمتعة والمـؤن مركباً صغيراً ، كان الغرض منه إستخدامه فوق مياه بحيرة تشاد . وبعـد أن بدأت البعثة مهمتها دب الخلاف بين كل من (ريتشاردسون وبارث) لذلك انقسمت البعثة إلي قسمين ، ضم القسم الأول الألمـانيين اللـذين سارا في المقدمة ، ومن بعدهم بمسافة كبيرة سار القسم الثـاني برئاسـة ريتشاردسون ومعه البحار الإنجليزي الذي كان قد قدم للعمـل علـى المركب ، وفي المساء عسكرت البعثة في معسكرين . وفي عام ١٨٥٠ م ،

وصلت المجموعتان إلي واحة مرزوق ، ومنها واصلتا السفر إلي واحة غات Ghat وهناك قضت البعثتين عدة أيام خارج هذه الواحة ، حيث قرر بارث أن يتسلق جبل أدنين المجهول Mysterious Mountain of Idinen وبحسب ما ذكر رجال الطوارق فإن هذا الجبل كان مسكوناً بالأرواح الشرير ، وبعد فترة من المسير نفد الماء من بارث بل وضل طريقه ، وسقط على الأرض وهو شبه فاقد للوعي ، ولكنه نجح في تجنب الخطر بسبب قطع أحد شرايينه وشرب دمه ، وفي تلك الأثناء عثر عليه رجال الطوارق الذين أرجعوه إلي أفرويج .

وبعد ذلك اتجه ريتشاردسون إلي بحيرة تشاد واتجه بارث إلي كانو وكاتسينا ، وكان الرجال الثلاثة قد اتفقوا على الإلتقاء في كوكا في شهر إبريل عام ١٨٥١ م . وعلى الرغم من ذلك فلم يحافظ ريتشاردسون على موعد هذا اللقاء ، مع أن أفرويج كان قد وصل إلي بحيرة تشاد ، وهو في حالة منهكة ، بل وكان يعاني من الحمي ، وفي هذا الوقت كان بارث قد اكتشف المقاطعة الواقعة إلي الجنوب الشرقي من بحيرة تشاد ، بعد أن كان عليه أن يستكشف البحيرة نفسها . ومكث بارث وأفرويج في منطقة البحيرة ١٥ شهراً . وفي تلك الأثناء مات ريتشاردسون . ولما علمت الحكومة البريطانية بوفاته عينت بدلاً منه بارث قائداً لهذه البعثة ، وزودته بالأموال لكي يواصل سفره حتى يصل إلي هدفه الثاني وهو مدينة تمبكتو . إذن يمكن القول أن الهدف من بعثة ريتشاردسون الرسمية كان الوصول إلي بحيرة تشاد وتمبكتو .

وقبل أن يبدأ الرجلان رحلتهما مات أفـرويج بسـبب مـرض الملاريا إذن يمكن القول أن البعثة فقدت مـن أعضـائها اثـنين همـا ريتشاردسون وافرويج الذي كان عمره آنذاك ٢٩ عاماً .

وبعد ذلك ، كان بارث قد تعرض لمرض الدوسنتاريا والحمـى ، كما تعرض أيضاً لفقده لكل من ريتشاردسون وافرويج ، ومع ذلك فإنه قرر مواصلة السفر ، ففي نهاية عام ١٨٥٢ م ، غادر بـارث عاصـمة البورنو ، بعد أن قضي ٣٢ شهراً في الرحلة ، ابتداء من طـرابلس . وفي سبتمبر عام ١٨٥٣ م وصل إلي تمبكتو ووجدها في حالة رخاء ، ولكنها لم تستعيد مركزها التجاري التي كانت تتمتع به في التسعينات من القرن الخامس عشر وما قبله .

وفي بداية عام ١٨٥٤ م ، غادر بارث تمبكتو واتخذ طريقه في اتجاه الشرق إلي بحيرة تشاد ، وفي الطريق إلي هذه البحيرة كان قد علم بـأن الحكومة البريطانية قد أرسلت بعثة أخرى للبحث عنه ، وكانـت هـذه البعثة قد وصلت بالفعل إلي بحيرة تشاد ، وكان علـى رأسـها أدوارد فوجيل A German Edward Vogel ، وبعد مقابلة دامت فترة قصيرة سافر بارث بعدها إلي كوكا ، وسافر فوجيل إلي زندر وهي مدينة تقع علـى مسافة ٣٠٠ ميل غرب تشاد ، وكان عليه الإنضمام إلي بـارث الـذي سوف يبدأ رحلته الأخيرة عبر الصحراء إلي انجلترا ، ولكن فوجيل غـير رأيه واتجه صوب واداي الواقعة في غرب السودان .

وفي النهاية عبر بارث الصحراء في مايو ١٨٥٥ م ، رغم الحرارة الشديدة وتمكن من الوصول إلي طرابلس ، ومنها سافر إلي لندن بعد أن مكث في أفريقيا خمس سنوات .

ومن بعد هنريش بارث يأت دور أدولف لودويج أفرويج Adolf Ludwig Overweg الذي عاش في الفترة ما بين ١٨٢٣ م ، ١٨٥٢ م ، فهو مستكشف ألماني ساهم في كشف أفريقيا ، ففي عام ١٨٥٠ م ، التحق بالبعثة التي ضمت كل من جيمس ريتشاردسون وهنريش بارث ، وكانت هذه البعثة قد بدأت مهمتها من طرابلس متجهة صوب بحيرة تشاد ونهر النيجر ، وقبل أن تصل هذه البعثة إلي بحيرة تشاد إنفصل الرجال الثلاث عن بعضهم ، ولما وصل أفرويج إلي بحيرة تشاد قام بكشفها ثم مات بعد ذلك قبل أن يبدأ الرحلة إلي تمبكتو والنيجر [1] .

ومن بعد أفرويج يأتي دور الطبيب وليام بلفور بياكي William Balfour Baikie الذي أرسله السير رودريك مارشيزون Roderick Murchison رئيس الجمعية الأفريقية عام ١٨٥٤ م إلي أفريقيا ، ليقوم بمعالجة أفراد البعثة التي أرسلت إلي نهر النيجر عام ١٨٥٤ م ، وكانت هذه البعثة قد سارت مسافة طويلة مع نهر البنوي ، ويرجع الفضل كل الفضل في عدم تعرض أفرادها إلي المرض إلي الطبيب بياكي الذي استخدم الكينين Quinine في علاجهم ، فلم يمت عضو واحد من أفراد هذه البعثة.

وبعد عودة هذه البعثة إلي لندن عاد بياكي إلي النيجر عام ١٨٥٧م ، وكان بصحبته كل من كروثر Samuel Crowther والملازم

---

[1] Encyclopedia of discovery and Exploration , London , 1971 , No 3 , pp . 58 , 61 , 82

جلوفر Lieutenant Glover ، وكان الهدف من هذه البعثة هذه المرة هــو التأكد من أن التجارة هي أحسن وسائل الإتصال مع السكان (الأفارقة)، ولهذا قام كروثر بتأسيس أول مركز لأول بعثــة تبشــيرية مســيحية في نيجيريا عند إلتقاء النيجر بالبنوي . واستقر بياكي مدة ست ســنوات في هذه المنطقة وكان يقوم خلالها بشغل وظيفة القنصل البريطاني ، بالإضافة إلي أنه كان حاكماً لمقاطعة النوب Nupe . وفي تلك الأثناء ، كان بياكي يمارس مهنة الطب ، كما أنه كان يمارس التجارة ، ومــع ذلــك فــإن الحكومة البريطانية كانت قد أهملته وبخاصة في بدايــة ممارســته لهــذه الأعمال، وعندما شعر بذلك رفض التعاون مع الحكومــة البريطانيــة ، ولكن كان هذا الرفض بطريقة مهذبــة . وفي عــام ١٨٦٤ م أصــبح بلفوربياكي أفريقيا أكثر منه أوروبياً ، ورأي بيــاكي أنــه في إمكــان الأوروبيين أن يعيشوا في أفريقيا بدون تعرض لأي خطر على جنبات نهر النيجر . وبعد ذلك مات هذا الطبيب الشاب في سيراليون وهو في طريق عودته إلي وطنه [١] .

وكان من الرحالة الذين ساهموا في مجــال الكشــف الأفريقــي جوزيف تومسون Joseph Thomson الذي عاش في الفترة ما بين ١٨٥٨، ١٨٩٥ م . كان جوزيف هذا جيولوجياً أسكتلندياً ســاهم في كشــف أفريقيا ، ففي عام ١٨٨٢ م ، قام تومسون بــرحلتين إلي أفريقيــا ، لأن الجمعية الأفريقية الملكية كانت قد طلبت منه أن يستكشف طريق آمن يمر من خلال وطن المساى ، لهذا كان عليه أن يبدأ رحلته من ساحل شرق

---

[١] David Mountfield ; Ahistory of African Exploration , London , 1976 , p . 85 .

أفريقيا وجيٍّ بحيرة فيكتوريا ، فكانت بعثته قد غادرت زنجبار في مـــارس عام ١٨٨٣ م ، ووصلت إلي بحيرة فيكتوريا في شهر ديسمبر من نفــس العام ، وعادت بعد ذلك إلي الساحل في مايو من العام التالي ، بعــد أن كانت قد إكتشفت بحـيرة بـــارنجو Baringo وجبــل الجــون Elgon Mountain، وقد قام تومسون بعدد من الرحلات إلي أفريقيا كان منـــها الرحلة التي قام بها في الفترة ما بين ١٨٩٠ ، ١٨٩١ م ، فكان قد سافر إلي الشمال من نهر الزمبيزي حتى وصل إلي المنطقة الواقعة بــين بحــيرتي نياسا وبنجويلو ، وقد قطع أثناء هذه الرحلة ١٠٠٠ ميل في إقليم مجهول، وعقد اتفاقيات تجارية مع الشيوخ المحليين ، وفي رحلته التاليــة كانــت صحته قد تدهورت ومات وهو في سن السابعة والثلاثين من عمره .

ومن بعده قامت إمرأة هولندية تدعي المسز تنييه برحلة كــشفية عام١٨٦٩ من طرابلس ، وقد تكونت هذه البعثة من إثنين من البحــارة الهولنديين ، وبعد ذلك إلتحقت بقافلة كانت متجهة صوب الجنــوب ، فوصلت إلي واحة مرزوق ، وربما يرجع السبب في ذلك إلي أن المسز تنييه لم تكن على دراية بطريق الصحراء .

وبعد ذلك غادرت بعثة تنييه واحة مرزوق في طريقهـــا صــوب الجنوب ، وفي تلك الأثناء إلتقت هذه البعثة مع أحد شــيوخ طــوارق الحجار الذي إستمالها لكي يقوم بحراستها حتى تصل إلي واحــة غــات Ghat، وبعد مضي أيام قلائل على بدء الرحلة هاجمها هذا الشيخ ورجاله من الطوارق ، وقطعوا أحد ذراعيها ، ومن المحتمل أن يكون الــسبب في ذلك هو منعها من استخدام مسدسها ، وظلت هذه السيدة ملقاة علــى

رمال الصحراء في حرارة الشمس الشديدة وهي تدمي ببطء حتى فارقت الحياة ، ويقال أن السبب في اغتيالها يرجع إلي أن قافلتها كانت تحمل معها برميلين للمياه ، فاعتقد هذا الشيخ بأن هذين البرميلين مملوءين بالذهب ، مما آثار رغبة هذا الشيخ في التخلص منها والاستيلاء على هذين البرميلين . ومن المعروف أن المسز تنييه كانت قد قامت قبل ذلك ببعثة إلي منطقة بحر الغزال ، وقد نجحت في الوصول إلي هذه المنطقة ثم عادت سالمة .

وقد انتهت حياة المسز تنييه هذه النهاية المفجعة في الصحراء الكبرى ، نتيجة حبها في الكشف والإرتياد ، ونتيجة لتحقيق الشهرة في مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية ، ولكن إن دل هذا على شئ فإنما يدل على العزيمة الصادقة المخلصة ، حتى ولو كان وراء ذلك الرغبة الشخصية في تحقيق المجد والرفعة .

وبعد ذلك يأتي دور المستكشف جوستاف ناشتيجال Gustav Nachtigal ، الذي عاش في الفترة ما بين ١٨٣٤ ، ١٨٨٥ م والذي أوفد من قبل ملك بروسيا عام ١٨٦٩ ، لكي يوصل الهدايا إلي سلطان بورنو، فسافر إلي فزان ، ومنها توغل في الصحراء ، فاكتشف هضبة تبستي في الفترة ما بين ١٨٧٠ ، ١٨٧٤ . ومن هناك عبر ناشتيجال الصحراء إلي منطقة بحيرة تشاد ، وواصل المسير حتى وصل إلي دارفور وكردفان ، وبعد ذلك اتخذ طريق النيل إلي القاهرة . وفي عام ١٨٨٢ م ، عين ناشتيجال قنصلاً لألمانيا في تونس ، وبعد سنتين زار غرب أفريقيا ، فقد زار توجو والكاميرون بصفته نائباً للإمبراطور الألماني .

ومن الرحالة الذين لم يلقوا الإهتمام من جانب المؤلفة ، الرحالة الألماني جيرهارد رولفس Gerhard Rolfos ، وهو جندي ألماني كان قد أعد نفسه للسفر إلي الصحراء فالتحق بالقوة العسكرية الذاهبة إلي الجزائر عام ١٨٦٢ م ، وتنكر في زي رجل دين ، وبدأ رحلته إلي داخل مراكش، ومنها سافر إلي واحة تفيليت ، وكان الأوروبي الأول الذي زار هذه المنطقة منذ أن كتب رينيه كاييه تقريراً عنها ، وكانت الرحلة الثانية التي قام بها جيرهارد رولفس أكثر طموحاً ، فمن تفيليت تقدم رولفس صوب الجنوب الشرقي من واحة صالح الواقعة في قلب الصحراء ، وكان رولفس هذا يهدف من وراء ذلك إلي زيارة تمبكتو ، ولكن مشروعه لم ينته بعد لأن نقوده كانت قد نفذت ، فاضطر إلي التخلي عن هذا المشروع . وبدلاً من ذلك إتجه شمالاً ماراً من خلال غدامس إلي طرابلس ومنها إلي ألمانيا .

وبعد ذلك نتحدث عن دور أوسكار لينز Oscarlenz الذي لم يلق الإهتمام من جانب مؤلفة الكتاب ، الذي كان عليه أن يعبر الصحراء من مراكش حتى يصل إلي مصب نهر السنغال ، وهذا الطريق كان مشابهاً للطريق الذي إتخذه رينيه كاييه . وكان لينز أثناء هذه الرحلة يصطحب معه جماعة صغيرة من الأفراد ، واستغرقت هذه الرحلة ٤٠ يوماً وصل بعدها إلي تمبكتو التي قضي فيها ١٨ يوماً ، وكانت هذه المدة من أحسن أيام حياته . وذكر لينز في تقريره عن تمبكتو أنها لازالت مضمحلة مع أن الوضع السياسي فيها كان أقل توتراً . وفي منتصف يوليو عام ١٨٨٠

م غادر لينـــز تمبكتو ، حيث وصل إلي مركز فرنسي يقــع علــى نهــر السنغال .

وكانت مؤلفة هذا الكتاب قد أوردت أسمين لرحالتين ، ولم تشر إلي دورهما لا من قريب ولا من بعيد ، أحدهما يــدعي مونتييــه .P . L Monteil ويدعي ثانيهما موريس فون بورمـــان Muarice Von Beurmann ومع ذلك فإننا حاولنا البحث عنهما في المصادر الأساسية فلم نجــد مــا يشير إلي دورهما ، ولكننا رغم ذلك سنواصل البحث عنهما حتى نتمكن من إبراز دورهما أن كان لهما دور ، ولكن من المحتمل أن يكونا عضوان في أحد البعثات الكشفية التي قدمت إلي الصحراء الكبرى وغرب أفريقيا في هذه الفترة ، ولم يكن لهما نشاط يستحق الذكر .

ومن بعد ذلك نتحدث عن دور هنري دوفيريه Henri Duveyrier الذي حقق نجاحاً لا بأس به بعد بارث ، ففي عام ١٨٥٧ كــان هــذا الرحالة قد زار شمال أفريقيا ، وكان عمره في ذلك الوقت ١٧ عامــاً ، وكان مسحوراً بما شاهده وبما رآه . وبعد ذلك عاد إلي فرنســا وهــو مصمماً على القيام ببعثة أكثر طموحاً ، فسافر إلي لندن لمقابلة بارث كي يناقش معه بعض المسائل الخاصة بالكشف الجغرافي الأفريقي ، لأن بارث كان له خبرة كبيرة في هذا المجال . ومن ناحية أخرى كان على هنــرى دوفيريه مواصلة دراساته في الجيولوجيا ، وفي العلوم الطبيعية وفي اللغات.

وفي عام ١٨٥٩ ، وعندما كان عمر دوفيريه تسعة عشر عاماً ، إنطلق من المستعمرة الفرنسية الجزائر إلي واحة الجوليا El - Goléa الــتي كان يقطنها رجال القبائل المسلمين . وبعد أن وصــل إلي هنــاك قــام

المسلمون بطرده من الواحة وهددوه بالقتل إذا عاود المجئ ، ورغم ذلــك فإنه لم يبدو عليه أية علامة تشير إلي الخوف من معاملة رجال القبائل له ، وذلك لشجاعته التي أكسبته إحترامهم في النهآية ، ومن هذه الواحة عاد إلي طرابلس .

وبعد ذلك غادر دوفيرييه طرابلس تجاه الجنوب إلي هضبة تسلين أجير Tassilin Ajjer ، وهناك تمكن من صداقة إثنين من شيوخ الأجـــير الأقوياء ، وعاش عاماً واحداً بين طوارق الأجير رغم صعوبة المعيشــة في بلادهم ،وتعلم لغتهم وكتابتها ، وأحب شعب هذه الهضبة وسجل كـــل ملاحظاته عن هؤلاء السكان .

وفي النهاية عاد دوفيرييه مرة ثانية إلي طرابلس وكـــان في ذهنــه القيام ببعثة أخرى ، يزور أثناءها طوارق الحجار ، ولكن قبل تنفيذ هذه الرحلة المزمع القيام بها عاد إلي باريس ، وهناك بدأ في كتابة مذكراتـــه ، كما بدأ في الإعداد للبعثة المرتقبة ، التي زودها بالأدوات الجديدة . ولكن بسبب معاودة مرض حمى التيفوس له توقف عن كتابة مذكراتـــه ، بـــل وتوقف أيضاً عن الإعداد للبعثة التي كان قد فكر فيها عندما كان يعيش بين قبائل الطوارق ، لذلك نسيه الناس مدة مؤقتة من الوقـــت ، كـــان خلالها غير قادر على مواصلة القيام بأي عمل كشفي جديد . لهذا عكف على كتابة كتابه المعنون بـــ : " The Tuarg of North " .

وفي عام ١٨٦٨ م قام فرناند فورلامي Fernand Foureau Lamee بعدة رحلات في داخل الصحراء الكبرى وذلك لإيجاد إتصال محدد بـــين فرنسا وهذه الصحراء ، لهذا فإنه كان يأمل في أن تقوم الحكومة الفرنسية

بإرسال بعثة رسمية ثانية تحت رعايتها ، حتى تحقق هذا الهدف القـومي كما كان هذا الرجل يعتقد .

ولم تقف الجهود الفرنسية الكشفية في الصحراء الكبرى عند هذا الحد بل إنه في يوم ٤ من شهر إبريل ١٨٨١ م جاء عدد قليل من الأفراد الفرنسيين إلي الصحراء ، ووصلوا في مسيرهم إلي واحـة الميسـيجيم في الصحراء الكبرى El - Meseggem وقد أصـابهم التعـب والإجهـاد ، فأصبحوا أنصاف أموات بسبب العطش والجوع والضـعف ، وجـرح البعض منهم جروحاً خطيرة ، وبعد أن تم شفائهم كتبوا تقريـراً علـى جانب من الأهمية عن الصحراء ، وكان هؤلاء الرحالة الفرنسـيون قـد بدأوا رحلتهم من أوارجلا Ouargla في الصحراء الكبرى في ديسمبر عام ١٨٨٠ م . وتعتبر هذه البعثة أقوي بعثة عسكرية أرسلتها فرنسا في عمق الصحراء ، فكانت تتكون من ٦٠ ضابطاً ، ٤٦ جندياً ، ٣٦ من رجال القبائل الأفريقية ، وكان الهدف من هذه البعثة القيـام بعمليـة مسـح وكشف للصحراء ولمنطقة الشمال الشرقي من جبال الحجار التي يقطنها طوارق الحجار الذين يكرهون الفرنسيين .

وكان نقص الماء بالنسبة لهذه البعثة يمثل المشكلة الكـبيرة ، وزاد من خطر هذه المشكلة كثرة عدد أفراد البعثة ودوابها ، لهذا كانت الحالة ملحة للماء وزاد الطين بلة أن رجال قبائل الطوارق كانوا يرفضون تزويد البعثة بالمياه حتى يعرضوا أرواح أفرادها للخطر كي يتمكنون من القضاء عليها بعد ذلك في سهولة ويسر .

وقد التقي عدد من رجال قبائل الطوارق بالكولونيل الفرنسي باول أكسافيه فلاتيه Colonel Paul Xavier Flatters وأخبروه أنهم سوف يأخذونه إلي بئر مياه ، لكي يحصل على إحتياجاته من المياه من هذه البئر، وبالفعل إقتنع فلاتيه بما قالوه له وذهب معهم وبصحبته بمجموعة صغيرة من رجال البعثة . وقد ترك فلاتيه من خلفه الملازم ديانوس Lieutenant Dianous الذي كان مسئولاً عن المجموعة الرئيسية للبعثة .

ولكن لما وصل فلاتيه إلي هذه البئر إنقض الطوارق عليه وعلى رجاله مستخدمين في ذلك الأسلحة النارية ، وقتلوا كل الأفراد ما عدا عدد قليل من الجمالة العرب الذين هربوا عائدين إلي المعسكر ، ولما سمع ديانوس عما حدث كان عليه مواجهة ما يطرأ من صعاب وبخاصة أثناء عودته إلي الأوارجلا Ouargla ، ومعه بقية الأفراد الأحياء الذين كان ينبغي عليهم أن يبدأوا الرحيل سيراً على الأقدام ، لأن الطوارق كانوا قد شتتوا ما تبقي من الأبل الخاصة بهذه البعثة .

وقد عاد الجميع من خلال الصحراء وهم في حالة شديدة من اليأس . ومن ناحية أخرى كان رجال الطوارق يطاردون هذه البقية الباقية من البعثة الفرنسية ، فقتلوا ديانوس ومات معظم الرجال في الطريق بسبب الجروح والعطش والجوع ، وعند نفاد الطعام لجأ هؤلاء الأفراد الذين ظلوا على قيد الحياة إلي تناول أجسام رفقائهم الموتي .

وقد أثرت كارثة بعثة فلاتيه على الروح المعنوية للفرنسيين إذا خططت حكومة فرنسا ، كي تنشئ طريقاً جديداً يمر من الصحراء،ولكن ما لبثت أن تخلت الحكومة الفرنسية عن هذه الفكرة ، لأنه كان من

الصعب عليها أن تشق طريقاً في الصحراء الكبرى لأسباب مادية وطبيعية، ولهذا ركزت إهتمامها في الشمال فأستولت على توس عـام ١٨٨٤ . وفي عام ١٨٩٥ مدت نفوذها إلي المنطقة الواقعة حول تمبكتو بما في ذلك أجزاء كثيرة مما يسمي في الوقت الحاضر بمحمية السودان الفرنسي .

ورغم كل هذه المحاولات التي قام بها الفرنسيون ، إلا أن البعض منهم لم يفقد الأمل في بسط النفوذ الفرنسي في الصحراء الكبرى . ففي عام ١٨٩٨ م سنحت الفرصة إلي فرناندفورلامي الذي رغب في المجئ إلي الصحراء الكبرى مرة ثانية ، وبخاصة بعد أن سمعت الجمعيـة الجغرافيـة الفرنسية French Geographical Society عن انجازات فورلامي فوافقت أن تقدم له العون لو كان في إمكانه القيام على رأس بعثة بهـدف كشـف الصحراء الكبرى ، وبخاصة المنطقة الواقعة بين الجزائر والسودان . وقـد إنتهز فورلامي هذه الفرصة ووافق على قيادة هذه البعثة ، وقد زود بقوة عسكرية تولي هو قيادتها ، وكانت هذه البعثة بمثابة جيش صغير ، وسلح أفراده بالبنادق والمدافع الصغيرة والمدافع الخفيفة ، وكان الهـدف مـن إرسال هذه البعثة التي يمكن تسميتها بتجريدة حربية لمهاجمة الطوارق .

وبعد ذلك إنطلقت هذه التجريدة التي كانت تسـير في شـكل طابور طويل ، واتجهت صوب الجنوب إلي الهضبة الوسطي من الصحراء وإلي جبال الحجار المخيفة . وفي هذه المنطقة إلتقـت هـذه التجريـدة بالطوارق الذين كانوا يتسلحون بالسيوف والحراب والبنادق ، لذلك لم يقم الطوارق بمهاجمة الحملة ، ولكنهم استخدموا ضدها الدهاء فرفضـوا تزويدها بالطعام والماء اللازم للجمال . عندئذ أندفع الفرنسيون من خلال

المقاطعة الواقعة بين تسلين أجير Tassilin - Ajjer وبين جبال الحجار ، وكان من نتيجة ذلك أن فقدت الحملة في أسبوع واحد مما يزيد على ١٠٠ جمل .

وفي هذا الوقت ، كان الفرنسيون قد قطعوا مسافة نصف الطريق الذي يمر عبر جبال الأير Air Mountains ، وعلى أثر ذلك ماتت كل الجمال ، وحرقت معظم الأمتعة ، ودفن مقدار كبير من الذخيرة ولكن مع ذلك ، واصل الفرنسيون مسيرهم حتى إن أغلبهم كان يرتدي زياً عبارة عن خرق ، هذا فضلاً عن أنهم كانوا في حالة شديدة من الجوع ، وبعد صراع مرير من أجل التغلب على المسير في هذا الطريق وصلوا إلي مدينة زندر Zinder ، وبذلك تكون البعثة قد قطعت المسافة الواقعة بين السودان والجزائر . ولكن رغم ذلك فإن المحاولات التي قام بها رجال الطوارق لم تنته بعد . ومن زندر تحركت البعثة تجاه الشرق إلي بحيرة تشاد ، وهناك تعرضت إلي هجوم من جانب جيش قادم من مملكة البورنو ، ولكن الفرنسيين نجحوا في تحقيق النصر على هذا الجيش في موقعة كوسوري Kousseri التي أعيدت تسميتها بفورت لامي Fort - Lamy كتذكار للميجور لامي الذي قتل في هذه المعركة . وقد وضح أن بعثة فرناند فورلامي المسلحة تسليحاً جيداً قد عبرت الصحراء ، ولكنها لم تستطع التغلب على الطوارق ، وفي نهاية التسعينات من القرن التاسع عشر ، لم يكن للفرنسيين سيطرة حقيقية على ممتلكاتهم في الصحراء أو على قبائلها ، لذلك أصر الفرنسيون على أن الجيش يكون في مقدوره إخضاع رجال القبائل ، لهذا نجد أنه في عام ١٩٠١ م تولي ضابط فرنسي

مسئولية الصحراء ، وعرف كيف يهدئ من غضب الطوارق ، ويحقق الإتصال بين الجزائر والسودان الفرنسي .

وكان هذا الضابط هو ماري جوزيف فرنسوا هنرى لابرين Marrie Joseph Francois Henri Laperrine الذي أصبح قائداً ورئيساً لواحات الصحراء الكبرى ، فكان عليه أن يتولي فقط حراسة قواعد الصحراء ، فقام بتجنيد قوة من رجال قبائل الصحراء الذين كانوا أعداء تقليديين للطوارق ، وشكلهم في ثلاث فرق كبيرة مزودة بالجمال ودربوا تدريباً جيداً ، كما زودوا بالأسلحة والمواد الغذائية . وبعد القيام بعدد من المناوشات الناجحة مع الطوارق بدأت فرق الإبل في عبور الصحراء دون خوف من أي هجوم .

وفي مايو عام ١٩٠٢ ، وقعت معركة تحطمت فيها قوة طوارق الحجار ،وعلى أثر ذلك أطلقت بعثة فرنسية النيران على رجال القبائل الذين كانوا عاقدين العزم على منع هذه البعثة من الإقتراب من واحة صالح المكان التقليدي لإلتقاء شيوخهم .

ولذلك واصل الطوارق هجومهم الفعلي على القوافل الفرنسية التي كانت تسافر من خلال مقاطعتهم . لهذا وجه الفرنسيون فرقهم المكونة من رجال قبائل الصحراء ضد طوارق الحجار ، وقد تمكنت هذه الفرق الفرنسية من هزيمة طوارق الحجار هزيمة منكرة في موقعة تيت Tite.

وكانت فرق الجمال التابعة إلي لابرين Laperrine تتكون الواحدة منها من عشرين جملاً ، وقد مهدت هذه الفرق الطريق عبر الصحراء للإستخدام ، أي أن هذا الطريق أصبح معروفاً ، بل ومنظماً ، وفي عام

١٩١٠ م ، أنشئ في الصحراء خدمة بريديـــة منتظمـــة Regular Postal Service ، حيث كان البريد يمر عبر طريق تمبكتو إلي جبال الحجـــار ، ثم يصل بعد ذلك إلي واحة صالح وإلي واحة الجولا ثم يصل بعد الأخيرة إلي الجزائر ، ولكي يجعل لإبرين الحياة تدب في الطريق الصـــحراوي أنشـــأ جمارك لتحصيل الرسوم الجمركية ، وهذا فضلاً عـــن نقلـــه للضـــباط الفرنسيين من فرق الجمال ، ووضعهم بين مجموعة من بدو الصـــحراء ، و لم يكن لهؤلاء الضباط مركز قيادة ، بل عاشوا مع جمالهم أينما توجـــد الأرض الرعوية . وفي عام ١٩٠٥ م ، عبرت جماعة صغيرة من مجموعات لابرين الصحراء أربع مرات في آخر فصول السنة دون أن تفقد رجـــلاً واحداً أو جملاً . وكان من الملاحظ في الواقع أن الهزيمة الكبرى ممكن أن تحدث في حالة عبور أفراد كثيرين للصحراء ، وفي هذه الحالـــة ســـوف يواجهون الموت دفعة واحدة ، ومن السخرية أن لابرين الذي عمل الكثير من أجل أن يضع الصحراء الكبرى تحت السيطرة الفرنسية مات هنـــاك نتيجة لحادث مؤلم .

ففي عام ١٩٢٠ م ، كان لابرين على رأس بعثة رسمية مكونة من طائرتين كي يقوم بتأسيس خط جوي عبر الصحراء إبتداء من الجزائـــر وحتى دكار ، وفي مكان بالقرب من فورت بـــيير بـــوردي Fort Pierre Bordes سقطت طائرة لابرين أثناء طيرانهـــا بســـبب نفـــاد وقودهـــا ، فأرتطمت بالأرض وتحطمت وجرح كتف الجنرال لابرين جرحاً خطيراً ، وكانت درجة الحرارة في الصحراء تزيد على ٧٠ درجـــة فهرنهيتيـــة في الوقت الذي كان لا يوجد مع طاقم الطائرة إلا قليل من الماء ، ورغـــم

ذلك نجح ثلاثة من الأحياء من الموت وظلوا على قيد الحياة لعدة أسابيع ، وكانوا جميعاً يأملون في أن شخصاً ما سوف يعثر عليهم ، وكان لابرين قد زحف بعيداً عن حطام الطائرة ومات على الرمل . وبعد عشرة أيام وجدت جماعة من فرق الجمال جسم الجنرال ومعه إثنين نصف أحياء .

وبعد ذلك ننتقل إلي الحديث عن دور المبشرين في الصحراء الكبرى ، فمن المعروف أنه لم يكن للمبشرين دور في كشف الصحراء الكبرى ، والسبب في ذلك يرجع إلي أن العقيدة الإسلامية كانت راسخة في هذه المناطق من الصحراء ، بل ووقفت هذه العقيدة الإسلامية سداً منيعاً أمام المبشرين الأوروبيين . ولكن الكاردينال لافيجري Cardinal lavigerie ، وهو أسقف كاثوليكي روماني ، رغب في تأسيس سلسلة من المراكز الدينية في واحات الصحراء الكبرى يعمل فيها الآباء البيض . وبالفعل بدأ في إرسال هذه المجموعات من المبشرين ، ولكن أغتيلت الأولي منها عام ١٨٧٦ م .

وبعد تسع سنوات مات أكثر من ثلاثة مبشرين ، ربما بسبب تعرضهم لعداوة القبائل التي رغبت في أبعاد هؤلاء البيض الذين لم يخف الباقين منهم ، ومع ذلك فلم ينجح قسيس واحداً في العيش في سلام بين قبائل الطوارق ، لذلك قرر الأب تشارلس دي فوكولد Father Charles de foucauld — الذي كان زميلاً للأبرين في الدراسة العسكرية في باريس — عدم الذهاب مع جيش الصحراء ، وفضل أن يستكشف مراكش . وهناك أصبح له اهتمام متزايد بالحياة مع رجال قبائل البدو . وأخيراً قرر تشارلس أن يعيش حياة راهب في الصحراء . فمنى لمسه دبراً

في تمانراست Tamanrasset في قلب وطن طوارق الحجار ، واستقر هناك وركز حياته في الصلاة والتدريس لرجال قبائل الصحراء ، فكان قد تعلم لغتهم فتمكن من ترجمة أشعارهم ، وألف قاموساً يضم بين صفحاته الكلمات الخاصة بلغة الطوارق ، وكانت الصعوبة التي صادفته أثناء تواجده بين قبائل الطوارق صداقته للجنود الفرنسيين الموجودين في الصحراء ، الذين كانوا مكلفين بفرض السيطرة على قبائل الطوارق .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولي شجع الأتراك رجال القبائل من الطوارق على الإنضمام إلي الحرب المقدسة ضد المراكز الفرنسية الموجودة في الصحراء . ورغم ذلك فإن دير فوكولد الواقع في تمانراست يبدو أنه كان قد تعرض للهجوم في أحد الأمسيات حيث أطلق الرصاص على الأب دي فوكولد فسقط قتيلاً ، لذلك حزنت أوروبا على وفاته كمبشر.

ويشير إغتيال تشارلس دي فوكولد على نهاية عهد كشوف الصحراء . ومن المعروف كذلك أن الحرب العالمية الأولي كانت قد جلبت معها عصر السيارة والطائرة إلي الصحراء ، بل والآلات التي كان في إمكانها غزو الصحراء والتي أنذرت باختفاء قوافل الإبل . ومن المعروف أن الجنرال لابرين ، كان قد راح ضحية رحلة الطيران التي حدثت عام ١٩٢٠ م وكانت هذه الرحلة تتكون من طائرتين سقطت الأولي على الأرض وتحطمت ، بينما واصلت الطائرة الثانية التي كان يقودها الميجور فيوليمن A Major Vuillemin ، الذي نجح في إكمال الرحلة .

وكان موت لابرين ، قد حجب الرؤية عن أهمية نجاح الميحـور فيوليمن لعبوره الصحراء ، ولكن مع ذلك فإن عبور فيوليمن للصـحراء الكبرى يعد النصر الأول لعصر الآلة في شمال أفريقيا .

وبعد ذلك بسنتين حدث العبور الأول للصحراء الكبرى بالسيارة فقد تتبعت مجموعة السترون الفرنسية French Citron السير في الصـحراء الكبرى مستخدمة في ذلك العربات ، فكانت هذه المجموعة قد غـادرت ساحل البحر المتوسط في شهر ديسمبر عام ١٩٢٢ ، ووصلت إلي مدينة تمبكتو بعد شهر من بدء الرحلة . مع أن الأسكندر لينج كان قد قطـع هذه المسافة في أحد عشر شهراً ، كما أنه لم يكن في إمكان قافلة مـن الإبل السريعة أن تنجح في قطع نفس هذه المسافة في أقل من ستة أشهر . قد أقنع نجاح بعثة السترون الفرنسية الفرنسيين على أنهم في الواقـع قـد غزوا الصحراء .

ويمكن القول أنه في ذلك الوقت قد تم كشف الصحراء الكـبرى بصفة نهائية ، ومع ذلك فلم تعد مسألة التغلب على مصـاعب المنـاخ والتضاريس الأرضية مسألة سهلة . ولكن التاريخ الساحر للصـحراء ، جعل الأجيال التالية تشغل نفسها بالقيام بالمغامرات ، ففي عـام ١٩٣٣ إكتشف ضابط فرنسي يدعي بريتان Brenans نقوشاً لهياكـل إنسـانية ولحيوانات مرسومة على حوائط مدخل حصن صخرى في تسالين أجير . كما وجد نفس هذا الضابط أسفل حوائط الحصن صخوراً ملونة ، كانت تمثل أعمالاً فنية مدهشة ، وقد فحصت هذه النقوش فيما بعـد بمعرفـة العلماء ، وكانت هذه النقوش تكون جزءاً من ثقافة الصحراء في فترة ما

قبل التاريخ . وتوضح هذه الصخور الملونة الأجناس المختلفة من الناس الذين كانوا يعيشون في الصحراء ، كما توضح أيضاً الأنواع المختلفة للحيوانات التي كانت تتجول هنا وهناك . وتمثلت أهمية هذه الأشياء في التلوين ، فقد وجدت صور للفيلة ، وهي تملأ خراطيمها بالمياه ، كما وجدت صور للخراتيت وأفراس النهر ، ولكل الحيوانات التي تعيش في المناطق الإستوائية أكثر من معيشتها في الصحراء . وقد تفحص الأثريون العصور التاريخية للصحراء ، واتخذوا من الكهف الملون الدليل على تأييد نظريتهم التي يرجع تاريخها إلي حوالي ٤٠,٠٠٠ سنة قبل الميلاد . فقد كانت الصحراء الكبرى منطقة إستوائية يوجد بها الأنهار والبحيرات والمستنقعات .

وإلي جانب هذا الإستقصاء التاريخي للفنون التي وجدت في الصحراء فقد وجد فيها كشف هام وحيوى . ففي الخمسينات من القرن العشرين كان العلماء قد تنبأوا بوجود رواسب بترولية كبيرة ، كما تنبأوا بوجود الغاز والمعادن ، والدليل على ذلك أن شركات البترول من الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا قد بدأت التنقيب عن البترول قبل إندلاع الحرب العالمية الثانية ، ففي خلال عامي ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ وجدت حقول بترولية كبيرة في الصحراء ، فقد أصبحت هذه الصحراء واحدة من مناطق إنتاج البترول الرئيسية في العالم .

وكانت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية فترة تغيير سياسي ، فمنذ عام ١٩٢٢ ظل جزء كبير من الصحراء تحت السيطرة الفرنسية .

ولكن في الخمسينات من القرن العشرين تغيرت أفريقيا من قـارة مستعمرات محكومة من الأوروبيين إلي قارة مستقلة الأقطار . فمنذ عـام ١٩٥٦ ، إستقلت تونس وحصلت الجزائر على استقلالها عـام ١٩٦٢ ، بعد حرب طويلة ومريرة .

وكان لشجاعة وتصميم المستكشفين الأوائل لأفريقيـا مواهـب غزيرة ساعدهم في مواجهة غزو بحار الرمال الكـبيرة ، ولكـن هـل إستكشاف المناطق المجهولة والغامضة سيستمر ولو بطرق أخرى ؟ نعـم سوف يستمر الكشف في الصحراء بحثاً عـن مواردهـا ، فالـصحراء بمساحتها الشاسعة تخفي موارد ضخمة هي في حاجة إلي جهـد كـبير ومتطور ، فهي في الوقت الحاضر تحتاج إلي رجال أعمـال وسياسـيين وعلماء وفنيين ومهندسين ، فهم جميعاً سوف يستنبطون المشاريع الخاصة بتنمية هذه المنطقة الغنية ، وسوف تخضع إنجازاتهم إلي أسـرار العـصر العلمي التكنولوجي [١] .

---

[١] The Encyclopedia of discovery and Exploration . Exploring Africa and Asia . Garden City New York . 1973 . pp . 457 . 59 . 61 . 63 . 69 . 71 . 74 . 76 . 80 .

الفصــــل السابع

البعثات الكشفية في جنوب وشرق أفريقيا

الفصل السابع

البعثات الكشفية في جنوب وشرق أفريقيا

في خلال مائة وعشرين عاماً ، أي منذ أن أنطلق جيمس بـــروس عام ١٧٦٨ م ، وحتى عام ١٨٨٨ م ، أصبح شـــرق ووســـط أفريقيـــا معروفاً للعالم الخارجي . ففي وقت واحد ، تم اختراق الجانب الشـــرقي من القارة الأفريقية من نقاط كثيرة . فقد بدأ بعض الرواد من الأوروبيين توغلهم في القارة من جهة الشمال صاعدين مع وادي النيل ، وبدأ البعض الآخر يتقدم من موانئ البحر الأحمر مارين من خلال أرض الصـــومال ، وأندفع البعض الآخر كذلك من جزيرة زنجبار الواقعة على مسافة بعيـــدة من الساحل إلي الداخل ، متخذين طريقهم نحو البحيرات العظمي الواقعة في وسط أفريقيا ، ووصل البعض من هؤلاء الرحالة إلي نفـــس المنطقـــة قادمين من الجنوب .

وقبل أن نواصل سرد قصة الكشوف الرئيسية في هذه المنطقة فإنه من الضروري إلقاء نظرة على اكتشاف الجزء الجنوبي من القارة ، فقـــد أعقب نهاية المستوطنات البرتغالية الساحلية في القرن السادس عشر ، بمجئ الهولنديين في نهاية القرن السابع عشر إلي الرأس (رأس الرجاء الصالح) ، وترتب على وصولهم إلي هذه المنطقة أن تشتت السكان الوطنيين في هذه المنطقة ، وكان عدد من هؤلاء الـــوطنيين مـــن البـــوشمن Bushmen ، والهوتنتوت Hottentots ، وهم شعوب غير محبين للحرب . فقد هـــرب البوشمن إلي المناطق الصحراوية ، بينما أخذ الهولنديون الغالبية العظمي من

قبائل الهوتنتوت كعبيد ، ومنعت شركة الهند الشرقية الهولندية المستوطنين الأوروبيين من إقامة المستوطنات لمدة من الوقت ، وظل السكان الأوروبيين الذين يقطنون منطقة الرأس يعيشون في أعداد صغيرة ومع ذلك، فقد كانت الشركة عاجزة عن منع الأفراد المستوطنين من النفاذ إلي مسافات بعيدة في الداخل . وهناك تصادم المستوطنون مع أفراد القبائل الذين يتحدثون لغة البانتو ، والذين كانوا ينتشرون من أواسط أفريقيا في اتجاه الجنوب بحثاً عن أراضي جديدة للمرعي ، وكان البعض من هذه القبائل هادئ الطبع ومسالم ، وكان البعض الآخر منهم يتميزون بالقسوة والميل للحرب ، بحيث أنهم كانوا يفترسون القبائل الأضعف منهم ، كما كانوا يصطدمون بالمستوطنين الأوروبيين .

واستمرت الكشوف رغم وجود هذه الصعوبات ، وفي نهاية القرن الثامن عشر ، أصبح هذا القطر ونهر الأورانج ، وبعض المناطق فيما وراء منطقة جنوب غرب أفريقيا معروفة تماماً .

وكانت الحروب النابليونية قد انفجرت عام ١٧٩٨ م في أوروبا ، ونتيجة لذلك فقد إحتلت بريطانيا منطقة الرأس ، كي تحمي الطريق البحري إلي الهند ، وقد نصت على ذلك أيضاً معاهدة السلام التي عقدت عام ١٨١٤ م . أستاء البوير (Afrikanners) الذين ينحدرون من المستوطنين الأصليين والذين ينتمون في الأصل إلي الهولنديين من التدخل البريطاني وسيطرته ، ولذلك بدأ الكثيرون منهم في الرحيل بعيداً . وكان التاريخ التالي لجنوب أفريقيا يمثل الصراع الذي نشب بين بريطانيا والبوير

من ناحية ، وبين إثنين من الغزاة ، أحدهما أوروبي والثاني من البانتو الذين زحفوا من الإتجاه المعاكس .

وفي عام ١٨٣٣ . وصل التحرش أقصي درجة بين بريطانيا والبوير ، ففي هذا العام صدر قانون بريطاني يقضي بإلغاء تجارة الرقيق . كما يقضي بإطلاق سراح كل العبيد الذين يعيشون في الإمبراطورية البريطانية ، بما في ذلك مستعمرة الرأس ، ومن أجل ذلك فقد رصدت بريطانيا مبلغ عشرين مليوناً من الجنيهات كهدية مطلقة وكتعويض لأصحاب الرقيق في مقابل خسارهم . وتعتبر قيمة هذا المبلغ الذي قدم أكبر كثيراً عما تساويه قيمته في الوقت الحاضر ، وبالطبع فقد منح البوير تعويضاً بسبب فقدهم لعبيدهم ، وكان على ملاك العبيد أن يتسلموا تعويضاهم من لندن ، وحيث أنهم كانوا لا يستطيعون ذلك فقد مرت التعويضات من خلال عملاء يتميزون بالجشع والإستهتار . وهكذا فإن التعويض عندما كان يصل إلي أصحاب العبيد كان في الغالب ضئيلاً جداً، وأجبر العبيد المحررين على العمل لدى أصحابهم السابقين كصبية وتحت التمرين لمدة خمس سنوات ، لذلك إستمر بعضهم في عمله بصفة دائمة ، ولكن الكثير منهم لم يكن مرغوباً فيه من قبل أسيادهم الذين رفضوا دفع أجورهم ، وببساطة تركهم أسيادهم ومصيرهم .

وكان عتق الرقيق من أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت أعداداً كبيرة من البوير تغادر منطقة الرأس في أكبر حركة للهجرة عام ١٨٣٦ . فقد حاربوا معارك يائسة مع الزولو Zulu ، ومع قبائل أخرى محبة للحرب ، ولكن في خلال سنوات قليلة فإنهم إحتلوا مناطق شاسعة من

الأرض إمتدت صوب الشمال إلي مسافات بعيـدة حتى نهـر لمبوبـو Limpopo River . وفي عام ١٨٥٢ م ، أسسوا مدينة الترنسفال ، وبعـد سنتين أسسوا دولة الأورانج الحرة .

وقد أكتشفت التخوم الأولية لهذه المنطقـة الضخمة بمعرفـة المكتشف الكبير والمبشر دافيد لنفحستون David Livingstone ، الذي ولد عام ١٨١٣ م ، في أسكتلندا من أبوين فقيرين ، ولكنهما كانا متدينيين ، وقد بدأ دافيد لفنجستون حياته بالعمل في مصنع للقطن ، عندما كـان عمره عشر سنوات ، وفي أثناء ذلك كان يمارس دراساته في مدرسة ليلية بعد الإنتهاء من عمله اليومي ، وكان يطمع في أن يصبح طبيباً ومبشراً ، وفي سن الثالثة والعشرين كان لفنجستون قد أدخر نقوداً كافية كي يدفع مصاريفه fees في المدرسة الطبية .

وبناء على نصيحة مبشر مشهور هو الدكتور روبـرت موفـات Dr . Robert Moffat الذي عمل لسنوات عديدة لحساب جمعيـة لنـدن التبشرية في جنوب أفريقيا ، إختار أيضاً لفنجستون أفريقيـا كمجـال لاكتشافه ، وقد استجاب لفنجستون بحماس لاقتراح الرجل المسن بـأن عليه أن يعمل من أجل أفريقيا إذا كان مستعدا لمغـادرة الأرض المحتلـة (جنوب أفريقيا) بحيث يتجه نحو الشمال .

وقد وصل دافيد لفنجستون إلي جنوب أفريقيا عـام ١٨٤١ م ، وكان عمره آنذاك ثمانية وعشرين عاماً ، وكان قوي البنية ، متـأني في حركته ، وبطئ في حديثه ، وذو أسلوب هادئ وواضح ، ولديه شـعور قوي نحو واجبه . وقد بدأ رحلته من مدينة كيـب تـاون Cape Town

متجهاً صوب الشمال ، وقد قطع في رحلته ما يزيد على مسافة ٥٠٠ ميل ،وكان يركب أثنائها عربة يجرها ثور ، وكان يتخذ طريقه صوب مستعمرة بعثة الدكتور روبرت موفات الموجوودة في كورمان Kuruman. وهناك بدأ لفنجستون على الفور في دراسة لغة السيشونا Schuana ، واللغات الأفريقية الأخرى ، وتعلم كل ما استطاع تعلمه من تاريخ ، وتقاليد الشعب الذي سوف يعيش بينه ، وهناك قابل ماري إبنة الدكتور موفات التي تزوجها لفنجستون بعد ذلك ، والتي لم تكن خيالية بقدر ما كانت سيدة واقعية ، وكانت بدينة وذات شعر أسود ، ولكنها قوية ، ويقول لفنجستون هذه هي كل الصفات التي كنت أريدها ، وكانت ماري روبرت موفات زوجة مثالية لرجل إعتقد في أن يكون رائداً لبعثة تبشرية لها تأثير أكثر من تأثير رجل يذهب هنا وهناك واضعاً الإنجيل تحت ذراعيه . ولم يوجد هناك صعوبة تقف أمام ماري نفسها ، فكانت تواجه المصاعب وتقف إلي جوار زوجها ، بحيث عملت معه سنوات عدة إضطرت خلالها أن تجبر على البعد عن زوجها دون أية شكوى . وعندما فكر زوجها في أنه من الأفضل إصطحابها وأطفالها الثلاثة عبر صحراء كالاهاري المرعبة ، وافقت ماري دون أدني تردد .

وفي غضون سنتين من وصول لفنجستون إلي مابوتسا Mabotsa قام ، ببناء مقر خاص لبعثته فيها ، وتقع مابوتسا على مسافة ٢٠٠ ميل في الشمال الشرقي من كورمان . وفي مابوتسا كاد لفنجستون أن يفقد حياته بسبب تعرضه لأسد ، ويقول في ذلك ما نصه : " بدون فخر أن هذا الأسد الذي يتناول لحم الإنسان ويفزع أهل القرى ، قد أمسكني من

أحد أكتافي ، فأندفعنا سوياً إلي أسفل وبزمجرة مرعبة هزني الأسد ، كما لو كنت فأراً بين مخالب كلب مرعب ، وقد تسبب ذلك في نوع من الرعب بحيث لم يكن هناك إحساس بالألم ، أو شعور بالخوف ، مع أنني كنت مدركاً لكل الذي يحدث ، وقد قتل رجل أفريقي مسلح بحربة هذا الأسد الذي جرحني " وكان هذا الأسد قد أذي لفنجستون بدرجة كبيرة حيث أن جروحه كانت تلتئم ببطء ، حتى أنه ظل بقية حياته لا يستطيع تحريك ذراعه الأيسر وكتفه دون شعوره بألم حاد . وعندما سئول لنفنجستون عن إنطباعه عن هذه الحادثة ، أبدي ملاحظة مختصرة جاء فيها ما نصه :

" كان كل ما يهمني أو يدهشني هو من أي جزء سوف يبدأ الأسد في التهامي أولاً " .

ومع ذلك فقد كانت غرائز الريادة قوية لدي لفنجستون ، بحيث سمحت له بالبقاء في مكان واحد مدة طويلة ولكن بعد أربع سنوات من بقائه في مابوتسا ، إندفع في اتجاه الشمال ، وأسس بنفسه مقراً لبعثته في كوبولونج Kobolong ، الواقعة على الحافة الشرقية لصحراء كالاهاري Kalahari . وهناك مكث خمس سنوات وتعتبر هذه الفترة هي الفترة الحقيقية فقط للحياة العائلية التي تمتع بها هو وزوجته . وبعد ذلك انضم لفنجستون إلي صيادين أوربيين عظيمين ، وعبر الجميع صحراء مقفرة وموحشة ، وأصبحوا بذلك هم الرجال البيض الأول الذين تقع أعينهم على بحيرة نجامي Nagami ، الواقعة على مسافة ٨٧٠ ميلاً من شمال كورمان . وبعد سنتين عبر لفنجستون مرة ثانية الصحراء ، وكان يأمل

في إيجاد موقع مناسب بالقرب من البحيرة كي يؤسس فيه محطة لبعثتـــه . وقد صحبته زوجته وأطفاله الذين كادوا يموتون جميعاً من العطش .

وفي ذاك الوقت ، إقتنع لفنجستون بفكرة كشف مجــري مــائي كبير، تسير فيه المراكب من داخل أفريقيا إلي البحر (المحيط الأطلســي) ويجلب هذا المجرى المائي المبشرين والتجار من الساحل (إلي الداخل) ، ولكن إذا كان للمسيحية أن تنتشر وتزدهر في داخل القارة الأفريقيــة ، فإنه عليه أولاً إيجاد المناخ الصحى ، لكي ينشئ مركزاً جديداً للبعثــة ، ولكن خاب أمله لأنه وجد منطقة بحيرة نجامي Ngami منطقة غير صحية حيث تنتشر فيها الحمي ، وعلى أثر ذلك فقد اندفع لنفجستون مســافة بعيدة فيما وراء البحيرة ، فوصل إلي شاطئ نهر رائع ، هو نهر الزمبيــزى Zambizi River ، وتمثل هذه المنطقة قلب أفريقيا ، وكان الرجال البــيض غير معروفين فيها .

وكان لنفجستون قد وصل إلي نهر الزمبيزى عن طريق لينيــانتي Linyanti موطن الماكولولو Makololo الذي أعجب بهم عن بقيــة قبائــل البانتو الأخرى ، حيث كان له بعض التأثير عليهم ، وفي هــذا الصــدد يقول رؤساء القبائل من الماكولولو ما نصه : " نحن نحبك كما لو كنــت قد ولدت بيننا " وأضافوا في قولهم " أنت الرجل الأبيض الوحيد ، الذي أصبحنا نتعامل معه بطريقة عادية ، لذلك فإننا نرغب في أن تتخلي عــن الوعظ الدائم وعن الصلاة ، فأنت ترى أننا لم نحصل أبداً على مطر بينما القبائل التي لا تصلي أبداً مثلنا يحصلون على المطر بــوفرة ، وكــان رد

لفنجستون على أصدقائه من قبائل الماكولولو هو درس في كيفية استخدام مياه النهر في ري أراضيهم " .

وفي أثناء رحلته شاهد دليل مؤلم على التدمير الذي تسببت فيه تجارة الرقيق التي يقوم بها العرب ، وكذلك تسببت فيه التجارة التي تتم بين القبائل بعضها البعض .

وكان العرب يندفعون إلي أقصي أعماق القارة ، وبذلك كانوا يخربون ويدمرون مناطق شاسعة من هذا القطر . وقد مزق السخط والشفقة لفنجستون بسبب هؤلاء العبيد التعساء ، وقد أخذ على عاتقه أن يظهر هذا الجرح المفتوح على العالم ، واعتقد لنفجستون أن هذا يمكن حله فقط بواسطة فتح هذا الوطن للمسيحية وللتجارة الشرعية ولتحقيق هذا الهدف قرر لفنجستون القيام بعمل بحث يتطلب منه عبور القارة حتى يصل إلي الساحل الغربي ، وفي عام ١٨٥٢ ، أخذ لفنجستون أسرته إلي مدينة كيب تاون ، ومنها أرسلها إلي إنجلترا . وبعد ذلك بدأ رحلته إلي لينيانتي في اتجاه الشمال وهناك جند سبعة وعشرين حمالاً من شعب الماكولولو . وفي نوفمبر من عام ١٨٥٣ ، بدأ لفنجستون رحلته هابطاً مع نهر الشوب . Chobe . R ، ومن بعده وصل إلي نهر الزمبيزى ، ثم اتجه بعد ذلك صوب الغرب ، حتى وصل إلي لواندا الميناء البرتغالي ، وقد استغرقت هذه الرحلة ، سبعة شهور من السفر استعملت القوارب في الجزء الأصغر منها ، بينما الجزء الأكبر من هذه الرحلة فقد قطع سيراً على الأقدام . وفي النهاية وصل لفنجستون إلي لواندا Loanda الميناء البرتغالي ، وقد بلغ طول هذه المسافة التي قطعها لفنجستون ١٥٠٠ ميل .

وكان من نتيجة ذلك أن أصبح لفنجستون ضعيفاً بسبب تعرضه لنوبات الحمى المتكررة ، وقد تغلب لفنجستون على مخاطر عداء القبائل التي يمر من خلال أرضها ، بسبب صداقته لقبائل الماكولولو المخلصة له ، فتخلص بذلك من مخاطر الرحلة .

وفي لواندا ، كان في إمكان لفنجستون الإبحار إلي انجلترا على متن سفينة بريطانية ، ولكنه رفض السفر ، وكان الهدف من هذا الرفض أن يعبر أفريقيا من الغرب إلي الشرق ، كي يطمئن على أن أتباعه من الماكولولو قد وصلوا إلي وطنهم بسلام ، واستغرقت رحلة العودة إلي لينيانتي عاماً واحداً ، ولكن بعد أن مكث فيها أسابيع قليلة للراحة إنطلق إلي الساحل الشرقي ، بعد قيامه برحلة قصيرة هابطاً مع نهر الزمبيزى وتمكن أثناءها من مشاهدة بعض الشلالات الكبيرة ، ويبلغ عرض النهر عند هذه النقطة ميلاً واحداً تقريباً ، بحيث اختفي تلاطم المياه في مجرى ضيق يبلغ عمقه مئات الأقدام . ولهذا السبب فإن النهر في هذه المنطقة كان مضطرباً وهائجاً ، بحيث كان يسير في مجرى عميق لمسافة عدة أميال، تاركاً أعمدة من البخار ، وسمي الماكولولو هذه الشلالات " بشلالات دخان الرعد " .

ويعتبر لفنجستون الرجل الأبيض الأول الذي رأي هذه الشلالات، وسماها شلالات فيكتوريا نسبة إلي الملكة فيكتوريا وتخليداً لذكراها .

ولمدة من الوقت تتبع لفنجستون مجرى النهر ، وكان يأمل من وراء ذلك أن يجد هذا النهر صالحاً للملاحة ابتداء من الشلالات ، وحتى

الساحل الشرقي ، وهكذا فقد اقترب لفنجستون بسهولة من الداخل .
وبعد أن ابتعد عن مجرى النهر اصطدم عندئذ بالشمال الشرقي ، وفشل في البحث عن مكان بالقرب من الحواف الصحية وذلك لإنشاء مراكز للبعثة ، عندئذ عاد مرة ثانية إلي الساحل ووصل إلي تيت Tete وهي المستعمرة البرتغالية التي تقع على مسافة ٢٥٠ ميلاً في الداخل .

وبعد أن اتفق لفنجستون مع أتباعه من الماكولولو أن ينتظروا عودته من انجلترا أبحر هابطاً مع النهر إلي ميناء كويلمن Quilimane البحرى ، الذي يوجد في النهاية الشمالية لدلتا نهر الزمبيزى .

ويعتبر مرور لفنجستون لأفريقيا واحداً من أعظم الإنجازات في تاريخ الكشوف فقد قطع لفنجستون مسافة طولها ٦٠٠٠ ميل . وقد أبدي ملاحظات على هذه الرحلة التي استمرت حوالي أربع سنوات ، وكانت هذه الملاحظات دقيقة بحيث أنه في السنوات التالية استطاع الفلكي الملكي Astronmer Royal أن يكتب ما نصه :

" كل ما فعله الرجل (لفنجستون) لم يسبق له مثيل ، فهل يمكنك الذهاب إلي أي منطقة عبر هذه القارة على طول طريق لفَنجستون، وتحدد موقفك ، وتدون الملاحظات . وتعتبر ملاحظات لفنجستون أدق ملاحظات قرأتها " .

وأبحر لفنجستون من كويلمان Quilimane إلي أرض الوطن ، وكان شغوفاً لرؤية زوجته وأطفاله مرة ثانية ، لأنه كان قد غادر انجلترا منذ خمسة عشر عاماً مضت ، فكان قد رحل منها مغامراً وعاد إليها ليجد نفسه بطلاً قومياً ، ومع ذلك فلم يغيره النجاح الذي حققه . وبعد

ثمانية عشر شهراً من التبجيل ، كتب لسير رودريك مارشيرون Sir Roderick Marchison رئيس الجمعية الجغرافية الملكية يقول ما نصه : " بعد كل مظاهر التشريف التي أضفتها عليه الجامعات والمدن ، فإنه لا يزال الرجل الأمين الوفي دافيد لفنجستون ، بعد عودته من أحراش أفريقيا" .

وخلال هذه الفترة التي قضاها دافيد لفنجستون في أرض الوطن ، كتب أول كتاب من كتبه الثلاثة ، وهو بعنوان Missionary travels الرحلات التبشيرية ، وبالمثل كان الكتاب الثاني من الكتابين الآخرين بعنوان الزمبيزى وروافده The Zambesi and its tributaries ، وكان الثالث بعنوان last journal الذي نشر بعد وفاته ، وقد أدمج ، مع معلومات جغرافية علمية قيمة ، وقد وصف لفنجستون بجدية في هذه الكتب أفريقيا وشعبها الذي أحبه كثيراً .

وقبل ن يرحل إلي أفريقيا للمرة الثانية عام ١٨٥٨ م ، كان لديه حماس في ترغيب المبشرين من الشباب كي يلحقوا به في محاولته فتح طريق للتجارة ونشر المسيحية . وقد عاد لفنجستون هذه المرة إلي أفريقيا، وهو تحت رعاية الحكومة البريطانية كقنصل لبريطانيا في بلدة كويلمن ، وزود بالتعليمات الخاصة بكشف وادي الزمبيزي والوقوف على إمكانيات إستعماله كطريق عام . وفي هذا الوقت أحضر بصحبته مساعدين أوروبيين كان من بينهم شقيقه ، وطبيب شاب ، وعالم في علم النبات ، يدعي جون كيرك John Kirk ، الذي لعب فيما بعد دوراً حيوياً في القضاء على تجارة الرقيق ، التي كان يقوم بها العرب وبعبارته :

Abotanist named john Kirk who was later to play a vital part in the suppression of the Arab slave trade .

وقد استغرقت بعثة الزمبيزي خمس سنوات تعرض لفنجستون خلالها لأقصي المتاعب ، وعلى الرغم من ذلك كانت البعثة تبدو ظاهرياً على أنها تسير سيراً طبيعياً . وفي تيت Tete أعد لفنجستون مقراً لبعثته ، وكتب أحد مساعديه يقول ما نصه : " أستقبل لفنجستون بحفاوة تذهل العقل من جانب أتباعه من شعب الماكولولو ، حيث اندفع الرجال منهم بحماس شديد في الماء وغاصت أجسامهم حتى الأعناق ، كي يروا أباهم الأبيض ، ومسكوا بمركب لفنجستون حتى كادوا أن يقلبوه ، وحملوا الدكتور لفنجستون إلي الشاطئ وهم يرددون الأغاني طوال الوقت لأن والدهم (لفنجستون) لا يزال عائشاً لهم للمرة الثانية " . وفي أثناء هذه الرحلة حفظ لفنجستون وعده بترك أفراد الماكولولو ، كي يعودوا إلي قبيلتهم . مع أنه جاءت لحظات رغب فيها بشدة ، الإبقاء عليهم معه لو كان ذلك ممكناً .

وعلى الفور بدأت متاعب لفنجستون ، فقد كان البرتغاليون الرسميون أول الأمر أصدقاء له ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى أن كثيراً منهم بسبب الربح إنغمس في تجارة الرقيق ، وعندما تحقق من ذلك لام البرتغاليين بلهجة عنيفة . كما تحدث أيضاً مع مساعديه الذين طلب منهم الطاعة العمياء وأن يكون لديهم قوة احتمال وعدم اكتراث بالمرض وأن يكونوا أقوياء ومن سوء حظ بعثة لفنجستون أن نشب صراع بين أفرادها. وفي أغلب الظن كان هذا الصراع ينشب بين القائد (لفنجستون) وأتباعه ، وكان أخوه المحرك الرئيسي لهذه الصراعات . وكان كيرك من

بين أفراد البعثة ، الذي يشبه لفنجستون في صفاته . وعلى الرغم من إخلاصه إلي الرجل الذي يكبره سناً (لفنجستون) إلا أنه كان مدركاً لفشله . وكلن كيرك يدرك تماماً أن السبب في ذلك يرجع إلي سنوات العزلة والوحدة التي كانت قد ألقت بثقلها على مزاج لفنجستون ، هذا فضلاً عن ضعف قوته ، فالدكتور الذي كان سعيداً ومتساهلاً مع كل الأفارقة أصبح في ذلك الوقت عنيفاً ، عديم الصبر ، مع الأوروبيين ، وكان في بعض الأحيان مهموماً وشارد الفكر ، ويرجع السبب في حزنه إلي موت زوجته التي ماتت بمرض الحمى عام ١٨٦٢م وكانت زوجته من ضمن أفراد البعثة ، وكان موتها بمثابة كارثة بالنسبة للفنجستون ، بل وكان ضربة قاصمة لكل أفراد البعثة لأن رجاحة عقلها وتأثيرها كانا يلطفان من الإختلافات التي تحدث فيما بينهم . .

وتراكمت أحزان لفنجستون بعد زوجته ، فقد خاب أمله عندما اكتشف أن نهر الزمبيزي غير صالح للملاحة لمسافات طويلة . لذلك لا يمكن استخدامه كطريق عام يوصل لداخل القارة . ولكن على الرغم من ذلك فقد حققت البعثة نتائج ضخمة ، كان منها أن كل من لفنجستون وكيرك كانا أول أوروبيين تطأ أقدامهما منطقة نيسالاند (التي تعرف في الوقت الحاضر بملاوي Malawi) ، ومن النتائج أيضاً أنه اكتشف بحيرة شيروا Shirwa ، وبحيرة نياسا Nyassa ، التي تعتبر واحدة من أكبر البحيرات الداخلية في أفريقيا ، واكتشف كذلك أراضي جيدة مرتفعة وممتدة لمسافات طويلة ، وهي تتمثل في أراضي الشير Shire High lands ،

واقتنع لفنجستون بجودة هذه الأرض وبخاصة إذا استخدمت في زراعة القطن ، الذي سوف يقلل من تجارة الرقيق .

وفي كل مكان ذهب إليه كل من لفنجستون وكيرك كانا يشاهدان أقصي الغارات التي يتعرض لها العبيد . وبالقرب من بحيرة نياسا وجدا الآلاف من الأفريقيين المشردين من الجوع الذين كانوا قد هربوا أمام القبائل القوية التي كانت تقوم بأسرهم ، وبيعهم إلي تجار الرقيق العرب . وكان يشحن من ميناء زنجبار سنوياً مالا يقل عن ١٩,٠٠٠ عبد ، كانوا يجلبون من منطقة نياسا ثم يتجهون بعد ذلك عبر المحيط الهندي إلي أسواق الرقيق في العالم ، وقدر لفنجستون أن العشر فقط من هؤلاء العبيد المأسورين كانوا يصلون إلي الساحل الشرقي أحياء ، وكانت شواطئ البحيرة مغطاة بعظام الموتي . وقد تضمن كتاب لفنجستون ، المعنون بـ الزمبيزي وفروعه The Zambezi and its tributaries تحليلاً خطيراً عن تجارة الرقيق ، لذلك أوصت جمعية منتخبة من مجلس العموم البريطاني بأنه مهما كانت التكلفة فإنه من الضروري ضم زنجبار والأرض الرئيسية المجاورة لها إلي بريطانيا ، كما يجب إلغاء الإسترقاق في شرق أفريقيا .

ولم يكن لنفجستون بالطبع الرجل الوحيد الذي دعا لتأسيس مراكز أو محطات مسيحية في أفريقيا . ففي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، بدأ البوير في الرحيل من جنوب أفريقيا إلي مسافات بعيدة (صوب الشمال) بسبب التدخل البريطاني ، واندفع المبشرون في

طريقهم نحو الداخل ، ولم يكن هدفهم الأول هو الكشف بـل التبشـير فكان يوجد من بينهم بعض المبشرين المشهورين .

وقد كشفت قصة شرق أفريقيا عن الرحلات التي قام بها إثنان من الألمان الشجعان ، هما جون كـراف John Ludwig Krapf ، وجوهـان ربمان Johann Rebman . وكان كراف إبنا لفلاح ، فقد ولد في ويرتمبرج Wurttemberg عام ١٨١٠ م ، وكان طفلاً مدللاً عصبي المزاج، وكـثير التأمل ومجد ، وقد كرث معظم وقته في قراءة الأنجيل . وقد زاد إهتمامه بعد أن قرأ رحلات (جيمس بروس) الكشفية لمنابع النيل . وتسـاءل بالقول هل يوجد هناك صحراء شاسعة لم تطأها أية قدماً أوروبية؟ .

واستغرق في التفكير عندما كان يتفحص خريطة أفريقيا الشرقية ، وكان لا يزال يتأمل هذه الحقيقة المدهشة في الوقت الذي كان يستمع فيه إلي محاضرة في مدرسته عن الأعمال التي تقوم بها البعثات التبشيرية فيمـا وراء البحار ، وفي لحظة عرف كراف الشاب ماذا يريد أن يفعل : أنـه سوف يكون رجلاً من رجال التبشير ، فسوف يبشر بالإنجيل في الحبشة حيث كان بروس يفعل ذلك من قبل . وقد ترك المدرسة ليمارس دراسته في كلية التبشير ببازل ، وبعد ذلك كان عليه أن يلتحق بفرع الجمعيـة التبشيرية الكنيسية في عدوه في شمال الحبشة ، وبعد أن أمضي مدة قصيرة في عدوه رحل إلي أقصي الجنوب ليبشر بالمسيحية بين القبائل الوثنيـة في شوا Shoa ،فقد سافر كثيراً إلي موطن قبائل الجالا Galla ، واعتقد خطـأً أنهم يشغلون جزءاً كبيراً من وسط أفريقيا ، وأن بعثته التي سترسل إليهم سوف تكون على درجة كبيرة من الأهمية ، وقد تلاحظ أن قبائل الجالا

كانوا متغطرسين وأذكياء وأقوياء البنية وفرسان مهرة حتى أن النساء كن يجرين بجوار أو خلف أزواجهن وكتب يقول ما نصه : " لقد ساد الإعتقاد فيما بينهم بأن سير الرجل بجوار المرأة عيباً مهيناً " .

وقاد كراف بعثته بجد ونشاط ولكن الشيوخ المحليون ناصبوه العداء . وفي عام ١٨٤٣ م طرد من الوطن ، وغادر أثيوبيا وكان برفقته زوجته الفتاة الألمانية ، التي كان كراف قد تزوجها في العام السابق ، وكان قد زود بتعليمات تقضي بالذهاب إلي زنزبار ، ومن هناك كان عليه أن يقوم بالبحث والوصول إلي الأرض الرئيسية التي يمكن اتخاذها كمركز للبعثة . وفي الطريق وضعت زوجته طفلة ، ماتت أثناء الرحلة .

واستقبل كراف وأسرته بالحفاوة من جانب جالية أوروبية صغيرة كات تعيش في زنزبار ، وذهب كراف لمقابلة السلطان (سلطان زنجبار) الذي كان ينحدر من أصل عربي ، والذي كان ثرياً بسبب الأرباح التي حققها من تجارة الرقيق التي أمتدت إلي مسافات بعيدة في المناطق الداخلية من شرق أفريقيا . وكان للسلطان الرغبة الكاملة في أن يواصل كراف تقدمه في داخل القارة ، لهذا كتب له تصريحاً على شكل جواز سفر جاء فيه : " أن هذا (الشخص) قادم من طرف السيد السلطان سعيد : تحياتنا إلي كل رعايانا وأصدقائنا ، وحكامنا ، وقد كتب هذا الخطاب من أجل الدكتور كراف الألماني الجنسية ، فهو رجل طبيب يرغب في تحويل العالم إلي عبادة الله ، فعاملوه معاملة طيبة وكونوا في خدمته في كل مكان" .

وقد كان لهذا التصريح تأثيره بين قبائل النيكا Nyika ، والكامبا Kamba القاطنتين في الأرض الداخلية . واستقرت أسرة كراف في جنوب ممبسا . وقد حول كراف القبائل الوثنية إلي المسيحية ، وفي الوقت نفسه درس اللغة السواحيلية واللغات الأفريقية الأخرى . وكان يهدف من وراء ذلك إلي إقامة سلسلة من المراكز التبشيرية تقع على خط مستقيم عبر القارة ، إبتداء من الشرق وحتى الغرب .

وكانت ممبسة مكاناً غير صحي ، لذا مرضت زوجة كراف وطفله الوليد الجديد وماتا من الحمى ، واقترب هو أيضاً من الموت ، ولكن رغم ذلك فلم تثبط عزيمته وحماسه التبشيري : وفي عام ١٨٤٦ ، سر كثيراً بسبب وصول صديقه العزيز الذي طال توقع وصوله ، وكان هذا الصديق هو جوهان ربمان الذي كان يصغر كراف بعشر سنوات وكان لديه نفس حماس كراف .

وجاء ربمان ، كما جاء من قبله كراف من مقاطعة ويرتمبرج Wurttmberg . وكان قد درس في كلية جمعية التبشير الكنيسية في لندن ، وفي وقت واحد تقريباً أصيب الرجلان بالحمى ، وعندما شفيا واصلا السير إلي منطقة رابيا Rabia ، وهي منطقة صحية ومرتفعة . وبعد ذلك بدأ الرجلان رحلتهما المدهشة من رابيا حيث ذهبا في نفس طريق لنفجستون ، أي أنهما كانا يبحثان عن مواقع مناسبة تستخدم كمراكز للبعثة ، وحتى في زهوة كشوفاتهما فإنهما لم ينسيا أن هدفهما الأول والأخير هو عملهما في التبشير بالإنجيل .

وفي البداية ، كان على ربمان مواصلة السير وكانت كل أسلحته في هذه الرحلة الإنجيل والشمسية ، هذا فضلاً عن أنه اصطحب معه ثمانية من الحمالين غير المسلحين ، وبعد ذلك إنطلق في الرابع عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٤٧ م ، ولم يكن لديه فكرة عن طول المسافة التي يمكنه قطعها ، ولكنه في خلال خمسة عشرة يوماً أمكنه قطع مسافة بلغ طولها مائة ميل ووصل بعدها إلي جبل كديارو Mountain Kadiaro ، الذي لم يره رجل أبيض من قبل . وبعد خمسة أيام من بداية الرحلة عاد إلي رابيا ، وهو يعاني من تقرح وتورم في أقدامه ، وبخلاف ذلك فلم يكن هناك مخاطر تعرضت لها بعثته . وفي العام التالي شرع في رحلة أطول ، بل وأكثر مغامرة وخطورة ،وكان ممثل السلطان في هذه المنطقة " حاكم ممبسا " قلقاً عندما علم بقدوم بعثة تبشيرية غير مسلحة ، وتخطط للسفر من خلال قطر مسكون بقبائل متوحشة ، بل تعيش فيه الحيوانات المفترسة . وقد حذر حاكم المنطقة ربمان من ذلك ، بقوله : " لقد حذر هذا الحاكم ربمان من عدم صعود جبل كليمنجارو لأن هذا الجبل تسكنه الأرواح الشريرة ، والناس الذين يتسلقونه يذبحون بواسطة هذه الأرواح ، هذا فضلاً عن أن أقدامهم وأيديهم تتصلب ، بل وتذر مساحيق أجسامهم في النار وسوف يحل بهم كل أنواع المصائب " .

ولقد كان هذا التحذير محيراً بحيث جعل ربمان يصمم على أن يقف على حقيقة ما يعنيه ، وفي السابع والعشرين من شهر أبريل عام ١٨٤٨ م ، غادر ربمان منطقة رابيا ، وكان برفقته ثمانية من الحمالين ومرشد ، هذا فضلاً عن الإنجيل الذي كان لا يفارقه ، وكذلك

الشمسية. وفي هذا الوقت كان يوافق فصل الأمطار ، ومع ذلك وبرغم هطول الأمطار الشديدة ، إلا أنه عبر منطقة جبال كديارو ، وفي خلال عشرة أيام عبر وطن الجاجا Jagga ، الذي يقع حول السفوح المنخفضة لجبال الكليمنجارو . وقد تعجب ربمان من المناظر الطبيعية الخلابة وتعجب من الجبال المتنوعة وتلالها ووديانها التي غطتها النباتات الكثيفة ، وواصل تعجبه بقوله : " أنني أتصور نفسي على جبال الجورا Jura Mountains ، القريبة من بازل والواقعة في منطقة حول كانستات Cannstatt مسقط رأسه " .

وفي هذا الوقت وضحت علامات الإضطراب على الدليل الذي قال ما نصه : " أنتم هنا بدون أي شئ عدا الشمسية " وأضاف يشكو "في الوقت الذي كانت البعثة تعسكر فيه تحت شجرة كنا في حاجة إلي خمسمائة بندقية لأن الخطر يكمن أساساً في تلك المنطقة التي نعسكر فيها الآن ، حيث أن هذه المنطقة التي عسكرنا فيها هي إحدي المناطق الرئيسية التي تتعرض للنهب من جانب قبائل الكوافي ، ومع ذلك كان ربمان يؤمن بالقضاء والقدر ، ثم أجاب بقوله : إن هذا من أمر الله ، وبعد ذلك ، إنتحي ربمان جانباً وأخذ يقرأ في الأنجيل .

ويمثل يوم الحادي عشر من شهر ابريل من عام ١٨٤٨ م ، تاريخ أكبر كشف أنجزه ربمان . ففي صباح هذا اليوم شاهد جبال شاجا Chagga أكثر وضوحاً من ذي قبل ، " حيث قال ففي حوالي الساعة العاشرة تخيلت أنني رأيت أحد قمم هذه الجبال مغطاة بسحب بيضاء تثير الحيرة . وكان دليلي قد أطلق على هذه القمم البيضاء التي شاهدتها البعثة

أسم (Beredi · Cold أي بارد) ، ولقد كانت واضحة تماماً بالنسبة لنا ، ومع ذلك فإنه يبدو أنها لا تعدو أن تكون ثلوجاً " .

ولهذا فإن هذا المبشر التقي الذي لا يشاركه أحد الرأي ، أصبح الرجل الأبيض الأول الذي يري قمة جبل كيبو الثلجية The snowy dome of kibo وهي أعلي قمة في جبل كليمنجارو . وكان هذا الكشف بالنسبة له يعتبر واحداً من بين المظاهر الكثيرة التي من الله بها على الإنسان . ويقول ربمان أنه بعد أن جلس للراحة تحت شجرة أخذ يقرأ في إنجيل باللغة الإنجليزية ، في الفصل رقم CXI th psalm وهي النقطة التي وصل إليها في قراءته في نفس هذا الفصل . وقد ورد بالسطر السادس من نفس الفصل النص التالي " أن قوة شعبه تتمثل في قوة أعماله ، وأنه سوف يعطيهم ميراث الوثنية " ويبدو من الملائم تماماً في هذه المناسبة التفكير في المنظر العظيم لقمة الجبل الثلجية ، والشئ الذي لم يتمكن ربمان من معرفته أصبح الآن يعرفه ، فقد فهم مغزي تحذير الحاكم : وهو أن الذين حاولوا أن يتسلقوا الجبل قد قتلوا ليس بواسطة الأرواح الشريرة ، ولكن بواسطة البرد القارس ، وأما الشئ الذي لم يتمكن من معرفته هو أن إكتشافه للجبل الثلجي الموجود في خط الإستواء ، سوف يشعل في الحال شرارة الجدل الحاد . وفي إنجلترا سخر المستر ديبورج كولي Desborough Cooly ، وهو أحد أعضاء الجمعية الجغرافية الملكية The Royal Geographical Society من تقرير ربمان فقال ما نصه :

" إن هذا التقرير يمثل أحد شطحات الخيال العقلي المبهرة ، لدي ربمان حيث لا يؤيد ما ذكر بأي دليل محسوس ، بل وكذب المستر

ديبورج أيضاً الإدعاء القائل بأن الرجال قد ماتوا من البرد ، وأعتقد بأن هذا لا يعدو أن يكون قصة تحكي بجوار موقد للنار " .

ومكث ربمان في المنطقة مدة كافية كي يعالج أقدامه الممزقة ، فضلاً عن قيامه بتقديم الوعظ للوطنيين مستخدماً في ذلك تفسير العقيدة (المسيحية) وبعد ذلك واصل طريقه إلي جبل كـديارو . Kediaro . M ومن هناك عاد إلي رابيا مستخدماً طريقاً يتجه كثيراً إلي الجنوب .

وفي نوفمبر من نفس العام استخدم مرة ثانية طريق شاجا Chagga وفي تلك الوقت سمع ربمان عن وجود منطقة مائية واسعة تقع فيما وراء جبل الكليمنجارو ، وعلى مسافة بعيدة من موطن قبائل الإنياموزي Unyomayezi (التى تعرف في الوقت الحاضر بتنزانيا) ويمثل هذا البحر الداخلي بحيرة تنجانيقا ، وسوف يكون من الواضح أن هذه البحيرة ستكون ذات أهمية جغرافية عظيمة ، وتشير تقارير المبشرين إلي الأهمية العظيمه في فتح هذا القطر أمام المحاولات المسيحية . وقد حاول ربمان ولكنه فشل في الوصول إلي البحيرة ، وعاد إلي رابيا بشق الأنفس ، وكان في الوقت نفسه على هيئة هيكل عظمي متحرك بحيث أنهكته الحمى والجوع والتعب الشديد .

ولم يقم ربمان برحلات أبعد من ذلك ، بل فضل البقاء في مركز البعثة ، يمارس الوعظ والإرشاد وترجمة الإنجيل . وهنا يجئ دور كراف ، ففي عام ١٨٤٩ ، وبعد الدراسة الأولية لسفوح جبال أوزامبارا Usambara Mountains ، التي تقع في الجنوب الغربي من ممبسا ، قام برحلة كان الهدف منها هو البحث عن مواقع تستخدم كمراكز للبعثة ، ثم عاد

بعد ذلك إلي الشمال الغربي متعقباً طريق ربمان حتى أصبح جبل كليمنجارو على مرمي بصره . وقد عرف من رجال القبائل أنه على الرغم من أن الكثير من الرجال قد هلكوا على الجبل ، إلا أن عدداً قليلاً منهم قد نجح في جمع بعض المواد القريبة الشبه من الفضة ، التي عندما وضعت في زجاجات تحولت إلي مياه عادية ، ويقول كراف " أن بعض هؤلاء الذين ظلوا على قيد الحياة عادوا بأطراف متجمدة ، حيث وصفها الجهلاء بأنها من تأثير الأرواح الشريرة . وأضاف يقول " لقد أثار المستر كولي نقاشاً يعارض فيه وجود مثل هذا الجبل الثلجي ، بل ويعارض فيه تقرير ربمان ، ولكن هذا النقاش تحول إلي لا شئ ، وبخاصة عندما شاهد الشخص بعينيه حقيقة لم يرها غيره من قبل " .

ونظراً للإقتناع الكلي بصحة تقرير ربمان إندفع كراف تجاه الشمال الغربي في داخل موطن شعب الواكمبا Wakamba الذي يعرف في الوقت الحاضر بكينيا ، ووصل كراف إلي كيتوي Kitui في نهاية نوفمبر ، وهناك علم من الرئيس كيفوي Kivoi حاكم تلك المنطقة — الذي قام بنفسه بزيارة منطقة شاجا Chagga وشاهد جبال الكليمنجارو — بأنه يوجد جبل آخر تغطي الثلوج قمته ، وتستغرق الرحلة إليه من كيتوي ستة أيام ، وسمي هذا الجبل باسم كجنيا Kegnia ونصحه كيفوي أن يتسلق التل الذي يشرف على القرية وقال ما نصه " لو كانت السماء صافية فسوف تتمكن من رؤية الجبل " ولكن في ذلك الوقت إختفي الجبل ، لأن هذا الوقت كان يصادف فصل المطر . ولكن في الثالث من شهر ديسمبر عام ١٨٤٩ م ، وعندما كان كراف يغادر منطقة كيتوى ،

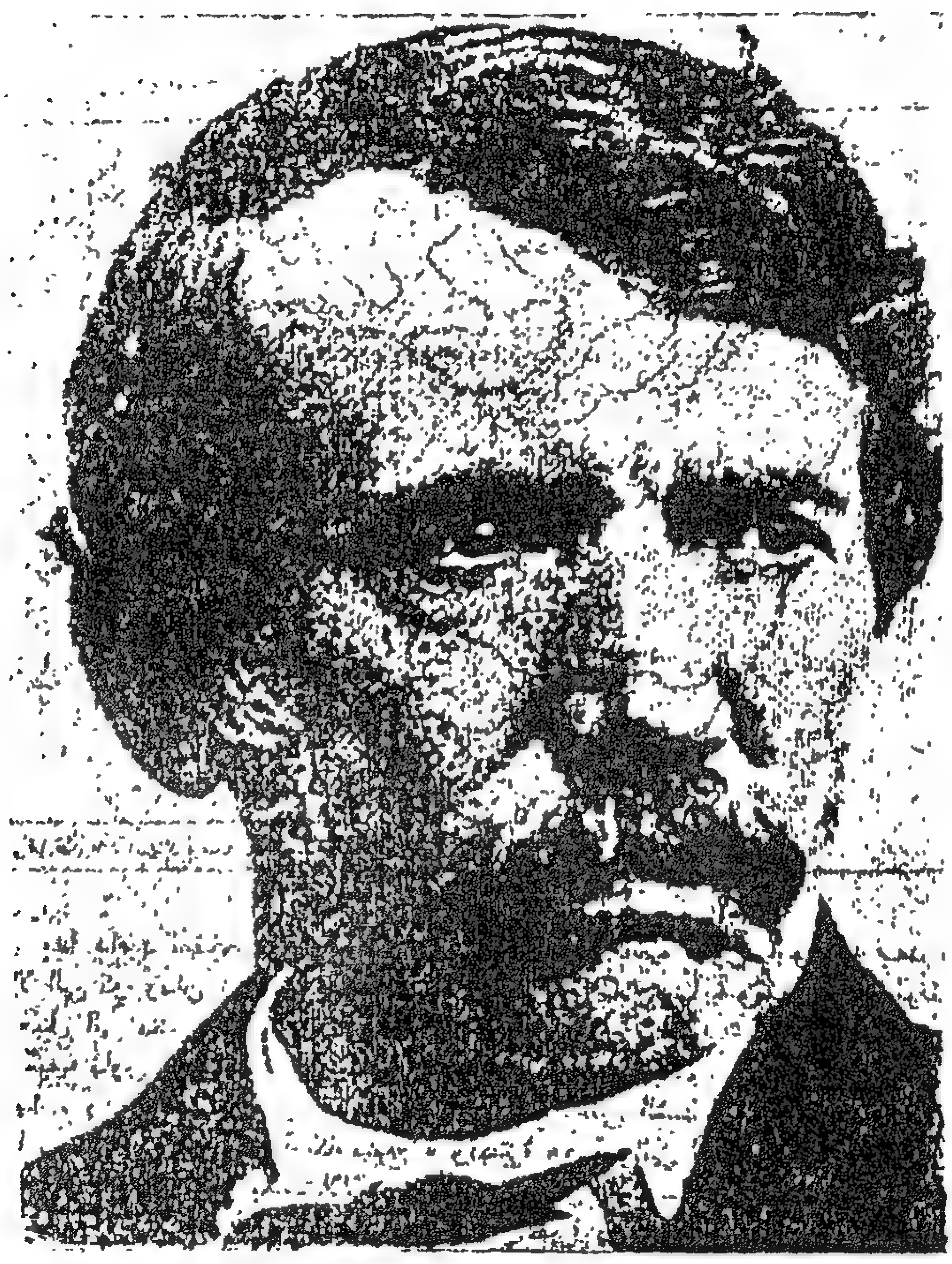
قال ما نصه : " انقشعت فجأة السحب الممطرة ، واستطعت أن أرى منطقة كجنيا Kegnia بوضوح جداً ، ولاحظت وجود بروزين كبيرين ، أو عمودين كما لو كانا يرتفعان فوق جبل ضخم يقع في الشمال الغربي من كليمنجارو ، ومغطين بمادة بيضاء (الثلوج بالطبع) .

ومن أجل هذا ، فقد إنضم كراف إلي زمرة المكتشفين العظماء ، وكرمته ألمانيا بمنحه الميدالية الذهبية ، وأهدت فرنسا كل من الرجلين الميدالية الفضية ، وعندما زار كراف إنجلترا حاول أن يلفت نظر الجمعية التبشيرية الكنيسية إلي مشروعه الخاص بإقامة سلسلة من المراكز الخاصة بالبعثات عبر أفريقيا ، ولكن في الواقع لم تلق اكتشافاته التأييد الكافي ، بل أهملت واستقبل الأمير كونسورت Consort كراف ، ولكنه رغم ذلك لم يكافأه رسمياً ، على الرغم مما أضافه إلي اكتشافاته السابقة ، فكان قد اكتشف جبل كينيا عن طريق مسح كل الساحل ، إبتداء من ممبسا وحتى رأس دلجادو الواقعة على حدود موزمبيق ، ومع ذلك فلم يتأكد كشف جبل الكليمنجارو إلا في عام ١٨٦١ م ، وذلك عن طريق مكتشف ألماني يدعي ك . ك . فون دير ديكن K . K . Von der Decken الذي قام بزيارة هذه المنطقة مرتين ، وفي الزيارة الثانية تسلق الجبل حتى ارتفاع يصل إلي ١٤,٠٠٠ ألف قدم ، ولكنه فشل في الوصول إلي خط الثلوج . وبعد ذلك بأربع سنوات انطلق تجاه جبل كينيا متتبعاً مجرى نهر جوبا River Juba ، ولكنه طعن بحربة أودت بحياته في مدينة بربرة التي تعرف بأنها أحدى مدن جمهورية الصومال .

وقدم مبشر آخر يدعى إرهـــاردت J . J . Erhardt مســـاعدة إلي كراف ، تمثلت في مسح لهذه المنطقة ، وكان إرهـــاردت هـــذا زمـــيلاً لكراف ، لهذا كان قد إنضم إلي مركز بعثة كراف في رابيا عام ١٨٤٩م، ورسم إرهاردت خريطة للمنطقة الواقعة بين الساحل وبين البحر الداخلي الواسع والواقع في الأنيا مويزي Unyamowezi ، التي برهنت على قيمتها الكبيرة بالنسبة للمكتشفين فيما بعد . وقد واصل إرهـــاردت رحلاتـــه العديدة في الداخل ، لكن كراف قام بمفرده برحلة كشفية أخـــرى ذات أهمية ، ففي يوليو عام ١٨٥١ م ، غادر كراف رابيا ومعه تصريح كـــي يقوم بتأسيس مركز جديد في الأرض الجبليـــة في كامبـــا ، الواقعـــة إلي الشمال من طريق ريمان الأصلي ، والذي يوصل إلي كليمنجـــارو ، وفي كيتوى إنضم إليه الرئيس كيفوي ومعه عدد من رجاله . وقد تعرضـــت قافلتهم للهجوم من جانب قطاع الطرق المسلحين بالأقواس ، والسهام ، وقتل كيفوي وهربت جماعته . وفي هذه المناسبة كان كراف يحمل معـــه بندقية فضلاً عن شمسية ، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً أكثر مـــن أنـــه أطلق النيران في الهواء . وبعد ذلك هرب كراف إلي أحـــد الملاجـــئ ، وتأكد أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر عن نهر تانا Tana . وقد وجد هـــذا النهر بطريقة عرضية ، ولم يكن مدفوعاً في ذلك بفضوله الجغرافي ، ولكن برغبته الملحة في الماء لعطشه الشديد .

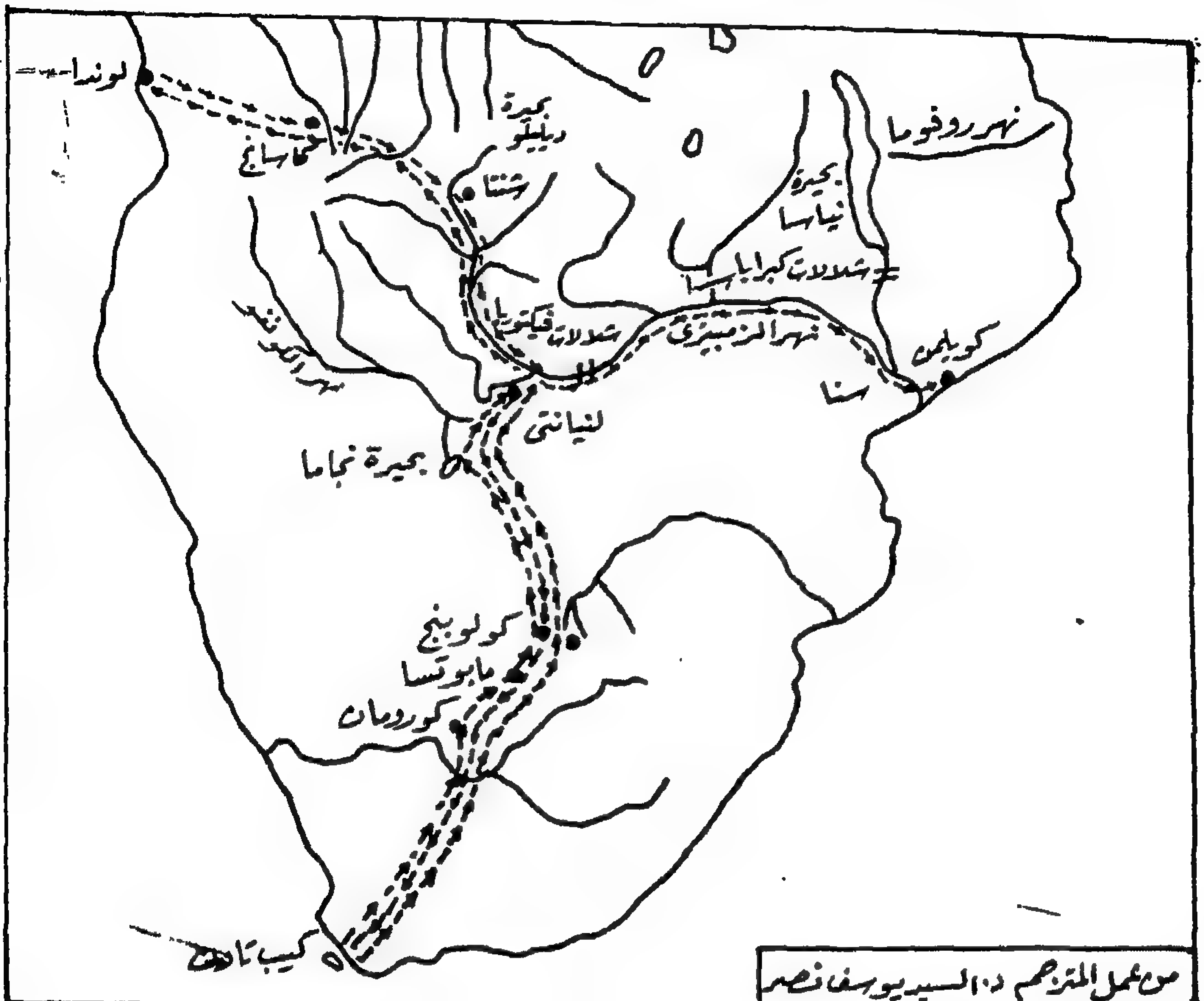
وعاد كراف إلي وطنه الأصلي (ألمانيا) وهو في حالـــة صـــحية متدهورة وهناك شفي جزئياً ، ومع ذلك فإنه تزوج للمرة الثانية واستقر في موطنه ، وكرس جهده في ترجمة الكتاب المقدس إلي اللغات الأفريقية .

وعاد إلي أفريقيا مرات عديدة فزار رابيا حيث كان هناك ربمان وحيداً في ذلك الوقت ، وكان قد أصابه العمى تقريباً ، ومع ذلك كان ربمـــان لا يزال يواصل العمل كسابق عهده ، وظل هذا الرجل الشجاع في أفريقيا بدون إنقطاع ، ولو لمرة واحدة لما يقرب من ثلاثين عاماً . وبعد ذلـــك عاد ربمان إلي ويرتمبرج Wurttemberg بألمانيا عام ١٨٧٥ م ، ومات بعد ذلك بشهور قليلة بالقرب من منـــزل صديقه العزيز في العمل كـــراف ، الذي ظل على قيد الحياة بعده لمدة خمس سنوات



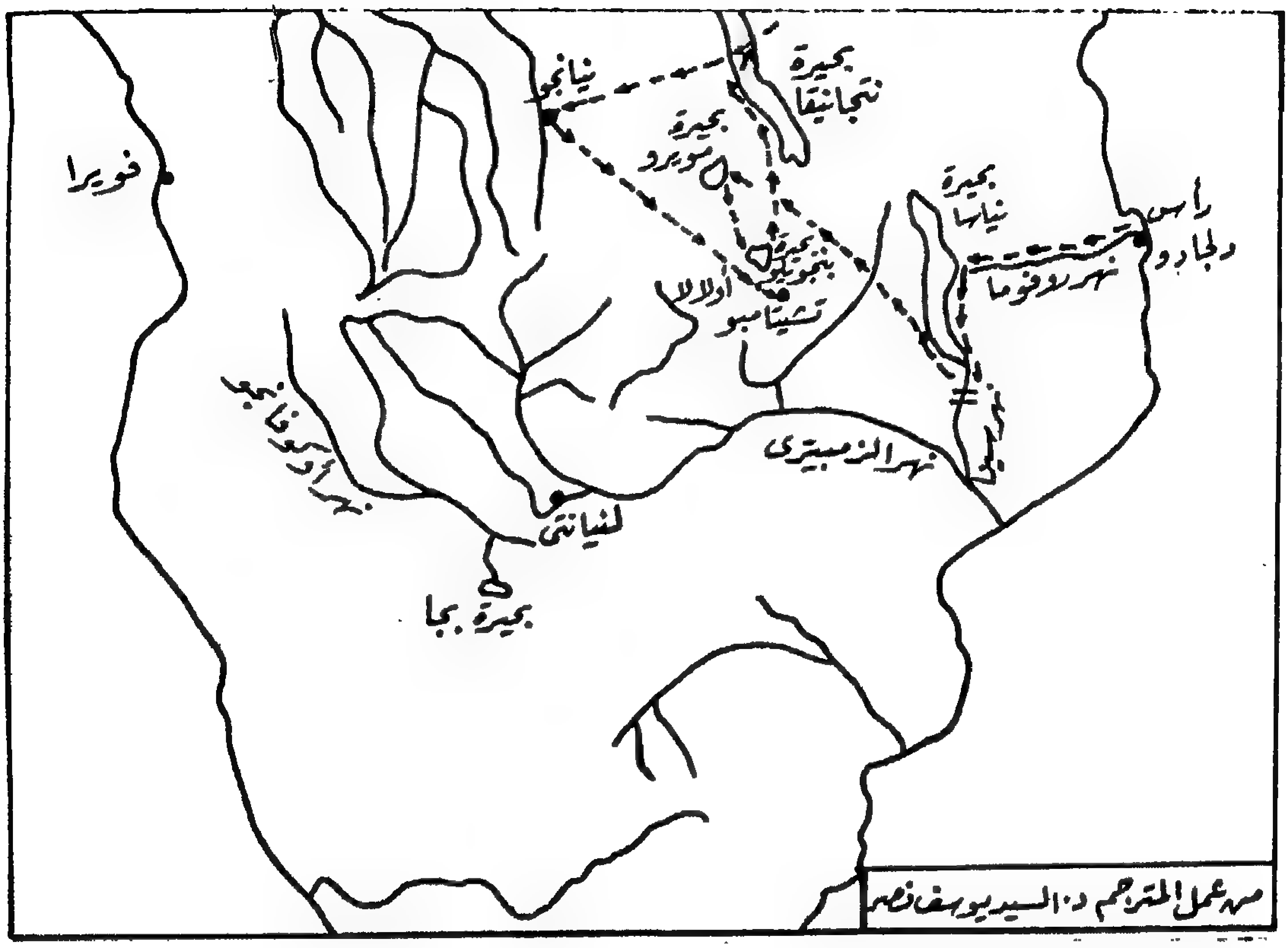
صورة المغامر الإستعماري دافيد لفنجستون الذي جاء إلي جنوب أفريقيا عام ١٨٤١
ليكتشف منابع نهر الزمبيزي . من إعداد المترجم .

الخريطة رقم ١٣ والخاصة ببعثة دافيد لفنجستون الأولى عام ١٨٤١



بدأ دافيد لفنجستون رحلته عام ١٨٤١ من كيب تاون ، واتجه بعد ذلك شمالاً إلي كورومان ، ومنها اتجه شمالاً أيضاً إلي مابوتسا ، ومنها إلي كولوبنج ، ثم وصل إلي بحيرة نجامي . وبعد ذلك وصل إلي لنيانتى ، ثم عاد عام ١٨٥٢ إلي كيب تاون ، ومنها رحل ثانية إلي الشمال ماراً بنفس المناطق التي مر من خلالها . وعند لنيانتى عبر نهر الزمبيزي واتجه إلي الشمال الغربي ، فمر بقرية شنتا وبحيرة ديليلو وقرية كاسانج ، وأخيراً وصل إلي لواندا . وبعد ذلك عاد في اتجاه الشرق فمر بشلالات فيكتوريا وكبراباسا وببلدة تيت المستعمرة البرتغالية ، ومنها وصل إلي بلدة سنا ، وأخيراً وصل إلي كويلمن الواقعة على ساحل المحيط الهندي الغربي . واستغرقت هذه الرحلة عاماً واحداً ، وقد قطع لفنجستون أثنائها مسافة طولها ٦٠٠٠ ميل .

الخريطة رقم ١٤ والخاصة ببعثة دافيد لفنجستون عام ١٨٦٦



بدأ لفنجستون رحلته الثانية من رأس دلجادو وسار مع نهر روفوما ، فوصل إلي بحيرة نياسا ولكنه تعثر في عبورها فاتجه جنوباً وواصل المسير بجوار شاطئها الغربي حتى وصل إلي بحيرة مويرو ، ومنها اتجه جنوباً إلي بحيرة بنجويلو . وبعد ذلك اتجه لفنجستون شمالاً وسار مع الساحل الغربي لبحيرة تنجانيقا ، ثم عبرها بصعوبة ووصل إلي بلدة أوجيجي ، وهناك أشيع عن موته . وبعد ذلك عبر بحيرة تنجانيقا ووصل إلي بلدة نيانجو الواقعة على نهر لولابا ، ومنها اتجه إلي جهة الجنوب الشرقي فوصل إلي قرية تشيتامبو الواقعة في منطقة أولالا حيث مات في هذه القرية عام ١٨٧٣ م .

التعليق على الفصل (٧)

أشارت المؤلفة في هذا الفصل إلي عدد من الموضوعات الهامة ، تناولت البعض منها باستفاضة ، وأهملت البعض الآخر ، بحيث لم تعطها قدرها من التفسير والتوضيح . لذا رأينا ، أنه من الضروري توضيح هذه الموضوعات حتى تكون الصورة كاملة أمام القارئ العربي ، الذي يرغب في معرفة تاريخ كشف أفريقيا . ومما لا شك فيه فإن هذا العمل من جانب المؤلفة يعد قصوراً ، ربما لاعتقادها بأن هذه النقاط التي سوف نشير إليها بعد قليل غير هامة ، وربما لاعتقادها بعدم وجود مجال لدراسة هذه النقاط .

ومن الموضوعات الهامة التي ذكرتها المؤلفة والتي لم تتناولها بشيء من التفصيل حتى تتضح الرؤية أمام القارئ ، عدداً من الموضوعات منها شرق أفريقيا ، وقبائل البوشمن ، والهوتنتوت ، والبانتو ، والمساى ، والبوير ، وروبرت موفات وغيرها . لذا كان من الضروري تناول هذه العناصر بشيء من التفصيل كل على حدة .

ومن الواضح أن شرق أفريقيا في ذاك الوقت ، يمثل أقطار كل من كينيا Kenya وتنجانيقا وزنجبار اللتان اتحدتا وعرفتا بتنزانيا Tanzania ، وأوغندا Uganda ، بل وأن هذه المنطقة تمثل هضبة شرق أفريقيا ، التي يبلغ ارتفاعها ٣,٠٠٠ قدم أو أكثر عن مستوى سطح البحر ، وتضم هذه الهضبة جبال روينزورس Ruwenzoris ، التي توجد في الشمال الغربي من أوغندا ، وجبال القمر المغطاة بالضباب ، التي يبلغ إرتفاعها ١٦,٧٦٣ قدماً ، وجبل كينيا الذي يبلغ إرتفاعه ١٧,٠٥٨ قدماً والذي

يقع على مسافة أميال قليلة من خط الإستواء ، وهو مغطى أيضاً بالجليد . وإلي الجنوب من جبل كينيا يوجد جبل كليمنجارو Kilimangaro ، الذي يبلغ إرتفاعه ١٩،٣٢١ قدماً وهو أعلى نقطة في قارة أفريقيا ، وجبل ميرو Meru ، الذى يبلغ إرتفاعه ١٤,٩٧٩ قدماً ، وجبال أبردارس Aberdares . التى يبلغ إرتفاعها ١٢,٠٠٠ قدم وجبل الجون Elgon الذي يبلغ ارتفاعه ١٤,١٧٨ قدماً .

وفي شرق أفريقيا أيضاً توجد مظاهر جغرافية متميزة ، نذكر منها على سبيل المثال بحيرة فيكتوريا ، الواقعة في أوغندا ، التى تعتبر ثاني أكبر بحيرة داخلية في العالم ، ومن هذه البحيرة يخرج أطول نهر في العالم (نهر النيل) الذي يبدأ جريانه من أوغندا * وحتى البحر المتوسط ، والذى كان له أكبر الأثر في وجود الحضارة المصرية القديمة ، حتى أن أحد الكتاب الأجانب قال في هذا الصدد : أن نهر النيل صنع مصر ، وبعبارته :
" The River Nile made Egypt " (١) .

وإلي الشرق من هذه المنطقة توجد صحراء كالاهارى التي يقطنها شعب البوشمن ، الذى لم تتعرض المؤلفة له بشئ من التعريف ، ولكن يقول سلجمان أن البوشمن قد وصلوا من الشمال إلي موطنهم الحالي في جنوب أفريقيا ، إذن من المحتمل أن يكون أسلافهم قد استوطنوا الشطر الأكبر من المناطق الإستوائية في شرق أفريقيا ووسطها الشرقي ، ويؤيد هذا الرأى إكتشاف ما تركه البوشمن في تنجانيقا ، بل وفي أوغندا وجنوب السودان من رسومات على الصخور ، ومن بقايا لهياكل أجسام

---

* أوغندا تعني هنا كل منطقة شرق أفريقيا في ذلك الوقت .

(١) Derek Town Send Kenya Uganda . and Tanzania London . 1969 . pp . 7 . 9

بل وأسماء لبعض الأماكن ، وينقسم البوشمن إلي ثلاثة مجموعات رئيسية هى على النحو التالي : المجموعة الجنوبية ، والوسطي والشمالية ، وتتألف كل منها من عدد من القبائل المنفصلة ، لكل منها لغتها الخاصة وأسمها الخاص .

وكانت المجموعة الجنوبية تحتل فيما مضى مستعمرة الكاب ، وهى في حكم المنقرضة ، وأما المجموعة الشمالية فتتركز في الشمال الشرقي من أفريقيا الجنوبية ، وتعيش المجموعة الوسطى في صحراء كالاهاري . ويعتبر التنظيم الإجتماعي والطابع الثقافي للبوشمن بدائياً للغاية ، فهم يعيشون في جماعات صغيرة ، تتكون الواحدة منها في العادة من عدد يترواح فيما بين ٥٠ ، ١٠٠ شخص ، وقد يرتبط عدد من هذه الجماعات برابطة اللغة في الإسم فتكون قبيلة [١] .

ويعيش البوشمن في صحراء كالاهاري في جنوب أفريقيا ، فكانوا قد عاشوا فترة زمنية من قبل في الجنوب ، في أراضي خصبة وعشبية حيث يوجد الماء والصيد بوفرة ، فعاشوا حياة سعيدة قائمة على الصيد ، ورسم الصور الجميلة للحيوانات ، ولأنفسهم على الصخور ، وعلى جدران الكهوف ، ولازال البعض من هذه الرسومات موجوداً ، بحيث يمكن قراءة القصص التى تحكي لنا تاريخ البوشمن .

وأخيراً تعرض البوشمن لزحف القابئل القاطنة في الأجزاء الشمالية من أفريقيا ، وفي الوقت نفسه تعرضوا من جهة الجنوب لزحف البيض القادمين من أوروبا ، الذين قدموا لكي يقوموا بتأسيس المنازل وزراعة

---

(١) سلجمان . س . ج : السلالات البشرية في أفريقيا ، ترجمة يوسف خليل ، مراجعة د محمد محمود الصياد ، القاهرة ، ١٩٥٩ م ، ص ص ٢١ – ٢٤

الأرض ، عندئذ اضطر البوشمن لمغادرة ديارهم حيث تشتت البعض منهم، واستقر البعض الآخر في صحراء كالاهاري التي لا يقطنها غيرهم ، لأنهم أرادوا العيش في أمان ، مع أنهم كانوا يعيشون بلا مأوى ، فيكتفون بالعيش على الصيد وتناول جذور النباتات الصحراوية ، وكانوا يبنون منازلهم من الأعشاب ، وأغصان الأشجار ، وهم عراة تماماً باستثناء ستر عوراتهم ، كما أنهم يعمرون طويلاً بسبب الحياة البسيطة التي يعيشونها ، فلا يوجد مما يعكر صفوهم ، فهم يكتفون بالقليل من الغذاء .

ويسمون أولادهم بأسماء مألوفة تتعلق بحياتهم المعيشية مثل نيوز Nuse وتعني بيضة النعامة ، فعندما يولد الطفل لم يكن له شعر ، فيعتقد آباؤه بأن رأسه تشبه البيضة ، ومثل نوكسو Nxou ، ويعني هذا الإسم وعاء الطعام . " Nxou's name means bowl of food "[1]

وأما الهوتنتوت فيقترن أسمهم دائماً باسم البوشمن ، ويشبهونهم شكلاً وثقافة ، مع أنهم تأثروا بعناصر ودماء غريبة عنهم ، بينما ظل البوشمن يحيون حياة الصيد ، والعزلة مفضلين ذلك عن إختلاطهم بغيرهم. وقد أدى ذلك إلي أن تظل سلالتهم نقية بحيث لم تتسرب إليها دماء أجنبية ، ويتميز الهوتنتوت بالقامة الطويلة إلي حد ما ، وكانت الصفات الزنجية أكثر ظهوراً مما هي عليه عند البوشمن ، كما أن رؤوسهم أكثر استطالة . ويرى سلجمان أن الهوتنتوت قد اختلطوا في الوطن الأصلي بعناصر حامية . وكان لهذا الإختلاط أثره الثقافي أيضاً في اكتساب لغتهم خصائص مشتقة من لغات الحاميين ، مع أن اللغة بقيت من أسرة لغات

---

[1] Carol Morse Perkins and Markin : I saw you from a far ,London ,966 . pp . 3 – 4 .

البوشمن ذات الطقات ، ويرى سنجمان أن ذلك الوطن الأصلي يقــع في منطقة البحيرات .

ويبدو أن هجرة الهوتنتوت نحو الجنوب جاءت متأخرة عن هجرة البوشمن ، وقد اتخذوا طريقاً أبعد إلي الغرب ، فأخترقوا أعالي نهر الزمبيزي ووصلوا إلي الساحل الغربي للقارة ، ثم إنحدروا بعد ذلك جنوباً إلي منطقة الرأس ، وبذلك يكونوا أول الوطنيين الــذين صــادفهم المســتعمرون الأوروبيون عندما نزلوا بتلك المنطقة .

وأما التوزيع القديم للهوتنتوت فكان يشمل الأطــراف الجنوبيــة الغربية لمصب نهر كونين Kunene ، حيث استوطنوا المنطقة الواقعة جهــة الشمال من شبه جزيرة الكاب ، وتوسعوا في إستيطانهم شــرقاً ، حــتى وصلوا إلي نهر كاى ، أما في الوقت الحاضر فيوجد هناك بقايا موزعة في أطراف هذا الوطن الكبير ، وأما الجماعات المنظمة نوعــاً مــا ، فإنهــا منحصرة في إقليم محدود من أفريقيا الجنوبية الغربية ، حيث تقطن المنطقة الواقعة إلي الشمال من نهر الأورانج ، وهذا يدل على ما كان للــهجرة الأوروبية من أثر في تضييق الخناق عليهم وزحزحتهم عن أوطانهم .

وينقسم الهوتنتوت إلي عدد من الجماعــات مــنها ، النامــان ، والكورانا ، والجوناكوا . وكان سكان منطقة الرأس الذين يعيشون اليوم في الجنوب الغربي من أفريقيا من جماعة نامان [١] .

وإلي جانب شعب الهوتنتوت يوجد شعب البانتو ، الذى يكــون أوفر عدداً من الزنوج والأقزام والبوشمن والهوتنتوت . والبــانتو كلمــة

---

[١] د . محمــد عــوض محمــد : الشــعوب والســلالات الأفريقيــة ، الجيــزة ، ١٩٦٥ ، ص ص ٣٧ - ٣٨

أفريقية معناها الشعب ، ويستخدمها الأوروبيون في وصف جماعة ضخمة من القبائل ، مثل الزولو التى يتفرع منها المتابيلى والأنجـونى والبشـوانا والباسوتو ، والكيكويو ، ويتحدث البانتو فيما بينهم حوالي ٢٦٠ لغـة مختلفة . وهم خليط من المسيحيين والمسلمين والوثنيين .

ولا يزال البانتو يقطنون أجزاء كثيرة من أفريقيا الشرقية ، فهـم زراعيون ورعاة ، فعلى الماشية تقوم الحياة القبلية ، فهي لا تهئ لهم سبل العيش فحسب ، بل إنها تكسبهم مركزاً في القبيلة ، وغالباً مـا تكـون وسيلة للحصول على الزوجة ، وطبقاً لقانون البانتو فاللرجـل الحـق في الإحتفاظ لنفسه بأي عدد من الزوجات [١] شأنهم في ذلك شأن أية قبيلة أفريقية أو شعب أفريقي .

وينقسم البانتو إلي جماعات على أساس التوزيع الجغرافي ، فالبانتو الشرقيون ينتشرون من أوغندا شمـالاً ، وحـتى كينيـا ، وتنجانيقـا ، وروديسيا الشمالية ، ونياسا ، وأفريقيا الشرقية البرتغالية ، (في الماضي) وحتى شمال نهر الزمبيزى جنوباً . وأما البانتو الجنوبيون فيعيشون جنـوبى نهر الزمبيزي وكونين وتمثل هذه المنطقة إقليماً واسعاً يشتمل على شمـال غربي روديسيا والأخدود الأفريقي ، هذا فضلاً عن إنتشارهم في شمـال غرب القارة وحتى غرب أفريقيا والكاميرون الجنوبي [٢] .

وأما المساى فيعتقد الكثير من الناس أنهم قبيلة رومانسية ، تعيش هذه القبيلة في شرق أفريقيا ، وتمتلك مساحة قليلة من الأرض ، كما أنها

---

[١] كاثارين سافيدج ، ترجمة د . راشد البراوي : قصة أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٣ .

[٢] سلجمان . س . ج : ترجمة يوسف خليل ، المصدر السابق . ص ١٦٣ .

تعيش في أمن على طول الأخدود الأفريقي العظيم The Great Rift Valley الدي يمر مں خلال تنـــزانيا وكينيا ، فهم لا يصيدون الحيوانات بالمرة أو يررعون الحبوب ، ولكنهم يعيشون على اللبن والدم الذي يحصلون عليه مں رقاب الأبقار الحية ، بحيث يمر مں خلال غابة من البوص ويشـــربونه وهو دافئ ، وهدا الغداء جعل المساى معروفيں بالقوة [١] .

ويتمير رجال المساى بطول القامة والنحالة ، مع وجود ملامـــح لطيفة ، ويتميزون أيضاً ، بالأنوف المستقيمة ، ويرتدون ملابس برتقالية براقة ، ويلبسون في آذاهم حلقات معدنية لامعة ، ويصبغون شـــعورهم بصبغة حمراء ، وهم دائماً يحملون الحراب . ويلبس النساء عقـــوداً مـــن الخرز بل ويلبسن أيضاً في أذرعتهن أساور معدنية ، وفي أرجلهن يلبســـن الخلاخيل المعدنية ، وهذه الأشياء كانت مألوفة بالنسبة للنساء وللرجـــال على حد سواء [٢] .

ويربي شعب المساى الأبقار التى تعتبر بحق المصدر الرئيسي للغذاء، كما يربون الغنم والماعز ، ويأكل المقاتلون منهم اللحم في الغابة ، لأنـــه ممنوعاً بالنسبة لهم ، والدليل على ذلك أهم يركزون على تنـــاول اللـــبن والدم ، اللذين يحصلان عليهما من الأبقار . ومں عاداهم أن النساء يقمن ببناء المنازل ، ويرتدين الملابس ويتزين بكمية هائلة مں الحلقات المعدنية ، بحيث تغطي قصبة الرجل والرقبة ، كما تغطي العقود الرقبـــة والصـــدر ويضفن أيضاً الأصداف في الشعر للزينة .

---

[١] نفس المصدر ، ص ١٦٤ .

[٢] Derek Townsend Op cit p 18

وأما عن المساكن ، فكانت عبارة عن منازل تبنى من الأغصان والأعشاب ، فكان المنـزل الواحد يبنى على مساحة كبيرة من الأرض ، تتوسطها حظيرة للماشية في شكل دائرة ، فكان يخصص نصفها للماشية ، والربع الثالث لأبناء الماشية ، (العجول) والربع الأخير للأغنام ، ومن حول الحظيرة كانت تقام الأكواخ للرجل ، ولنسائه ، وأبنائه وزوجاتهم ، بحيث يخصص لكل زوجة كوخ ، وإذا كان للرجل أخوة متزوجين فإن المنـزل في هذه الحالة تزداد عدد أكواخه ، فتبلغ ما بين ٣٠ ، ٤٠ كوخاً .

هذا عن المظاهر الطبيعية ، والشعوب التي تقطن منطقة شرق أفريقيا . ولكن بقي لنا أن نعرض لأهمية ساحل هذه المنطقة ، ترجع أهمية هذا الساحل إلي أنه كان مرسى لكل سفن العالم عبر العصور ، حيث كانت هذه السفن تأتي إليه من الهند ، والخليج العربي ، والصين والملايو في كل فصول السنة ، ثم تعود بالتالي وهي محملة بالعاج وأسنان الخرتيت والعبيد ، واستمرت التجارة تمارس في هذه الغلات الثلاث إلي أكثر من ألفي عام . وقد شيد العرب المستوطنات في هذه المنطقة ، وكان من بقايا هذه المدن أو المستوطنات ، قسمايو Kismayo ، ولامو Lamu ، وممبسا Mombasa ، وكيلوا Kilwa وزنزبار Zinzibar ، وكانت هذه المدن تمثل مراكز للمقايضة والمبادلة ، وكانت القوة البحرية العربية قد سيطرت على المحيط الهندي مدة عشرة قرون . وفي تلك الأثناء مارس عرب عمان نظامهم السياسي والتجاري على هذه المنطقة . ومن المحتمل أن يكون الفرس قد شيدوا مدناً في أفريقيا منذ ألف عام ، كما أن العرب الذين

إستوطنوا منطقة شرق أفريقيا تزاوجوا مع الوطنيات ، وأنجبوا شعباً يتكلم اللغة السواحيلية التى يتكلمها كل سكان شرق أفريقيا إبتداءاً من النيل وحتى نهر الجوبا [١] في الصومال .

وبعد ذلك نتناول في الحديث كيف وصل الهولنديون إلي منطقة جنوب أفريقيا The Cape of Good Hope . فمن المعروف أن الهولنديين وصلوا إلي جنوب أفريقيا عام ١٦٤٧ ، عندما تحطمت السفينة " هارلم " بالقرب من ساحل رأس الرجاء الصالح ، وكان من نتيجة ذلك أن قرر البحارة أن يقضوا عاماً في تلك المنطقة قبل التقاطهم ، وفي تلك الأثناء نجح هؤلاء الرحالة في زراعة المحاصيل الغذائية ، التي كانت تكفي معيشتهم. ولما عادوا إلي هولندا رسموا صورة براقة عن جنوب أفريقيا ، لذلك قررت شركة الهند الشرقية ، إنشاء محطة لها في رأس الرجاء الصالح، لخدمة سفنها المتجهة إلي الشرق الأقصي .

وفي عام ١٦٥٢ م بدأت مستعمرة الرأس في الظهور بصورة صغيرة جداً تحت قيادة جراح يدعي فان ريبك ، الذي كان من بحارة هارلم الغارقة ، وكانت الأوامر الصادرة إليه تشير إلي بناء حصن ، كما كان عليه القيام بزراعة حديقة في أحسن الأراضي ، وأن يحتفظ بعلاقات ودية مع الوطنيين ، وكان المستعمرون الهولنديين يعملون في خدمة الشركة ، بحيث لم يسمح لهم بمزاولة أي عمل خارجي . ولكن سرعان ما اصطدموا بالوطنيين من البوشمن والهوتنتوت ، ولكن ريبك إستطاع أن يستخدم البوشمن عمالاً وخدماً ، وفي تلك الأثناء كان لا يوجد

---

[١] Elspeth Huxly : East Africa , London , 1941 , pp . 12 - 14 .

بالمستعمرة نساء من البيض ، فجاء بعض المستعمرين بنساء من الهوتنتوت. بحيث أطلقوا على أطفالهم أسم الملونين بمنطقة الرأس [١] .

وفي عام ١٦٥٧ وصل من هولندا تسعة من أفراد الطبقة الوسطي ومعهم زوجاتهم ، ولم يكن هؤلاء من خدم الشركة ، ولكنهم كانوا قد أرسلوا على شرط أن يطيعوا قوانين الشركة . وسرعان ما جاء في أثرهم مستوطنين آخرين من أوروبا ، ففي ذلك العصر كان الهجنوت الفرنسيين المسيحيين من البروتستانت موضع اضطهاد شديد ، فهم الذين كانوا قد خرجوا في عهد الإصلاح الديني على الكنيسة الكاثوليكيــة ، واعتنقــوا المذهب البروتستانتي ، وكانوا قد رفضوا في حزم نبذ هذا المذهب ، وقد توجه بعضهم إلي أمريكا بحيث استقروا في نيــو إمــستردام وبنــسلفانيا وغيرها ، وهناك مارسوا عبادتهم بحرية ، وكان البعض منهم قد ذهب إلي إنجلترا وبراندنبرج في شمال ألمانيا ، وأقام غيرهم في الأراضي المنخفــضة ورأت شركة الهند الشرقية الهولندية الفرصة متاحة أمامها للإستفادة مــن هؤلاء المهاجرين الجدين ، فعرضت على مائتين منهم أن تدفع لهم نفقات الرحلة إلي رأس الرجاء الصالح ، إذا وعدوا بخدمتها مدة خمس سنوات ، فكانوا كسبا للمستعمرة ، بسبب معرفتهم لزراعة الكروم ، فضلاً عــن مهارتهم في مهنة الزراعة . وكان الأطفال الهجنوت والهولنديين يــذهبون إلي نفس المدارس ، وسرعان ما تعلموا أن يفهم بعضهم البعض . وحرم عليهم إستعمال اللغة الفرنسية ، ولــذلك تكلمــوا اللغــة الهولنديــة ، وبالتدريج فقد شقت بعض الألفاظ الهولندية طريقها إلي لغة الحــديث ،

---

[١] كاثارين سافيدج : ترجمة د . راشد البراوي : قصة أفريقيا جنوب الصحراء ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ص ٨٣ - ٨٥

التي كانت مزيجاً من اللغتين ، فأطلق على هذه اللغـة الجديـدة إسـم الأفريكانية Afrikaans التي أصبحت فيما بعد اللغـة الـتي يسـتخدمها الهولنديون في جنوب أفريقيا حتى اليوم .

وفي عام ١٧٠٠ م ، كانت مدينة الرأس عاصمة المستعمرة الـتي تشبه الكثير من المدن الهولندية ، ففيها بنيت قلعة وكنيسة من الخشـب ، ومخزن للمحصولات ، ولم يعتبر البيض المولودون في جنـوب أفريقيـا أنفسهم من الهولنديين أو من الفرنسيين ، إنما نظروا إلي أنفسهم على أنهم أفريكانو فقط .

وكان الفلاحون الأقوياء يعرفون بأسم البوير الذين تكونت منهم، ومن رجال الطبقة الوسطي جماعات الكوماندوز (الفدائيون) ، وهـي وحدات مقاتلة سريعة الحركة ، وكانت مهمتها حراسة الحدود والماشية .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، كانت السيادة قد انتقلت مـن أيدي الهولنديين إلي الإنجليز ، وفقدت شركة الهند الشرقية الهولندية الكثير من تجارتها ، وأشرفت المستعمرة على الإفلاس ، وتعب الأفريكانو وبدأوا يسيرون في داخل البلاد الواقعة وراء الحدود ، وكلما تقدموا إلتقوا بقبائل البانتو وتاجروا معها ، وأطلق الهولنديون على هؤلاء الوطنيين ، كلمـة (الكفير) ومعناها بالعربية غير المؤمن . وفي عام ١٧٧٩ نشبت حـرب الكفير ، فأنتصر فيها الكوماندوز من البوير علـى أعـدائهم وأسسـوا جمهورية مستقلة عن مستعمرة الرأس ، يمتد حدها الشمالي بطول نهـري الفيش Fish river والأورانج .

وفي تلك الأثناء كان نابليون يعد الخطط لغزو مصر ، لكي يمد نطاق إمبراطوريته إلي الشرق الأقصي ، وكان من الضروري بالنسبة لبريطانيا أن تحافظ على حرية طرقها التجارية إلي الهند . ومن أجل الحيلولة دون وقوع مستعمرة الرأس في أيدي فرنسا ، أبحرت السفن الحربية الإنجليزية في عام ١٧٩٥ إلي ميناء مدينة الرأس ، وأنزلت عدداً من قواتها ، وسرعان ما تغلبت هذه القوات على مقاومة الأفريكانو ، الذين كانوا يتسلحون بأسلحة بسيطة ، وخلال السنوات العشرين التالية عاشت المستعمرة في تمزق ، وتعددت جنسية الدول التي سيطرت عليها فقد أعادها البريطانيون إلي أصحابها لفترة وجيزة ، ولكن سرعان ما أستولي عليها البريطانيون عام ١٨٠٦ ، بسبب ما كانوا يشعرون به من قلق من ناحية نابليون .

ولكن بعد فرار نابليون من جزيرة إلبا وهزيمته في موقعة ووترلو ، ثم سجنه بعد ذلك في جزيرة سانت هيلانة الصغيرة ، الواقعة على مسافة قريبة من ساحل أفريقيا الغربية ، قام أسطول من السفن الحربية البريطانية بأعمال الدورية في المحيط الأطلسي الجنوبي ، لمنع أية محاولات يقوم بها أنصار بونابرت لإنقاذه . ولكن على الرغم من أن البوير كانوا يكرهون الشركة الهولندية الشرقية ، إلا أنهم أصبحوا الآن أشد كرهاً للحكم الجديد (حكم بريطانيا) .

وبعد عام ١٨٥٢ م ، أي بعد نزول المستعمرين الأول عند رأس الرجاء الصالح بمائتي عام ، إعترف البريطانيون ، وعن غير رضا

باستقلال جمهوريتي الترنسفال ودولة الأورانج الحرة اللتين أنشأهما البوير[١].

أما عن المبشر الأسكتلندي روبرت موفات فقد أسس عام ١٨٢٠م مركزاً للتبشير في كورومان في بتشوانا لاند ، وفي ذلك الوقت كانت الحدود الشمالية لمستعمرة الرأس يحميها خط من الحصون ، بحيث لم يجرؤ إلا عدد قليل من البيض على اجتيازه ، كما لم يتوغل أحد أيضاً في أرض الملوك السود . لهذا بدت إرسالية كورومان في نظر الكثيرين من الناس ضرباً من الجنون ، ولكن روبرت موفات كان يشعر بأن هذا واجبه، لذلك عمل مع القبائل المجاورة ، بحيث كان له تأثير على مزيليكازى وغيره من زعماء المتابيلى ، بفضل شجاعته وحكمته ، ولما كان مزيليكازى يرغب في مصادقة رجل أبيض ، دعا موفات لزيارته في قريته الواقعة في بولاوايو لاستشارته في عدة أمور . وبعد المقابلة رفض مزيليكازى أن يتنازل عن عدد من زوجاته ، وأن يعتنق المسيحية[٢] .

وكانت بعثة موفات الخطوة الأولي في نشر المسيحية بين القبائل الوثنية ، وقد اقتصر نشاطها على منطقة الجنوب الأفريقي ، كما أن موفات لم يكن له دور كشفي يستحق الذكر . وأما بالنسبة لدافيد لفنجستون فقد كان له دوراً بارزاً في مجال الكشف ، وفي مجال نشر العقيدة المسيحية ، ويتجلى ذلك في قيامه بنشر مبادئ الإنجيل بين الشعوب الأفريقية ، وبخاصة الوثنية منها ويتضح ذلك من هذا النص :

---

(١) كاثارين سافيدج : نفس المصدر ، ص ص ٦٠ – ٦٣ .

(٢) كاثارين سافيدج : ترجمة راشد البراوي : نفس المصدر ، ص ص ٨٦ – ٩١ ، ٩٣ .

" Livingstone purpose's in going to Africa had been to spread the word of God among the African people " [1] .

ولكن على الرغم من ذلك ، فإن مهمة لفنجستون لم تقتصر على نشر العقيدة المسيحية فحسب ، بل قام بالتجول في الكثير من الأقطار الأفريقية وبخاصة في جنوب أفريقيا ، فقد شاهد الموارد الإقتصادية لهذه الأقطار والممثلة في الحاصلات الزراعية والسلع التجارية والمعادن ، لهذا نجد لعابه يسيل أمام وفرة هذه الخيرات ، فنسي مهمته السامية الممثلة في نشر العقيدة المسيحية ، وتحول إلي داعية ، يدعو إلي الإستعمار ، أي أنه طلب من بريطانيا وبصورة رسمية أن تستعمر جنوب أفريقيا ، وبالفعل إستجابت بريطانيا لدعوة رجل الدين هذا . إذن يمكن القول بأن هذه الدعوة الدينية لم تكن دعوة صادقة خالصة ، بل كانت دعوة وسيلتها التستر خلف الدين ، وذلك للوصول إلي هذه المناطق ، والدليل على ذلك أن لفنجستون بعد أن تجول في جنوب القارة وقام بعبورها من الشرق إلي الغرب ، ثم من الغرب إلي الشرق ، طلب من بريطانيا أن تقوم بتحقيق هدفين ، أولهما نشر المسيحية ، وهذا في الواقع ليس ذات أهمية ، فهذا المطلب كان يقصد به الوصول إلي القارة ، ومعرفة ما تحويه من موارد . وقد تحقق ذلك بالفعل على أيدي الإستعماري الأسكتلندي دافيد لفنجستون .

وتمثل الهدف الثاني في فتح طريق للتجارة بين بريطانيا وجنوب أفريقيا ، وهذا الهدف في الواقع كان يمثل دعوة إستعمارية صريحة ، ويتضح ذلك من النص التالي :

---

[1] Elspth Huxley : Encyclopedia of discovery and Exploration the challenge of Africa . London ., 1971 , pp . 63 , 71 .

" In an address at Cambridge University Livingstone conclude : I beg to direct your attention to Africa . .. Which is now open . Don't let it be shut again ! I go back to Africa to try to make an Open path for commerce and for christianty "

وهكذا فيمكن القول بأن دافيد لفنجستون لم يكن مبشراً ، فحسب بل كان إستعمارياً صرفاً بل إنه إتخذ من نشر العقيدة المسيحية ستاراً ، يخفي من خلفه أطماع بريطانيا في إستغلال هذه الثروات الدفينة، وإذا كان لفنجستون قد نجح في كشف منابع نهر الزمبيزى ، وفي عبور القارة من الشرق إلي الغرب ، ومن الغرب إلي الشرق ، فإن كل من جون لودويج كراف John Ludwig Krapf ، وجوهان ربمان قد نجحا أيضاً في الكشف النهائي عن جبال شرق أفريقيا ، التي ظلت تمثل لغزاً حقيقياً ، بل وكانت رمزاً للخرافات والأساطير ، بحيث اعتقد الوطنيون بأنها مكان سكنى للأرواح الشريرة ، فكان من المعتقد أن أي شخص يذهب إليها كان من الصعب عليه العودة مرة ثانية . ومما لاشك فيه فإن هذين الرجلين قد أزاحا الغموض وبصورة نهائية عن جبال كليمنجارو ، وكينيا ، وعن الأخدود الأفريقي ، ولكن مع ذلك فلم يكن لهما دور بارزاً في المساهمة في الكشف عن منابع النيل ، وذلك لأنهما لم يتمكنا من الوصول إلي منطقة أعالي النيل ، ربما للعوامل الطبيعية التي تكتنف هذه المنطقة .

وعلى أثر هذه الإستكشافات ، أسرع سيسل رودس إلي منطقة جنوب أفريقيا ، وكان سيسل رودس هذا قد ولد عام ١٨٥٣ م ، حيث كان ينتمي إلي أسرة إنجليزية من الطبقة المتوسطة . وكانت أسرته هذه

---

(1) Elspeth Huxley .Ibid . pp 63 . 71 .

تعيش في بيشوب أستورت فورد Biship Stort Ford .وفي السنة السادسة عشرة من عمره ، أرسل إلي جنوب أفريقيا ليلتحق بأخيه هيربرت Herbert . وكان سيسل يعتقد في أنه يوجد هناك أحسن مناخ مشمس وصيحى في العالم ، ولكن فيما بعد كان له تأثير هام في مجرى تاريخ جنوب ووسط أفريقيا . فقد عمل هو وأخيه في زراعة القطن في إقليم ناتال ، ولكن المحصول كان رديئاً . وفي عام ١٨٧٣ ذهباً ليجربا حظهما في حقول الماس الموجودة في كيمبرلي ، وعاش معاً في معسكر للتعدين ، وكان هذا المعسكر مزدحما بعمال التعدين الذين أتوا لتجربة حظهم أيضاً، وكان الجميع يعيش تحت وطأة ظروف قاسية ، وبعد ذلك عاد سيسل رودس إلي إنجلترا ليكمل دراسته في جامعة أكسفورد ، وبعد ثمانية سنوات عاد إلي أفريقيا ، وكان هدفه هذه المرة العمل على مد نفوذ بريطانيا إلي أجزاء كثيرة من أفريقيا . وكان حلمه في أحد الأيام أن تتوحد كل أفريقيا تحت العلم البريطاني إبتداء من مدينة كيب تاون في أقصي جنوب القارة الأفريقية ، وحتى مدينة القاهرة في الشمال ، وإن صح القول إلي مدينة الإسكندرية .

وبعد ذلك أنتخب رودوس عضواً في برلمان كيب تاون ، وعلى الفور أصبح واحداً من أقوي الرجال في جنوب أفريقيا ، وقد مكنته هذه الظروف من القيام بتأسيس جزء من الإمبراطورية البريطانية في القارة الأفريقية ، وكان من الضروري على ردوس أن يتوسع صوب الشمال[1] فقام بتشكيل فرقة من الرواد في جنوب القارة بحيث يستقر أعضاؤها

---

[1] Guy Winchester – Gould : Rhodesia London , 1970 , p . 17 .

هناك كأول مستوطنين . وكان عدد هذه الفرقة يبلغ مائتي من الرجال تقريباً، وتكفلت شركة الهند الشرقية البريطانية بالإتفاق عليها . وكان البعض من أعضاء هذه الفرقة من المزارعين ، وأصحاب المحلات والبنائين، وكان البعض الآخر من رجال التعدين والجزارين والخبازين ، وقد عمل سيلوس Selous صياد الفيلة المشهور ، مرشداً ودليلاً لهذه الفرقة ، وكان سيلوس هذا قد زار من قبل هذا القطر ، وعرف " لوبنجولا Lobengula" معرفة جيدة ، وبالإضافة إلي ذلك ، فإنه وجد إلي جانب هذه القوة قوة أخرى كانت تتمثل في قوة بوليس الشركة ، فكانت هذه القوة تقوم بمصاحبة الرجال لحمايتهم من هجوم محتمل من جانب الماتابيلى Matabele ، أو من جانب الماشونا Mashona .

وفي يونيو عام ١٨٩٠ ، تجمع أعضاء هذه الفرقة الرائدة في بتشوانا لاند الشمالية (تعرف في الوقت الحاضر بيتشوانا لاند) الواقعة على حدود الماتابيلى . ومن هناك بدأت البعثة مهمتها الخطيرة صوب الشمال ، وقد واجهت البعثة الصعاب منذ بدأت الرحلة ، فلم يكن يوجد هناك طرق ممهدة ، فقد وجد فقط أدغال كثيفة وجبال وأنهار تفيض بالمياه ، كما كانت توجد فيها الحيوانات المفترسة بوفرة ، فضلاً عن وجود قبائل معادية ، زيادة على إنتشار حمى الملاريا .

وقد إمتطي أعضاء البعثة الخيول ، ومن خلفهم كانت تسير العربات المشحونة بالإمدادات التى تجرها الثيران . وكان من الضروري تمهيد طريق للثيران يمر من خلال الأدغال ، وعندما كانت العربات تصل إلي أي نهر عميق ، كانت الإمدادت تفرغ منها ثم تقوم الثيران بعبور

النهر ، وهي تجر العربات فارغة ، وعلى الجانب الآخر يعاد شحن جميع الأمتعة . وكان من حسن الحظ أن التماسيح لم تقم بمهاجمة أي فرد من أفراد البعثة ، ربما لخوفها من هذا الحشد من الأفراد ، وربما لأنها كانت قد تعودت على مثل هذه المناظر . وعندما عسكرت البعثة بالليل ، إتخذت العربات شكل دائرة محكمة لكي يحتمي في داخلها الرجال والدواب من خطر مهاجمة الحيونات البرية المفترسة بل ومن مهاجمة المقاتلين من الوطنيين .

وفي أثناء الرحلة قام أعضاؤها ببناء بعض الحصون ، كان منها حصن تولي Tuli ، الذي أسس عند نقطة البداية ، وحصن فيكتوريا الذي أسس عند نهر لمبوبو وسمى بهذا الأسم تشريفاً للملكة فيكتوريا .

وبعد فترة راحة قصيرة قاد سيلوس الفرقة إلي مسافة أبعد . وأخيراً وصل الرجال المتعبين إلي النهاية ، وهناك وقفوا على تل مسطح يشرف على سهل متسع . وفي اليوم التالي الموافق ١٢ من شهر سبتمبر عام ١٨٩٠ م ، رفع العلم البريطاني The Union Jack على هذه المنطقة ، وكان رفعه يمثل حادثة هامة ، بل وكان علامة بارزة على الاحتلال الأوروبي للأرض التي أصبحت تعرف باسم روديسيا . وهناك أسس حصن سليزبرى Salisbury نسبة إلي رئيس الوزراء البريطاني . وفي الوقت الحاضر ، أصبح حصن سليزبرى أكبر مدينة ، تمثل عاصمة روديسيا (في الماضي) .

وباحتلال البتشوانالاند ، كان الدور الأول لحلم سيسل رودس Cecil Rhodes قد تحقق ، فقد توحدت هذه المنطقة تحت الحكم البريطاني.

وعندئذ إعترف بروديسيا الجنوبية ، وبنياسالاند بأهما من الممتلكات البريطانية . وبتحقيق هذا النصر ، أصبح سيسل رودس في نفس السنة رئيس وزراء لمستعمرة كيب تاون Cape Town Colony [1] .

ونضيف هنا أن بريطانيا كانت تساند من جانبها هؤلاء المغامرين، وبخاصة بعد أن فقدت مستعمراهما في العالم الجديد ، فمن المعروف أن مستعمراهما في العالم الجديد كانت تمثل سوقاً إستهلاكية بالنسبة للسلع الصناعية البريطانية الزائدة عن حاجة سكاهما . فبعد نجاح الثورة الأمريكية في نهاية القرن الثامن عشر ، خسرت بريطانيا بذلك هذا السوق ، وكان عليها عندئذ البحث عن سوق جديد ، فلم تجد أمامها إلا السوق الأفريقي . ولكن السؤال المطروح هو كيف تصل بريطانيا إلي هذا السوق؟ الإجابة على هذا السؤال تكمن في أن بريطانيا أتخذت عدة إجراءات يتمثل أحداها في إرسال المغامرين إلي أفريقيا ، لكي يقوموا بالكشف عن المناطق المجهولة ، هذا من ناحيّة ، ومن ناحية أخرى كان عليهم أيضاً الوقوف على ما تحويه هذه المناطق المجهولة من ثروات طبيعية، ونباتية وغيرها ، ويعرف هذا من وجهة نظري باسم الإستعمار السلمي ، أما الإجراء الثاني الذي إتبعته بريطانيا فيتمثل في محاربة الرق في أفريقيا ، وفي الحقيقة أن هذه المحاربة لم تكن حقيقية ، ولم تكن من أجل تحرير الإنسان الأفريقي من العبودية ، بقدر ما كانت وسيلة تحقق بريطانيا من خلالها رغبتها في الوصول إلي قلب أفريقيا لكي تستغل موارد هذه القارة.

---

[1] Guy Winchester – Gould , Op . Cit pp . 20 – 23 .

وقد زاد من اهتمام بريطانيا بهذه القضية (الاستعباد) أنها لم تعد في حاجة إلي استخدام رقيق أفريقيا في العمل الزراعي أو الصناعي ، لأنه لم يعد لها مستعمرات فيما وراء البحار ، تكون في حاجة إلي مثل هـــذه الأيدي العاملة الرخيصة بل الأيدي المجانية . ولكن لو شاء القدر وتمكنت بريطانيا في تلك الفترة " نهاية القرن ١٨ ، وبداية القرن ١٩ " من إيجـــاد عالم جديد آخر ، وكان هذا العالم الجديد في حاجة إلي أيدي عاملة من أفريقيا ، فما نادت بريطانيا بوقف هذه التجارة على الإطلاق .

وقد شجعها على تبني دعوة إلغاء الرق أيضـــاً ، إن الصـــناعة في بريطانيا في ذلك الوقت (القرن ١٩) أصبحت متقدمة بل وأدى ذلـــك إلي أن حلت الميكنة الزراعية محل الإنسان في الزراعة .

ومن أجل ذلك إتخذت بريطانيا عدة خطوات منها ، أنها وضعت إحدي أساطيلها البحرية لمراقبة سواحل أفريقيا الغربية ، وذلـــك للقيـــام بتفتيش السفن الأوروبية التى تحمل رقيقاً ، ولكى يكون لها الحق في ذلك، فقد عقدت معاهدة مع دول أوروبا عرفت بمعاهدة التفتـــيش المتبـــادل Reciprocal Search Treaty وقد وافقت عليها بعض الـــدول الأوروبيـــة وعارضتها بعض الدول الأخرى [١] .

ومن الإجراءات التي اتخذتها بريطانيا أيضاً ، أنها وضعت أسطولاً في المحيط الهندي كي يراقب تجار الرقيق في شرق أفريقيا ، ومن المعروف أن دافيد لنفجستون قد طلبُ ذلك في مذكراته . وبذلك تكون بريطانيا قد أحكمت سيطرتها الفعلية حول القارة الأفريقية .

---

(١) فيج دي جي ، ترجمة د . السيد يوسف نصر ، تاريخ غرب أفريقيا ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٢٢٩ وما بعدها .

ولكن بقي عليها أن توسع نطاق هذه السيطرة شمالاً حتى بورسعيد فضلاً عن وصول نفوذها إلي داخل القارة الأفريقية ، لكي تهيمن بذلك على مصادر الثروة والمواد الخام في هذه القارة .

ولكن السؤال الآن كيف تصل بريطانيا إلي قلب القارة الأفريقية ؟ الأجابة على هذا السؤال ، أنها وجدت ضالتها في خديو مصر " إسماعيل باشا " ، لأن مصر في ذلك الوقت ، كانت أقوي دولة أفريقية يمكن الإعتماد عليها ، فكانت بريطانيا قد إتهمت مصر بأنها لم تعمل من جانبها على وقف تجارة الرقيق ، لهذا دعت بريطانيا مصر إلي المساهمة في وقف هذه التجارة ، فعقدت معاهدة في ٤ أغسطس عام ١٨٧٧ بين الدولتين عرفت بمعاهدة الغاء الرقيق في أفريقيا [1] . ويرجع السبب وراء لجوء بريطانيا إلي عقد مثل هذه المعاهدة مع مصر إلي عدم إثارة الدول الأوروبية الأخرى ضدها .

وبهذه الوسيلة تمكنت بريطانيا أولاً ، من التدخل في شئون مصر الداخلية ، وثانياً ، تمكنت من الوصول إلي أواسط أفريقيا أي أنها أصبحت تمارس جميع أنشطتها تحت إسم مصر التي أنتهي الأمر بإحتلالها عام ١٨٨٢ م .

ومن الواضح أن بريطانيا اختارت المناطق المكتظة بالسكان في أفريقيا ، ولم تختار الأماكن نادرة السكان ، حتى تكون لها أسواق إستهلاكية رائجة ، فاستولت في غرب أفريقيا على غانا ، وسيراليون ، وفي شرق أفريقيا على كينيا وأوغندا وجزء من الصومال ، وفي الشمال

---

(١) أنظر نص هذه المعاهدة في كتاب الوثائق التاريخية للسياسة المصرية في افريقيا في القرن ١٩ . المترجم .

الشرقي من أفريقيا إستولت على مصر . وبالتأكيد فإن هذه المناطق هـــي المناطق المكتظة بالسكان ، وهي التي تصلح لأن تكون أسواقاً إستهلاكية على جانب من الأهمية . ومما لاشك فيه أن المناطق المكتظة بالسكان هي المناطق الخصبة التربة ، بل والوفيرة المياه . (المترجم) .

الفصل الثامن

لغز النيل

الفصل الثامن

لغز النيل

كان لدى لودويج كراف Ludwig Krapf ، أمل كبير في حل أكبر لغز ، ألا وهو معرفة مصدر النيل ، ولكن لم يتحقق له هذا الأمل إلا في عام ١٨٥٣ م ، حال مغادرته منطقة رابيا Rabia ، وكان قد قابل أثناء وجوده في القاهرة أحد الرجال الذي كان له دور في حل هذا اللغز ، وقد زوده هذا الرجل بمعلومات خاصة يصف فيها جبال كليمنجارو Kilimanjaro Mountains ، وجبال كينيا Kenya Mountains ، والبحر الداخلي (من المحتمل أن يكون هذا البحر أحد البحيرات الإستوائية) الذي كان ربمان Rebmann قد فشل في كشفه (بحيرة فيكتوريا) .

وكان هذا المكتشف هو ريتشارد بيرتون Richard Burton ، الذي إشتهر يوماً ما بترجمته لقصة " ألف ليلة وليلة " حيث كتب عنه أحد أصدقائه الشعراء الذي يدعي سوينبرن Swinburn يقول " أن بيرتون كان شخصية غريبة الأطوار ، خيالي ، وسيئ الحظ ، وتبدو عليه الطيبة ، ومع ذلك فإنه كان يميل إلي الشر ، وقد ولد بيرتون عام ١٨٢١ م ، وكان والده يعمل ضابطاً بالجيش ، وكان في صباه متهوراً ، وغير منظم ومشاكس وقد قضي جزءاً من تعليمه في فرنسا ، حيث كانت أسرته تعيش هناك ، وبعد ذلك ذهب إلي جامعة أكسفورد . وفي خلال حياته مارس عدة أعمال منها عمله جندياً في الجيش ، ومكتشفاً وعالم للآثار ،

ومؤلفاً ، فضلاً عن أنه كان واحداً من كبار علماء اللغـــة والترجمـــة في عصره .

وفي أثناء خدمته في الجيش الهندي تعلم اللغة الهندوستانية ، وعدداً آخراً من اللغات الهندية ، ولكن إهتمامه الأساسي كان ينصب على تعلمه اللغة العربية ، التي بدأ يتعلمها بنفسه في جامعة أكسفورد . وقد إستفاد به الجيش (الجيش البريطاني) في أعمال المخابرات ، وأحب بيرتون هـــذا العمل السري المحفوف بالمخاطر ، فكان يتنكر في زي تـــاجر ويرتـــدي لحية،وشعراً مستعاراً ، بل وكان يدهن جلد جسمه بالحنـــة . وبعـــد أن تعرض لمرض الكوليرا أصيبت إحدي عيناه بمرض خطير . وعلـــى أثـــره سرح من الجيش ، وذلك لعدم لياقته ، وبعد ذلك عاد إلي انجلترا ، وهناك لم يكن له أمل في الحصول على وظيفة ، بل عكف على الكتابة ، فكتب عدة كتب عن الهند تضمنت وصفاً لشعوبها وعاداتهم وتقاليدهم ، كمـــا تضمنت مغازلاته للفتيات الهنديات البالغات سن الرشد ، واللاتي قابلهن هناك . وأثناء إحدي زياراته لفرنسا لاحظ فتاة شقراء جميلة ، في ســـن التاسعة عشر ، وعندما نظر إليها بعين فاحصة وقعت هذه الفتاة في حبـــه بجنون شديد ،وكانت هذه الفتاة تدعي إيزابيل أرونديل Isabel Arundell، وقد أخبرت إيزابيل أرونديل أختها حرفياً بما نصه " إن هذا الرجل سوف يتزوجني " .

وقد تأجل الزواج حتى عام ١٨٦١ م ، بسبب معارضـــة والـــدة إيزابيل ، ومع ذلك فقد كان كل من بيرتون وإيزابيل سعداء سعادة غامرة قبل وبعد الزواج . وكان على إيزابيل أن تتحمل سنوات من البعد عـــن

زوجها ، لأن بيرتون لم يكن يسمح لأحد بالتدخل في مشروعاته . وعندما تقابلا أول مرة كان مشغولاً في وضع خطة لبعثة سرية . وبحلول عام ١٨٥٢ م ، كان قد ترك لحيته تنمو ، بل وحلق شعر رأسه ثم تنكر . وكان هدفه من وراء ذلك الوصول إلي مكة المدينة الإسلامية المقدسة التي كان المكتشف جون لويس بركهاردت قد زارها قبل ذلك بحوالي ٤٠ عاماً .

وحيث إن مكه كانت محرمة على غير المسلمين فقد أمضي بيرتون شهراً في مدينة الإسكندرية مارس خلاله تعلم اللغة العربية ، بل وأتقن تنكره كطبيب مسلم ، وقد حقق بهذا نجاحاً كبيراً ، حتى أن أحد مرضاه عرض عليه الزواج من إبنته . وبعد ذلك ذهب بطريق النيل إلي القاهرة ، وهناك قابل كراف وكشف له عن هويته الحقيقية ، وقال له إنه لا يمكنه تصور مدي الأهمية التي يضيفها النيل على حياته . فبعد أن قضي عدة أسابيع في مكه – التي وصل إليها متخفياً – مارس أثنائها شعائر الصلاة المعقدة وأثناء تأديته لشعائر الحج المبرور ، تمكن من فحص الحجر الأسود الموضوع في الكعبة الشريفة ، الذي من المعتقد أن جبريل عليه السلام كان قد أحضره من السماء إلي سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وقد قضي بيرتون أسبوعاً في مكة ، وفي طريق عودته كتب كتاباً بعنوان " الحج إلي مكه " ، وكان كتاباً كلاسيكياً ، حاز قبولاً كبيراً للغاية . وبسبب نجاحه في التنكر ، فإنه تشجع على الفور وللمرة الثانية في الإعداد لمغامرة خطيرة ، كانت تتمثل هذه المغامرة في القيام بزيارة إلي مدينة هرر الجبلية ، التي تقع بين أثيوبيا وجمهورية الصومال الحالية .

وتعتبر هرر موطن الصوماليين المسلمين المتعصبين ، التي كانت غير معروفة إلي الأوروبيين ، وطبقاً للمعتقدات التي كانت سائدة بين أهلها فإن دخول أي كافر إليها يفقدها قدسيتها .

ومع ذلك فقد تمكن بيرتون من دخول المدينة (مدينة هرر) متنكراً في زي تاجر عربي متعلم ، وممتطياً بغلاً أبيض ذو لجام مزخرف ، وقد شملته الحماية بسبب حضوره لدي الأمير الذي كان متكئاً على أريكة وممسكاً بيده سيفاً عربياً كان بارزاً من تحت وسادته . وكانت حجرة الإستقبال مزينة بالأسلحة والسلاسل ، وآلات التعذيب ، وكان الأمير محاطاً بحرس من المحاربين أنصاف العراة ، وقد حملق الأمير بشك في بيرتون ، وذكره ذلك بأسطورة تهديد قدسية المدينة . واعتقد بيرتون أن كشف أمره يعني بالنسبة له الموت ، لكن بعد مدة طويلة وسكون ممل مد الأمير يده بلطف إلي بيرتون ، وابتسم إبتسامة لطيفة في وجهه ، وقال بيرتون ما نصه : " إن هذهِ الإبتسامة بالنسبة لي كانت بمثابة نجدة " وكان هذا تعليقاً مقتضباً لبيرتون . وبعبارته

"This smile ,I must own ,was relief was Burton's Laconic Comment " .

وأضاف بيرتون يقول أنه على إستعداد لمواجهة أسوأ الإحتمالات وأن جو العمل في داخل القصر كان على أية حال مطمئناً .

وقد تبع ذلك أيام من القلق والتوتر ، لأن الأمير كان يشك في بيرتون لهذا كان بيرتون مراقباً من جواسيس الأمير . ومع ذلك فقد تمكن بيرتون من القيام بعمل دراسة مفصلة عن المدينة وشعبها . ولكن عندما اتضح أن بيرتون لا ضرر من وجوده في القلعة ، فإن الحارس المحلي الذي

كان يرافقه ، عامله معاملة طيبة ، وعند هذا شعر بيرتون بأنه كما لو كان قد أنتشل من الموت .

وبعد ذلك إنضم بيرتون إلي أعضاء بعثته التي كانت تتكون من رجل إنجليزي يدعي جون هاننج سبيك ، الذي كان يعمل مساحاً وجيولوجياً ، وعالم نبات ، وكان يصغر بيرتون بست سنوات ، وكانت عيناه زرقوان ، ويميل لون شعره وشعر لحيته إلي السمرة المصفرة ، ويختلف في مظهره وشخصيته عن بيرتون . وقد عاش أسلافه لعدة أجيال في منطقة سومرست Somerset الواقعة في غرب (بريطانيا) وعاش في شبابه عيشة حرة طليقة ، وكان يفضل صيد الطيور عن الذهاب إلي المدرسة .

وقد خدم في الجيش البريطاني في الهند ، وقضي أجازاته في القيام برحلات صيد طويلة Hunting big Game في جبال الهيملايا . والآن فقد إتخذ طريقه إلي شرق أفريقيا ، كي يجمع عينات من الحيوانات النادرة والطيور ، وعندما إلتقي سبيك ببيرتون في عدن ، تخلي عن خططه الخاصة، وضم جماعته إلي الرجل الذي يكبره سناً (وهو بيرتون) .

وبعد ذلك أوكلت قيادة البعثة إلي بيرتون الذي كان قد إكتشف من قبل بلاد الصومال . وفي الأيام الأولي من هذا الإندماج ، أعجب سبيك بقيادة بيرتون بدرجة كبيرة . ولكن بعد الرحلة الأولي حدث إحتكاك بين الرجلين نتيجة للتناقض بين تصرف كل من بيرتون المتغطرس، والمتكبر ، وبين سبيك المتحفظ للغاية . وقد زاد هذا الخلاف بسبب حادثة أليمة تتمثل في أنه في إبريل عام ١٨٥٥ م ، عسكر الرجلان

على حافة مرتفعة في ميناء بربرة الواقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر، وفي أثناء الليل هاجمت عصابة من الصوماليين أفـراد البعثـة ، وهـرب الحارس المحلي وهو في حالة من الفزع ، وقتل أحـد أعضـاء البعثـة ، وكذلك ضرب أفراد هذه العصابة سبيك بالحجارة ، التي كانت تصوب إليه تصويباً جيداً ، وقد تحرك سبيك تلقائياً للخلف في إتجـاه خيمتـه . ولكن بيرتون صاح بالقول: لا تخطو أية خطوة للخلف يا سبيك ، حتى لا يعتقد الأعداء أننا نتقهقر ، وحثه على معاودة الهجوم ، ولكن (سبيك) سقط على الأرض بسبب تكرار الضربات الموجهة إليه بعصا الحـرب ، وبعد نهوضه طعن طعنات قوية ، في رجليه ويديه سقط على أثرها علـى الأرض . وفي الوقت نفسه طعن أحد الرماة بيرتـون بحربـة في فكـه ، فنفذت من الجانب الآخر ، وعلى أثر ذلك شق طريقه بصـعوبة نحـو الشاطئ ، وهناك انتزع بعض التجار البريطانيين الحربة من فك بيرتـون الذي جرح جرحاً خطيراً ، بحيث ظل يتألم منه طوال حياته ، وبدت عليه الكآبة والتشاؤم إلي الأبد . وعلى الرغم من الجروح التي أصـيب بهـا سبيك، إلا أنه ومعه واحد من الإنجليز الذين ظلوا على قيد الحياة ، قـد صارعا التعب حتى وصلا إلي الساحل . وكان (سبيك) مجروحاً فأعاقه ذلك من القيام بمزيد من الكشوف . وعلى هذا كان على البعثة العـودة إلي الوطن (بريطانيا) . وكان سبيك في تلك الأثناء مريضاً مرضاً عقليـاً وجسمانياً ، كما أنه لم ينس أبداً أن بيرتون قد اتهمه بطريق غير مباشـر بالجبن . وعلى الرغم من أنه لم يقل شيئاً من هذا ، في ذلك الوقت ، إلا أن الإتهام كان سبباً في تشويش تفكيره .

ورغم المرارة التي عاناها سبيك من بيرتون ، إلا أنه كان على إستعداد إلي أن يضم جماعته إلي بيرتون مرة ثانية. ففي نهاية عام ١٨٥٦م، وبعد أن خدم كل من الرجلين في حرب القرم The Crimean War ، عادا بعد ذلك إلي أفريقيا ، فقد أرسلتهما هذه المرة وزارة المستعمرات البريطانية The British Foreign office ، والجمعية الجعرافية الملكية The Royal Geographical Society ، وكانت التعليمات التي تلقياها تقضي بأن يكتشفا المصدر الحقيقي للنيل ، وكان عليهما أن يبدآ رحلتهما الأولي إلي بحر أوجيجي (بحيرة أوجيجي) Ujiji ، وكان بحر أوجيجي هذا عبارة عن بحيرة مجهولة شاسعة المساحة ، وغير معروفة الحجم ، وكان من المأمول فيه أن يكون هذا هو هدفهم ، وبعد ذلك يكون في الإمكان الذهاب إلي جهة الشمال للبحث عن بحيرة أخرى كان قد أشيع عن وجودها . وعندما كان بيرتون في هرر سأل عدداً من الأسئلة الخاصة بالنيل ، وفي القاهرة تحدث كراف إليه عن النيل ، وعن جبال القمر الغامضة . وكان كراف مدركاً للإدعاءات التي أطلقها كل من الآباء بيز Paez ولوبو Lobo وجيمس بروس . وقد إقتنع كراف بهذا الدليل الوارد في التقارير الدقيقة للجزويت ، وعلى الرغم من أن كراف كان يعتقد في أن بروس كان مخطئاً في مبالغته ، إلا أنه مع ذلك إعتقد وبصفة أساسية في أن بروس كان على علم بالحقيقة . وبعد مرور ٩٠ تسعين عاماً تقريباً على المغامرات التي قام بها بروس في الحبشة ، بدأ الجغرافيون في النهاية يشكون في أنه من المحتمل أن يكون بروس على صواب فيما أورده . وبالطبع ، وكما رأينا فإن بروس رأى منبع النيل الأزرق ، وليس المجرى

الأصلي Stream Parent للنيل الأبيض . ولم يكن اكتشاف جميع منابع النيل الأبيض قد تمت ، ولم يتمكن الجغرافيون بعد من معرفة ما إذا كان لهذا النيل منبع أو أثنين .

وعندما وصل بيرتون وسبيك إلي زنجبار قابلا المبشر Missionary جوهان ربمان Rebaman ohann ، الذي حذرهم من أن الطريق الذي ينويان اتخاذه من ممبسا وحتى الداخل محفوفاً بالخطر بسبب وجود قبائل المساي المحبة للحرب ، لذلك قرر كل من بيرتون وسبيك بدلاً من ذلك أن يبدأ رحلتهما من باجا مايو Bagamayo التي تقع على الساحل الغربي للمحيط الهندي والتي تكون أكثر قرباً من الجنوب .

وقد تأخر كل من بيرتون وسبيك في باجامايو مدة ستة شهور ، بسبب إعداد الحمالين وشراء المؤن ، وإتمام الشفاء من نوبة حمى شديدة ، وقضي بيرتون نقاهته في تعلم اللغة السواحيلية ، التي يتحدث بها السكان في الداخل ، ولكن سبيك الذي لم يستطع التحدث بالعربية ، أو بأي لغة أجنبية أخرى لم يتمكن من التعرف على أي أشخاص ، إلا عن طريق الإشارات ، فقد جعله هذا مفعم بالشك ، ليس فقط في العرب والأفارقة، ولكن أيضاً في بيرتون الذي أرتاب في أنه يتآمر ضده (أي ضد سبيك). وفي خلال تلك الرحلة التي قطع فيها الرجلان مسافة طولها ١٠٠٠ ميل إلي الداخل ، دب الكره والخلاف فيما بينهما ، لأن سبيك الذي كان فيما مضي معجباً ، بل ومدين بالإحترام لبيرتون ، نظر إليه الآن على أنه إنسان ديكتاتوري ومتعجرف ، وفي الوقت نفسه نظر بيرتون إلي سبيك على أنه كئيب وكتوم .

وحتى لو أنهما بقيا أصدقاء وعلى أحسن ما يرام ، فإن الرحلة كانت صعبة للغاية ، فالحمالون إستمروا في هروبهم ، وكان من الممكن أن تكون دواب الحملة قد نفقت بسبب مرض ذبابة — تسي تسي - tse tse fly ، وكان المكتشفان أنفسهما يتألمان بسبب لدغات الحشرات الأخرى ، هذا فضلاً عن أن الآلات العلمية التي كانت لديهما ، ومعظم مهماتهما كانت قد فقدت ، كما لم يكن لديهما فائض في الملابس سوي ما يرتديانه ، حتى أن هذه الملابس كانت قد تمزقت بسبب مرورهما وسط الأشواك ، لذلك كان عليهما أن يرتديا ملابس صنعت من قماش لبطاطين . وبعد ذلك واصل الرجلان مسيرهما من خلال الطريق الساحلي الذي يوصل إلي بلدة طابورة الواقعة في وسط تنزانيا في الوقت الحاضر ، وكانا قد مرا من خلال منطقة ساحلية مليئة بالأدغال الكثيفة ، والموجودة في وسطها ، كما وجد بها مستنقع عميق ملئ بالطمي ، ومغطي بجذور سميكة للأشجار ، كما وجد أيضاً ما يربو على ثلاثة سلاسل جبلية . وقد أصيب الرجلان (سبيك وبيرتون) بمرض الحمي حتى أن بيرتون أصبح ضعيفاً بحيث لم يعد يقوي على السير ، واستغرقت هذه الرحلة إلي بلدة طابورة ١٣٤ يوماً ، قطعا خلالها ٦٠٠ ميلاً ، وهناك (أي في طابورة) أكد التجار العرب إشاعة مفادها أنهم سمعوا من قبل عن عدم وجود بحيرة واحدة ضخمة فقط ، كما توضح خريطة إرهاردت Erhardt's Map ، ولكن يوجد العديد من البحيرات ، منهم إثنتان كبيرتان ، ومن المرجح أن تكون هذه البحيرات متصلة بنهر ، ولكن لا أحد يعرف ما إذا كانت متصلة بالنهر من عدمه .

وقد قرر بيرتون أن البحيرة القريبة هي هدفهما الرئيسي ، وقبـــل وصولهما إليها بمدة طويلة ، كان بيرتون قد أصيب بالحمي التي منعته من السير ، بل وكان يحمل على (نقالة) ، هذا فضلاً عن أصابتهما بمـــرض في أعينهما حتى أن سبيك أصبح أعمي بصفة مؤقتة . لذا فإنهما صـــارعا معا المشقة طوال الرحلة التي يبلغ طولها ٤٠٠ ميل ، وفي العاشر من شهر فبراير عام ١٨٥٨ م ، سجل بيرتون بالعين المجردة خط الأفـــق ، الـــذي يلامس الحافة الذهبية للبحيرة ، وقد تسلقا حافة التل الصخري ونظرا إلي أسفل من خلال سياج من الأشجار ، ورأي بيرتون شئ ما يلمـــع مـــن خلال خط الضوء الذي يقع أسفله ، فسأل مرشدهما العربي عن ذلـــك فأجاب المرشد بالقول ما نصه : " إن هذا في رأيي هو الماء ، وأضاف أنه في الواقع بحر أوجيجي (بحيرة تنجانيقا) . فمن قمة التل بدت صـــغيرة وغير هامة ، والسبب في ذلك يرجع إلي أنهما (بيرتون وســـبيك) رأي ركناً فقط من البحيرة ، وفي تلك الأثناء رغب بيرتون في العودة ، وعلى وجه السرعة ، وكان يرى من وجهة نظره الكشف عن بحـــيرة نيـــانزا Nyanza أو البحيرة الشمالية ، وكيفما كان الحال ، فقد تقدم يـــاردات قليلة ، وفجأة وبصورة كلية برز أمام أعينه منظـــراً مـــلأه بالأنـــدهاش والبهجة ، وبعبارة المصدر :

" The whole scene suddenly burst uppon myview , filling me with admiration and delight , ... " .

وكان بيرتون وسبيك من الأوروبيين الأوائل اللذين إكتشفا أكبر بحيرة في العالم ذات مياه عذبة ، وتمثل هذه البحيرة فوهة بركانيـــة ذات لـ ١٠ أ. ق حمما تقع وسط صخو، رملية صفراء . وفي هذه اللحظة تبدد

الإندهاش من عيني سبيك وكتب من قمة القرن الشرقي من البحيرة يقول " لا يمكن لأي فرد سواي أن يري جمال وبهاء بحيرة تنجانيقا " .

وقد نزل الرجلان إلي أسفل التل ووصلا إلي مستعمرة أوجيجي ، الواقعة على الشاطئ الشرقي للبحيرة ، وهي عبارة عن قرية ضخمة مزدحمة بالأكواخ ، ويوجد بها سوق للرقيق ، ملئ بالأطعمة الطازجة المعروضة للبيع ، والممثلة في اللبن والدجاج والبيض والخضروات . وكان كل من بيرتون وسبيك قلقين بسبب كشف هذه البحيرة ، وبخاصة عندما أخبرهما بعض تجار العبيد العرب بأنهما زارا الناحية الشمالية من البحيرة وشاهدا نهراً ضخماً هو نهر الروسيزي Rusizi الذي يخرج من البحيرة وقد جعل هذا المكتشفان يعتقدان في أن النهر هو نهر النيل ، ومع هذا ، فقد حذرهما التجار من أنهما ربما لا يعودان أحياء مرة ثانية ، لأن القبائل التي تقطن على الشاطئ المقابل كانت من آكلي لحوم البشر ، وتلك التي تقطن في أقصي الشمال من البحيرة من آكلي لحوم البشر أيضاً بل وأكثر توحشاً .

وعلى الرغم من هذا التحذير ، إلا أن بيرتون وسبيك أستأجرا قاربين وبعض البحارة ، الذين قاموا بالتجديف لهما عبر البحيرة ، وقد ساروا جميعاً على طول الشاطئ الغربي ، وكتب بيرتون يقول ما نصه : "إن القبائل التي كانت تقطن بجوار الشاطئ كان من الواجب فحصهم كما لو كنت أتفحص لحم الجزار" ، ولكن لم نتعرض من جانبهم لأي أذي . ولقد مكث الرجلان في قرية ليست بعيدة عن النهاية الشمالية للبحيرة وهناك قابلا التجار العرب الذين رأوا نهر الروسيزي Rusizi ،

والذين أصروا على أن هذا النهر يدخل البحيرة أي يصب في البحيرة ولا يخرج منها ، وكان في إمكان بيرتون الذهاب إلي هناك لكي يتأكد من هذه الرواية ، ولكن البحارة إنزعجوا عندما سمعوا أن هذه القبائل كانت من آكلي لحوم البشر ، لذلك أصروا على العودة وعدم مواصلة المسير ، وعادوا إلي أوجيجي دون التوصل إلي حل لمشكلة النيل .

وكان بيرتون لا يزال مريضاً ، لذا إقترح التخلي عن تكملة الرحلة والعودة إلي الساحل ، ولكن سبيك الذي كان قد شفي بصره ، رغب في تنفيذ التعليمات الخاصة بكشف البحيرة من جهة الشمال ، وطبقاً للإشاعة التي أطلقت فإن هذه البحيرة كانت أكبر من بحيرة تنجانيقا ، لذلك وافق بيرتون على الإنتظار ، بينما يذهب سبيك بمفرده لمحاولة الكشف عن هذه البحيرة . وقد اقتفت البعثة آثار الأقدام أو الطريق الذي سلكاه من الساحل إلي طابورة ، وبعد ١٦٠ يوماً من السفر المدهش في سهولته ، وصل سبيك إلي شواطئ البحيرة الضخمة لدرجة أنه قال مؤكداً إنه من المحتمل أن هذه البحيرة تمتد إلي آخر العالم ، وأنه في الواقع كان قد إكتشف أكبر بحيرة في افريقيا ، التي تعتبر بحراً داخلياً مساحته ٢٦,٠٠٠ ميل مربع ، فمن الإشاعات والأدلة التي جمعها سبيك أصبح الإعتقاد بأن هذه البحيرة التي سماها بحيرة فيكتوريا كانت تمثل المصدر الرئيسي للمجري الضخم للنيل ، والتي كان الأب موسي Father Moses ، قد طاف فوق مياهها في مغامراته الأولي ، وبخاصة عندما حاول الإبحار في النيل ، وبعبارة المؤلف :

That floated father Moses on his first adventurous sail the Nile .

وبالتأكيد فإن سبيك قد نجح في حل هذه المشكلة الخاصة بالنيل ، فقد كان طموح ملوك العالم الأول يتمثل في حل هذا اللغز (الكشف عن النيل) ولكن مع ذلك فلم يثبت سبيك بالدليل القاطع كيف أنه تمكن من فحص قسم صغير فقط من النهاية الجنوبية للبحيرة ، وأخيراً عاد منتصراً ليخبر بيرتون بأنه إكتشف منبع النيل ولكن بيرتون شك في قوله تماماً . حيث لم يوافقه على إقتراحه الذي يقول أنه ينبغي عليهما عمل فحص كامل لهذه البحيرة ، ولكن بيرتون قال بإصرار ينبغي علينا العودة إلي أرض الوطن ، وأضاف طبقاً لما ذكره سبيك أنه حالما يستردا صحتهما تماماً ويحصلان على المال اللازم فإنه في هذه الحالة يمكنهما العودة سوياً لأنهاء رحلتهما (الخاصة بالكشف عن منابع النيل) .

وقد أصبحت الآن العلاقات بين الرجلين أكثر إنهياراً عما كانت عليه من قبل . وفي أثناء رحلة العودة إلي الساحل ، كان سبيك مريضاً لدرجة كبيرة بحيث أنه وصل إلي حالة الهذيان ، بينما كان بيرتون يقوم بتمريضه ، وكان عليه أن يسمع هذيانه بسبب مرضه المزمن بالحمى . وفي تلك الأثناء كان سبيك يهذي ويتهم بيرتون بدون سبب أنه لا يحتمل العمل ، ولا يعضده في مهمته ، وقد وجه سبيك السباب إلي بيرتون ، بسبب رفضه للإعتقاد بما قاله من أن بحيرة فيكتوريا تمثل المصدر الرئيسي للنيل ، ودار في تفكيره إتهام بيرتون الضمني له بأنه جبان .

وقد استغرقت رحلة العودة أربعة شهور حتى وصل الرجلان إلي الساحل ، وبذلك تكون هذه الرحلة قد استغرقت أقل من عامين . وفي ذلك الوقت قرر سبيك الذي تحسنت صحته العودة مباشرة إلي أرض

الوطن ، بينما بيرتون الذي كان مشتت الذهن ، وضعيف الجسم ، قد قرر البقاء لعدة أيام في عدن . وفي الظاهر بدأ الصديقان وكأنهما على ما يرام وبموجب ما قرره بيرتون فإن سبيك قد تعهد أن ينتظر وصول بيرتون إلي لندن ، كي يقوما معا بتقديم تقرير مشترك إلي الجمعية الجغرافية الملكية.

وطبقاً لما حدث فإن بيرتون قد وصل إلي لندن متأخراً إثني عشر يوما عن سبيك ، فوجد سبيك قد قام فعلاً بتقديم تقرير عن كشوفاته ونظريته ، إلي السير رودريك مارشيزون Roderick Murchison رئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، وبناء على طلب السير رودريك مارشيزون ، فقد قام سبيك بإلقاء محاضرة على أعضاء الجمعية الجغرافية . وقد ترك سبيك أثراً طيباً كان من نتيجته أن التمويل اللازم للبعثة الثانية التي ستذهب إلي بحيرة فيكتوريا ، قد جمع له . وقيل أنه لو وجد منفذاً عند نهايتها الشمالية ، فمن المحتمل أن يكون هذا المنفذ هو النيل ، وعليه أن يتتبعه حيثما يتجه وحتى نهايته ، وسوف تشير هذه البعثة إلي أرض غير مكتشفة . وكان من المأمول فيه أن يضع سبيك نهاية إلي مشكلة النيل كما كان عليه أيضاً أن يكتشف المكان الحقيقي لجبال القمر ، ومن قبل كان كل من بيرتون وسبيك قد إختلفا حول موقع هذه الجبال ففي الوقت الذي اعتقد فيه سبيك أنها تقع في المنطقة الواقعة قرب الطرف الشمالي لبحيرة تنجانيقا ، قرر بيرتون أنها تقع في أقصي الشمال الشرقي ، أي بين بحيرة فيكتوريا ومنطقة أعالي النيل .

وكان الرجل الثاني في قيادة هذه البعثة بعد سبيك هـو صـديقه الكابتن جيمس جرانت Captin James Grant الضابط السابق في نفـس الفرقة التابعة للجيش البريطاني في الهند . وكان جرانت رجـلاً لطيفـاً ومتواضعاً ، كما كان في نفس سن سبيك ، فلم يطلب أبداً لنفسه قيادة البعثة ، كما أنه لم يطلب أيضاً إدعاء بالشرف أو المجد .

وقد اقترح بيرتون الذي لم يدع إلي هذه البعثة أن يكون هنـاك بعثتان تبدآن من نقطتين مختلفتين ، ولكن لم يؤخذ برأيـه . وفي الواقـع كافأته الجمعية الجغرافية بالميدالية ، ومن الواضح أن الجمعية كـان لهـا إهتمام كبير بكشف سبيك لبحيرة فيكتوريا أكثر من إهتمامها بكشـف بحيرة تنجانيقا . ونتيجة لهذا التصرف من جانب سبيك فقد أضير بيرتون، وغضب غضباً شديداً ، وكان غضبه يمكن أن يكون أكثر لـو علـم أن سبيك في أحاديثه العامة والخاصة كان يقلـل مـن إنجازاتـه وقدراتـه الشخصية.

وفي نهاية عام ١٨٥٩ م نشر سبيك سلسلة من المقالات التي مـن خلالها أكد أهمية كشفه الخاص ، بل وقلل من أهمية كشف بيرتون ، وقد أخطأ سبيك انتقدير الخاص بالموقع الحقيقي لـبحيرة فيكتوريـا علـى الخريطة، وادعي أن النهر الذي سمع عنه ولم يره ، من المحتمل أن يكـون نهر النيل ، وأصر على أن جبال القمر المحيرة ، كانت في الحقيقة السلسلة الواقعة بالقرب من بحيرة تنجانيقا . ومن ناحية أخرى بقي بيرتون ثابتـاً على رأيه الذي يقول " إن جبال القمر كانت جبالاً ذات قمم ثلجيـة ، تقع في أقصي الشمال الشرقي من بحيرة تنجانيقا "

وكان الخلاف على موقع جبال القمر * واحدة من نقط الخلاف بين بيرتون وسبيك ، فكان بيرتون الدي يعتقد في وجود أربع بحيرات كبيرة في وسطٍ أفريقيا ، يأمل في أن يثبت أن بحيرة تنجانيقا هي مصدر النيل . وفي كتابه المعنون بـ " إقليم البحيرة في وسط أفريقيا " Lake Region's in Central Africa ، الذي نشر عام ١٨٦٠ م ، والذي لم يجازف بيرتون فيه بتأكيد إدعائه . كما أنه في نفس الوقت لم ينكر هذا الادعاء ، وفي سياق إستيائه من سبيك إتهمه بأنه غير ملائم للقيام بأي عمل آخر ، ولكنه (سبيك) يصلح فقط للقيام بالأعمال الثانوية ، وانتقد بيرتون السرعة التي ظهر بها سبيك أمام الجمعية الجغرافية البريطانية، وفي هذا الصدد يقول بيرتون :

" لهذا فإنه من الواجب إتخاذ الإجراءات لضمان حقه في العمل الذي بدأه " .

وكان كل من سبيك وجرانت قد غادرا بريطانيا إلي أفريقيا قبل أن يظهر كتاب بيرتون ، ومن المعروف أن لفنجستون كان في أفريقيا قبل ذلك الوقت في منطقة بحيرة نياسا Nyasa ، وقد ترك بيرتون تقتله الكآبة والغضب ، فكان قد أنفق مقداراً كبيراً من أمواله ، من أجل مغامراته في أفريقيا ، وهو في ذلك الوقت كان في حاجة إلي عمل ، وكانت الوظيفة الوحيدة التي عرضت عليه هي وظيفة بسيطة أقل من مستواه ، وهي

---

* في عام ١٨٨٩ م ، تم كشف جبال القمر بمعرفة المكتشف هنرى مورتون إستانلي ، الذي قال أنها تقع في الشمال والغرب ، وتمثل هذه الجبال سلسلة رونزوري Ruwenzori ، ويبلغ إرتفاع قممها العالية حوالي ١٧,٠٠٠ قدم . ويمكن مراجعة ذلك في ص ١٥٠ من النسخة الأصلية للنص الإنجليزي .

وظيفة قنصل بريطانيا في جزيرة فرناندوبو الأسبانية ، وهي الجزيرة التي كان قد أبحر منها منذ ما يقرب من ثلاثين عاماً كل من لاندر وأخوه .

وكره بيرتون جزيرة فرناندوبو ، لذلك أخذ يواصل كشفه لدلتا نهر النيجر ، فقد تسلق جبال فيكتوريا التي كانت حتى ذلك الوقت تمثل سلسلة من الجبال غير المدرجة ، والتي تقع في منطقة الكاميرون ، أي في جنوب نيجيريا ، وفي سياق تعليق بيرتون على ذلك قال : " لابد أن أكون الأول ، فإن ذلك يعني كل شئ بالنسبة لي ، أما أن أجيء في المؤخرة ، فإن ذلك يكون شيئاً غير عادياً " وواصل بيرتون كشوفاته في كل مكان من المنطقة التي يعمل بها كقنصل لبريطانيا ، فقد سجل قدراً كبيراً من المعلومات القيمة عن هذا البلد وعن تقاليد شعبه .

وفي ذلك الوقت كان كل من سبيك وجرانت يتعمقان في سفرهما ، فقد سلكا الطريق القديم الموصل إلي طابوره ، وبعد ذلك توغلا جهة الشمال في داخل ممالك مجهولة في أوغندا ، وقد قابلهما رومانيكا Rumanika ملك مملكة كراجوي Karagwe بحفاوة كبيرة ، وكان رومانيكا هذا يملك عدداً كبيراً من الزوجات اللائي كن مشهورات بأحجامهن ، زاللائي كن يعيشن جميعاً على اللبن ، لذلك كن كبيرى الحجم ، حتى أنهن كن لا يستطعن الوقوف بإستقامة ، ولكنهن كن يرتمين على الأرض مثل الحيوانات .

وقد أصيبت أحد أرجل جرانت بالتسمم لذلك بقي في كراجوي، بينما واصل سبيك المسير إلي مملكة بوجندا ، الواقعة على الشاطئ الشمالي من بحيرة فيكتوريا ،وكان يحكم مملكة بوجندا هذه الملك موتسا Mutesa،

الذي كان يتميز بطول القامة ووجاهة الشكل ، وكان يحلق شعر رأسه باستثناء تركه خصلة منه تتوسط رأسه . وكان شعر هذه الخصلة لطيفاً ، كما أنه كان يلف جسمه في عباءة جميلة مطرزة بخيوط جلدية مذبوغة ، وكان يضع حول عنقه وحول أسفل أرجله صفوفاً من الخرز ، كما كان يلبس خاتم في كل أصبع من أصابع يديه ، وفي إبهام قدميه ، وكان يتميز بالأسلوب اللطيف ، مع أنه كان طاغية في سلوكه . وكتب سبيك في يومياته يقول ما نصه : " إن صاحب الجلالة (الملك موتسا) لم يقتنع بأي شئ أبداً ، حتى أن رعاياه كانوا يزحفون أمامه على الأرض مثل الدود الصغير " وكان موتسا يفزع أو يتضايق من الحياة الرغدة التي يعيشها شعبه في بلاده . وعندما قدم سبيك بندقية إلي موتسا ، أخذها منه ، وأعطاها بالتالي إلي خادم من خدمه الخاص ، وأمره أن يذهب إلي الخارج، وأن يطلق النيران على أحد الرجال خارج الفناء ، وعلى الفور ، عاد هذا الخادم وأعلن بكل فخر عن نجاحه ، فسأله موتسا ، هل فعلت كل ما أوكل إليك جيداً ؟ فأجاب الخادم بالقول ، إن المطلوب قد تم بطريقة ممتازة . ومع هذا فلم يجرؤ أي إنسان أو يتجاسر بالسؤال عمن قتل وهويته وإلا فقتل مثله .

ولا يمثل موت أحد الرجال من رعية الملك موتسا ، أي شئ بالنسبة له ، فأفراد رعيته كانوا يعذبون ويقتلون بإستخفاف حتى يشبع نزواته . ولم يعد ذلك بالأفراد ، ولكن يعد بالمئات ، وقد إرتكب موتسا أفظع الأفعال وأشنعها نتيجة لتأثير السحر والشعوذة والأطباء والدجالين ، ويذكر سبيك بهذه المناسبة أن موتسا كان في بعض الأحيان يقتل ما يزيد

على ٢٠٠٠ ضحية . ورغم كل هذه الأعمال البربرية ، إلا أن بوجندا Buganda كان لها حضارة خاصة ، فكان الملك مطلق السلطة ، بحيث توجد تحت رئاسته سلسلة من الممثلين لكل منهم مسئولياته الخاصة وسلطاته ، فلا يستطيع أي شخص أن يعترض على المرسوم الملكي ، ولكن على الرغم من ذلك فإن الملك موتسا كان له القدرة على التصرف بطريقة لبقة كما كان لديه إحساساً بالعدل ، إلا أنه والغالبية العظمي من حاشيته كانوا يمارسون الأسلوب الهمجي الذي مارسه أسلافه من قبل .

وقد قضي سبيك ثلاثة شهور في بلاط موتسا قبل أن ينضم إلي جرانت ، الذي كان لا يزال يعرج ، ولكنه مع ذلك ، كان في صحة جيدة . وقد بدأ كل من سبيك وجرانت الرحلة من كراجوي Karagwe حيث عبر النهر المعروف بنهر كاجيرا Kagera الذي يصب في بحيرة فيكتوريا ، ولا يتدفق منها ، وكان كل من سبيك وجرانت قد عرفا أنه لم يكن النيل ، وذلك لأنهما عندما كانا في بلاط موتسا علما عن وجود نهر كبير آخر يقع في الشرق من نهر الكاجيرا ، بحيث يخرج من البحيرة . ولقد جعلهم هذا يقرران بالقول ، إن هذا النهر هو نهر النيل ، لهذا تجرأ الرجلان على تتبعه . وكان موتسا على مضض من أن يدعهما يواصلان الرحلة ، ولكنهما في ١٧ يوليو ١٨٦٢ م حصلا على موافقته (موتسا) ورحلا مع قافلة ، ومعهما حرس (من المحتمل أن يكون موتسا هو الذي منحهما إياه) وبعد يومين من المسير إنفصلا كل من جرانت وسبيك ، فذهب جرانت صوب الغرب متجهاً إلي مملكة البونيورو Bunyoro ،

وذهب سبيك صوب الشرق تجاه النهر ، حيث كان مصمماً أن يصل إليه بمفرده .

وإذا خاب أمل جرانت (في مهمته) فإن ذلك يرجع إلي أن سبيك حرمه من فرصة الوصول إلي الهدف الذي طال إنتظاره ، وأنه لم يفصح عن ذلك أبداً ، ومع ذلك فقد ظل جرانت على ولائه لصديقه ولكن بطريقة نظرية ، وفيما بعد وعندما سئول جرانت أن يفسر تصرف سبيك غير العادي نحوه ، قال ما نصه :

" أنني تخيلت إنني سأظل رغم ذلك ملازماً لسبيك " .

وقد تمكن سبيك ، ومعه الحرس الخاص به من الوصول إلي النيل ، عند منطقة أوروندوجاني Urondogani ، وكان ذلك في ٢١ يوليو من نفس العام ، وتقع أورندوجاني هذه على مسافة ٤٠ ميل من خروج النيل من بحيرة البرت ويقول سبيك ما نصه : -

" وقفت على حافة النيل ، وكانت المناظر الطبيعية جميلة في جملتها، ولا يوجد شيئ يجاوزها في هذا المجال ، إنه إنجاز كبير وذو مغزي مؤثر ، تمثل في كشف منطقة شاسعة ، يسير من خلالها مجري هام ، يبلغ عرضه ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ ياردة ، وتتناثر في بعض أجزائه الجزر الصغيرة والصخور " .

وتتبع سبيك النهر صاعداً من مجراه ، وفي ٢٨ من شهر يوليو عبر التلال ، وعبر كذلك منطقة مستطيلة من الحشائش الكثيفة ، فضلاً عن عبوره لقرية كبيرة مكتظة بالسكان ، كانت قد دمرت من قبل بواسطة الفيلة ، وبعد ذلك ، وصل إلي نهاية الرحلة ، وقد كوفيئ على العمل الذي

أنجزه . وبعد ذلك وصل سبيك إلي الشلال الذي من خلاله يبرز النهر من الشاطئ الشمالي للبحيرة . ويضيف سبيك في قوله ، ما نصه : " ورغم هذا الجمال فإن المنظر كان على غير ما توقعت ، لأن سطح البحيرة كان محجوباً عن الرؤية بسبب قمة تل ، وبسبب الشلالات التي يبلغ عمقها ١٢ قدماً ، ويبلغ عرضها ما بين ٤٠٠ ، ٥٠٠ قدم ، حيث كانت تمزقها الصخور ، وكان هذا المشهد وهدير المياه يثيران أي شخص لساعات طويلة ، وكان يقفز آلاف المسافرين للصيد إلي التلال بكل قوتهم ، فكان الصيادون من قبائل الواساجا Wasaga ، والواجاندا Waganda ينزلون من مراكبهم ، ويأخذون أماكنهم على الصخور ومعهم العصيان والخطاطيف (صنانير الصيد) ، وذلك لصيد أفراس النهر والتماسيح التي ترقد نائمة على سطح المياه ، كما كانت توجد المعديات التي تستخدم عند الشلالات أثناء العمل ، كما أن الماشية كانت تقاد لتشرب من عند حافة البحيرة ، ويشكل هذا كله – بالإضافة إلي منظر القطر الطبيعي ، والتلال ذات القمم البيضاء التي تنمو الأشجار على مدرجاتها العليا ، والتي تنمو الحدائق على منحدراتها السفلي – صورة جميلة يرغب أي شخص في مشاهدتها . وفي هذا الوقت ، كانت بعثة سبيك قد أنجزت مهامها ، ويقول سبيك ما نصه : " لقد رأيت النيل الرئيسي دون أدني شك ، يخرج من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، وقد تنبأت بأن البحيرة (فيكتوريا) تمثل المصدر الكبير للنهر المقدس ، الذي زاره المفسر الأول لعقيدتنا الدينية .

وقد أطلق سبيك على هذه الشلالات شلالات ريبون Ripon falls الذي تولي رئاسة الجمعية الجغرافية الملكية بعد اللورد جري L . Gray عندما كانت بعثة سبيك تواصل مهامها .

وبعد شهر التحق سبيك بجرانت في البونيورو Banyaro ، التي كان يحكمها ملك يسمي كامرازي Kamrasi ، الذي تحفظ على كل من سبيك وجرانت لعدة أسابيع في شبه أسر . وهناك علما بوجود بحيرة تقع في الشمال الغربي من بحيرة فيكتوريا ، ويبدو أنه من المحتمل أن تكون هذه البحيرة المصدر الثاني للنيل ، وعلى الرغم من ذلك فإن سبيك لم يقم بأية محاولة لاكتشافها ، فبدلاً من ذلك ، إتجه إلي الشمال صوب غندوكرو ، التي كانت تمثل محطة لتجار الرقيق العرب في النيل الأبيض في السودان ، وهناك كان ينتظر الحمالين الجدد والمؤن ، وفي هذا الوقت كان سبيك قد فقد كل أمتعته ، وكان هو وجرانت في حالة تعب ، فقيامهما برحلة تقليدية في بلاد مجهولة تماماً ، كانت تعرض حياتهما للخطر .

وقد إستغرقت رحلة كل من سبيك وجرانت إلي غندوكرو ثلاثة شهور ، وعندما أدرك الأثنان النهر ، حاولا أن يهبطا معه ، ولكنهما أجبرا على العودة بطريق البر بسبب الشلالات ، وكان عليهما التقدم بصعوبة إلي الأمام سيراً على الأقدام . وبعد ذلك وصلا إلي غندوكرو في ١٣ من شهر فبراير عام ١٨٦٣ م ، أي بعد سنتين ونصف تقريباً من بدء الرحلة .

وقد انتاب الغضب الشديد سبيك ، بسبب قلة عدد الحمالين والنقص في المؤن ، فبدلا من ذلك قابل سبيك دون توقع مكتشف بريطاني آخر ، كان هذا المكتشف صياداً قوياً ، ورحالة ، هو السير صمويل هويت بيكر Sir Samuel White Baker الذي كان مشهوراً بالكشف الجغرافي .

وفي ذلك الوقت ، كان بيكر يبلغ من العمر ٤٢ عاماً ، فكان قد عاش بضعة سنوات في سيلان حيث قادته رحلات الصيد إلي أعماق قطر مجهول . وبعد أن قضي فترة في إنجلترا توفيت خلالها زوجته ، ولكن لم يمنعه ذلك من متابعة السفر ، ولما سافر إلي المجر ، قابل هناك فتاة مجرية تدعي فلورنس فون ساس Florence Von Sass فأعجب بيكر بها وتزوجها، وكانت فلورنس نحيلة كالولد ، ولكنها كانت فتاة جميلة ، تصغر بيكر بخمسة عشر عاماً . وبعد ذلك ذهب بيكر وزوجته ليكتشفا فروع النيل ، التي تنبع من الحبشة ، وعلم هو وزوجته بأن رجلين من البيض قد أحتجزا في منطقة أعالي النيل ، فأعتقد بيكر على الفور بأنهما سبيك وجرانت ، وعندئذ خشي أن يكونا قد ماتا ، لذلك قرر مغادرة الحبشة والذهاب إلي غندوكرو ، حتى يتمكن من مقابلتهما عند بدء رحلتهما إلي الشمال . وقد بدأ رحلته إلي أعالي النيل على رأس ثلاث سفن كان على متنها ١٠٠ مائة رجل ، وقد واجه بيكر صعاب جسيمة، بسبب السفن ، وبسبب الرجال الذين ثبت أنه لا يمكن الإعتماد عليهم والذين كانوا يهددون بالتمرد . ومع ذلك كان بيكر رجل مسيطر ، فكان مستعدا لاستخدام لكماته ، ولكن السلام كان يعم بعد تدخل

زوجته المرأة الشجاعة الساحرة النموذجية ، التي كانت زوجة لرجل حاد الطبع ، وكان بيكر شديد الإعجاب بهدوئها ، ونشاطها المتواصل ، وقد كتب ذلك في مذكراته يقول ما نصه : " لقد إمتلكت قدراً كبيراً من الهدوء ، بحيث كيفت نفسها على السفر في أفريقيا " كما كتب في مذكراته أيضاً المعنونة بـ " البرت نيانزا : الحوض الكبير للنيل
Albert N'yanza : Great Basin of the Nile .
ما نصه " إن مسز بيكر لم تكن ذات صوت مرتفع ، ولم يكن أيضاً صوتها منخفضاً ، وبخاصة في لحظة توهمها بالخطر ، فكانت إشارة من يدي كافية لها " .

وفي الخامس عشر من شهر فبراير عام ١٨٦٣ م وصل بيكر وزوجته إلي عندوكرو ، وفي تلك الأثناء كتب بيكر يقول " إندفع رجالي بجنون إلي مركبي وهم يعلنون أن رجلين من البيض كانا قد قدما من البحر ، وتساءلت هل من الممكن أن يكونا هما سبيك وجرانت ؟ وبعد ذلك مشيت بعيداً ، وعلى الفور قابلتهما بفرح وابتهاج من أجل انجلترا العريقة ، فكانا قد قدما من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، أي من البحيرة التي ينبع منها نهر النيل . والآن فإن الغموض الذي استمر لعهود طويلة قد إنتهي ، وقد وجد بيكر سبيك رجلاً هزيلاً جداً ، ولكن في الواقع كان في حالة جيدة للغاية ، فكان سبيك قد سار كل الطريق إبتداء من زنجبار، وحتى هذه المنطقة ، وكان جرانت يرتدي ملابس قديمة ، مع أنها كانت ذو قيمة ، وكانت ركبتاه عاريتين وبارزتين من خلال بقايا بنطلونه . وكان هذا البنطلون قد مزق بطريقة كبيرة ، وبدأ على جرانت التعب

والإجهاد ، ولكن على الرغم من ذلك فقد كان في أعين كل من سبيك وجرانت بريق يوضح الروح العالية التي قادتهما خلال هذه المناطق .

وقد تحرك سبيك بصعوبة بسبب ما لاقاه من مصاعب أثناء الرحلة. وكتب سبيك يقول ما نصه : " قلت بصعوبة ما هذا الفرح ، لم نعد قادرين على الحديث بسرعة ، فكان من المتفق عليه أن نلتقي مرة ثانية ، وبالطبع كنا ضيوفاً على (بيكر) الذي أحاطنا علماً بكل شئ ، فقد أخبرنا بموت أمير كنسورت The Prince of Consort ، وأخبرنا أيضاً عن الحرب الضارية في أمريكا . " وقال بيكر لقد جئت إلي هنا لرعايتكما، ويأمل كما قال مازحاً أن يجدنا عند خط الإستواء في وسط المتاعب ، التي كان عليه أن يساعدنا في إيجاد حل لها .

وفي الحقيقة كان بيكر يود القيام بعمل مستقل في الكشوف الجغرافية ، وتساءل بيكر بالقول : " ألم يبق لي مكان في سلم المجد أتوج به " . بعد ذلك تحدث سبيك عن البحيرة التي لم تكتشف بعد ، كما تحدث عن نظريته التي يمكن أن تبرهن على أن هذه البحيرة هي المنبع الثاني للنيل . وقد أعطاه سبيك خريطة للمنطقة التي من المرجح أن توجد هذه البحيرة فيها ، وعندئذ قال سبيك لبيكر وداعاً . وقد بدأ كل من سبيك وجرانت رحلتهما الأخيرة في اتجاه الشمال تاركين بيكر مستغرقاً في البحث عن البحيرة الجديدة .

وفي شهر مارس عام ١٨٦٣ م ، غادر بيكر وزوجته غندوكرو بعد أن إضطر إلي السير مع قافلة صغيرة تابعة لزمرة سيئة السلوك من تجار الرقيق ، ويرجع ذلك إلي أنه لا يوجد أي شخص آخر على دراية بهذا

القطر ، الذي سوف يمران من خلاله غير هذه الزمرة ، وقد اشتكي التجار إلي بيكر بقولهم أن كل قطر يمرون من خلاله قد يتحول إلي خلية نحل ، وأنه لم يعد لديهم خطة عمل أو عزيمة . ولما كان بيكر لسوء الحظ يعتمد عليهم في تحركاته ، فإنه شبه نفسه بحمار أكثر منه مكتشف يمتطي صهوة جواده ، الذي يذهب به بعيداً أثناء الكشف .

وفي شهر إبريل عام ١٨٦٣ م وصل بيكر وزوجته إلي عاصمة الملك كامرازي ، ملك البنيورو Bunyoro ، الذي رفض السماح لهما بمواصلة المسير إلي البحيرة ، ولكنهما تناقشا معه ، ومن مركز قوة في لقاء بينهم تقدم كامرازي صوب بيكر ليستولي منه على زوجته الحسناء ، على شرط أن يمنحه أي شئ يطلبه ، ولكن بيكر غضب (من هذا العرض) أو من هذا التصرف من جانب كامرازي وقال ما نصه :

" لو كانت هذه المرحلة هي نهاية البعثة ، لكان تصميمي في هذه الحالة هو وضع نهاية لكامرازي ، وعلى الفور أخرجت مسدسي بهدوء ، ووجهته نحو صدره من على بعد قدمين فقط ، ونظرت إليه بازدراء ، وبدون خوف ، وأخبرته أنني لو لمست الزناد فلن يستطيع كل رجاله إنقاذه ، ولو تجاسر على تكرار هذه الإهانة ، فإنني سأقتله على الفور ، وبطبيعة الحال كانت زوجتي قد شعرت بجرح كرامتها ، فنهضت من مقعدها ، وهي في حالة جنون من نتيجة ما حدث في تلك اللحظة . وقد ألقت عليه زوجتي حديثاً باللغة العربية – ولكنه لم يفهم كلمة واحدة مما قالته – وهذا ما كان يدور بخاطر ميدوسا ، لذا قد تبعتها بخطبة أخرى أو بكلمة أخرى من شعرها ، وكانت ميدوسا هذه قد توقعت حدوث مثل

هذه الإهانات إلي مخدومتها ... وبشجاعة أيضاً دعت إلي الهجوم علـى كامرازي ، وقامت زوجتي بالترجمة قدر إستطاعتها للكلمة التي ألقتـها ميدوسا من قبل . ومهما يكن من أمر ، فإن تلك الحادثة الصـغيرة مـع إمرأة بحرية لها حريتها قد أخجلت كامرازي . وقال ما نصه " لا يمكنني أن أقول شئ سوي أنني أعبر عن دهشتي ، وأنه يجب أن تغضب يا بيكر لأنه لم يكن لدي أية نية للإساءة لك عندما عرضت عليك أن تعطـيني زوجتك ، فإنني سوف أعطيك زوجة إذا طلبت ذلك ، وأنني أعتقد أنـه لن يكون لديك إعتراض إذا طلبت منك ذلك لهذا يجب ألا تثير مشـكلة من ذلك ، فإذا لم ترغب في هذا فأرجو أن تعتبر الموضوع منتهياً ، وأنني لن أطلب ذلك منك مرة ثانية ، وعندئذ ، تقبلت هذا الإعتذار العملـي وأصررت علي الرحيل " .

وبعد ذلك رحل بيكر وزوجته يرافقهما حرس يتكون من ٣٠٠ رجل من رجال كامرازي ، الذين تناقصوا يوماً بعد يوم ، حتى بقي منهم إثني عشر شخصاً فقط . وكان على هذه المجموعة الصغيرة أن تعبر النهر عند النقطة التي تغطيها الحشائش المائية بصورة كثيفة ، حيث أن هـذه النباتات المائية كانت تشكل سدا ومعبراً طبيعياً عائماً . وبعد ذلك تقدم بيكر وجماعته ، وطلب من زوجته أن تتبعهم . ولما قطع بيكر ربع مسافة الطريق نظر من خلفه ، ولكنه إنزعج ، لأنه رأي زوجته تغرق ببطء بين النباتات المائية ، وقد تشوه وجهها ، وأصبح لونه أرجواني ، وبينما كان بيكر ينظر إليها شاهدها تسقط في الماء كما لو كان قد أطلـق عليهـا الرصاص ، وفي دقيقة واحدة كان بيكر إلي جانبها ، وبمساعدة رجالـه

تمكن من سحبها ، كما لو كانت جثة هامدة ، من خلال النباتات المائية، بحيث جعلوا رأسها فوق سطح الماء (حتى لا تحبس أنفاسها فتتعرض للموت) : لأن حملها كان من المستحيل ، كما كان من الممكن أن يغرق الجميع خلال النباتات المائية .

هذا فضلاً عن أن فلورنس قد تعرضت لضربة شمس وعندما، وصلوا إلي الجانب الآخر للمستنقع وضعوا فلورنس على حمالة ، وحملوها وهي في حالة محزنة أو يرثي لها ، حيث كانت موضوعة على ظهرها ، وهي عبارة عن جثة هامدة ، وقد سار بيكر بجانب الحمالة وكانت زوجته في حالة من القلق والتمزق .

ومع ذلك فقد واصل بيكر المسير ، خلال يوم كامل ، ماراً من خلال أرض جدباء ، وعبر المجاري المائية والغابات الكثيفة ، حتى وصل إلي أعماق المستنقع ، وكذلك عبروا جميعاً من فوق التلال المدرجة ، واندفعوا من خلال الأودية التي تنمو فيها نباتات البردي الطويلة ، وكانت فلورنس أثناء ذلك تهتز من فوق الحمالة ، مثل الريش الأسود الخاص بعربة نقل الموتي .

وقد سهر بيكر ليلة بعد ليلة ، لأن زوجته كانت تواصل هذيانها ، حيث كانت في حالة غير طبيعية ، كما أصبحت حادة المزاج . وفي أحد الليالي ، إعتقد زوجها أنها ستموت ، ولكنها بدأت تشفي من مرضها مع أنها بقيت مريضة وضعيفة حتى نهاية الرحلة . ويقول بيكر ما نصه " الله وحده هو الذي يساعدنا ويمد لنا يد العون " وأضاف بيكر في قوله " أنني في غاية الإمتنان في هذه اللحظة ، ولكنني لم أستطع التعبير " .

وأخيراً إقترب بيكر وبعثته من البحيرة ، وبعد عدة سنوات كتب يقول ما نصه : " لقد كافحت من أجل الوصول إلي منابع النهر ، وكانت أحلامي الليلية خلال هذه الرحلة الشاقة ، توضح لي أنني سوف أفشل بصفة مستمرة ، ولكن بعد عمل كبير وشاق ، وبعد مثابرة ، أصبح الحلم حقيقة وفي هذه اللحظة شربت من المنبع المجهول قبل أن تغرب عنه شمس نفس اليوم . وقد تعطل كشف هذا المستودع الطبيعي الكبير ، الذي يرجع تاريخه إلي بدء الخليقة كل هذا الوقت .

وبعد ذلك ، وفي الرابع عشر من شهر مارس عام ١٨٦٤ م . عبرت بعثة بيكر وادي عميق يقع بين التلال وكافحت حتى صعد أفرادها إلي الجانب الآخر منه ، وأسرعوا إلي القمة ، وفجأة تحقق المجد ، فهناك كان يوجد بحر يشبه الزئبق يقع بعيداً ، فهو عبارة عن مسطح مائي واسع؛ أي بحر لا حدود له ، إلا خط الأفق ، ويقع هذا البحر في الجنوب والجنوب الغربي ، كما أنه يلمع لتعرضه لأشعة الشمس وقت الظهيرة ، وفي الغرب وعلى بعد ٥٠ أو ٦٠ ميلاً ، تنتصب الجبال الزرقاء في حضن البحيرة التي يصل إرتفاعها إلي حوالي ٧٠٠٠ قدم من مستوي سطح المياه.

ويقول بيكر " لا يمكن وصف الإنتصار في هذه اللحظة فإنها لحظة تعتبر مكافأة لنا على كل عملنا فقد ظفرت إنجلترا بمنابع النيل " وبعبارته:
England had won the sources of the Nile .

وأضاف بيكر في قوله ما نصه : " منذ وقت طويل فقد رتبت لإقامة ثلاث حفلات ، لكل رجالنا على النمط الإنجليزي ، تشريفاً لهم على الكشف ، ولكن بسبب إنفعالي الشديد ، فإن حفلات التكريم هذه

قد ضاعت سدي " ، وبدلاً من ذلك فقد قام بيكر بمساعدة زوجته في النزول من فوق التل إلي حافة البحيرة لتشرب ويشرب هو معها نخب الإنتصارات من ماء هذه البحيرة ، التي أطلق عليها بيكر إسم بحيرة البرت تكريماً إلي زوج الملكة فيكتوريا . وكتب بيكر في هذا الصدد يقول ما نصه :

" تمثل بحيرة البرت وفيكتوريا مصدرين للنيل " وبعبارته :

The victoria and Albert Lakes are the two sources of the Nile .

وكان بيكر على خطأ عندما فكر في أن بحيرة البرت تمتد إلي مسافة شاسعة نحو الجنوب ، مع أنه في الواقع كان قد وصل قريباً جداً من نهايتها الجنوبية ، وذكر أن مياه البحيرة تأتي إليها عن طريق نهر السمليكي The Semliki River الذي يربط بحيرة البرت بالبحيرة التي لم تكتشف بعد، والتي عرفت باسم بحيرة إدوارد Lake Albert Edward وقد أضاف بيكر حلقة مهمة إلي اكتشافات سبيك ، تتمثل على وجه الدقة في كشفه لبحيرة البرت التي لم تكن معروفة من قبل . لهذا رغب بيكر في الإعتقاد بأن البرت ، تمثل المصدر الثاني للنيل ، فهذه البحيرة تحصل على مياهها من بحيرة إدوارد ، وذلك عن طريق نهر السمليكي ، ومن بحيرة فيكتوريا عن طريق نيل فيكتوريا ، الذي عرف على خريطة سبيك باسم (نهر سومرست) والذي يدخل بعد ذلك إلي النيل الأبيض ، والذي يخرج من النهاية الشمالية لبحيرة البرت ، فلا سبيك ولا بيكر رسم خريطة متكاملة عن مجري النيل ، فهذا العمل ترك لهنري مورتون ستانلي .

وقد أنهك المرض ونقص المؤن زوجة بيكر ، ولكن رغم ذلك فقد عملا معاً وواصلا الإبحار على طول الشاطئ الشرقي للبحيرة في قوارب

بدائية ، وسارا لمدة ثلاثة عشر يوما حتى وصلا إلي بلدة ماجونجو Magungo ، الواقعة عند رأس البحيرة وعند مدخل النيل الفيكتوري إليها، وقد سافرا معاً إلي مسافة قصيرة (يبدو أنهما صعدا في النيل الفيكتوري) مندفعين كتماسيح النهر ، وبعد ذلك وصلا إلي شلال ضخم ، وفي هذا الصدد كتب بيكر يقول ما نصه : " إن هذا الشلال أكبر ، شلال في النيل ، وتشريفاً لرئيس الجمعية الجغرافية الملكية المرموق ، فقد أطلق بيكر اسم هذا الرئيس على هذا الشلال ، فعرف باسم شلال مارشيزون The Murchison falls ، لأنه كان أهم شئ في كل مكان في مجري النهر . وعندئذ وبعد مخاطر ومغامرات عدة ، وصل بيكر عائداً هو وزوجته الشجاعة إلي غندوكرو ، بعد غياب دام سنتين ونصف السنة .

وفي القاهرة ، وهما في طريق عودتهما إلي أرض الوطن (بريطانيا) علم بيكر بأن الجمعية الجغرافية الملكية كافأته بالميدالية الذهبية من أجل إنجازاته ، ويتضح ذلك من النص التالي : " لقد أنجز بيكر كشوفاً عظيمة على نفقته الخاصة في داخل أفريقيا ، فقد زود بعثته بالأدوات اللازمة على نفقته الخاصة ، كي ينقذ كل من سبيك وجرانت بل ويحاول بكل نبل أن يكمل كشوف الرحالتين .

وقد حصل بيكر أيضاً على لقب إنجليزي شرفي ، وعلى ألقاب أخرى ، وقد نشرت كتبه على التوالي في أعوام ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ م ، وهي على النحو التالي :

The Albert N'yanza , The Great Basin of the Nile , And the Nile tributaries of Abyssinia ....

وتقرأ كتب بيكر مثل معظم أنواع كتب الإثارة وقصص المغامرة، فكانت هذه الكتب مألوفة جداً .

وفي عام ١٨٦٣ م ، وعندما شرع بيكر وزوجته في الكشف عن بحيرة البرت عاد كل من سبيك وجرانت إلي انجلترا واستقبلا بالحفـــاوة ، وعادت إلي الأذهان المشكلة التي كانت بين كل من سبيك وبيرتون والتي تتمثل في أن سبيك لم يتبع مجري نهر النيل تجاه الشمال ، إبتداء من بحيرة فيكتوريا ، مع أن بيرتون كان يعد نفسه للقيام بهذا العمل حــتى يهــدم نظرية سبيك ، التي تقول أن مصدر النيل يتمثل في بحيرة فيكتوريا ويرجع ذلك إلي كبر حجمها وأهميتها .

وفي أغسطس عام ١٨٦٤ م وبعد ما يربو على العام من عــودة كل من سبيك وجرانت ، وصل بيرتون إلي لندن ، وكان لكل من سبيك وبيرتون مناصريه ، وقد أثيرت القضية على أساس أن يتناظر الرجلان على الملأ ليوضح كل منهما نظريته . فكان هناك إقتراح بأن يــرأس الحــوار لفنجستون الذي تصادف وجوده في لندن ، في ذلك الوقت ، ولكــن لم يتحقق ذلك لأن لفنجستون إقتنع بأن سبيك كان على خطأ ، لأنه اعتقد أن النيل يحصل على فيضانه ليس من بحيرة فيكتوريا ، ولكن من مكــان بعيد جهة الجنوب ، وأن سبيك المتعب قد أدار ظهره إلي المصادر الرئيسية للنيل ، فالنهر الذي شاهده عند شلالات ريبون لم يكن نهراً كبيراً كــي يقارن بنهر النيل وبعبارته :

" Poor Spake he wrote , he has turned his back uppon the real sources of the Nile " .

وقد أعد لحوار ثان بين بيرتون وسبيك رتبته الجمعية البريطانية التي تعمل على تقدم العلوم ، بحيث تعقد هذه المناظرة في مدينة بـــاث Path ، وكان بيرتون يكل تأكيد يريد المساهمة في هذه المناظرة ، وعند عودته علم بأن سبيك كان يتجول ، ويقول لو ظهر بيرتون على المنصـــة في مدينـــة باث فإنني سأركله ، فأجاب بيرتون على هذا بالقول حسناً ، فهذا سوف يدعم نظريتي ، وسوف يدعم الله موقفي ، وبعبارته :

" if Burton appears on the platform at path , I will Kick him , well replied Burton that settles it . By God he shall Kick me " .

ولقد أعد بيرتون بمجهوده الخاص خريطة في شـــكل كروكـــي ليبرهن بها على دحض نظرية سبيك ، وقد ظهر على هذه الخريطة بحـــيرة تنجانيقا ، والمجاري التي تغذيها ، والتي كانت تمثل المصدر الرئيسي للنيل ، ووضح على هذه الخريطة ببساطة الموقع المفترض لبحيرة فيكتوريا ، كما وضح أيضاً عليها نهر روسيزي The River Rusizi ، الذي تتدفق مياهه من بحيرة تنجانيقا إلي جهة الشمال ، وتصب في بحيرة البرت . ومن الممكـــن أن نتذكر أن بيرتون وسبيك حاولا أن يريا النهايـــة الشـــمالية لـــبحيرة تنجانيقا ولكنهما لم يتمكنا من رؤية النهر بأنفسهما من أنه يصـــب في البحيرة (تنجانيقا) ولم يخرج منها ، وهذا يعني أنه لا يمكن أن يكـــون هذا النيل . وكان بيرتون في ذلك الوقت على إستعداد ، لأن يصدق أن هذه المعلومات كانت معلومات مزيفة . ووضحت خريطته أيضاً المنفـــذ الذي يخرج من بحيرة البرت ، ويتجه في تدفقه إلي غندوكرو ، وعلى هذا أعلن بيرتون ، أنه في الإمكان البرهنة على أن هذا هو النيل الحقيقي .

وقد وصل بيرتون وزوجته إلي مدينة باث ، وكانت زوجته تحاول أن تحسم الخلاف بين زوجها وبين سبيك ، وفي اليوم السابق على المناظرة عقد إجتماع أولي في مقر الجمعية البريطانية ، وقد إلتقي في هذا المكان كل من بيرتون وسبيك وجها لوجه كي يفوز واحد على الآخر ، ولاحظ بيرتون أن منافسه بدا عليه التعب والضيق . وقد بدأ الإجتماع ورأي بيرتون شخصاً ما يشير إلي سبيك من نهاية الصالة أو القاعة ، فوقف سبيك صائحاً وهو يقول ما نصه : " أنا لا يمكنني الإستمرار في هذه المناظرة ، وفجأة ترك القاعة " . وفي اليوم التالي ، وعندما وصل بيرتون إلي مقر الإجتماع من أجل هذه المناظرة الكبيرة ، علم بيرتون بأن سبيك قد مات ، فكان قد خرج في رحلة صيد في هذا الصباح ، وعندما كان يتسلق حائطاً في هذه اللحظة إنطلقت رصاصة من بندقيته فقتلته على الفور .

وقد أعتبر موت سبيك قضاء وقدراً ولكن كثيراً من الناس إعتقدوا أن سبيك قتل نفسه خوفاً من مواجهة منافسه بيرتون . وفي الواقع ، فإن حقيقة الأمر ظلت مجهولة ، لأن جرانت الصديق المخلص لسبيك لم ينطق بأية كلمة ضده . وقد حضر جنازة سبيك كل من السير رودريك مارشيزون ، ودافيد لفنجستون ، وعند موته كان يبلغ من العمر ٣٧ عاماً، وتمثلت هذه المأساة في أنه كان على حق في كل ما قال ، ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يبرهن على ذلك ، وقد خلدت الكشوف الضخمة الخاصة بسبيك على مسلة جرانيتية ، ترتفع في حديقة كنسنجتون بلندن

London's Kensington Garden ونقش عليها نص يقول : " ذكري سبيك وفيكتوريا وبيانزا والنيل " .

وقد استمر الجدل حول مصادر النيل بعد موت سبيك ، وقد تمسك بيرتون بعناد بنظريته الخاصة حتى دمرت بمعرفة العمل الذي قام به ستانلي . وبعد ذلك لم يذهب بيرتون إلي وسط أفريقيا ، بل أنه واصل السفر والكتابة والترجمة التي من أهمها ترجمته الواقعية لقصة ألف ليلة وليلة، والتي حققت له الثراء والشهرة . وفي عام ١٨٨٦ م تسلم نيشان الفروسية البريطاني ، وإن كانت هذه الجائزة قد جاءت متأخرة نظير إنجازاته الكشفية . وأخيراً مات بيرتون عام ١٨٩٠ م ، وبالتأكيد وضع بين عظماء مستكشفي أفريقيا ، فضلاً عن أنه كان عالماً وكاتباً ، بل وشخصية بارزة ، وبعبارة المؤلف :

He certainly ranks among the greatest of Africa's explorers and as ascholer and writer , he is outstanding .



صورة المغامر بيرتون الذي جاء إلي منطقة شرق أفريقيا عام ١٨٥٦ ليكتشف منابع النيل الأبيض . من إعداد المترجم .

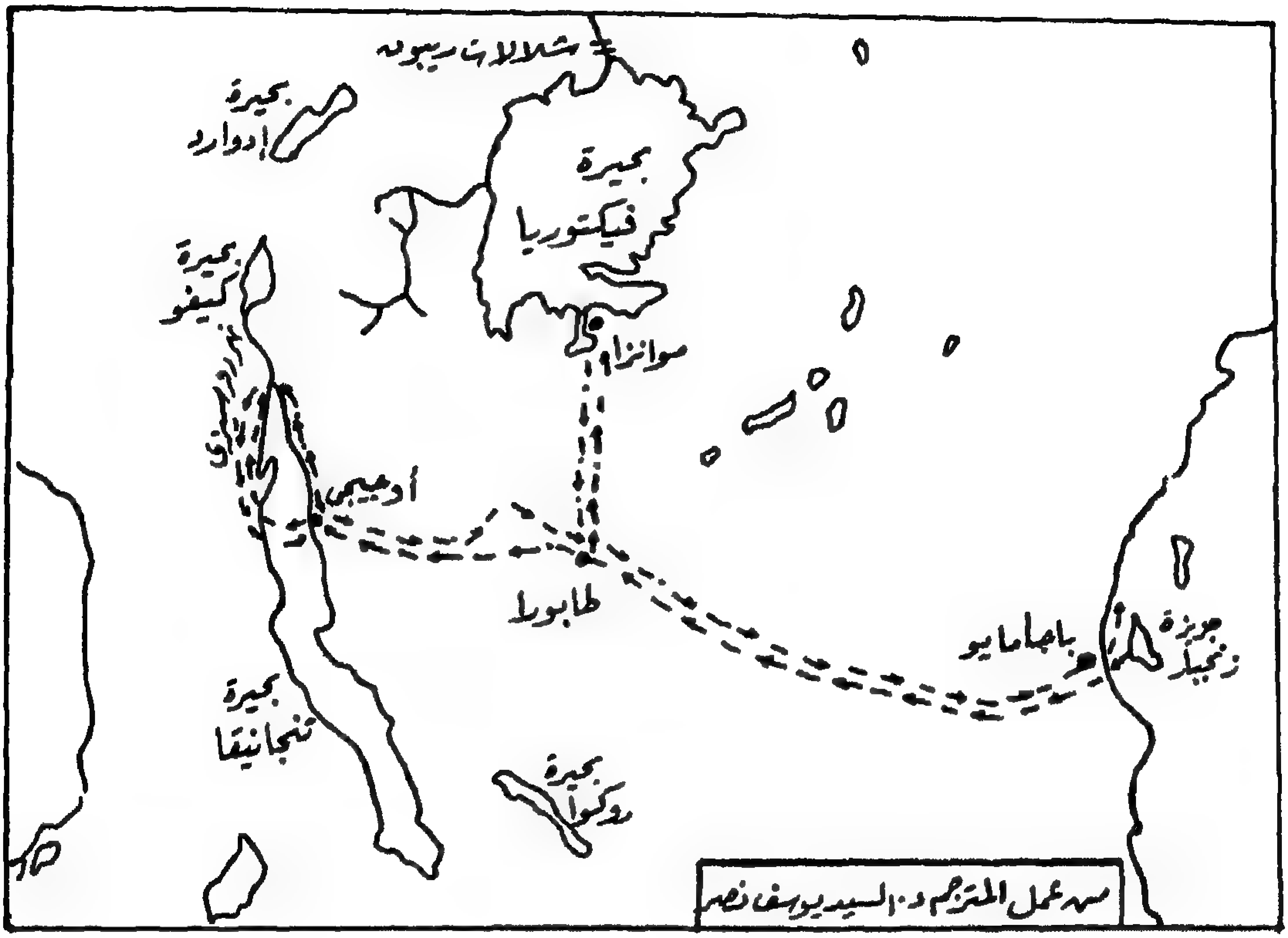


صورة المغامر الإنجليزي سبيك الذي جاء إلى شرق أفريقيا عام ١٨٥٦م ليكتشف منابع نهر النيل من اعداد المترجم



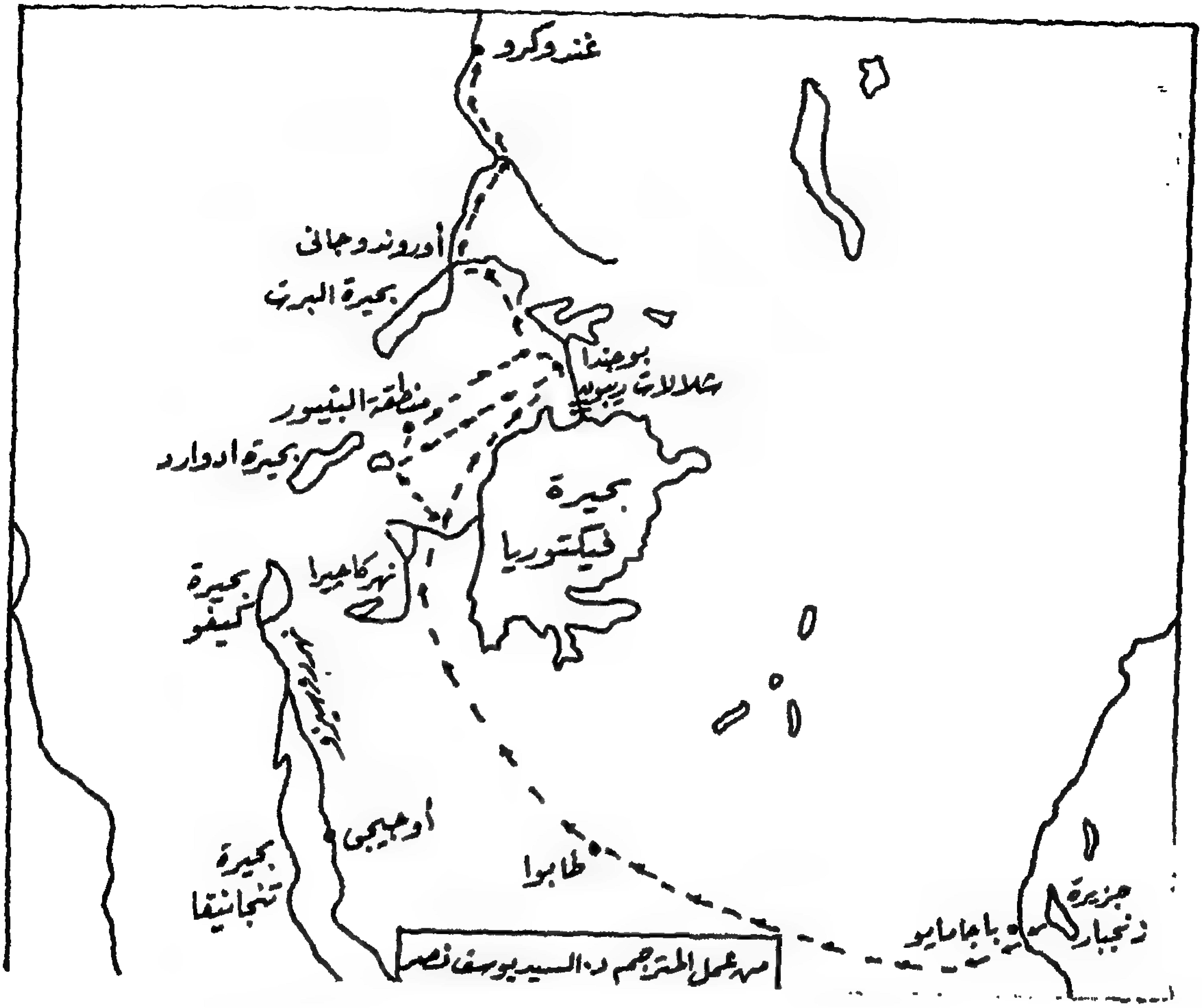
صورة المغامر البريطاني جرانت الذي جاء إلي شرق أفريقيا عام ١٨٦٠ ليكتشف منابع نهر النيل . من إعداد المترجم .

الخريطة رقم ١٥ والخاصة ببعثة سبيك وبيرتون عام ١٨٥٦



بدأ كل من سبيك وبيرتون رحلتهما من زنجبار فباجامايو ، ثم وصلا إلي طابورة ، ومنـــها وصلا إلي أوجيجي ، ثم سارا شمالاً ، ثم عادا إلي المدينة مرة ثانية ، وبعد ذلك عبرا البحيرة وسارا في اتجاه الشمال حتى وصلا إلي نهر روسيزي ، ثم عادا صوب الجنوب ، وبعد ذلك عبرا البحيرة إلي أوجيجي ، ومنها سارا إلي طابورة ، ومن طابورة سافر سبيك بمفرده تجاه الشمال فوصل إلي بلدة موانزا ، ثم عاد إلي طابورة حيث كان بيرتون ينتظره ، ثم سافرا معاً إلي باجامايو ، ومن هناك سافر سبيك إلي إنجلترا وسافر بيرتون إلي عدن .

الخريطة رقم ١٦ والخاصة ببعثة سبيك وجرانت عام ١٨٦٠



بدأت بعثة سبيك وجرانت مهمتها من زنجبار فبلدة باجامايو ، ثم اتجهت نحو الغرب فوصلت إلي طابورة ، وبعد ذلك اتجهت صوب الشمال الغربي مارة من غرب بحيرة فيكتوريا ، ثم مرت ببلدة كراجوي ، ثم عبرت نهر كاجيرا ، ومن بعد عبوره انقسمت البعثة إلي قسمين ، قسم تحت رئاسة جرانت الذي اتجه إلي الغرب فوصل إلي منطقة البنيورو، وقسم برئاسة سبيك الذي اتجه صوب الشمال ، ثم اتجه جهة الشرق فوصل إلي شلالات ريبون الواقعة عند مخرج نهر سومرست من بحيرة فيكتوريا . وبعد ذلك عاد سبيك إلي البنيورو لمقابلة جرانت ، وعندئذ اتجه الرجلان إلي الشمال حتى وصل إلي غندوكرو فالخرطوم فالقاهرة فانجلترا .

التعليق على الفصل (٨)

تناولت المؤلفة في هذا الفصل عدداً من الموضوعات أو النقاط ، التي تعتبر على جانب كبير من الأهمية . فقد تناولت بإيجاز دور كل من بيرتون وسبيك في هرر ، عندما كانا يقومان برحلة خاصّة . ثم تناولت بعد ذلك بشئ من التفصيل بعثتهما الرسمية التي قاما بها من بلدة زنجبار ، متوجهين إلي قلب القارة الأفريقية ، كما أنها أشارت أيضاً إلي دور السير صمويل هويت بيكر ، وكشفه لبحيرة البرت النيانزا ، ولكنها في نفس الوقت أهملت دوره الكشفي لمنطقة نهر العطبرة ، لدرجة أنها لم تشر إلي هذا الدور بمجرد إشارة ، كما أهملت دون أدني شك دور مصر الكشفي في عصر محمد علي ، وكذلك في عهد خلفائه من بعده ، مع أن هذا الدور كان له أهمية كبيرة للغاية بالنسبة لإفريقيا وكذلك بالنسبة لأوروبا.

وكان لزاماً على المؤلفة أن تقوم بتوضيح وتفسير بعض النقاط التي وردت في هذا الفصل ، والتي لم تقم هي بتوضحيها ، ومن هذه النقاط دور مصر الكشفي في منطقة النيل الأبيض وبحر الجبل ، ودور صمويل بيكر في كشفه لمنطقة نهر العطبرة ، هذا فضلاً عن إلقاء الضوء على مدينة زنجبار لما لها من أهمية في تلك الفترة ، حيث أنها كانت بمثابة نقطة إنطلاق بالنسبة للرحالة والمكتشفين .

فمن المعروف أن مصر في عصر محمد علي كانت قد أرسلت ثلاث حملات كشفية ، في الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ م ، ولكن لنا أن نتساءل بالقول لماذا تأخر كشف النيل حتى بداية الأربعينات من القرن التاسع عشر ، مع أن الكشف عن منابع هذا النهر كانت من أهم الدوافع

وراء دخول مصر إلي بلاد السودان وما وراءها ؟ نقول أن السبب في هذا التأخير يرجع إلي أن قوات محمد علي عندما وصلت إلي بلاد السودان عام ١٨٢٢ م ، طلب منها الوالي (محمد علي) أن تحتفظ بالأراضي التي أستولت عليها ، ولا تتخطاها وكانت هذه البلاد تضم في غرب السودان إقليم كردفان ، وفي شرقه القلابات والقضارف وكسلا ، وأميديب ، وتضم في الشرق أيضاً سواكن ومصوع وهما الميناءان اللذان أجرهما مصر من السلطان العثماني طوال حياة محمد علي باشا ، ويرجع ذلك أيضاً إلي أنه طلب من قواته أن تتمركز في مواقعها الأولي حتى تسترد أنفاسها ، وتستعوض ما فقدته من أفراد ومعدات ومؤن ، بعد ذلك كان من الممكن أن تواصل سيرها صوب الجنوب ، ومن المرجح أيضاً أنها توقفت عند هذه الحدود ،حتى تقوم بكشف وارتياد للمناطق التي وصلت إليها ، لكي تقف على ما تحويه هذه البلاد من ثروات طبيعية. وبالفعل كانت هذه القوات قد قامت بفحص كل الجبال الواقعة في غرب السودان حتى تستغل ما فيها من معادن ثمينة كالذهب ، ولكنها بعد أن قامت بهذا الفحص لم تحصل على أية كمية من الذهب تستحق الذكر سواء أكان ذلك في غرب السودان أم في منطقة فازوغلي . ومن الأسباب أيضاً أن الوالي طلب من قواته ألا تتعدي هذه المناطق التي تمت السيطرة عليها ، لأن بقية قواته الأخرى كانت تخوض حروباً ضارية في بلاد اليونان ، فمن الصعب عليه أن يفتح جبهتين في وقت واحد ، هذا فضلاً عن أنه طلب من قواته أن تقوم باستغلال الثروة الحيوانية والنباتية في السودان ، لهذا قرر أن تظل قواته في مواقعها و لم تواصل مسيرها صوب الجنوب

وبعد أن تكتلت الدول الأوروبية ضد محمد علي في غرب آسيا ، وتأكد أن نفوذه لم يعد يقوي على الإستمرار هناك وقتاً طويلاً قرر منذ عام ١٨٣٩ أن يرسل أولي حملاته الكشفية إلي أعالي النيل لكي تقوم بالكشف عن منابع هذا النهر التي ظلت غير معروفة للعالم مدة طويلة[١].

وتعتبر الحملات التي أرسلت في عصر محمد علي أولي الحملات التي وصلت إلي هذه المناطق ، فقبل وصولها لم يجرؤ أوروبياً واحداً على الدخول إليها تحت أي ظرف ، وذلك لعدم معرفة الطريق الذي سيسير فيه من خلال هذه المناطق ، هذا فضلاً عن أن هذا الطريق لم يكن مأموناً من جانب القبائل النيلية ، والدليل على ذلك أنه في الفترة السابقة على القرن التاسع عشر ، كانت جهود الرحالة الأوروبيين ورجال التبشير منصبة على منطقة النيل الأزرق ، وذلك لقربها من منطقة الشمال الأفريقي ، كما أن هذه المنطقة كانت عامرة بالسكان .

وكانت الحملات المصرية الكشفية التي أرسلت في عصر محمد علي ، قد توغلت في الداخل حتى وصلت إلي بلدة غندوكرو أي إلي خط عرض 24َ ، ٤ْ شمال خط الإستواء . وعند هذا الحد لم تستمكن هذه الحملات من مواصلة السير لأسباب عدة ، منها ضحالة مياه النهر وبخاصة في منطقة بحر الجبل ، فمن إسم هذا النهر يتضح فيما يبدو أنه ينحدر من منطقة جرانيتية ، ومنها كذلك عدم صلاحية المراكب المصرية للسير في هذه المياه ولكن كان من الممكن إعداد مراكب تصلح لدلك ،

---

(١) د. السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا في القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٨١ وما بعدها .

ثم تقوم مصر بنقلها مفككة إلي منطقة أعالي النيل ، وهناك يتم تركيبها من جديد ، وفي هذه الحالة يمكن إستخدامها على مياه بحيرة البرت . وهذا ما حدث بالفعل في عصر إسماعيل . ومن المصاعب التي صادفت حملات محمد علي نقص المؤن والمعدات اللازمة لهذه الحملات حتى تتمكن من مواصلة السير ، فضلاً عن ذلك فإن والي مصر أصبح في سن لم تسمح له بمزاولة طموحاته التوسعية حتى أن صحته لم تمكنه من مزاولة نشاطه العادي ، زيادة على أن معاهدة لندن التي أبرمت عام ١٨٤٠ ، ثبطت من عزيمة والي مصر ، حيث أنه خشى أن تتصدى له الدول الأوروبية مجتمعة لتوسعاته في أفريقيا ، وإن كان ذلك لم يحدث إلا في عصر إسماعيل ، وبخاصة من جانب بريطانيا ، ثم تلتها كل من إيطاليا وفرنسا وألمانيا .

ولكن على الرغم من ذلك فإن الحملات المصرية الكشفية التي أرسلت في عصر محمد علي إلي أعالي النيل في الفترة ما بين ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ ، كانت قد حققت نتائج على جانب كبير من الأهمية ، منها أنها فتحت طريقاً جديداً للتجارة بين شمال السودان وجنوبه ، فهذه التجارة لم يكن لها أي أثر يذكر قبل هذه الحملات بسبب العداء المستحكم بين السكان في الشمال والسكان في الجنوب ، وأيضاً بسبب عدم إستقرار الأمن في هذه المناطق فلا يمكن للتجارة أن تزدهر وتتطور .

وزيادة على ذلك فإن هذه الحملات قد زودت بعدد من العلماء الأجانب من أمثال سابتييه الفرنسي ، وفيرن الألماني وغيرهم . وكان هؤلاء الرحالة قد كتبوا تقارير على جانب من الأهمية تضمنت وصفاً

شاملاً لخط سير هذه الحملات . فقد جاء في تقرير فيرن وصفاً دقيقاً للمناطق التي مرت الحملة من خلالها ، فأشارت هذه التقارير إلي الظواهر الطبيعية من أشجار وسهول ووديان كما أشارت إلي القبائل التي تقطن بجوار شواطئ النيل بل وحددت أماكنها وأسمائها .

وكان من أهم هذه القبائل البقارة والشلوك والدنكا والنوير والبامبارا والبحور والكيك والعلياب ... ألخ ، كما تعرضت تقارير هؤلاء العلماء إلي عادات وطباع سكانها ، وطرق معيشتها وأنظمتها السياسية . وكان من نتيجة ذلك كله أن عرف العالم هذه القبائل المجهولة عن قرب بعد ما كان يجهل بمجرد السماع عنها ، كما ورد بالتقارير وصف لشواطئ النهر وأعماقه واتساعه ، كما ورد بها أيضاً وصف للحيوانات والطيور التي تعيش على جنبات النهر [1] .

وعلى الرغم من النتائج التي حققتها الحملات المصرية في هذا المجال وفي تاريخ مبكر أي في الأربعينات من القرن التاسع عشر ، إلا أن مؤلفة هذا الكتاب تناست هذا الدور ، بل ولم تشر إليه بمجرد إشارة ، فلولا هذا الدور ما تمكن كل من سبيك وجرانت والسير صمويل بيكر من المجئ إلي هذه المناطق ، والمسير من خلال هذ الطريق ، والوصول إلي ما وصل إليه هؤلاء الرحالة غير الرسميين من نجاح . ولكن لم تكتف مؤلفة هذا الكتاب بعدم الإعتراف بدور مصر فحسب بل إنها نسبت هذا الدور العظيم إلي الرحالة الأجانب ، متناسية أن هؤلاء الرحالة كانوا يحصلون على تصاريح من مصر تخول لهم التقدم صوب الجنوب ، بل وكانت هده التصاريح

---

[1] راجع د. السيد يوسف نصر . جهود مصر الكشفية في أفريقيا في القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٧٩ م .

تضمن لهم الحماية والرعاية ، وبخاصة فإن مصر في هذه الفترة ، كانت تؤمن إيماناً راسخاً بتشجيع العلم ونشر الحضارة في ربوع هذه الأجزاء المجهولة من أفريقيا .

وقد ذكرنا سابقاً أن المؤلفة كانت قد عرضت في سياق حديثها لدور صمويل بيكر ، الذي ولد عام ١٨٢١ ، والذي كان ينحدر من سلالة ربابنة بحريين وأصحاب مزارع في المستعمرات . وكان والده غنياً يمتلك سفناً ويدير مصرفاً وشركة للسكك الحديدية ، ومع ذلك فإن بيكر كان شغوفاً بالصيد في المناطق المجهولة . ويتميز بيكر بالأعين الزرقاء والجسم الصلب واللحية الكثة ، وكان قد تزوج من ابنة قس إنجليزي . وعندما سافر إلي سيلان أنشأ هناك مجلة زراعية ، هذا فضلاً عن أنه عمل مديراً للإنشاءات في شركة للسكة الحديد في حوض الدانوب ، وكان يحب الصيد بصورة بالغة ، فاصطاد الفيلة في سيلان والدببة في البلقان . وفي السبعينات من القرن التاسع عشر ذهب إلي أفريقيا مع زوجته الشابة بعد أن ترك أبنائه الأربعة من زوجته الأولي عند أحد أقربائه في انجلترا كي يتعرف على ما في أفريقيا من أحراش وحيوانات تغري بالصيد ، لهذا فكر أن يضيف للصيد شيئاً آخراً ، ألا وهو القيام بالكشف عن منابع النيل [1] .

ولكن عندما جاء بيكر إلي أفريقيا لم يتقدم صوب الجنوب مباشرة. ولكنه ذهب إلي منطقة نهر العطبرة عام ١٨٦١ ، وتجول فيها ، وقد جاء بتقريره عن هذه المنطقة أنه كان يسودها الجفاف بسبب عدم

---

(١) الان مور هيد : النيل الأبيض ، ترجمة محمد بدر الدين خليل - القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٨٧.

هطول الأمطار ، باستثناء وجود بعض المستنقعات التي تتخلل مجرى النهر، وأضاف بيكر أن هذه المستنقعات كانت مليئة بالأسماك والتماسيح الكبيرة ، والسلاحف المائية وأفراس النهر والطيور البرية : وأضاف بيكر في تقريره أيضاً أن هذه المنطقة كانت غنية بالأشجار الجافة التي كان من الصعب على الإنسان إختراقها إلا بعد حرقها .

ويضيف بيكر أنه بعد أن فاضت مياه النهر في يوم ٢٣ يونيو من عام ١٨٦١ ، بسبب هطول الأمطار الغزيرة على الهضبة الحبشية ، تحول هذا النهر إلي مسطح مائي هائل يبلغ عرضه حوالي ٥٠٠ ياردة ، ويتراوح عمقه فيما بين ١٥ ، ٢٠ قدماً ، وكان العرب القاطنين في هذه المنطقة يطلقون عليها إسم أرض اللبن والزبد ، وذلك لخصوبتها وكثرة المراعي فيها ، فكانوا يربون فيها أعداداً كبيرة من الماشية ، وجاء بتقرير بيكر أيضاً عن هذه المنطقة أنه يكثر فيها الأودية التي كان منها وادي ستيت وهو وادي عميق لوجوده بين المنحدرات الغربية لهضبة الحبشة ، ومنها وادي النجر الذي تقطنه قبيلة الجعليين Jalyn ، وأضاف بيكر أن نهر العطبرة يوجد له عدد من الروافد منها رافده ستيت ، وسالام Salam ، ورويان ، وعنجريب Angareb ، والرهاد ، ودندر . وكان من أهم القبائل التي تقطن نهر العطبرة قبائل التكروري والبازي ، وكان البعض من هذه القبائل موالية لملك الحبشة ، لذلك كانت تمثل مصدر قلق للإدارة المصرية في السودان ، حتى أن ملك الحبشة كان يعتبرها درعاً قوياً لحماية

حدود بلاده المجاورة للأملاك المصرية في السودان ، وكان بيكر قد مكث في منطقة نهر العطبرة عاماً واحداً [١] .

وعلى الرغم من هذا الدور البارز الذي قام به بيكر في منطقة نهر العطبرة إلا أن مؤلفة الكتاب لم تشر إليه بمجرد إشارة ، بل أنها أغفلت هذا الدور الذي لا يقل في أهميته عن دور بيكر في منطقة أعالي النيل أثناء قيامه برحلته الخاصة التي رافقته فيها زوجته المجرية فلورنس فان ساس . فمن المحتمل أن مؤلفة هذا الكتاب لم تعتبر نهر العطبرة من ضمن منابع النيل ، فربما اعتبرته خوراً صغيراً لا يمثل شئ بالنسبة لتزويد النيل النوبي بكمية من المياه لها شأنها ، ومن المرجح أن تكون المؤلفة قد ركزت على منابع النيل ، لذلك إعتبرت نهر العطبرة قد تم كشفه بواسطة جيمس بروس ، ولكن يمكن القول بأن نهر العطبرة هذا يمثل على أقل تقدير أحد الروافد الصغيرة للنيل .

وكانت مؤلفة هذا الكتاب قد ذكرت في مؤلفها هذا إسم زنجبار، ولكنها لم تشر إليه ، كي توضح للقارئ أهمية هذه الجزيرة ، حتى ولو كان هذا التعريف في هامش كتابها . لهذا فإننا سنقوم بإلقاء الضوء على هذه الجزيرة بصورة موجزة لما لها من أهمية تاريخية في نواح عدة .

وتعرف جزيرة زنجبار بجزيرة التوابل Spices Island ، وهي تقع على مسافة ٤٠٠ ميل جنوب خط الإستواء ، وعلى بعد ٢٤ ميلاً من ساحل تنجانيقا ويبلغ طولها ٥٠ ميلاً ، وعرضها ٣٤ ميلاً ، وتبلغ مساحتها ٦٤٠ ميلاً مربعاً ، ومن أهم محاصيلها القرنفل الذي يبلغ عدد

---

[١] د. السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية في أفريقيا في القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٧٩ ، ص ص ٧١ – ٧٢ .

شجيراته ٤ مليون شجرة في ذلك الوقت ، وتمثل نسبة إنتاجها من هذا المحصول ٥٧ % بالنسبة للإنتاج العالمي . وتبلغ المساحة المزروعة منه ٨٠ ألف فدان ، وتصدر زنجبار أيضاً جوز الهند ، والأخشاب والكاكاو [١] .

ولقد وصف أحد الزوار الذين زاروا زنجبار ، أنها أحسن جزيرة في المحيط الهندي ، فكانت معروفة لكل الرحالة ، مع أنها تقع بين خط الإستواء وخط العرض ١٠° جنوباً ، فتتميز بتلالها الصغيرة التي يبلغ إرتفاع الواحدة منها حوالي ٤٤٠ قدماً . ويفصل الجزيرة عن شرق أفريقيا ممراً مائياً يبلغ عرضه ٢٤ ميلاً [٢] .

وكانت زنجبار مسموعة الإسم في العالم ، فكانت ميناء تسعي إليه السفن التي تمخر المحيط الهندي . وقد أحصي بيرتون عدد المراكب التي كانت راسية في مينائها بـ ٦٠ مركباً عربياً ، وكانت قد قدمت إليها من المحيط الهندي ، فضلاً عن ست سفن تتبع كل من أمريكا وفرنسا وألمانيا ، وقد مرت هذه السفن من حول رأس الرجاء الصالح The Cape of Good Hope وكانت هذه السفن تأتي إلي زنجبار لكي تشحن بالكوبال، وجوز الهند والعاج والجلود والشطة والعنبر وشمع العسل وأسنان فرس البحر ، وقرن الخرتيت . وقد ذكر بيرتون الذي زارها عام ١٨٥٦ ، أن عدد سكانها كان يبلغ حوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة. وكانت تتميز بالطرق الرديئة المتعرجة التي لا يكاد عرضها يتجاوز عشرين قدماً . وكانت هذه الجزيرة تزخر بزنوج نصف عرايا ، وعرب وهنود وفرس وسواحليين ، وكانت الماشية والحمير تشق طريقها بين

---

(١) د. فيليب رفلة . الجغرافية السياسية لافريقيا . القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٣٣ .

(٢) Carveth wells . Introducing Africa United States of America , 1954 . p . 158

السكان ، وكان المتسولون يشحذون من المارة ، وكانت الفواكه والخضر تطرح للبيع على حصر من الخوص .

ومن المناظر المألوفة أيضاً أن العبيد كانوا يطوفون بكل شارع رجالاً ونساء وأطفالاً ، سواء من استأنستهم سنوات الأستعباد ، أم من الذين وصلوا لتوهم من داخل القارة ، ومنهم من كان نصف مجنون أو نصف ميت ، بسبب الجوع وسوء التغذية ، وكان مظهر هؤلاء العبيد أقرب إلي الحيوانات المتردية في الشرك منه إلي المخلوقات البشرية العادية .

وقد وصف توماس قائد سفينة البحوث البريطانية تيرنيف التي زارت زنجبار عام ١٨٨١ م ، هذا المشهد بقوله " ينتظم العبيد في صف يبدأ بالأصغر ، وينتهي بالأكبر حجماً وسناً في خير مظهر ، وقد نظفت بشرتهم ودهنت بزيت جوز الهند ، وطليت وجوههم بخطوط حمراء وبيضاء ، ويعتبر هذا مظهراً من مظاهر الأناقة ، وازدانت أيديهم وأنوفهم وآذانهم وأقدامهم بفيض من الأساور الذهبية والفضية والجواهر ، وعلى رأس هذا الطابور المؤلف من الجنسين من كافة الأعمار من السادسة وحتى الستين ، يسير الشخص الذي يمتلكهم ، خلف هذا الطابور ، وفي كل جنب من جنباته يسير إثنان أو ثلاثة من عبيده المستأنسين ، وهم مسلحين بسيوف وحراب ، وذلك لحراسة هذا الطابور .

وبهذا النظام يبدأ الموكب السير في السوق والشوارع الرئيسية ، وفي تلك الأثناء يتغني المالك بصفات العبيد ، وبالأسعار العالية التي عرضت عليه ، فإذا إستهوي متفرجاً أحدهم ، وقف الصف فورا، ثم تبدأ عملية الفحص التي لا مثيل لها من حيث الدقة في أية سوق للماشية،

وعندما يتأكد الراغب في شراء العبد من إنه ليس هناك ما يعيبه في الكلام والسمع ، وأنه خال من المرض يشرع في فحص جسمه ، فيتفقد أولاً فمه وأسنانه وأثدائه ، بعد ذلك يأمر الشاري ، العبد بأن يسير أو يجري مسافة ليتبين خلو قدميه من العيوب ، ثم يجرد بعد ذلك من النفائس إذا تم الإتفاق على الثمن ، ويسلم لمولاه الجديد " [١] .

وقد قسمت مدينة زنجبار إلي ١٨ حياً ، كان لكل منها إسمه الخاص به ، وكان مقر الحاكم يتوسط هذه الأحياء [٢] .

وأما جزيرة بمبا التي لم تتعرض لها المؤلفة بالدراسة أيضاً ، فإنها تنفصل عن قارة أفريقيا بواسطة قنال يتراوح عرضه فيما بين ٣٥ ، ٤٠ ميلاً ، وتبلغ مساحتها ٣٨٠ ميلاً مربعاً ، وتقع شمال زنجبار بمسافة ٥٠ ميلاً ، وقد زارها عدد قليل من السفن ، لأنها لا تمتلك ما تمتلكه زنجبار من موارد . وتبلغ درجة الحرارة في الجزيرة ما بين ٧٠° ، ٨٠° درجة فهرنهيتية ، كما أن الظروف المعيشية فيها كانت أكثر بهجة بسبب الرياح السائدة ، التي تحيطها ففي الجنوب الغربي تهب رياح موسمية أخرى ، ابتداء من نوفمبر أو ديسمبر وحتى مارس .

وترجع الوفرة النباتية في جزيرة بمبا إلي فصلين من الأمطار ، أولهما فصل الأمطار الغزيرة ، الذي تسقط أمطاره حوالي منتصف مارس حتى نهاية مايو أي تسقط الأمطار قبل بدء هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، بينما تسقط أمطار الفصل الأقل مطراً ، قبل بداية الرياح الموسمية

---

[١] الأن مورهيد : ترجمة محمد بدر الدين خليل ، النيل الأبيض ، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ص ١٥ – ١٨ .

[٢] Zoe Marsh and G W . King Snorth . : A history of East Africa Cambridge 1954 , p . 158

الشمالية الشرقية ، أي إبتداء من أكتوبر وحتى ديسمبر ، ويبلغ المتوسط السنوي للمطر في جزيرة بمبا أكثر من ٧٠ بوصة في كل الفصلين [١] .

وبعد هذا العرض عن جزيرة زنجبار وبمبا ، يمكن القول بأن المؤلفة قد تناست كذلك أن تذكر عدداً من الرحالة والمغامرين الذين وصلوا إلي أفريقيا قبل هؤلاء الرحالة الذين تحدثت عنهم ، وتناولتهم بالدارسة ، فمن المعروف أن البعض من هؤلاء الرحالة المنسيين كانوا قد دخلوا إلي قلب أفريقيا عن طريق النيل ، بصحبة حملات محمد علي الكشفية ، هذا فضلاً عن وصول عدد آخر منهم إلي نفس هذه المنطقة في أعقاب الفتح المصري للمنطقة الإستوائية ، وكان هدف هؤلاء الرحالة القيام بمحاولات كشفية للنيل ، ومما لا شك فيه فإن هؤلاء الرحالة المنسيون قد لعبوا دوراً لا بأس به في مجال الكشوف الجغرافية الأفريقية وبخاصة في منطقة جنوب السودان ، فكان معظمهم قد وصل إلي بلدة غندوكرو ولكنهم لم يتخطوها لظروفها الطبيعية ولعدم إستقرار الأمن فيها ، بينما وصل البعض الآخر منهم في تجواله إلي منطقة بحر الغزال . وعلى هذا فقد كانوا سباقين بل وروادا في هذا المجال ، مثل كل من بيرتون وسبيك وجرانت وصمويل بيكر .

وكان من هؤلاء الرحالة المنسيين الذين رافقوا حملات محمد علي باشا ، والذين لم تشر إليهم المؤلفة ، فردريك كايو Cailliau والطبيب الرسام ريشي Ricci وليتورزك Litorezc ، الذي إشترك مع كايو في عمل الأرصاد الفلكية ، وإعداد البحوث الجغرافية ، وكورنر الإنجليزي ،

---

[١] Norman R Bannett · A history of the Arab State of Zanzibar , London 1978 , pp 1 3

و.ميله كونستانت Constant وزوكولي Zuccoli وسيجاتو Segato وهما من الإيطاليين ، وإنجلش English وبراديش وهما من الأمريكيين ، وهاي Hay وهوشت Hoscht اللذين وصلا إلي الخرطوم عام ١٨٣٤ م وأدولف لينانت دي بلفون Adolf Linant de Bellefond الذي قام برحلة إلي النيل الأبيض،فاعتبر أول أوروبي إستطاع الصعود في هذا النهر، وكان لينان هذا قد وصل إلي إقليم الشلوك الواقع عند خط عرض ́11، 30°.وفي الفترة ما بين ١٨٢٨ م،١٨٣١ م،تمكن الكاشف إبراهيم المصري من القيام برحلة إلي بلاد الشلوك الواقعة علي جانب النيل الأبيض، كما توغل في بلاد الدنكا،فوصل في سيره إلي ما وراء الخط العاشر من خطوط العرض الشمالية.وفي نفس الوقت زار اللورد برودهو Prudhoe سنار والخرطوم ، كما زارها أيضاً العالم الطبيعي الألماني إدوارد روبل Ruppel الذي قطع قبل ذلك بأربعة أعوام المسافة الواقعة بين بلدة الدبة والأبيض ، فكان أول أوروبي دخل كردفان .

وفي الفترة ما بين ١٨٢٩ ، ١٨٣٤ م ، كشف كادلفين Cadalvene وبروفيري Bruevery ، وأدمون كومب Admond Combos ، جهات النوبة وصحاري بيوضة ، ومنطقة البشارين ، وبعض أقاليم السودان الشرقي ، حتى شاطئ البحر الأحمر ، وكان من بين هؤلاء الرحالة الذين إستفادوا من هذا التشجيع في الفترة التالية الرحالة الإنجليزي هوسكنس Hoskins ، والبرنس بوكلر مسكاو Puckler Muskau الألماني الجنسية،وآرثر هولرويد Arther Holrayed واجناتيس بالم Ignatius Pallme من الإنجليز . كما ذهب إلي جبال فاروغلي وسنار وكردفان من قبل

محمد علي ، كلا من النمساوي روسيجير Russegger والإيطالي بوريساني Boreani ، وذلك للتنقيب عن معدن الذهب ، ومنهم الفرنسي برون روليه Brun Rollet ، الذي وصل إلي منطقة أعالي النيل في أعقاب حملات سليم ، والذي كتب عن جغرافية المنطقة الواقعة حول غندوكرو وبحر الغزال ، واستطاع أن يكتشف مسافات بعيدة من هذا النهر ، الذي أعتبر أنه يمثل مجري النيل الرئيسي ، وفي منتصف عام ١٨٤٧ م ، وصل إلي مصر أعضاء البعثة الكاثوليكية الذين إتخذوا طريقهم إلي الخرطوم لتأسيس مراكز للتبشير بين الزنوج في جهات النيل العليا .

واستطاعت هذه البعثة برئاسة الدكتور اجنانز كنوبلخر Ignanz Knoblecher ، أن تنشئ بعض المراكز التبشيرية في أعالي النيل الأبيض ، وحول غندوكرو ، وكذلك في منطقتي السوباط والنيل الأزرق . ومما لاشك فيه ، فإن أعضائها كانوا قد أسدوا خدمات جليلة للعلم حتى أن الرحالة سبيك قال ما نصه " وقد احتفظ المبشران النمساويان كنوبلخر وديوك Dooyak بجداول تبين درجات الرطوبة في هذه البقاع على مدار السنة ، كما أنهما قد أعدا سجلات واقعية بالأرصاد الجوية ، وقد تم ذلك بدقة عظيمة ، وبإسلوب علمي منظم " وقال جلبرت Gilbert في هذا الصدد ما نصه : " إن ما قام به هؤلاء من أسفار بين الشعوب الهمجية ومن إنشاء مركز جديد للتبشير في سان كروا St Croix في بلاد قبائل الكيك الواقعة عند خط عرض ٧° شمال خط الإستواء ، ساعد مساعدة قيمة في جمع المعلومات المفيدة عن القارة الأفريقية " فقد استمر أعضاء هذه البعثة التبشيرية يعملون بهمة ونشاط حتى أوائل عام

١٨٦٠ م ومع ذلك فإنهم لم يستمروا طويلاً ، بل اضطروا للإنسحاب من هذه المناطق ، بسبب ما أثاره تجار الرقيق من قلاقل وبخاصة في الفترة ما بين ١٨٥٢ ، ١٨٥٧ م .

ولم ينته الأمر برحيل المبشرين ، بل واصل الرحالة مجيئهم إلي أفريقيا في أعقاب حملات محمد علي أيضاً ، وكان من هؤلاء الرحالة الفريد بيني Alfrid Peney الفرنسي الجنسية ، الذي كان قد أعد مشروعاً يتضمن القيام برحلة إلي بحيرة فيكتوريا ، وقد حصل هذا الرحالة على موافقة الحكومة المصرية ، التي تكلفت بنفقات هذه الرحلة ، وبعد ذلك ذهب بيني ومعه التاجر المالطي ديبونو Debono فوصلا معاً إلي غندوكرو في ديسمبر عام ١٨٦٠ م ، ولما سمعا عن وجود أنهار في الجهة الغربية صمما على زيارة بلاد النيامبارا للوقوف على حقيقة هذه الأنهار ، فقد تمكنا من كشف جزء من إقليم بحر الغزال ، وبعثا بنتيجة كشوفهما الجغرافية في تلك الجهات إلي الخرطوم ، كما أرسلا إلي الخرطوم أيضاً بمجموعة من نباتات هذا الإقليم ومعادنه ، وكتبا عند عودتهما إلي غندوكرو في فبراير عام ١٨٦١ م رسالة إلي رئيس المجمع العلمي المصري كيونج بك Koenig تحدثا فيها عن رحلتهما من الخرطوم إلي غندوكرو ، ثم أوضحا فيها زيارتهما لبلاد النيامبارا ، وبعد ذلك اعتزم بيني السير في بحر الجبل إلي ما وراء غندوكرو ، ففي عام ١٨٦١ غادرت بعثته غندوكرو متوجهة صوب الجنوب ، ولكنها ما لبثت أن قفلت راجعة بسبب ما اعتراها من صعوبات في الطريق . وكان مياني Maini الإيطالي الجنسية قد فشل من قبله في القيام بمثل هذه الرحلة . وفي إبريل عام

١٨٦١ م ، زار بيني هدا بلاد اللاتوكا Latuka والبارى وجمع معلومات جغرافية عن هذين الإقليمين وشعوبهما ، وبعد عودهما توفي بيي في غندوكرو في شهر يوليو من نفس العام .

ولم يتوقف قدوم الرحالة الأوربيين في أعقاب الفتح المصري عند هذا الحد ، بل أنهم واصلوا مجيئهم إلي جنوب السودان ، أو إلي أية منطقة كانت مصر قد فتحتها من قبل . فقد جاء ليجيان Legean إلي السودان الشرقي وكردفان ، ومن الأخيرة وصل إلي غندوكرو ، وكتب عن حياة شعوب نيام نيام القاطنين في منطقة بحر الغزال . كما زار غندوكرو أيضاً عام ١٨٦٠ م ، كل من الألمانيين هارتمان Hartman ، وزميله أدلبرت Adelbert ، والبارون هارنييه Harnier الذي زودنا بمعلومات على جانب من الأهمية عن حملات الرقيق التي كانت تخرج من غندوكرو ، كما شاهد ومن معه الحملات التي كانت تخرج منها أيضاً لتقوم بالكشف عن منابع النيل ، هذا إلي جانب البلجيكي برسنيير Pryssenaere ، والماركيز انتنوري Markeez Antinori اللذان سارا في النيل الأزرق وبحر الغزال لكشفهما ، ثم جاء المكتشف الإيطالي كارلو بياجا Carlo piaggia وزميله مياني Miani وكذلك جاءت إلي منطقة بحر الغزال في الفترة ما بين عام ١٨٦٣،١٨٦٥ المسز تنييه Tinne،وكذلك جاء جون بثريك John Petherick إلي نفس هذه المنطقة ، وكان بياجا قد قام بأول رحلاته في النيل الأبيض عام ١٨٥٣، واستطاع بعد محاولات ثلاث قام بها في أعوام ١٨٦٣م ، ١٨٦٤م، ١٨٦٥م من الدخول في نهر السوباط ، كما أنه زار بلاد نيام نيام الواقعة في إقليم بحر الغزال .

وكان من نتيجة أعمال هؤلاء الرحالة الأوربيين ، الذين جاءوا إلى أواسط أفريقيا في أعقاب حملات محمد علي ، والذين تجاهلتهم مؤلفة هذا الكتاب – إما لكونهم رحالة غير مهمين ، وإما لأنها لم تتمكن من جمع معلومات كافية عنهم ، وإما لأنها لم تقتنع بمجهوداتهم الكشفية، – فقد لعبوا دوراً لا يقل في أهميته عن الدور الذي قام به كل من سبيك وبيرتون وجرانت وصمويل بيكر ، بل وربما أن هؤلاء أمدونا بمعلومات غزيرة عن نباتات وطيور وحيوانات المناطق التي زاروها ، وكنا نحن بل وكان العلماء معنا في مسيس الحاجة إلي معرفتها ، كما أمدونا بمعلومات عن الحياة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية ، لكل القبائل التي مروا من خلال أراضيها [١] .

ويرجع نجاح هؤلاء الرحالة المنسيين إلي ما قدمته لهم على اختلاف جنسياتهم الإدارة المصرية في السودان ، التي أخذت على عاتقها نشر الأمن والأمان في ربوع المناطق التي أصبحت خاضعة للسيادة المصرية، كما أنها كانت تزود هؤلاء الرحالة بما يلزمهم من حمالين ومرشدين وغير ذلك .

وفي هذا الصدد قال أحد الرحالة الأجانب ما نصه : " أنه أصبح في إمكان الرحالة الذين أولاهم محمد علي باشا رعايته الوصول في تجوالهم بسلام حتى إلي جبال دارفور " وأضيف أنه بعد أن تم لمصر بسط نفوذها في منطقة أعالي النيل ، كان في إمكان أي رحالة أوروبي أن يجيء من الإسكندرية إلي هذه المنطقة من وسط أفريقيا دون أن يمسسه أي سوء ،

---

(١) د . محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ص ١٢٥ – ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٣٦ – ١٣٨ .

ودون أن تتعرض حياته للخطر ويرجع الفضل في ذلك إلي إنشاء المحطات العسكرية العديدة التي قامت مصر بإنشائها على طول مجري نهر النيل ، والتي كان من واجبها القضاء على اللصوص وقطاع الطرق ، ونشر الأمن في ربوع هذه البلاد . كما يرجع ذلك إلي العمران والمدنية التي ساهمت مصر بدون أدني شك في إدخالهما إلي أواسط أفريقيا . وخاصة بعد الحملات التي أرسلتها في عهد الخديو إسماعيل ، والتي لم تتناولها مؤلفة هذا الكتاب بشئ من التفصيل مع أن الفضل كل الفضل يرجع إلي هذه الحملات المصرية في كشف لغز النيل ، لأنها كانت حملات حكومية منظمة ، فكانت مصر قد أرسلت حملتين عسكريتين إحداهما بقيادة صمويل بيكر ، الذي سبق له أن زار منطقة نهر العطبرة وبحيرة ألبرت نيازنزا عام ١٨٦١ ، فعندما التقي به الخديوي إسماعيل في حفلة افتتاح قناة السويس إتفق معه على ضرورة قيامه بقيادة حملة عسكرية كشفية ، كان من أهم أهدافها الكشف النهائي عن منابع النيل ، وإلغاء تجارة الرقيق، التي أصبحت منتشرة في هذه الجهات ، وبخاصة بعد أن وصل إليها الأوروبيون في أعقاب حملات مصر الكشفية في عهد محمد علي ، كما أنه كان على هذه الحملة تيسير الملاحة في نهر النيل ، وبخاصة بين شمال السودان وجنوبه ، هذا فضلاً عن إنشاء عدد من المحطات العسكرية على طول خط سيرها . وكان الغرض منها العمل على نشر السيادة المصرية وتدعيمها في هذه البلاد ، زيادة على العمل على استتباب الأمن[1].

---

[1] د . السيد يوصف نصر : جهود مصر الكشفية في أفريقيا في القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٧٩ ، الفصل الثالث .

ولم تكتف مصر بهذا العمل الكشفي الذي قامت به ، ولكنها أرسلت بعثة كشفية أخرى تحت قيادة غوردون باشا الذي كان على دراية تامة بالقيام بمثل هذه المأموريات ، فبعد أن إكتملت حملة غوردون غادرت الخرطوم في ٢٢ مارس عام ١٨٧٤م . ومن المعروف أن هذه الحملة قد أعدت إعداداً جيداً عن الحملة السابقة ، وبالفعل يمكن القول بأن هذه الحملة كانت قد تمكنت من الكشف النهائي عن منابع النيل ، بل ووضعت نهاية فعليه لهذا اللغز الذي ظل يحير العلماء طوال التاريخ .

ولكن على الرغم من ذلك فإن مؤلفة هذا الكتاب لم تشر إلي هاتين الحملتين الكشفيتين اللتين أرسلتهما مصر في عهد الخديوي إسماعيل، بل تجاهلتهما مع أن معظم قادتهما كانوا من الأجانب ، الذين ساهموا بدور إيجابي في كشف أواسط أفريقيا ، فمثلاً إكتشفت حملة بيكر المنطقة التي تقع بين أوغندا وبحر الجبل ، واكتشفت بعثة شاييه لونج أوغندا وبحيرة إبراهيم بل واكتشف لونج أيضاً منطقة الجنوب الغربي من السودان ، واكتشف لينانت دي بلفون المنطقة الواقعة بين فاتيكو وأوغندا، واكتشف ماسون وجيسي بحيرة البرت .

ويبدو أن المؤلفة أرادت ، أن تغفل الدور المصري بل وتنسب كل الأعمال الكشفية التي حدثت في أفريقيا إلي الأوروبيين حتى تبرر بذلك إستعمارهم ، بل واقتسامهم لهذه القارة فيما بينهم .

وبعد هذا العرض الموجز أود أن أشير إلي بعض الحقائق الهامة التي نستخلصها من دراسة هذا الفصل ، وهي أن كل من سبيك وبيرتون لم يكونا على وفاق ، وأثر ذلك بالتالي على مهمتهما الخاصة بالكشف عن

مصادر النيل ، فلم توجد بينهما الثقة المتبادلة والألفة ، بل رغب كل منهما في أن يحقق النصر لنفسه دون غيره ، ويتضح ذلك من أنهما بعد أن أنجزا الرحلة – التي بدأت من باجاما يو الواقعة على الساحل الغربي للمحيط الهندي ، والتي انتهت عند أوجيجي الواقعة في الوقت الحاضر في جمهورية تنزانيا – قام سبيك بعد ذلك بالذهاب شمالاً ، بحيث وصل إلي النهاية الجنوبية لبحيرة فيكتوريا وعلى وجه التحديد وصل إلي بلدة موانزا، وبعد عودته إلي طابورا ، ذهب ومعه بيرتون إلي شاطئ المحيط الهندي ، ومن هناك ، ذهب بيرتون إلي عدن بينما واصل سبيك السفر إلي لندن . وكان بيرتون قد طلب من سبيك بألا ، يصرح بأي شئ عن كشفهما، إلا في حالة وجوده معه ، ولكن سبيك لم يتمسك بهذا العهد، بل أعلن سر كشفهما ، بمجرد وصوله إلي بريطانيا . ويتضح من هذا أنه كان يريد أن يحقق لنفسه الظفر بالمجد والبطولة . ولكن لما وصل بيرتون بعد ذلك إلي لندن ، وعلم بتصرف سبيك هذا ، قال عبارته المشهورة : " والآن فقد انهارت الأرض من تحت أقدامي " وبعبارة المؤلف :

" Burton reached London only 12 days later . By then it was to late , Speke had already lectured the Society and was by now apopular hero , Burton found " the ground completely cut from under his feet " and their joint discovery of lake Tanganyika was almost ignord , Burton went off in disgust to his sister's home at Boulogne in France to write his version of their journey in the lake Regions of Central Africa [1] .

---

[1] Encyclopedia of discovery and Exploration , the challenge of Africa , No , 12 London , 1971 , p . 95 .
للإستزادة في هذا الموضوع راجع : -
د. شوقي عطا الله الجمل:تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها،القاهرة ١٩٧١، ص ص ٧٣ – ١٠٧ .
د. زاهر رياض : كشف أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٩ ص ص ١٢٥ – ٢٥٤ .
عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية من فتحها إلي ضياعها ، ٣ أجزاء – القاهرة ١٩٣٧ ، الجزء الأول .
د. جميل عبيد : المديرية الإستوائية ، القاهرة ١٩٦٨ .
د. السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية في أفريقيا في القرن ١٩ ، القاهرة ، ١٩٧٤ م

الفصـــل التاسع

كيف وجدت لفنجستون ؟

الفصل التاسع

كيف وجدت لفنجستون

في عام ١٨٦٩ م ، وبعد وفاة سبيك بخمس سنوات عاد بيكر إلي أفريقيا ،وكان في هذه المرة يعمل في خدمة الحكومة المصرية ، أي أنه كان حاكماً عاماً لمنطقة حوض النيل الإستوائي . وكان بيكر الإنجليزي الأول الذي تولي وظيفة رفيعة من قبل الحكومة المصرية ، قد تلخص واجبه في أن يضع القطر الواقع إلي الجنوب من غندوكرو تحت السيادة المصرية ، كما كان عليه أيضاً أن يعمل على القضاء على تجارة الرقيق ، بحيث تحل محلها تجارة منظمة . وقد وجد بيكر أن هدا الإجراء سوف يورطه في حرب ليس فقط مع تجار الرقيق ، ولكن أيضاً مع كباريجا إبن كامرازي الذي خلف والده كملك للبونيورو Bunyoro . وفي نهاية فترة وظيفته التي بلغت أربع سنوات نجح بيكر في طرد تجار الرقيق من منطقة حوض النيل الواقعة جنوب غندوكرو ، وأسس هيكل للإدارة المصرية التي تولاها من بعده الجنرال الشهير غوردون . وعاش بيكر حتى عام ١٨٩٣ م ، وعند وفاته كان يبلغ من العمر ٨٢ عاماً ، وكانت زوجته فلورنس المحببة إليه موجودة إلي جواره .

وقد ذكر عن بيكر في أفريقيا أنه كان رجلاً قوياً وذو بأس مع أنه كان يشك في أمر نفسه . وكان له عدد من النقاد ، منهم المكتشف الألماني وعالم النبات الدكتور جورج شوينفرث Dr . George Schweinfourth الذي اعتقد في أن الطريقة التي اتبعها بيكر في طرده

للنخاسة أدت إلي ضرر أكثر منه إصلاح . وكان شوينفرث قد فحص بدقة مسألة النخاسة ، ومن المحتمل أن يكون بيكر قد طرد النخاسة من منطقة واحدة ولكن التجار بكل بساطة كانوا ينقلون نشاطهم إلي منطقة أخرى .

وفي الفترة ما بين ١٨٦٩ ، ١٨٧٠ م ، تفحص شوينفرث روافد النيل العليا واعتقد أن كل من بيكر وسبيك لم يعبرا عنها تعبيراً كافياً رغم أهميتها . وفي الواقع تنحصر القيمة الأساسية لعمل شوينفرث في كتابه المعنون بـ : " قلب أفريقيا The Heart of Africa " فقد نشر هذا الكتاب في إنجلترا عام ١٨٧٣ م ، وكان هذا الكتاب قد أعطي صورة واضحة وجلية عن الإقليم الذي مر شوينفرث من خلاله ، وفيما بعد زيد عمل شوينفرث بواسطة ألماني آخر يدعي الدكتور وليام جونكر William Junker الذي مد مجال نشاطه إلي روافد النيل .

وفي هذه الفترة ، وفي مناسبة تأبين سبيك ألقي السير رودريك مارشيزون خطاباً في الجمعية الجغرافية الملكية ، أعلن فيه عن إقتراحه الخاص بإرسال لفنجستون مرة ثانية إلي أفريقيا ، في محاولة لحل المشكلة ذات الأهمية الخاصة بالمجاري المائية في وسط أفريقيا . وكان لفنجستون هذا مسروراً وتواقاً لهذه الفرصة التي ستتيح له الكشف عن مصدر النيل نفسه ، وقد برهن على أن نهر لولابا River Lualaba الذي تتدفق مياهه من جهة الشمال هو النيل .

وكانت خطة بعثة لفنجستون الأخيرة ، التي بدأت في عام ١٨٦٥م ، الكشف عن كل من منطقة سقوط الأمطار الخاصة بالنيل (أي

المنطقة الإستوائية) والكنغو والزمبيزي . وكتب لفنجستون يقول ما نصه: " آمل في أن أصعد مع نهر روفوما Rovuma River أو أصعد مع بعض الأنهار الأخرى الواقعة في الشمال من رأس دلجادو Delgado ، هذا بالإضافة إلي قيامي (لفنجستون) بعمل آخر يمثل في أنني سوف أسير على طول النهاية الشمالية لبحيرة نياسا ، كما أسير كذلك من حول النهاية الجنوبية لبحيرة تنجانيقا ، لكي أتحقق بنفسي من منطقة تجمع مياه الأمطار الموجودة في هذا الجزء من أفريقيا .

وكان هذا العمل من جانب لفنجستون يمثل خطة طموحة مع أنه لم يكن في حالة تمكنه من تنفيذ ذلك . وعند بدء هذه الرحلة التي ضمت بين أعضائها إثنين من الأفارقة يدعي أحدهما سوري Susi ، ويدعي الآخر أمودا اللذين كانا قد رافقا لفنجستون إلي منطقة الزمبيزي وكان معه أيضاً أثنين من الصبية كان لفنجستون قد أنقذهما من أيدي تجار الرقيق في منطقة النهر ، وكان أحدهما يدعي شوما Chuma الذي ظل مرافقاً للفنجستون حتى النهاية . وفي كل مكان ، كان الحظ السيئ يتعقب لفنجستون . فقد ثبت أن الحمالين كانوا غير راغبين في العمل ولا يمكن الاعتماد عليهم ، هذا فضلاً عن أن التجار العرب أصبحوا في عداء مع لفنجستون ، زيادة على أن الغضب كان قد انتابه بسبب قسوة تجار الرقيق مع عبيدهم وبسبب رؤيته لمذبحة لم يستطع هو معها من الوقوع ، فازداد حزنه أكثر فأكثر . وفي نفس الوقت إنهارت صحته ، بل وكانت محفوفة بالمخاطر ، بسبب فقدانه لصندوق أدويته ولكن رغم ذلك فقد أصر على مواصلة العمل ، وخطط بأن يتخذ طريقه صاعداً مع نهر

روفوما ، ولكن عندما حان الوقت لعبور بحيرة نياسا ، لم يجد أحداً ليساعده في عبورها فاضطره ذلك إلي المسير حول الطرف الجنوبي لهذه البحيرة ، وبعد ذلك إتجه صوب الشمال الغربي في اتجاه بحيرة تنجانيقا . وفي نهاية هذه الرحلة وصل إلي بحيرة مجهولة تعرف باسم بحيرة مويرو Lake Mweru الواقعة بالقرب من رافد نهر لولابا The Lualaba River . وفي نفس الوقت اكتشف لفنجستون بحيرة بانجويلو Bangiweolo Lake ، التي تقع إلي الجنوب من بحيرة مويرو ، وعلى مسافة ٨٠ ميلاً ، وتتصل بها عن طريق نهر مجهول . وعند الشاطئ الغربي لبحيرة تنجانيقا ، كافح لفنجستون بكل قوة حتى تمكن بعد ذلك من عبورها إلي بلدة أوجيجي Ujiji ، وهناك مكث بها ، لأنه كان لا يستطيع أن يتقدم إلي الأمام خطوة واحدة ، وفي هذا الوقت أشاع الحمالون الذين كانوا قد هجروا البعثة إشاعات عن موته . وقد وصلت هذه الإشاعات إلي انجلترا ،وهناك وجدت الصحافة البريطانية الفرصة ملاءمة وبخاصة جريدة النيويورك هيرالد لترسل محررها اللامع هنرى مورتون ستانلي إلي أواسط أفريقيا ، لكي يتحقق من صحة إشاعة موت لفنجستون من عدمه .

ويعتبر ستانلي ، بكل المقاييس من أعظم مكتشفي أفريقيا ، وبالطبع فإن أعماله كانت مدهشة ، فقد حقق النصر منذ طفولته على الخوف الذي يمكن وصفه بالقصص التي وردت في روايات تشارلز دكنز ، وكانت أخطاؤه نتيجة مباشرة لتصميمه على الحياة . وقد ولد ستانلي عام ١٨٤١ م في مدينة دينبه Denbigh في مقاطعة ويلز ، وكان إبناً غير شرعياً لريفي يدعي جون رولاندس John Rowlands الذي أعطى

أسمه لستانلي . وقد مات أبوه بعد مولده بمدة ليست طويلة ، وذهبت أمه إلي لندن ، كي تبحث عن عمل كخادمة وتركته في رعاية أقارب لها، حيث أودع في الخامسة من عمره في إصلاحية للأحداث كانت تابعة لأبروشية . وكان لهذه الإصلاحية مدرسة من النوع الردئ ولقي الشاب جون رولاندس طوال التسع سنوات التي قضاها في الإصلاحية الضرب والقسوة من جانب ناظر هذه المدرسة ، الذي كان نصف مجنون ، والذي أنهي حياته في المنزل الخاص بالمختلين عقلياً . وكان ستانلي معذباً حتى في قمة شهرته بسبب ذكريات الماضي ، وبسبب حادثة كانت قد حدثت له ، فقد تمثلت هذه الحادثة في أن واحداً من أصدقائه ، وهو الطفل الذي وصفه ستانلي بأنه ملك جمال المدرسة قد مات فجأة ووضع في مستودع الجثث بالمدرسة . فزحف جون رولاندس ومعه واحداً أو أثنين من الأولاد الآخرين إلي داخل هذا المستودع ، حيث كان يرقد جسم صديقهما ثم عادا ومعهما الملاءة التي كان يغطي بها جسمان الولد الميت . ونتيجة لذلك فقد أصابهما الرعب والفزع ، بسبب اللكمات والضربات التي تعرضا لها من جانب المسئولين عن هذا المستودع .

ولقد إحتمل رولاندس كل هذه الظروف الفظيعة حتى بلغ سن الخامسة عشر من عمره وبعد ذلك تمرد على هذه الأوضاع ، ولكنه هدد بالجلد مرة أخرى ، حتى أن رئيس المدرسة القاسي عاقبه بالضرب المبرح، وإزاء هذه الظروف إضطر ستانلي إلي الهروب من إصلاحية الأحداث ، حيث قفز من فوق حائطها ، واستقبله أقاربه وهم على مضض لأنهم كانوا لا يرغبون في استقباله . لهذا غادر ستانلى دينيه إلي ليفربول

Liverpool حيث كان عبئاً ثقيلاً على خالته المتزوجة ، وهناك وجد عمل في أحد المحلات .

وكان ستانلي يتقاضي أجراً ضئيلاً للغاية في هذا الدكان . وكان هذا الأجر لا يكفيه لذلك إلتحق وهو في سن الثامنة عشر بسفينة أمريكية ليعمل عليها خادم As Cabin boy وكانت الحياة على ظهر هذه السفينة قاسية لدرجة أنها كانت مشابهة تقريباً للحياة التي كان ستانلي يعيشها في إصلاحية الأحداث ، وفي نيو أورليانز At New Orleans حصل ستانلي على مرتب أقل من المتفق عليه ، فاضطر إزاء ذلك إلي الهرب ورغم ذلك فقد أصبح العمل ضرورياً بالنسبة له ، لذلك نجده يقترب بجرأة وبرقة من رجل غريب ، ويسأله عن عمل ، وكان هذا الرجل الغريب يعمل سمساراً للقطن و لم يكتف هذا السمسار فقط بإيجاد عمل لستانلي ، ولكنه إصطحبه إلي منزله ، وأعطاه إسمه الجديد ، هنري مورتون ستانلي Henry Morton Stanly ، وقد قضي ستانلي الشاب سنتين في العمل ، وفي أثنائهما سافر مع والده الجديد في مهمة تجارية . وبعد ذلك مات ستانلي الكبير تاركاً من بعده ستانلي الشاب الذي لم يكن متبنيه بطريقة شرعية أو رسمية ، وحيداً وبدون توجيه .

وعندما إنفجرت الحرب الأهلية (الأمريكية) جند ستانلي في الجيش الإتحادي ، وقد أسر في موقعة شيلو Shiloh ، وأثناء تبادل عملية الأسري وافق ستانلي على الإلتحاق بالجيش الإتحادي ، ولكنه في هذا الوقت وقع فريسة للمرض ، ولكنه بمجرد أن شفي من مرضه ، سرح من الخدمة العسكرية ، وفي خريف عام ١٨٦٢ م ، أبحر ستانلي إلي انجلترا ،

وحضر فجأة إلي منــزل أمه ، ولكنه أبعد على الفور ، وبــذلك ازداد شعوراً بالمرارة مى أسرته أكثر من قبل ، وكذلك من الوطن الذي نبذه ، ونتيجة لذلك عاد مرة ثانية إلي أمريكا . وبعد قيامه بــرحلات بحريــة عديدة إلتحق بالأسطول الإتحادي ككاتب سفينة ، وفي أثناء البعثات التي كانت ترسل ضد حصن فيشر Fort Fisher أرسل ســتانلي برقيــات إلي الجرائد وكان محررو هذه الصحف يقبلون البرقيات ويقومون بنشرها .

وعندما وضعت الحرب أوزارها ، أخلي سبيل ستانلي من الخدمة في الأسطول (الأمريكي) ، وبعد ذلك قرر أن يعمل كل وقته صحفياً ، وبسرعة نجح في هذا العمل . وفي عام ١٨٦٨ م ، إلتحق ستانلي بهيئــة جريدة النيويورك هيرالد ، وقد عهد إليه بأمر لفنجستون ، وكان هــذا واحد من الأعباء الهامة العديدة التي تولاها ستانلي ، وقد رتبــت هــذه المهمة إلي ستانلي في باريس بمعرفة جيمس جــوردون بنيــت Gordon Bennett المدير وابن صاحب الجريدة ، وفيما بعد وصف ستانلي مقابلته مع بنيت في كتابه المشهور والمعنون بــ " كيف وجدت لفنجستون How I found Livingestone? " فكان قد دار حوار بينه وبين بنيت جاء فيه :

" في أي مكان تعتقد في وجود لفنجستون يا بنيــت ؟ فأجــاب بنيت بقوله ، في الواقع لا أدري يا سيدي ، ثم سأله ستانلي ، وهل تعتقد أنه حي ، فأجاب بنيت بالقول ربما يكون حياً ، وربما يكون ميتاً . فقال ستانلي : " حسناً أنا أعتقد أنه على قيد الحياة ومن الممكن أن نجده وأنا سأذهب كي أرسل لك يا بنيت بخبر العثور عليه فأخرج بنيت ألفاً مــن الجنيهات وأعطاها إلي ستانلي ، وقال بنيت إلي ستانلي وعندما تذهب إلي

هناك أي إلي أفريقيا للبحث عنه فسوف أعطيـك ألـف أخـرى مـن الجنيهات، وعندما تنفقهما فسوف أعطيك ألف ثالثة ، ولما تنتهي مـن إنفاقها فسأعطيك ألف رابعة ، وهكذا فعليـك يـا سـتانلي أن تجـد لفنجستون وبعبارته :

" Find Livingstone " .

وعندئذ كان لدي ستانلي مبلغاً غير محدد من المال ، ولكن قبل أن يتوجه ستانلي للبحث عن لفنجستون في أدغال أفريقيا ، صـدرت إليـه التعليمات بحضور الإفتتاح الرسمي لقناة السويس ، ثم بعد ذلك كان عليه أن يصعد مع النيل لكي يكتشف كل ما يستطيع كشفه من المناطق الـتي قامت بعثة السير صمويل بيكر بكشفها في أعالي النيل ، وكـان عليـه كذلك أن يزور بيت المقدس ، واستانبول والقرم ، وبحر قزوين وإيـران ومن هناك يذهب إلي الهند .

وأضاف إبن صاحب الجريدة يقول :

" بعد أن تذهب يا ستانلي إلي الهند يكون في إمكانك الـذهاب وراء لفنجستون ومن المحتمل أن تسمع بأن لفنجسـتون في طريقـه إلي زنزبار ، ولكن إذا لم يحدث شئ من هذا ، فعليك الـذهاب إلي داخـل أفريقيا لكي تجده إذا كان على قيد الحياة ، وأرسـل أي أخبـار عـن إستكشافاته كلما تمكنت من ذلك ، وفي حالة ما تجده ميتاً ، فأرسل كل الأدلة الممكنة الخاصة بموته . فهذا هو المطلوب . وانتهي الحـوار بـين الأثنين ، وقال بنيت لستانلي : " ليلتك سعيدة ، والله معك ، عندئذ قال ستانلي إلي بنيت ليلتك سعيدة ، وأضاف ستانلي متسائلاً بالقول : " ما

تستطيع الطبيعة أن تفعله فسوف أفعله ، فمأمورية كهذه سأقوم بها وسيكون الله معي " وبعبارته :

" What it is in the power of nature to do I will do , and on such an errand as I go upon , God will be with me " .

وبأمانة منقطعة النظير فقد أنجز ستانلي كل المسئوليات التي أوكلت إليه ، فأرسل برقيات إلي جريدة النيويورك هيرالد وقد مضي أكثر من ١٤ شهراً على يوم السادس من شهر يناير عام ١٨٧١ م ، وهو اليوم الذي قابل فيه ستانلي بنيت . ففي تلك الأثناء كان ستانلي قد وصل إلي زنزبار ، كي يبدأ بحثه وقد مكث بعض الوقت عند القنصل الأمريكي لأنه كان يعتبر نفسه أمريكياً تماماً ، وكان ستانلي جاداً في الحصول على أخبار جديدة، حتى أنه رفض أن يذيع خططه إلي جون كيرك John Kirk، الذي كان يعمل في ذلك الوقت قنصلاً لبريطانيا في زنزبار . وكانت القافلة التي إلتحق بها ستانلي كبيرة ، ومعدة إعداداً جيداً ، وسار ستانلي في خط مستقيم أثناء فصل المطر ، وكانت خطواته سريعة ، أي أنه كان أسرع من لفنجستون وبيرتون وسبيك . وفي الثلاثين من نفس الشهر ظهر ستانلي في صورة رائعة ، حيث أنه كان منظماً بدرجة كبيرة فقد قاد رجاله بطريقة حازمة ، ففي كل صباح كان يوقظ قافلته بالفرقعة التي يحدثها كرباج حمار السيد العظيم (أي ستانلي) والتي تشبه طلقات المسدس .

وقال ستانلي : " لم يكن هناك وقت أمام الأفراد (الحمالين) ، الذين يريدون الهرب " وأضاف في قوله : " أنه عندما يكون الطين مبلل بالماء ، ففي هذه الحالة يصبح ليناً ، و[illegible] تماسكه الطبيعي هشا ، مما

يساعد ذلك على الكسل ، بين الرجال ، لهذا فإن استعمال الكرباج خلف ظهر الحمالين خير وسيلة لإعادة نشاطهم . وفي أحيان أخرى يؤدي ذلك إلي نشاط مكثف " . وكان الشخصان الأوربيين أعضاء بعثة ستانلي غير مقتنعين بهذه الرحلة ، حيث ماتا في الطريق ، لأنه لم يكن لديهما المقدرة على مواصلة المسير الشاق .

وكان تقرير ستانلي الذي يريد كتابته في شكل كتاب عند عودته، كان دراميا ومثيراً للعواطف ويتضح ذلك من قوله :

" لا يستطيع رجل أو رجال أحياء إيقافي عن القيام بهذا العمل ، ولكن الذي يمنعني هو الموت فقط ولا حتى هذا الموت ، فأنا لن أموت ، فأنا لن أموت ، فأنا لا أستطيع أن أموت فكل شئ لا أعرفه يخبرني بذلك، أنا لا أعرف ماذا يكون هذا ، فشئ ما يخبرني هذه الليلة ، بأنني سأجده (لفنجستون) و .... سوف أكتب عنه أكثر فسوف أجده ، أجده ، فحتى بالكلمات الملهمة إنني أشعر بسعادة كبيرة وبخاصة عندما أقوم بصلواتي ؟ فسأنام هذه الليلة بهدوء .

ولم يمنع الموت ستانلي ، (من تحقيق هدفه) . فمن المعلومات التي تلقاها ستانلي أن لفنجستون كان على قيد الحياة ، وكان موجوداً في أوجيجي ، وهناك وفي حضور حشد كبير من الناس حدث هذا اللقاء الشهير ، وفي هذا الصدد كتب ستانلي يقول : " عندما تقدمت لملاقاته لاحظت أنه شاحب اللون ، ويبدو عليه الإرهاق ، وكان ذو لحية رمادية، ومرتدياً طاقية زرقاء ، ومن حولها رباط من الخيط المذهب الفاتح، ومرتدياً أيضاً صديري ذو أكمام حمراء ، وبنطلوناً من الصوف

الخشن ، وبعدئذ جريت مسرعاً نحوه وقد أصابني الخوف من هؤلاء الدهماء وعانقته . وكان هو الإنجليزي الوحيد من بين هؤلاء الدهماء ، وكنت لا أعرف كيف يستقبلني لفنجستون ، لهذا فضلت أن يكون الجبن وعزة النفس شيئين طيبين ، فسرت عن عمد نحوه (لفنجستون) وخلعت قبعتي وقلت يا دكتور لفنجستون هل تعرف من أكون أنا ؟ ، قال لفنجستون نعم ، وكان في تلك الأثناء يتبسم إبتسامة رقيقة وخلع طاقيته باستخفاف فوضعت على رأسه طاقيتي محل طاقيته ، ووضع هو طاقيته على رأسي ، وتعانقت أيدينا ، وقلت بصوت مرتفع ، أشكر الله يا دكتور ، أن سمح لي بأن أراك ، فأجاب لفنجستون بقوله : " أنا ممنون فأنا هنا وسوف أحتفي بك " .

وقد قضي ستانلي أربعة أشهر مع لفنجستون حيث إنتعشت صحته ومعنوياته بسرعة . وكانت هذه الشهور كلها بالنسبة لستانلي شهور ذكريات فهو الذي تعلم كيف يحب ويحترم الرجل الذي يكبره سناً. فوجد فيه صورة الأب المثالي . وبدأ لفنجستون مغرماً باستانلي مع أنه كان يختلف عنه في الشخصية تماماً فكان لفنجستون أبوي وكان غاية في الصبر مع أتباعه من الأفارقة بينما كان استانلي الرجل الذي يثق ثقة لا حدود لها في سمو الرجل الأبيض على الملونين ، فبذلك كان رجلاً غير حساس ، بل وكان دكتاتوراً ، وكان من تسليته على سبيل المثال أن يتذكر المحادثة التي سمعها ، والتي دارت بين خدم لفنجستون وبين خدمه ، وهذه المحادثة على النحو التالي :

" ويقول أحد خدم ستانلي مخاطباً واحداً من خدم لفنجستون ، سيدكم الذي يدعي لفنجستون يخاطبكم بالقول يا خدمي ، لهذا فهو رجل طيب ، بل أنه رجل طيب جداً فهو لم يضربكم ، لأنه طيب القلب، ولكن سيدنا (ستانلي) فهو رجل حاد الطبع قاسي مثل النار " .

وفي فترة الشهور التي قضاها ستانلي مع لفنجستون سأله ستانلي عن استكشافاته ونظرياته ، وسأله أيضاً إذا كان قد اكتشف النهاية الشمالية من البحيرة (بحيرة فيكتوريا) التي ادعي بيرتون أن نهر الروسيزي Rusizi River يخرج منها ، فأجاب لفنجستون على هذه الأسئلة بأنه لم يفعل ذلك ، لأنه كان معتقداً أن نهر لولابا Lualaba River يقع في الجنوب الغربي وعلى مسافة بعيدة (من بحيرة فيكتوريا) ومن الممكن إثبات أنه هو نهر النيل ، وليس من الممكن أن تكون بحيرة تنجانيقا مصدراً للنيل . فنصحه ستانلي بالقول حسناً ، لو كنت مكانك يا لفنجستون لكنت اكتشفت بحيرة تنجانيقا ، قبل مغادرتي هذه المنطقة فأنا سأكتشفها ، وأحل كل الشكوك حول هذا الموضوع .

ولقد وافق لفنجستون على ما قاله ستانلي ، وعلى أثر ذلك ركب الرجلان في قارب صغير متوجهين إلي النهاية الشمالية للبحيرة (بحيرة تنجانيقا) فاكتشف لنفجستون على الفور أن بيرتون كان مخطئاً : لأن كل من بيرتون وسبيك إعتقدا أن مياه نهر الروسيزي Ruisizi تتدفق نحو الجنوب في البحيرة . وهكذا فلم يكن هناك اتصال بالنهر الرئيسي الذي تتدفق مياهه نحو الشمال . كما لم يعرف نظام الصرف في هذه المنطقة .

وقد تجاسر لفنجستون على العودة إلي نهر لولابـــا Lualaba River كي يكمل عمله ، وبخاصة بعد أن زاد اعتقاده بأنه على حق ، ورفـــض لفنجستون أن يصطحب ستانلي إلي انجلترا ولكنه أعطي ســـتانلي كـــل تقاريره ، كما أن ستانلي أعطاه الحمالين والمؤن من مخزونه الخاص . وقد تضمنت تقارير لفنجستون خطاباً إلي جريدة النيويورك هيرالد ، وفي هذه التقارير كان لفنجستون قد قدم وصفاً للمذبحة الدموية التي قام بها تجـــار الرقيق ضد المئات من الناس في منطقة نيابجوي Nyangwe الواقعة على نهر لولابا ، وكذلك قدم وصفاً عن الفظائع التي تورط فيها تجار الرقيـــق في منطقة أونجيجي ، وذكر لفنجستون أنه بســـبب انتشـــار العبوديـــة في أوجيجي ، ينبغي أن يؤدي هذا إلي القضاء على تجارة الرقيق في ســـاحل شرق أفريقيا . وكتب لفنجستون يقول ما نصه : " أنني أعتبر ذلك مسألة هامة بل لا أبالغ عندما أقول ، أنها مسألة أهم بكثير من الكشف عن كل مصادر النيل " .

ولا زال لفنجستون مصمماً على اكتشافه لمنابع النيل حتى ولـــو كلفه ذلك العودة نحو الجنوب أكثر من مرة ، وفي هذا الصـــدد كتـــب لفنجستون يقول ما نصه : " من الضروري التغلب على هـــذه المشـــكلة لكي أتمم عملي ، ومع ذلك فلم يحدث هذا بعد ، وبعبارته :" It was not to be Halted " وفي شهر إبريل عام ١٨٧٣ م تعطل لفنجستون بســـبب المرض المميت الذي تعرض له في المنطقة الواقعة بالقرب من قريـــة أولالا Ilala ، القريبة من بحيرة بانجويلو Bangweolo ، ففي الصباح الباكر لأحد الأيام وجد الخادمان المخلصان سوزي Susi وشـــوما Chuma ســـيدهما

لفنجستون في وضعه الذي تركاه فيه في الليلة السابقة راكعاً بجوار سريره، بحيث كان واضعاً وجهه بين يديه ، كما لو كان يصلي أو يتوســـل إلي الله، ولكنه في الحقيقة كان ميتاً .

وعندئذ بدأت نهاية الرحلة لهذا البطل " رحلة لفنجستون " . فقام كل من سوزي وشوما ومعهما ستين شخصاً من الرجـــال الشـــجعان ، بدفن قلب سيدهما تحت شجرة وبعد ذلك قاما بتحنيط جثتـــه ، ولفهـــا بحيث جعلوها شبه ربطة من الملابس ، لأنهما كانا مدركين ، أنهما سوف يتصارعان مع القبائل التي تعتقد في أن الجسم الميت يكون رمـــزاً لســـوء الحظ ، أو لكارثة متوقعة ، لهذا حمل هذان الشخصان هذا الحمل المربوط (جثة لفنجستون) والمدعم بالأعمدة الخشبية وبدأ رحلة السفر التي يبلغ طول مسافتها ١٥٠٠ ميل ، ابتداء من النقطة التي بدأ منـــها ، وحـــتى ساحل شرق أفريقيا . وقد استغرقت هذه الرحلة ما يربو علـــى عشـــر شهور . ورغم ذلك فلم يتخلي كل من سوزي وشوما عن الجثمـــان ، حتى وصلا إلي باجامايو Bagamoyo ، وهناك سلما الجثة إلي المســـئولين البريطانيين في زنزبار .

وقد نقل جثمان لفنجستون إلي انجلترا ، وفي الثامن عشر من شهر إبريل عام ١٨٧٤ م ، دفن في مثواه الأخير ، في كتدرائية وست منســـتر بلندن London's West minster Abbey وقد لعبت قصة لفنجســـتون دوراً هاماً بين هؤلاء الذين حملوا الراية من بعده ، من أمثال ستانلي ، وكيرك، وجاكوب وين ريت Jacob Wain Wright الذي كان واحداً من هـــؤلاء الرجال الذين حملوا الجثمان طوال الرحله العجيبة إلي الساحل .

وقد كتبت العبارة التالية على مقبرة لفنجستون " تخليداً لذكراه ، وهي على النحو التالي :

" يمكث هنا جثمان دافيد لفجستون من أجل ما قدمت يداه من أعمال في البر والبحر فضلاً عن ذلك فهو المبشر Missionary والرحالة Traveller والخير philanthropist " . وكان لفنجستون قد ولد في ١٩ مارس عام ١٨١٣ م في بلنتير Blantyre ، بمقاطعة لانكشير Lankshire . ومات في اليوم الأول من مايو عام ١٨٧٣ م ، في قرية تشيتامبو Chitambo بمنطقة أولالا Ulala .

وقد وضع تمثال للفنجستون بملابسه التي وصفها به ستانلي ، أمام الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ، وهو بمثابة تكريم لهذا الرجل الذي قضي ثلاثين عاماً من حياته في كشف أفريقيا ، محاولاً بذلك تحويل القبائل الأفريقية إلي العقيدة المسيحية . ومع أنه كان قد فشل في الكشف عن مصادر النيل ، إلا أنه سخر عمله صد العبودية ، وقد دعمت هذه الحملة التي قادها لفنجستون ضد العبودية من جانب السير جون كيرك Sir John Kirk . وقد أسفر عن حملته هذه إجبار سلطان زنجبار على منع تصدير العبيد من كل مكان من أملاكه في شرق أفريقيا حتى أن هذا السلطان قد قام بغلق سوق الرقيق في بلاده إلي الأبد .



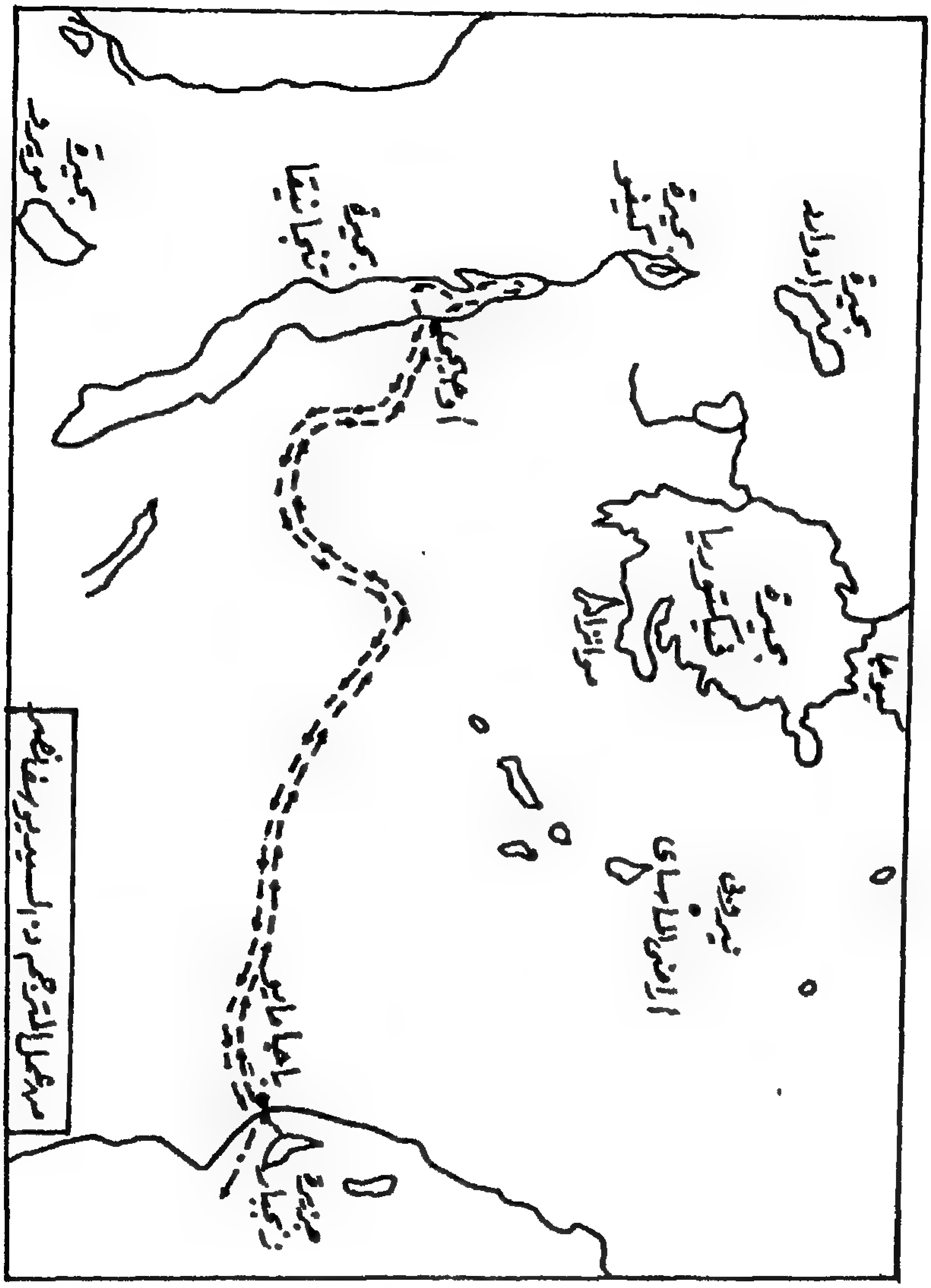
صورة المغامر الألماني الدكتور يونكر الذي جاء إلي منطقة بحر الغزال عام ١٨٧٧ م وذلك لاكتشاف أنهار هذه المنطقة ، وجمع بعض عينات من نباتاتها وطيورها وحيواناتها



صورة الأمير الاي بروت بك الذي عمل في خدمة الحكومة المصرية في عصر الخديوي إسماعيل ، وقد اكتشف المنطقة الممتدة من أم درمان وحتى الأبيض عام ١٨٧٥ .

من إعداد المترجم

خريطة رقم ١٧ والخاصة ببعثة ستانلي الأولي عام ١٨٧١



بدأ ستانلي رحلته من زنجبار ، ثم مر بمدينة باجامايو وطابوره ، ومنها اتجه غرباً إلي بحيرة تنجانيقا ، فوصل إلي مدينة أوجيجي ، وكان الهدف من هذه الزيارة البحث عن دافيد لنفجستون الذي أشيع عنه أنه مات في بلدة أوجيجي ، ومن هناك طاف الرجلان على سطح مياه بحيرة تنجانيقا من جهة الشمال .

التعليق على الفصل (٩)

أغفلت مؤلفة هذا الكتاب دور كل من الألمانيين دكتور جورج شوينفرث ، والدكتور يونكر الذي قدم إلي أفريقيا عام ١٨٧٦ م على رأس بعثة كشفية لكشف الجزء الداخلي من خور بركة ، الذي ظل غير معروف فترة طويلة من الزمن .وكان يونكر قد اتخذ طريقه من السويس عبر البحر الأحمر ، حتى وصل إلي جدة ، ومنها إلي سواكن . وفي ذلك الوقت كان الطريق إلي الخرطوم معطلاً بسبب الحرب الحبشية المصرية . وقد وصف يونكر خور بركة بأنه عبارة عن نهر مخيف ، وبخاصة في زمن الفيضانات ، وبعد زمن الفيضانات يجف بسبب تسرب مياهه إلي البحر الأحمر ، لذلك كان الأهالي يحصلون على المياه من الآبار ، ومن بعد طوكر يتجه هذا الخور من الجنوب إلي الشمال مع وجود بعض الإنحناءات التي تعترض مجراه ، ويتسع مجراه العلوي عن مجراه السفلي ويعتبر هذا الخور الحد الطبيعي والسياسي لقبائل بني عامر وهدندوه [١] .

وفي نفس العام (١٨٧٦) م واصل يونكر مسيره إلي الخرطوم ، ومن هناك قرر السفر إلي نهر السوباط الذي يوجد على شاطئيه القرى التي يقطنها عدداً من القبائل النيلية ، التي تمارس نشاطها البشري في الزراعة البدائية والرعي [٢] .

---

[١] د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية في أفريقيا في القرن ١٩ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ص ٧٣ ـ ٧٤ .

[٢] Dr . Junker : Voyages Dans L ' Afrique Equatoriale Bul . Soc . Kh . Geog No . 7 . pp . 20 – 26 .

وفي نفس العام إتجه الدكتور يونكر إلي منطقة أعالي النيل وهناك تجول في منطقة بحر الجبل وبحر الغزال . وكان يونكر قد كتب تقريراً عن هذه المناطق جاء فيه أنه تمكن من إثبات أن نهر الجت Jet الموجود في منطقة المكاراكا ، هو عبارة عن نهر صغير يتجه نحو الشمال و لم يكن هو المجرى العلوي لنهر الرول Rohl ، وتحقق كذلك من وجود كل من نهر أوليه Ouelle ، الذي اكتشفه شوينفرث ونهر أروفيما Aruvima الذي اكتشفه ستانلي ، واكتشف يونكر أيضاً عدداً من الأنهار الأخرى ، منها نهر إيرو Eirro ،أحد فروع نهر الرول ،والمجرى العلوي لنهر تونج Tondj. هذا فضلاً عن أنه بدد الرأي الذي كان سائداً ، والذي أطلقه جيسي عام ١٨٧٦ م ، والذي كان يقول أنه يوجد نهر يخرج من الجزء العلوي لبحر الجبل ، بحيث يتجه نحو الغرب ولكن يونكر بعد أن تجول في هذه المنطقة لم يجد أي نهر يخرج من المجري العلوي لبحر الجبل ، كما كان يدعي جيسي [١] .

وأما الدكتورشوينفرث الذي قضي الفترة ما بين سنة ١٨٦٩ ، ١٨٧١ م في منطقة بحر الغزال ، كان قد شاهد الغابات والمستنقعات والمجاري المائية كما أنه زار منطقة الأزاندي ، وقبائل نيام نيام [٢] .

هذا فضلاً عن أن هذه المؤلفة أغفلت عدداً من الرحالة الذين لا يقلون في الأهمية عن هؤلاء الرحالة الذين لقوا إهتماماً كبيراً من جانبها . وكان من هؤلاء الرحالة برون روليه ، الذي جاء إلي أفريقيا في الفترة ما بين ١٨٤٥ ، ١٨٥٢ ، وتجول في منطقة النيل الأبيض ، وبحر الغزال ،

---

(١) Junker Sept ans de Voyages dans l'Afrique Central Vol . 2 . p . 634 .

(٢) نفس المصدر ، ص ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

واستكشف معظم تلك البلاد ، كما كان يقوم بنقل العاج وريش النعام من هذه المناطق إلي أوروبا [١] . ومنهم أيضاً جون بتريك الـذي عمـل مهندساً للتعدين في عصر محمد علي ، فعندما سافر إلي السودان للتنقيب عن الفحم ، وجد نفسه على مقربة من بحر الغزال فهنـاك قـام بعـدة جولات في هذه المنطقة في الفترة ما بين ١٨٤٧ ، ١٨٥٩ ، ووصـل في تجواله إلي بلاد الأزاندي ، وبعد ذلك عاد إلي انجلترا عام ١٨٥٩ م [٢] . ومن هؤلاء أيضاً الرحالة دي مالزاك الذي جاء إلي منطقة بحر الغـزال ، ولكنه توفي بسبب تعرضه لمرض الحمى . ومنهم كلينـزنيك الذي غادر الخرطوم عام ١٨٦١ م متوجهاً إلي منطقة بحر الغزال ، ووصف شواطئ هذا البحر بأنها ضحلة ويكثر بها البوص والنخيل ، وكان من الصـعب عبورها إلا في فصل الجفاف ، ويضيف كلينـزنيك بأن نهر الجور أحـد فروع بحر الغزال كان صالحاً للملاحة ، ابتداء من منبعه وحتى مصـبه ، وتميزت هذه الشواطئ بكثرة تعاريجها ، وكان من الصعب عبورها إلا في فصل الجفاف ، وشاهد في هذه المنطقة الكثير من الغابـات والأحـراش والينابيع ، وبعض البرك التي تتكون مياهها مـن الأمطـار ، وأسـس كلينـزنيك زريبة على طريق القوافل المبتدئ من نيام نيام ، وحتى حفرة النحاس بحيث اتخذها مركزاً تجارياً [٣] .

---

[١] دراسات في النيل ، ص ٥١ .

[٢] هرست : النيل ، ترجمة حسن أحمد الشربيني ، ص ٢٩١ .

[٣] Heugline , V . : Travel in the Sudan in the Sixties , S N . R . July , 1892 , January 1893 , V –XXIV , pp 158 159 .

ومن الواضح أيضاً أن مؤلفة هذا الكتاب أهملت الإشارة إلي عصر إسماعيل ، أزهي العصور الكشفية في أفريقيا ، التي تضمنت كل من منطقة غرب السودان وشرقه ، وأفريقيا الشرقية وأعالي النيل .

وأما بالنسبة لغرب السودان ، فقد أرسلت مصر في ٢٠ إبريل عام ١٨٧٥ م بعثة كشفية بقيادة كولستون بك ، وقد بدأت هـذه البعثـة مهمتها من القاهرة حتى قنا ، ومنها عبرت الصحراء الشرقية إلي بـرنيس الواقعة على ساحل البحر الأحمر الغربي . وهناك التقي كولستون ببردي ، وبعد أن تجول الرجلان معاً في منطقة برنيس ، قاما بوصـف المظـاهر الطبيعية لهذه المنطقة ، ورسم كولستون خريطة لخط سيره ، ومن برنيس اتجه كولستون إلي أبي حمد ، ومن هناك عبر وبعثته النيل إلي بلدة الدبة ، ومنها اتجه إلي بلدة بارة فالأبيض ، وكان كولستون قد ألقي الضوء على كل المظاهر الطبيعية لهذه المنطقة . ومات كولستون في الأبيض ، وبعـد ذلك ألتحقت بعثته ببعثة بروت باشا التي كانـت متجهـة إلي مدينـة الخرطوم. ومن المعروف أن بعثة بروت كانت قد بدأت مهمتـها مـن الخرطوم عام ١٨٧٥ م .

وذلك لكشف المنطقة الواقعة بين الخرطوم والأبيض ، وقد رسم بروت عدداً من الخرائط لهذه المناطق التي مر من خلالها .

وفي ١٩ فبراير عام ١٨٧٦ قام بردي باشا على رأس بعثة لكشف المنطقة الممتدة من دارا وحتى حفرة النحاس ، ووصف بردي هذه القرية بأنها قرية صغيرة بنيت منازلها من القش والطين ، كما ألقي الضوء علـى

حفرة النحاس التي كان الوطنيون يقومون بالحفر فيها للحصـــول علـــى معدن النحاس .

وأما عن شرق السودان فقد أرسلت مصر عدداً مـــن البعثـــات الكشفية أرسلت إحداها في سبتمبر عام ١٨٧٥ م ، وكانت هذه البعثـــة تحت قيادة أرندروب باشا وفي الحقيقة كانت هذه البعثة بعثة عسكرية ، ولكنها قامت بكشف المنطقة الواقعة بين سنهيت وجونديت . وفي شهر سبتمبر من نفس العام ، أرسل الخديوي إسماعيل بعثة أخرى كانت تحت قيادة منـــزنجر باشا ، واكتشفت هذه البعثة المنطقة الواقعة بين تـــاجورة وبحيرة أوسا . وفي العام التالي أي في عام ١٨٧٦ م ، أرسلت مصر حملة عسكرية إلي مصوع (لمحاربة الحبشة) ، وتمكنت هذه الحملة من كشف مناطق كثيرة ، مع أنها كانت حملة عسكرية .

وفي ٢٢ مايو سنة ١٨٨٠ م ، أرسلت مصر بعثة كشفية أخـــرى إلي شرق السودان ، كانت تحت قيادة اللواء محمد مختار ، وقد قامت هذه البعثة بكشف بلدة أبي حراز والقضارف والقلابات وأميديب وكســـلا ، وتمكنت من الوقوف على أحوال هذه البلاد من حيث نظامها السياســـي والإجتماعي . والإقتصادي ، ومن حيث عادات وتقاليد سكانها [١] .

وأما بالنسبة لأفريقيا الشرقية ، فقد أرسلت مصر عـــام ١٨٧٠ م بعثة كشفية إلي هذه المنطقة كانت قد بدأت مهمتها من السويس شمالاً ، مارة بكل البلاد التي تقع على طول الساحل الغـــربي للبحـــر الأحمـــر . وكانت هذه البعثة تحت قيادة جمالي باشا . وقد تمكنت هذه البعثة مـــن

---

[١] د. السيد يوسف نصر : المصدر السابق .

كشف البلاد التي مرت من خلالها . وقد عين ممتاز باشا حاكم على كل هذا الشاطئ ، وعين منـزنجر حاكم على مصوع . وفي عـام ١٨٧٢ م تمكن منـزنجر من الاستيلاء على إقليم باغوص الواقـع بـين مصـوع والتاكة. وفي عام ١٨٧٣ عين منـزنجر حاكم علـى إقلـيم السـودان الشرقي إبتداء من سواكن وحتى رهيطة في الجنوب ، بما في ذلك اقلـيم باغوص والتاكة .

وفي عام ١٨٧٥ أرسلت الحكومة المصرية بعثة كشـفية برئاسـة اللواء / محمد رؤوف وذلك لفتح بلاد هرر وضمها للسيادة المصـرية ، وقد طلب أميرها محمد بن علي بن عبد الشكور من رؤوف باشا ، وضع مملكته تحت السيادة المصرية [1] وبعد ذلك واصلت مصر مد نفوذهـا إلي رأس غردفوي Cape Guardafui .

ولم يقتصر هذا العمل الكشفي من جانب مصر في عهد الخديوي إسماعيل على هذه المناطق ، التي تم كشفها بل امتد إلي منطقة أعالي النيل. فكانت مصر قد قررت في عهد الخديوي إسماعيل الحاق منطقة أعالي النيل إلي ممتلكاتها في السودان . وقد أختير صمويل بيكر لقيادة هذه البعثة لأنه كان ذا خبرة بهذه البلاد .

وكان من أهم ما أوكل إلي صمويل بيكر أن تقوم هذه الحملـة بتأسيس عشرة مراكز حربية وتجارية على طول خط سيرها ، وكان على السير صمويل بيكر أيضاً أن يعين في كل مركز العدد المناسب من الجند ، هذا فضلاً عن وضع كل مركز من هذه المراكز تحت رئاسة أحد الضباط

---

[1] د . محمد فؤاد شكري : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وداي النيل السياسية في القرن ١٩ ، ١٨٢٠ – ١٨٩٩ . القاهرة ١٩٦٣ ، ص ص ١٢٥ – ١٢٦ .

وكان الهدف من إنشاء هذه المراكز العسكرية هو العمل على استقرار الأمن في هذه البلاد ، فضلاً عن دعم النفوذ المصري فيها . وكان من واجبات هذه الحملة أيضاً القضاء على تجارة الرقيق التي انتشرت في هذه المنطقة وعلى نطاق واسع بمعرفة التجار الأوروبيين . وبعد أن وصلت هذه الحملة إلي منطقة أعالي النيل ، كانت المواد التموينية قد نفدت ودفع ذلك بيكر إلي محاولة الحصول على مؤن أخرى من القبائل ، مما أدي إلي الدخول معهم في معارك جانبية لم تكن ضمن تكليفات هذه الحملة ، وقد نجم عن ذلك توليد الكره لدي هذه القبائل ضد مصر [١] .

ويفهم من ذلك أن هذه الحملة لم تعد إعداداً جيداً ، بحيث إنها بمجرد أن وصلت إلي منطقة أعالي النيل كانت المواد التموينية قد نفدت ولا يمكن ، للحملة في هذه الحالة مواصلة السير ، أو القيام بمهمتها على الوجه الأكمل . ولكن على الرغم من ذلك فقد حققت هذه الحملة التي أغفلت المؤلفة الإشارة إليها ، نتائج إيجابية منها أنها ارتادت المنطقة الواقعة بين أوغندا وبحر الجبل ، ومنها أنها وضعت هذه المناطق تحت السيادة المصرية ، وهذا في حد ذاته كسباً عظيماً للإدارة المصرية في السودان.. وكان من أهم النتائج السلبية أنها فشلت أولاً في تحقيق الكشف عن منابع النيل ، هذا فضلاً عن أنها فشلت في القضاء على تجارة الرقيق ، ويعزي ذلك إلي أنه ليس من المعقول أن تحكم حملة صغيرة قبضتها على كل هذه المساحات الشاسعة وبخاصة وأنه لم يكن هناك حدود سياسية أو لم يوجد هناك ما يعرف بالوحدات السياسية التي يمكن لها منع تسرب تجارة الرقيق

---

[١] د . السيد يوسف نصر : جهود مصر الكشفية . المصدر السابق .

من خلالها ، فلكي تقوم هذه الحملة بمثل هذا العمل كان يلزمها عــدداً كبيراً من الجند ، يكفي لمحاصرة القارة الأفريقية من الشــرق والشــمال والغرب والجنوب وهذا بالطبع من الصعب تحقيقه .

وبعد أن أنهت هذه الحملة مهمتها عادت إلي الخرطــوم ، ومــن الخرطوم سافر بيكر إلي القاهرة فوصلها يوم ٢٤ أغسطس عام ١٨٧٣ م. وهناك قابل الخديوي إسماعيل ، وأخبره بانتهاء خدمته في أعالي النيــل ، فأنعم عليه إسماعيل بالنيشان العثماني تقــديراً لجهــوده وقيادتــه لهــذه الحملة[١].

ومع ذلك فلم تقف جهود مصر الكشفية عند هذا الحد ، بل نجد إسماعيل يختار تشارلس جورج غردون ، لقيادة حملة كشفية أخــري إلي أعالي النيل ، لإتمام العمل الذي فشلت في إتمامه حملة السير صمويل بيكر، ففي ١٦ فبراير عام ١٨٧٤ م ، أصدر الخديوي إسماعيل التعليمــات إلي غردون التي كان من أهمها ضرورة القضاء على تجارة الرقيق ، والكشف عن البحيرات الإستوائية ، ثم إدخال التجارة المشروعة محل تجارة الرقيق ، هذا فضلاً عن ضم البلاد التي تخضعها هذه الحملة إلي السيادة المصرية[٢] .

وكان برفقة غردون عدداً من الضباط الأجانب الذين كان منهم الإيطالي رومولي جيسي والبلجيكي إرنست لينانت دي بلفون ، ومــن الأمريكان ماسون ، وشاييه لونج [٣] وقد نجحت هذه الحملة في إنشــاء

---

(١) د. السيد يوسف نصر : نفس المصدر .
(٢) د. محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٤٢ .
(٣) د. السيد يوسف نصر : المصدر السابق .

عدداً كبيراً من المحطات على طول خط سيرها ، ابتداء من التوفيقية وحتى منطقة البحيرات الاستوائية [٤] .

وإذا كان السير صموئيل بيكر قد مد نفوذ مصر جنوباً إلي غندوكرو ، وقام بتأسيس بعض المراكز في أعالي النيل ، فإن غردون قد أخترق منطقة أعالي النيل في اتجاه الشرق إلي أوغندا ، ونجح في تأكيد السلطة الحقيقية على منطقة أواسط أفريقيا Central of Africa ، وقد دعم غردون هذه السياسة بتعيينه عدداً من الحكام من أمثال لوبتون بك Lupton Bey الذي عين حاكم لبحر الغزال ، وسلاتين حاكم على دارفور وأمين باشا الذي عين حاكم لخط الاستواء [١] .

وبعد أن استقرت الأمور لغردون في منطقة أعالي النيل سير بعثة كشفية برئاسة رومولي جيسي لاستكشاف بحيرة البرت نيانزا ، وكان جيسي قد ذكر أنه لا يوجد أي نهر يتصل بالبحيرة من جهة الجنوب ولكن كان هذا القول بعيداً عن الصواب ، لذلك أرسل غردون بعثة كشفية أخرى تحت قيادة ماسون بك ، الذي طاف بمركب بخاري على سطح مياه هذه البحيرة فبدأ مسيره من بلدة ماجنجو وسار بحزاء الشاطئ الغربي ، فوصل إلي جنوبها ، ورأي نهر السمليكي الذي يصب فيها من جهة الجنوب ، ووصف ماسون مياه هذا النهر بأنها ذات لون بني وبعد ذلك واصل ماسون بك سيره بجوار الشاطئ الشرقي حتى وصل إلي قرية فاكوفيا ، التي يعمل سكانها بالصيد واستخراج الملح . ويرجع الفضل إلي ماسون بك في أنه تمكن وبدون أدني شك من إزاحة الغموض الذي خيم

---

[٤] د. مكي شبيكة : السودان عبر القرون . بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٩٨ .

[1] George Young : Egypt . London , 1917 , p . 81 .

على هذه البحيرة ، وقد قام ماسون بك برسم خريطة لهـــذه الـــبحيرة ، نشرت في كتاب جهود مصر الكشفية للمترجم .

وفضلاً عن ذلك كله فقد قام شاييه لونج من غندوكرو على رأس بعثة كشفية متوجهاً إلي أوغندا ، وقد قام شاييه لونج بوصف المناطق التي مرت بعثته من خلالها هذا فضلاً عن أنه نجح في كشف بحـــيرة مجهولـــة كانت في طي النسيان هي بحيرة كيوجا ، التي سماها باسم جديد هو بحيرة إبراهيم " نسبة إلي إبراهيم باشا " والد الخديوي إسماعيل ، وبعد وصوله إلي مركز مديرية خط الإستواء أخبر شاييه لونج غردون باشا بكشفه لهذه البحيرة ، وطلب منه أن يظهر كشفه هذا على الخريطة الـــتي سترســـم لأواسط أفريقيا ، وكان غردون باشا قد وعده بذلك .

وفيما يلي صورة الخطاب الذي قدمه شاييه لـــونج إلي غـــردون باشا:

The Struggle to maintain lake Ibrahim , discovered by me in 1874 , on the map of Africa began in 1879 , by my appeal to Sir Rutherford Alecock , president of the Royal Geographical Society , It was referred to General Gordon , who replied by the Letter inserted in the first pages of this book Subsesquently , I felt obliged to complain to Sir Rutherford that Cartographers , under the Aegis of the R . G . S . were Changing the name of my lake , with the result that Sir Rutherford laid my letter before the council , which recognized the priority of my discovery and naming of lake Ibrahim (1) .

وفضلاً عن ذلك فقد قام شاييه لونج على رأس بعثة كشفية إلي بلاد نيام نيام ، وتمكن من كشف هذه المنطقة ، بل وألقي الضوء علـــى أحـــوال سكانها وأنظمتهم السياسية والإجتماعية . وفي الوقت نفسه قام إرنست

---

(1) Colonel Chaillé long My life in four Continent Vol , 2 London , 1912 , p . 544 .

لينانت دي بلفون ، على رأس بعثة كشفية بدأها من بلدة فاتيكو وحتى أوغندا ، وهناك قابل الملك ميتسا ، ووقف على أحوال هذه المملكة من الناحية الإجتماعية والسياسية والإقتصادية .

ولكن على الرغم من كل هذه الجهود الكشفية التي قامت بها مصر في منطقة أعالي النيل ، وغيرها من مناطق مجهولة ، إلا أن الكتاب الأجانب لم يتعرضوا لهذا الدور بالدراسة والتحليل حتى يعطوا لمصر حقها في هذا المضمار ، ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء الكتاب قد نسبوا هذا العمل إلي الرحالة والمغامرين الذين وفدوا إلي أفريقيا سواء أكان ذلك من جهة الشرق أم الجنوب أم الشمال متجاهلين أن البعض من هؤلاء الرحالة كانوا يحصلون على تصاريح من حكمدارية السودان تخول لهم التجول في المناطق التي يرغبون في زيارتها .

ولهذا حاولنا بقدر الإمكان إبراز دور مصر الحضاري في مجال الكشوف الجغرافية ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن ١٩ ، وكان من أهم نتائج هذا الدور وضع منطقة أعالي النيل تحت السيادة المصرية . بل ربط هذه المنطقة بالساحل الغربي للمحيط الهندي ، وقد تصدت بريطانيا لهذا التوسع المصري في شرق أفريقيا (ولا مجال هنا لدراسة هذه النقطة) كما أن مصر عملت على استتباب الأمن في هذه الجهات ، التي كانت تنتشر الفوضي في ربوعها ، كما عملت من جانبها أيضاً على إلغاء تجارة الرقيق في أفريقيا ، ومما لاشك فيه ، فإنها نجحت نجاحاً لا بأس به في هذا المجال .

وزيادة على ذلك فإن مصر فتحت هذه المناطق الأفريقية على العالم الخارجي فوصل إليها الأوربيون سواء أكانوا من المبشرين أم من الرحالة ، فكان هؤلاء ، الرحالة لا يجرؤون على الوصول إلي هذه المناطق قبل أن تدخلها مصر . ولكن بعد ذلك جاءوا إليها بكل سهولة ويسر ، وكتبوا الكثير عن سكانها وعاداتهم وعن المظاهر الطبيعية لهذه المناطق ، وعن مواردها الحيوانية والسمكية والزراعية ، وبذلك أصبحت الصورة واضحة عن أفريقيا بالنسبة لبقية الأوربيين ، الذين خططوا لاستنزاف موارد هذه القارة . ومن نتائج الدور المصري أيضاً تنشيط حركة التجارة المشروعة في جميع المناطق الأفريقية المصرية ، بل وأصبحت طرقها مأمونة بحيث لا تعترضها أية مخاطر تهدد إزدهارها .

وبالإضافة إلي ذلك كله ، فإن مصر أدخلت العديد من الغلات الزراعية الجديدة التي لم تكن معروفة من قبل ، مثل الخضر وأشجار الفاكهة والأرز ، والذرة الشامية والبن والقطن ، كما أنها اهتمت بالغلات التي كانت متوفرة في هذه المناطق بحيث أصبح لها أهمية . ومن هذه الغلات الفول السوداني والموز والشاي والبن ، وقد عاد ذلك على المواطنين بالخير والرفاهية [١] .

وكانت من النتائج الهامة بالنسبة للكشوف الأفريقية التي قامت بها مصر قيام الإدارة المصرية في السودان برسم عدد من الخرائط الهامة ، لأجزاء كثيرة من نهر النيل ، فرسمت خريطة لبحر الجبل ، ولنهر سومرست أو النيل الفيكتوري ، وأكثر من خريطة لبحيرة البرت ، ولنهر

---

[١] Sagay J . O . and Wilson D . A . . Africa , a modern History 1800 – 1975 , London , 1978 .

السوباط ، ولبحيرة إبراهيم (كيوجا) . ومما لاشك فيه فإن هذه الخرائط تعتبر جديدة بحيث لم ترسم خرائط من قبل لهذه المناطق . لذا فهي على جانب كبير من الأهمية [١] .

وبعد أن تعرضنا للدور المصري وأهميته ، كان لابد لنا أن نشير إلي أهمية كل من ستانلي ولفنجستون اللذين ركزت ، عليهما المؤلفة . يتميز لنفجستون بأنه رجل دين يقوم بالتبشير بالعقيدة المسيحية بين السكان الوثنيين هذا في الظاهر ، ولكنه في حقيقة الأمر كان رجلاً إستعمارياً من الطراز الأول ، فقد اتبع وسائل إستطاع من خلالها أن يحقق هدفه ، وكان من هذه الوسائل مطالبته بإلغاء تجارة الرقيق بحيث إعتبرها وصمة عار في جبين الإنسانية ، وطالب بريطانيا بالتدخل للقضاء على هذه التجارة ، وقد تناسي هذا المستعمر أن بريطانيا كانت من أول الدول التي تاجرت في أبناء أفريقيا ، بل ونقلت منهم أعداداً كبيرة لا تقدر ، ولكن بعد طردها من العالم الجديد ، وبعد نجاح الثورة الأمريكية، لم تعد في حاجة إلي الأيدي العاملة ، وبخاصة بعد أن تقدمت الصناعة وحلت الآلة محل الإنسان ، هذا فضلاً عن أن بريطانيا أصبح لديها فائض في الإنتاج الصناعي ، لذا كانت في حاجة إلي فتح أسواق جديدة هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كانت في حاجة إلي الحصول على المواد الخام بكافة أنواعها . ومن أجل هذا أخذ لفنجستون على عاتقه تنفيذ هذه السياسة البريطانية في أفريقيا . وكانت الوسيلة الثانية التي اتبعها دافيد لفنجستون لتحقيق الحلم البريطاني في استعمار أفريقيا هي إدعائه بأنه

---

[١] وللإستزادة أنظر ، كتاب الوجود المصري في أفريقيا في القرن ١٩ . للمترجم .

سيقوم بنشر العقيدة المسيحية بين القبائل الوثنية في جنوب أفريقيا ، وهذا إدعاء باطل ، لأنه لو كان يرغب حقاً في نشر العقيدة المسيحية بين السكان الوثنيين لمكث بينهم وبخاصة في المناطق المكتظة بالسكان ، وهذا شئ طبيعي ، ولكن نلاحظ أن لفنجستون ترك المناطق المكتظة بالسكان وذهب للتجول في المناطق المقفرة ، لكي يتعرف على ما تحويه هذه المناطق من ثروات معدنية وغيرها من الثروات الأخرى ، لهذا نجده يعبر القارة من الجنوب ، ثم يتجه نحو الغرب فيصل إلي لواندا ، ثم يعود بعد ذلك إلي جهة الشرق ، وبذلك يكون قد تمكن من عبور القارة الأفريقية من جهة الغرب إلي الشرق . وهناك دليل آخر يوضح لنا أن لفنجستون كان إستعمارياً و لم يكن مبشراً كما كان يدعي ، ويتمثل هذا الدليل في أنه غضب غضباً شديداً ، عندما علم بعدم صلاحية نهر الزمبيزي للملاحة، فماذا تعنيه صلاحية هذا النهر للملاحة من عدمه ، إلا إذا كان له هدف إقتصادي واستعماري ، بينما لو كان هدفه ديني ما كان في حاجة لمعرفة صلاحية نهر الزمبيزي للملاحة من عدمه ، كما كان يدعي.

وعلى أية حال ، فإن لفنجستون كان رحالة من الطراز الأول فقد تمكن بكل جرأة من عبور القارة الأفريقية من الغرب إلي الشرق ، رغم المخاطر التي اعترضت طريقه ، حتى أنه مات في سبيل تحقيق هدفه هذا ، وهو تحقيق العظمة والمجد لبلده بريطانيا .

وبالرغم من أن ستانلي كانت له ظروف صعبة إلا أنه نجح في أن يجعل من نفسه شخصية لها أهميتها ، فقد تمكن من الوصول إلي أفريقيا بحثاً عن لفنجستون ، وبعد ذلك قام بأخطر رحلة كشفية إكتشف أثنائها

نهر الكنغو ، وبذلك يكون قد تمكن من عبور القارة من جهة الشرق إلي الغرب ، وبهذا يكون قد دخل التاريخ من أوسع أبوابه [1]

---

[1] للاستزادة أنظر :
أمين سامي باشا : تقويم النيل وعصر إسماعيل ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٦ .
عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية من فتحها إلي ضياعها أي من ١٨٦٩ـ ١٨٨٩ ، ثلاثة أجزاء .
د. جميل عبيد : المديرية الإستوائية ، القاهرة ١٩٦٨ .

الفصـــــل العاشر

إكتملــت القصة الرئيســـية

الفصل العاشر

اكتملت القصة الرئيسية

لم يكتمل بعد كشف مناطق البحيرات في وسط أفريقيا . وقبل أن تتأكد أخبار موت لفنجستون ، أرسلت بعثتان من انجلترا لنجدته ، فقد بدأت الأولي من الساحل الغربي ، ولكنها لم تبعد كثيراً عن السلفادور Selvador. وأما البعثة الثانية ، فقد قادها الضابط البحري الذي يدعي لوفيت كاميرون Lovett Cameron ، وقد بدأت مهمتها من الساحل الشرقي . وقد قابل كاميرون كل من سوزي وشوما في بلدة طابورا ، في شهر اكتوبر من عام ١٨٧٣ م وأقنعاه بأنهما حملا جثمان لفنجستون إلي الشاطئ الشرقي الأفريقي ، ولكنه قرر التقدم إلي بلدة أوجيجي ، كي يجمع تقارير لفنجستون الذي إكتشف ورسم خرائط للجزء الأكبر من بحيرة تنجانيقا ، كما أنه إكتشف نهر لولابا Lualaba River ، ومن ملاحظاته على هذا النهر أنه لم يكن نهر النيل ، بل كان أحد فروع نهر الكنغو .

وقد مرت حتى ذلك الوقت ، عشر سنوات على وفاة سبيك ، ومع ذلك فإن كشوفاته لم تتأكد بعد ، ولكن فيما بعد تقدمت الكشوفات ،ووجدت أدلة جديدة في ظل إدارة الجنرال غردون ، الذي كان قد خلف بيكر كحاكم عام Governor General للمنطقة التي تعرف بحوض النيل الإستوائي ، أو منطقة أعالي النيل الإستوائية . ففي عام ١٨٧٤م أثبت الكولونيل شاييه لونج Chillié long ، الأمريكي الجنسية ،

الذي التحق بهيئة غردون باشا أن بحيرة فيكتوريا وألبرت كانتا متصلين بنهر سومرست Somerset ، أو بنيل فيكتوريا Or Victoria Nile كما أنه اكتشف بحيرة كيوجا ، وبحيرة البرت .

وكان من بين هؤلاء الذين تغلبوا على المشاكل المتبقية أمين باشا المعالج لحاشية غردون والملم بكثير من اللغات . وكان إسم أمين باشا الحقيقي هو إدوارد شينتزر Edward Schnitzer ، وهو يهودي ألماني إعتنق الدين الإسلامي ، وقد تأثر غردون باشا بمواهبه الإدارية ، لذا عينه حاكما للسودان الإستوائي . وفي الفترة ما بين ١٨٧٧ ، ١٨٨٨ م تجول أمين باشا على نطاق واسع في المناطق المحيطة ببحيرة البرت، واكتشف نهر السمليكي الذي يدخل البحيرة من نهايتها الجنوبية ورغم كل هذه الكشوف التي تمت ، إلا أنه لا تزال هناك مشاكل متبقية . والسؤال الآن هو ، هل بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة أو بحيرات عديدة متصلة ببعضها ؟ وهل هي تمثل في الواقع المصدر الرئيسي للنيل ؟ كل هذه التساؤلات والمشاكل تركت لستانلي .

وكان اللقاء الذي تم بين ستانلي ولفنجستون ، يمثل القمة في حياة ستانلي ، كما أنه كان يمثل فقط ، بداية عمله كمكتشف ومن المعتقد أن ترحيبه الحماسي بالدكتور لفنجستون ، كان له صدي حول العالم ، فبينما أعتبر البعض من الناس هذا اللقاء شيئاً مدهشاً ، إعتبره البعض الآخر من الناس شيئاً غير ملائم تماماً ، فاستانلي الذي لم يكن لديه إحساس بالفكاهة ، تبرأ من هذه الإشارة ، ولم يعطها من قبل ثقته في

كتابه " كيف وجدت لفنجستون How I found Livingstone ، واستمر هذا التبرأ من جانب ستانلي ملازماً له حتى آخر أيامه .

وفي شهر مايو عام ١٨٧٢ م وصل ستانلي إلي انجلترا واستقبل استقبالاً ضخماً ، وكافأته الجمعية الجغرافية بالميدالية الذهبية ، التي كان يطمع في الحصول عليها ، وكان كتابه قد حقق نجاحاً ملموساً ، فقد مدحته معظم الصحف على إنجازه العظيم ، ومع ذلك فقد ألمح الكثير منها بالتشكيك في هذه الرحلة (رحلة ستانلي) بحيث أنها لا تعدو أن تكون عمل صحفي مثير ، وإن خطاب لفنجستون الذي أرسله إلي جريدة النيويورك هيرالد مزيف " كما أن ستانلي لم يكن شخصية ذات شعبية حتى أن هجوم السير جون كيرك عليه زاد من عدم شعبيته هذه ، حيث أن كيرك قال : " إن ستانلي ترك لفنجستون يموت لأنه فشل في أن يرسل له حمالين جدد ومؤن " .

وقد صمم ستانلي على أن يسكت منتقدوه ، وذلك بأن يسريهم أنه لا يزال له القدرة على تحقيق إنجازات أكبر ، لهذا نجده في عام ١٨٧٤م يستميل محرري جريدة النيويورك هيرالد ، وجريدة لندن المعروفة باسم ديلى تلجراف ، كي تمولا له رحلة أخرى إلي أفريقيا . وكانت التعليمات الصادرة له أن يكمل العمل الذي ترك بدون إتمام بعد موت لفنجستون المفجع ، فكان على ستانلي أن أمكنه ذلك أن يحل المشاكل الجغرافية المتبقية في وسط أفريقيا ، كما كان عليه أن يتفحص ويكتب تقريراً عن القلاقل التي يثيرها تجار الرقيق في أوجيجي ، الواقعة في منطقة بحيرة تنجانيقا ، وفي بلدة نيانجوا Nyangwa الواقعة على نهر لولابا

وقد فسر ستانلي هذا على أنه تصريح يخول له عمل بحث شامل لبحيرتي فيكتوريا وتنجانيقا ، وكل المنطقة الغربية من أفريقيا الوسطي . والواقعة بين نهر لولابا والمحيط الأطلسي . ويمكن أن نتذكر أن سبيك قد اكتشف شلالات ريبون ، وادعي أن النيل يتدفق من بحيرة فيكتوريا . وفي نفس الوقت كان بيرتون يتمسك حتى هذه اللحظة بنظريته التي تقول أن نهر روسيزي Rusizi River هو نهر النيل ، وأنه يتدفق من بحيرة تنجانيقا . وقد مات لفنجستون وهو مصر على أن نهر لولابا يمثل في الواقع نهر النيل بينما يشك ستانلي مثل لوفيت كاميرون Lovett Cameron في أن نهر لولابا هو أحد روافد نهر الكنغو . وقد فطن ستانلي إلي أنه لكي يؤسس ذاته كان عليه أن يعبر القارة (الأفريقية) .

وقد غادرت قافلة ستانلي زنجبار في ٢٠ نوفمبر ١٨٧٤ م وكانت هذه القافلة كبيرة ومجهزة تجهيزاً جيداً عن أي قافلة ذهبت قبلها ، فقد جند ستانلي ثلاث مائة وستة وخمسين شخصاً من الأفارقة ، وكان البعض منهم ممن كانوا ضمن بعثة لفنجستون ، فضلاً عن ثلاثة من الشباب الإنجليزي ، الذين لم يكن لديهم تخصصات معينة وهم فردريك باركر Frederick Barker الذي كان يعمل كاتباً في مستشفي في لندن ، وادوارد بوكوك Edward Pocock ، وفرانسيس بوكوك Francis Pocock ، وهما إبنا رجل صياد من بلدة كنتش Kentish ، وقد زودت البعثة بقارب خشبي كان يسمي ليدي إليس Lady Alice ، الذي تمكن أفراد البعثة من نقله في شكل قطع صغيرة ثم أعيد تركيبه ، هذا فضلاً عن حمل أفراد البعثة لثمانية أطنان من المؤن ، كما اصطحبت البعثة معها خمسة كلاب

وبعد أن سارت البعثة مدة ٣٣ يوماً كان ستانلي خلالها في حالة طيبة جداً ، حيث أنه كان مستعداً لمواصلة المسيرة الشاقة ، ذلك لأنه قد أعد نفسه لمواجهة الخسائر الفادحة . وبعد أن أمضي على بدء الرحلة أربعة عشر أسبوعاً ، وقبل وصول بعثة ستانلي إلي بحيرة فيكتوريا ، فقدت من أفرادها ما لا يقل عن ١٨١ شخصاً مات البعض منهم بسبب المرض ، ومات البعض الآخر بسبب الحروب ، التي دارت بين أفرادها وبين القبائل ، وفضلاً عن ذلك كله ، فقد هرب البعض من أفرادها ، وكان من ضمن الأفراد الذين فقدوا ، إدوارد بوكوك ، الذي مات بسبب مرض التيفوس Typhus .

وقد وصلت بعثة ستانلي إلي الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحيرة فيكتوريا أي وصلت بالقرب من المنطقة التي رأي من فوقها سبيك البحيرة وتخيل أنه من المحتمل أن تكون هذه البحيرة مصدر النيل ، ولكن لم تكن هذه التصورات كافية بالنسبة لستانلي ، الذي أصدر أوامره لأفراد بعثته بأن يعيدوا تركيب أجزاء المركب ليدي إليس Lady Alice . وفي ٨ مارس عام ١٨٧٥ م ترك ستانلي إثنين من الإنجليز المسئولين عن المجموعة الأساسية في البعثة ، وشرع هو ومعه عشرة من الأفارقة المختارين (للسير على سطح مياه البحيرة) ، وكان هؤلاء الرجال في حالة من اليأس ، بحيث أنهم كانوا يجدفون وهم على مضض ، وكتب ستانلي في هذا الصدد يقول :

" لقد كان لدينا نبؤات محزنة تقول أننا سنغرق في البحيرة . أو ربما سنموت بأيدي الرجال المتوحشين القاطنين على شواطئ اليانزا Nyanza " .

ولقد واصل رجال البعثة إبحارهم وتجديفهم على التوالي مع الشاطئ الشرقي للبحيرة ، وفي ٢٨ من شهر مارس من نفس العام ، وصلوا إلي شلالات سبيك المعروفة بشلالات ريبون ، وفي ذلك الوقت كانوا قد دخلوا إلي المنطقة التي يحكمها الملك ميتسا ملك يوجندا . وفي ٤ من شهر إبريل ، قابل ميتسا ستانلي بحفاوة بالغة في عاصمة مملكته التي بنيت على أنقاضها العاصمة الحديثة كامبالا . وكان هذا الملك في ذلك الوقت ، في بداية الأربعين من عمره ، وكان تأثر ستانلي يختلف عن تأثر سبيك الذي استسلم لسحره (أي سحر ميتسا) المعروف به جيداً . وقد وجد ستانلي الملك الطاغية ذكي جداً ، وإنسان وأمير مرموق ، فلم يكن طاغية همجي ، وسفاكاً للدماء بل وجده رجلاً مسلماً وورعاً ، وملك خير وذكي ، له سلطة مطلقة على قطاع شاسع من أفريقيا ، وكان محبوباً إلي حد ما ، بل وكان مبجلاً من جانب رعيته التي كانت تدين له بالإحترام ولا تخافه .

وكان ستانلي يأمل في أن يتخلي ميتسا عن العقيدة الإسلامية وأن يعتنق العقيدة المسيحية ، وبالفعل أعلن ميتسا أن لديه الرغبة في السماع إلي قراءة الأنجيل . وفي الواقع كان ميتسا قد تغير إلي المسيحية قليلاً ، منذ مقابلته لسبيك ، وفي ذلك الوقت أصبح ميتسا أكثر دبلوماسية وبخاصة

مد فطن إلي أنه يتعين عليه أن يكسب صداقة القوي العظمي ، كما كان حريصاً بأن يخفي عاداته الوحشية المألوفة .

وقد كان ستانلي قلقاً على ضرورة ، إكمال الطواف حول بحيرة فيكتوريا ، لذلك شرع في المسير مستخدماً الطريق المائي مرة ثانية . وفي الخامس من شهر مايو من نفس العام عاد ستانلي إلي النقطة التي كان قد بدأ منها ، بعد أن قطعت بعثته مسافة طولها ١٠٠٠ ميل ، فقد برهن باقتناع بأن بحيرة فيكتوريا لم تكن سلسلة من البحيرات ، ولكنها كانت بحراً داخلياً واسعاً ، وبرهن ستانلي أيضاً على أنه يوجد منفذ واحد رئيسي فقط لبحيرة فيكتوريا عند شلالات ريبون ، ويوجد لها منفذ آخر داخلي ، هو نهر كاجيرا Kagera الذي استبعده بقدر الإمكان كل من سبيك وجرانت بأن يكون مصدر من مصادر النيل ، وكتب ستانلي يقول : " أن سبيك في ذلك الوقت كان مملؤاً بالفخر بسبب كشفه لأكبر بحر في داخل القارة الأفريقية ، وأيضاً كشفه لرافده الرئيسي ، بالإضافة إلي كشفه لمخرجه (أي مخرج النيل) فلو كان ستانلي متأكداً من رأيه ، فإن نهر سبيك يكون في الواقع نهر النيل ، وفي النهاية لم يمل ستانلي إلي إدعاء بيرتون المتعلق بنهر الروسيزي Rusizi River .

وعند عودة ستانلي من رحلته إلي يوجندا هاجمته القبائل (الأفريقية) . وأثناء غيابه حدث عدد من الخسائر في المعسكر الخاص بالبعثة ، وكان من هذه الخسائر أن الكاتب الشاب فردريك باركر Frederick Barker قد مات بسبب الحمى ، هذا إلي جانب موت عدد آخر من الأفريقيين ، بينما مرض الآخرون أو هربوا . لذلك فقد وعدمر

الملك ميتسا بالإمدادات العسكرية . وبعد وصول هـــذه الإمـــدادات إلي ستانلي شرع في القيام بسلسلة من الغارات الإنتقامية ضد القبائل الأفريقية التي أقلقته ، والتي كانت قد أزعجت لفنجستون " الرجل الخير " ، فقــد وجه ستانلي هذه الإغارات إلي قبيلة تقطن عند رأس الــبحيرة (أي في الطرف الشمالي للبحيرة) . وفي الواقع ضم ستانلي قواته إلي قوات الملك ميتسا المستبد ، الذي كان يرغب في إبقاء ستانلي إلي جانبه في يوجندا ، ولكن ستانلي رفض هذا الملطب بحجة عدم التأخير . وبدلا من أن يقوم ستانلي بكشف القطر الواقع غرب بحيرة فيكتوريا ، نجده يكتشف بحيرة صغيرة توجد في المنطقة الواقعة جنوب خط الإستواء ، وكانــت هــذه البحيرة هي بحيرة إدوارد Edward ، وهناك زار ستانلي الملــك المعمــر رومانيكا Rumani a ، وبعد ذلك سافر ســتانلي صــوب الجنــوب إلي أوجيجي وفي يونيو ، عام ١٨٧٦ م ، سارت المركب ليدي إليس علــى مياه بحيرة تنجانيقا Tanganyika ، وفي نهاية شهر يوليو عاد ســتانلي إلي نقطة البداية (أي بداية الرحلة) ، وهو يحمل معه دليل إيجابي يقول " أنه لا يوجد مخرج مطابق للنيل يمكن تصوره " .

وفي هذا الوقت ، تخلص ستانلي ، من إدعــاء بيرتــون ورجــع بذاكرته إلي نظرية لفنجستون . وفي شهر أكتوبر ، عام ١٨٧٦ م ، تتبع ستانلي وادي نهر لواما The Vally of the River Luama مبتدءاً رحلته من بحيرة تنجانيقا ، وحتى إلتقاء نهر لواما بنهر لولابا ، وعندئذ كان عليه أن يشرع في أكبر مغامراته ؛ فإذا كان لفنجستون على حق في نظريته، فمن الواجب على ستانلي إثبات ذلك ، أما إذا كان لفنجستون على خطــ .

فيتعين عليه في هذه الحالة إنجاز الربط بين نهر لولابا والمجاري المائية الأخري في وسط أفريقيا . وفي هذا الصدد كتب ستانلي في كتابه " خلال القارة المظلمة Through the dark continent " يقول فيه ما نصه : إن الغموض الذي ظل كل هذه القرون كان بالطبع محمياً بعيداً عن العالم الحديث ، الذي كان ينتظر حلا له وأنه يوجد أمامي الآن نهر رائع ، وأصبح من واجبي أن أتتبعه حتى المحيط " .

وكان لفنجستون قد شاهد المذبحة البشرية البشعة التي حدثت في المنطقة الشاسعة الواقعة حول نيانجوي Nyangwe وقد استغل تاجر الرقيق الثري ثراء فاحشاً والمدعو محمد بن السيد (المعروف باسم تيبوتيب) هذه المنطقة في مشروعاته الخاصة ، وكان تيبوتيب هذا يرغب في تزويد ستانلي بالحمالين ، في مقابل أن يحصل منه على مبلغ كبير من النقود . وقد بدأ ستانلي رحلته وبصحبته ٣٥٦ رجلاً ، وكان البعض منهم قد أحضر زوجاتهم إلي جانبهم .

وفي المرحلة الأولي من الرحلة إستخدموا الطريق البري ، لأن الألسنة المنخفضة في النهر كانت مسدودة بواسطة شلالات لا يمكن عبورها ، وقد سار أعضاء بعثة ستانلي بصعوبة مدة أربعة عشر يوماً أثناء مرورهم من خلال غابة كثيفة ومظلمة ، وكثيراً ما كان ستانلي يجد أنه من المستحيل كتابة يومياته ، التي منها سيعد كتابه . ومرت بعثته من خلال العديد من القري المحلية وبكل صراحة ، فقد انتشرت الجماجم والعظام حول أماكن الطهي (المطابخ) لأن السكان في هده المنطقة كانوا من آكلي لحوم البشر Cannibals وأخيراً خرجت البعثة من الغابة

وعسكرت منذ الوهلة الأولي على الشاطئ الأيمن للنهر ، وعلى الفور قرر ستانلي أن يعيد تسمية نهر لولابا بحيث أصبح يعرف باسم نهر لفنجستون. وقد كتب ستانلي كعادته بهمة ونشاط يقول ما نصه " لقد مرت هـذه الليلة ، سحب سوداء ، غامضة وخرافية من فوق أراضي أنـاس شـبه آدميين ، هم على ما يبدو من الأقـزام The blanket earedmen وعندئـذ بحثت عن الطريق . وهنا كان يوجد منطقة تقسيم الماء (بحر مجهـول) يشبه المجري السريع وبعبارته :

To night black of mystery and fable , may hap past the lands of the anthropoids , the pigmies and the blanket – eared men …. I seek a road , Why , here lies a broad water clearing the unknown to some sea , like a path of light .

وفي ذلك الوقت شرعت المركب ليدي اليس في المسير في النـهر بحيث أستخدمت النهر كطريق عام ، وكان على متنها ثلاثون رجلاً ، أما بقية أفراد البعثة فقد ساروا على طول شاطئ النهر . وفي نفس الوقـت ، لم يعرف ستانلي إلي أي جهة سوف يأخذهم هذا النهر ، ولكن مع ذلك كان مملوءاً بالثقة ، وفي كل مكان من طريق الرحلة برهن الجميع علـى، أنهم من الأبطال ، على أي مقياس بالنسبة لتاريخ السفر في أفريقيا ،وقد واجهت البعثة كوارث من كل نوع . وفي أغلب الأحيان كان الرجـال يتساقطون بسبب المرض الذي تعرضوا له . وكان من هذا المرض الجدري Small-pox والدوسنتاريا Dysentery والحمـي التيفوديـة Typhoid Fever، وكان من نتيجة هذه الأمراض أنه كان يموت في كل يوم العديد من أفراد البعثة ، فقد تمزقت أرجل وأقدام الأفراد الذين ساروا على الـبر بسـبب الأشواك والحمر وقد سببت هذه التمزقات والتقرحات الخطـيرة ، الـتي

جعلت من المستحيل على أفراد البعثة مواصلة المسير ، وعندئذ اسـتولي ستانلي على العديد من المراكب التي من الواضح أنها كانت متروكة على شاطئ النهر ، وقام بربطها مع بعضها كي ينشئ منها مستشـفي عـائم Afloating Hospital .

ولم يمض وقت طويل حتى وصل أفراد البعثة مـرة أخـرى إلي مسطح مائي لا يمكن عبوره ، وقد ثبت أنه واحداً من كثير ، فكان على أفراد البعثة طوال الوقت أن يأخذوا المركب وهـي مفككـة إلي قطـع صغيرة، ثم يعيدوا تركيبها وبعد ذلك يقومون بجرها على طول الممر الذي كان الرجال يقومون بتمهيده خلال الأدغال ، وكانت هـذه العمليـة تتكرر في البر وفي الماء ، ونتيجة لذلك كان أفراد البعثة يتعرضون للهجوم من جانب رجال القبائل الذين يأكلون لحوم البشر ، ولكن كانت جماعة ستانلي لديها أسلحة نارية كي تحمي بها نفسها ، وكان آكلي لحوم البشر لا يدركون مدي خطورة هذه الأسلحة النارية ، لذلك توالت هجماتهم المرة تلو الأخرى ، ولم يكونوا مدفوعين فقط بسبب الرغبة في الحصـول على اللحم البشري ، ولكن أيضاً كانوا مدفوعين بسبب ما انتابهم مـن شك طبيعي ، واعتقدوا أنه لم يستطع أحد من القدوم إلي هنـا (أي إلي بلادهم) إلا إذا كان تاجراً للرقيق ، فهو الذي يكون لديه الشجاعة على القيام برحلة مثل هذه .

وفي البداية قادهم النهر في اتجاه الشمال ، وبعد كل هذا بدا مـن الممكن أن يكون لفنجستون على صواب . وفي تلك الأثناء ، وصـلت البعثة إلي أول شلال من الشلالات السبع ، الـتي عرفـت فيمـا بعـد

بشلالات ستانلي . وعندئذ قام أفراد البعثة بحفر ممر حول واحد من هذه الشلالات ، وفي تلك الأثناء تعرض أفراد حراسة البعثة الموجودين في المؤخرة إلي هجوم من جانب رجال القبائل الذين يتجولون للسلب والنهب ، وفي كل وقت كان هؤلاء الرجال من قطاع الطرق ، يبرزون من الغابة ، وبخاصة عند مسطحات المياه الساكنة . لهذا كان رجال البعثة يأملون في إنهاء مشاكلهم ، ولكن كانت آمالهم تتحطم في كل لحظة بسبب الرعد الذي كان يحدث عن اصطدام البعثة بأحد الشلالات ، ولقد زاد التعب وفقدان الهمة والتمرد لدي رجال البعثة ، ولكن ستانلي تمكن من إبقائهم على مواصلة المسير ، وذلك باستخدام أسلوب القوة والجلد ، وكان يلجأ إلي استخدام التهديد في حالة فشل كل أساليبه .

وفي نهاية يناير عام ١٨٧٧ م ، مر أفراد البعثة خلال الشلال السابع ، وأتوا إلي نهر ممتد غير مسدود في خط الإستواء ، أي عند النقطة التي سيبني فيها في يوم ما مدينة ستانلي فيل ، ولم يعد أمامهم سفر تجاه الشمال ، ولكنهم سوف يسافرون في اتجاه الشمال الغربي ، وكان ستانلي متأكداً تقريباً من أنهم لم يكونوا على النيل ، ولكنهم على الكنغو، فلو صح ذلك ، فإنه في هذه الحالة يكون قد عرف أن أمامهم شهوراً من السفر . وعرف أيضاً أن مستوي النهر لا يزال مرتفعاً عن مستوي البحر بحيث توجد أمامهم شلالات على مسافة بعيدة . ولكن لا يمكن أن يكون هناك عودة مرة أخرى إلي لفنجستون . وفي هذا الصدد كتب ستانلي يقول ما نصه : " نزلنا نحو نهر لولابا ، وجازفت ببراعة وبرهنت في الواقع بنصف إحساس على كتابة هذه السطور ، التي لم تقرأ من جانب أي

أحد ولازلنا نصر على الطفو طبقا لنصيبنا . ومع ذلك فقد أصررت على الكتابة ، وأترك بكل تدبر ولطف الحوادث ، فبالليـــل والنـــهار كنـــا مذهولين، بسبب قرع الطبول المخيف التي كانت تعلن عـــن وصـــولنا ، وعن حضورنا إلي هذه المياه ، وكانت القوة متساوية على الشاطئ وكنا لكي نذهب من الشاطئ الأيمن إلي الشاطئ الأيسر ، فإن هذا كان يعـــني بالنسبة لنا القفز من طاسة القلي إلي النار ، ومع ذلـــك كنـــا نواصـــل التجديف من خلال هذه الجزر الواقعة بين الأقطار الهمجية التي تحيط بنا ، ومن الأفضل القول بأننا كنا نجري بإرهاق " .

وفي بداية شهر فبراير ، نفد الطعام من أفراد البعثة ، فعلي أثر ذلك قرر ستانلي رغم مخاطر الموت الحصول على الطعام والقيام بمحاولة إيجاد علاقة تجارية قائمة على أساس المقايضة مع إحدي هذه القبائل ، لأن أفراد البعثة في ذلك الوقت كان لا يزال معهم بعض الهدايا الملاءمة ، والمتمثلة في الملابس ، والأسلاك والخرز ، بحيث كان في الإمكان تقـــديم هـــذه الأشياء لهذه القبائل ، في مقابل الحصول على بعض الأطعمة . وكانـــت البعثة قد طلبت هذا المطلب بطريقة سلمية كي تتمكن من الحصول على بعض المؤن . وسأل ستانلي الرئيس (يبدو أنه رئيس إحـــدي القبائـــل الكنغولية) عن إسم أكبر نهر ، فأجابه هذا الرئيس بالقول " إن هذا النهر يعرف باسم نهر الكنغو " وعند هذا الحد لم يعد هناك أدني شك في إثبات حقيقة هذا النهر .

وفي الثامن عشر من شهر فبراير من نفس العام ، سافرت البعثة في منطقة متسعة ومتعرجة ، ومرة ثانية وصلت إلي خــط الإســتواء ، وإلي الجنوب من هذه المنطقة كانت توجد مدينة ككول هاتفيل الحديثة
The Modern Town of Coqwlhatville .
وفي ذلك الوقت إتجهت البعثة صوب الجنوب الغربي ، وعند هذه النقطة نفد طعام أفراد البعثة مرة ثانية ، ولذلك اضطر أفرادها للمخاطرة بالإقتراب من أحد القبائل الأفريقية ولحسن الحظ ، وجد أفراد البعثة قرية صديقة لهم ، ومنذ ذلك الحين ، وما بعده لم يتعرض أفراد البعثة للهجوم من جانب القبائل الأفريقية . فبعد أن قضي أفراد البعثة وقتاً للراحــة في هذه القرية ، وبعد عدد قليل من الأيام واصلوا بعدها السفر ، وبســرعة وصلوا إلي بحيرة تعترض مجرى النهر ، التي كان فرانك بوكــوك Frank Pocock قد رأي أنها تمثل مصدر قوة كبيرة ومستمر ، وقــال ينبغــي أن يقترح تسميتها ببحيرة ستانلي Stanly Pool .

ويبلغ طول المسافة بين هذه البحيرة وساحل المحيط مئات قليلة من الأميال . وكان ستانلي على صواب حينما قال : " إنه من الممكــن أن يوجد في الأمام مخاطر خطيرة ، وكانت السفينة ليدي إليس التي كان على متنها ستانلي معرضة للغرق عند نقطة معينة وعندما رأي أفراد البعثــة أن قائدهم في أمان إندفعوا إلي المياه واحداً يتلو الآخــر ، وهــم في فرحــة غامرة، وكان الفرح يتدفق منهم في شكل إيماءات ولمحات وأصــوات ، وكان فرانك اللطيف الصادق الوعد ، يعتقد على أقل تقدير في الحــب والعاطفة ، لهذا كان من الواجب أن نعترف له بالجميل ، لأنه أنقذنا مس المقبرة المائية أي من الغرق " .

وفي ٢١ من شهر إبريل من نفس العام ، قطعت البعثة مسافة طولها ٣٤ ميلاً ، رغم استمرار وجود الشلالات . والآن عرف أفراد البعثة أنهم لم يكونوا على مسافة بعيدة من البحر (المحيط الأطلسي) ، لأنهم وجدوا لدي الوطنيين عينات من السلع الأوروبية . وكانت هذه علامة على هذا الأمل الذي يعني أنه لم يعد هناك أي مطلب لبضائعهم الخاصة (أي لم يعد للبعثة حاجة في السلع الأفريقية وبخاصة بعد أن توافرت السلع الأوربية في البلدان القريبة من ساحل المحيط) .

وفي مرات كثيرة تعرض أفراد البعثة للموت جوعاً تقريباً ، وزيادة على ذلك فقد هرب حوالي ٣٠ شخصاً من أعضائها ، هذا إلي جانب موت البعض من أفرادها ، زد على ذلك فإن الجوع قد تزايد بين معظم الأفراد وقد أدي ذلك بالتالي إلي أن ستانلي تألم كثيراً بسبب ما تعرضت له بعثته من كوارث ، وقد تحمل فرانك بوكوك كل المعاناة (حتى أنه أصبح أعرجاً) ، بسبب التقرحات التي تعرضت لها أرجله وأقدامه ، بل وأنه تعرض للغرق في المسطح المائي الهائج ، فمن أجل هذا كله أطلق ستانلي على هذه البقعة إسم حوض بوكوك Pocock Basin.

وفي بداية أغسطس ، من نفس العام ، وصل ستانلي إلي نتيجة مفادها أنه كان عليهم التخلي عن المراكب ، والسير بالطريق البرى حتى يصلوا إلي الساحل (ساحل المحيط الأطلسي) حيث أن ستانلي عرف أنه في الإمكان مقابلة التجار البرتغاليين ، وكان هو نفسه ضعيفاً ومنهكاً ، وكان قد سأل شيخاً صديقاً للبعثة بأن يتقدمها ويحمل معه خطاباً معنونا إلي أي سيد يتكلم اللغة الإنجليزية ، وفي هذا الخطاب شرح ستانلي أنه

مسافر من زنزبار وبصحبته ١١٥ شخصاً متضمنين ١٣ ثلاثة عشرة إمرأة، معهن أطفالهن الذين ولدهن أثناء الطريق ، وأضاف يقول كنا في ذلك الوقت على وشك الوقوع في مجاعة ، ولا يمكن لنا أن نشتري أي شئ من الوطنيين ، لأنهم يضحكون على أصناف ملابسنا وخرزنا وأسلاكنا فلا يوجد أي مؤن في القطر يمكن شراؤها باستثناء ما يوجد منها أيام السوق ، والناس الجوعانين لم يكن في استطاعتهم إنتظار هذه الأسواق " .

وقد سأل ستانلي عن الأرز أو الذرة لرجاله ولنفسه ، وسأل أيضاً عن القليل من الشاي والبن والسكر والبسكويت ، وقد وقع الخطاب باسم "هنري مورتون ستانلي " قائد البعثة الإنجليزية الأمريكية لكشف أفريقيا . وأضاف أنه لو شك أي شخص في هويته ، فهذا الرجل هو (ستانلي) الذي وجد لفنجستون عام ١٨٧١ م .

وفي خلال يومين وصله خطاب جاء فيه " إن الإمدادات في الطريق إليك " وفي التاسع من شهر أغسطس عام ١٨٧٧ م ، وبعد مضي ٩٩٩ يوماً على رحيل البعثة من زنزبار ، دخلت البقية الباقية منها إلي مستعمرة بوما حيث كان أكثر من نصف أعضاء البعثة الأصليين قد هلكوا ، وبقي لدي ستانلي ٣٦ شخصاً ، كانت شعورهم بيضاء ، وكانوا ضعاف . وعندئذ استدار ستانلي وألقي النظرة الأخيرة على النهر وقال : " شعرت من كل قلبي بتقديم تحية مخلصة إليه (إلي الله) ، لأنه مد يده كي يحمينا ، وقد مكننا ذلك من أن نخترق القارة المظلمة من الشرق إلي الغرب ، وأن نتتبع أضخم نهر ملاصق للمحيط " .

وفي الليلة الألف من بدء الرحلة ركب أعضاء البعثة الذين ظلــوا على قيد الحياة السفينة التي تقلهم إلي زنزبار عن طريـــق الـــرأس (رأس الرجاء الصالح) The Cape of Good Hope وفي نفس الوقت سافر ستانلي بمفرده إلي انجلترا بعد أن أكمل مهمته .

و لم يعد هناك أي شك في أن النيل ينبع من بحـــيرة فيكتوريـــا ، ويتدفق صوب الشمال ، ثم يأخذ طريقه بعد ذلك إلي البحر المتوســـط ، كما أن نهر لولابا لم يتصل بنهر الكنغو الذي يستمر في جراياته عبر القارة الأفريقية حتى المحيط الأطلسي .

ومع ذلك فقد بقيت بعض الثغرات في المعرفة الجغرافيـــة ، فقـــد حاول ستانلي أن يملأها بنفسه لهذا حاول استمالة الحكومة البريطانية كي تفتح حوض الكنغو لكي تنشئ طريق وسكة حديد ، بحيث يبدآن مـــن الساحل الغربي وحتى بحيرة ستانلي ، وبعد ذلك يصـــبح النـــهر صـــالحاً للملاحة . ولكن رغم الجهد الذي قام به ستانلي ، إلا أنه لم يتمكن من تحقيق هدفه ، لذلك عرض خدماته على الملك ليوبولـــد الثـــاني ملـــك بلجيكا، الذي لم يتردد في قبول هذا العرض لحظة واحدة . وبعد ذلـــك عاد ستانلي إلي الكنغو عام ١٨٧٨ م ، نيابة عن ملك بلجيكا ، ونيابـــة عن الجمعية الأفريقية الدولية The International African Association التي أسسها الملك ليوبولد ، وكان على ستانلي أن يأخذ على عاتقه تنظـــيم المنطقة الشاسعة التي تعرف بدولة الكنغو الحـــرة The Congo Free State (وتعرف في الوقت الحالي بالكنغو .) وفي عام ١٨٨٣ م أي عندما كان

ستانلي هناك ، إكتشف بحيرتين هما بحيرة تمبا Timba وبحيرة ليوبولد الثاني.

وقد أضيف عمل ستانلي إلي الأعمال الأخرى التي قام بها المكتشف الفرنسي الشهير سافورنان دي برازا Savorgnan de Brazza. ففي عام ١٨٧٥ م ، إكتشف برازا الجزء الأكبر من الأجووي Ogowe في الجابون الواقعة في أفريقيا الفرنسية الإستوائية (التي تعرف في الوقت الحالي بجابون) واكتشف أيضاً أنهار أليما Alima وليكونا Likona ، وهما من روافد الكنغو .

وقد عاد ستانلي إلي أفريقيا في نهاية عام ١٨٨٧ م . وكان واجبه هذه المرة أن ينقذ أمين باشا Emin pasha ، الذي ترك منعزلاً بسبب إغتيال الجنرال غردون في عام ١٨٨٥ م ، وبسبب إنسحاب المبشرين المسيحيين من يوجندا ، الذين طردوا بمعرفة خليفة الملك ميتسا . وقد تقدم ستانلي في منطقة الساحل الغربي ، متجولاً خلال غابات الكنغو الكثيفة ، محاولاً بذلك إنقاذ أمين باشا ، الذي لم يرغب في الإنقاذ ، ومع ذلك واصل ستانلي المسير لكي يكتشف جبال رونزوري ذات القمم الثلجية The Snow Capped Ruwenzori Mountains وجبال القمر الأسطورية The legendary Mountains of the Moon ، الواقعة في منتصف الطريق بين بحيرة البرت وبحيرة إدوارد التي كشفها في رحلته الأولي . وعندئذ ، إتخذ طريقه ومعه أمين باشا إلي الساحل الشرقي ومنه إلي زنزبار.

وهكذا ، فقد عبر ستانلي أفريقيا من الشرق إلي الغرب ، ومـــن العرب إلي الشرق . وانتهت الرحلة الأخيرة نهاية طيبة بسبب ما قام بـــه ستانلي كمكتشف . وبعد عودته إلي انجلترا منح رتبة الفروسية ، واستقر هناك بعد أن حصل على وظيفة بسيطة ، تمثلت في أنه أصبح عــضواً في البرلمان (البريطاني) وتزوج ولكنه لم ينجب أطفالاً ، لهــذا تــبني هــو وزوجته طفلاً ، كانت تربيته صعبة ، بل وأكثر اختلافاً عن إبنه الخاص . وقد مات ستانلي عام ١٩٠٤ ، وهو في سن الرابعة والستين من العمر .

وفي ذلك الوقت ، فإن كل المعلومات الهامة عن منابع النيل قــد أعلنت ولكنها ظلت في حاجة إلي تصنيف بعض التفاصيل . وكان مــن بين هؤلاء الذين لعبوا دوراً في الكشف عــن منــابع النيــل الــشاب الأسكتلندي الذي يدعي جوزيف تومسون Joseph Thomson ، الذي قام عام ١٨٧٩ م ، وهو في سن الواحد والعشرين من العمر بكشف وســط أفريقيا ، وبخاصة المنطقة الواقعة بين بحيرة نياسا وتنجانيقا ، كما اكتشف أيضاً بحيرة روكوا Lake Rukwa . وفي عام ١٨٨٢ م عاد تومــسون إلي أفريقيا كي يكتشف طريقاً للتجارة يبدأ من الساحل الــشرقي وحــتى أوغندا. وقد توغل في الداخل فوصل إلي جبال كليمنجارو Kilimanjaro وجبال كينيا ، ومر بأمان من خلال قطر شعب المساي المحارب ، واستمر يواصل مسيره حتى وصل إلي النهاية الشمالية الشرقية من بحيرة فيكتوريا .

وكان تومسون مكتشفاً تقليدياً ، فقد إندفع بوضوح بسبب حب إستطلاعه وبسبب حبه للسفر ، وفي هذا الصدد يقول طومسون ما نصه: " لقد خلقت كي أكون رحالاً " وأضاف باختصار قبــل وفاتــه عــام

١٨٩٥ م يقول : " أنا لم أكن مؤسس إمبراطورية ، ولم أكـــن مبشـــراً Missionary كما لم أكن في الحقيقة عالماً ، ولكنني كنت أريد فقط العودة إلي أفريقيا كي أواصل تجوالي " .

ويبدو لنا هنا أنه كان لكل مكتشف سمة يتميز بها عن غيره فكانوا جميعاً رجالاً على جانب من الشجاعة ، وقد مكنهم ذلك من الإحساس بالقوة لتحقيق الهدف ، فكان لديهم الرغبة في المخاطرة بصحتهم وبحياتهم بل كانوا يتحملون الحرمان طوال سنوات الإنفصال عن أسرهم ، وذلك إما للبحث عن شئ لا فائدة من ورائه ، أو لكي يبحثوا عن منابع النيل ، دون الحصول على مكافأة . وعلى وجه العموم فكان لـــديهم طموحـــاً يتمثل في حصولهم على الشرف والمجد ، بسبب مساعدتهم في ملئ فـــراغ خريطة أفريقيا ، وكان هذا الطموح يختلـــف بـــاختلاف ، دوافعهـــم الشخصية التي تختلف من فرد لآخر ، فبروس على سبيل المثال كان لديه فضول علمي وإرادة قوية ، وكان في حاجة إلي الهروب من حمل التعاسة التي لا يستطيع حملها . وكان لكل من لينج Laing وكاييه Caillié رغبـــة ملحة في زيارة مدينة تمبكتو الخرافية . وأما بيرتون Burton فكان له الرغبة في أن يفهم ، وأن يؤكد ذاته وتفوقه الحضاري على غيره " وأما ستانلي فكان عنده تصميم على تحقيق إنتصارات منذ طفولته المحطمة ، ولكـــي يثبت لنفسه وللعالم أنه كان من بين العظماء . وأما بالنسبة لكـــل مـــن المبشرين كراف Krapf وربمان Rebman ، فإنهما كانا يرغبـــان في نشـــر العقيدة المسيحية ، وأما لفنجستون فربما كان يسعي لتحقيـــق البطولـــة عليهم ، فكان يحب الشعوب الأفريقية ، لهذا كان مصمماً على توجيـــه

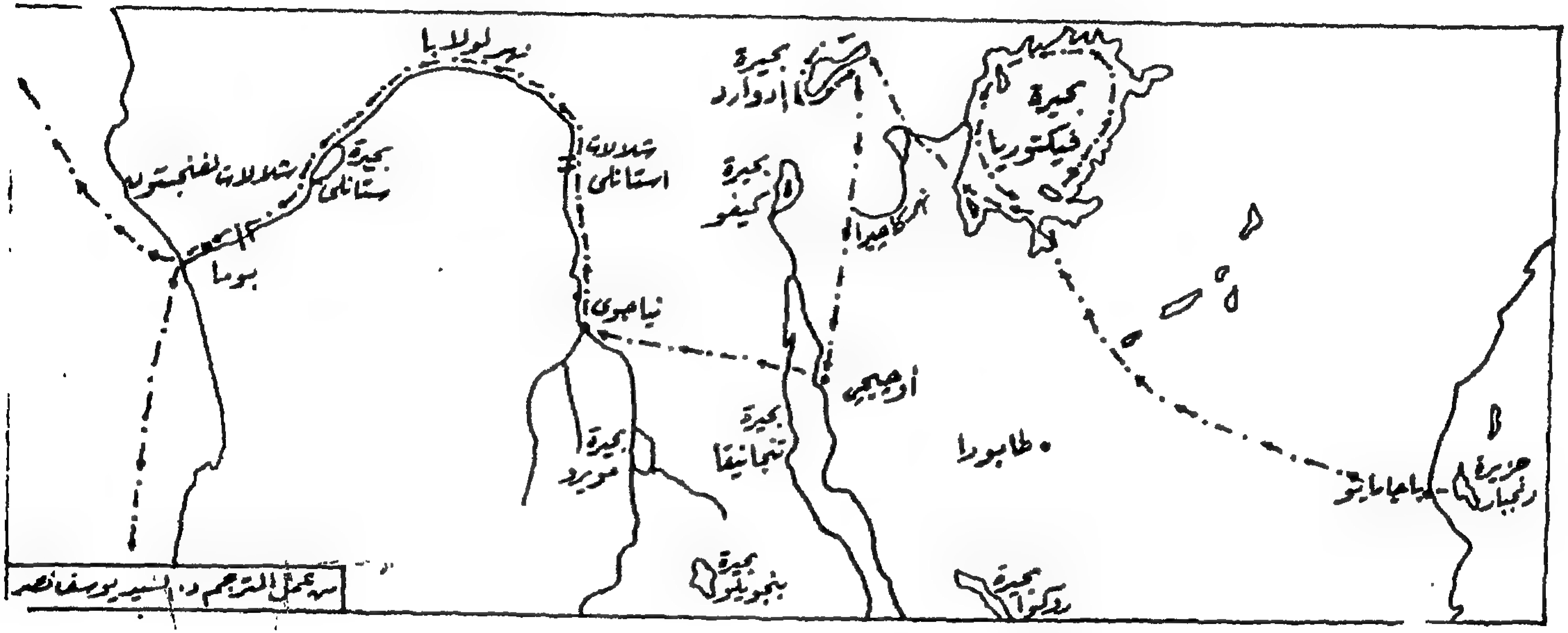
ضربة لتجارة الرقيق ، كما كان يرغب في فتح طريق للمسيحية وللتجارة معاً . ومن هؤلاء جميعاً نخص بالذكر ريتشارد لانــدر Richard Lander الذي كان مسحوراً بسماع إسم أفريقيا . فكل الرحالة على حد سواء ، كان لهم هدف محدد، سواء تمثل هذا الهدف في المشاهدة أو التجول ، مثل تومسون الذي كان يرغب في التجول .

و لم يستمر الكشف في القرن العشرين لأنه في نهاية القرن التاســع عشر كان عصر الكشوف قد إنتهي ، فكل المشاكل الجغرافية الرئيسية قد حلت وتطلب ذلك وجود سوق للإنتاج الأفريقي ، وفي أغلب الأحيــان كان هذا السوق لا مفر منه لأن القوي العظمي كــان ينبغــي عليهــا التدخل، بحيث تشق طريقها من أجل إستغلال هذه القارة ، التي فتحهــا المكتشفون ، عندئذ بدأ التقســيم العــالمي The International Scramble للقارة الأفريقية عام ١٨٨٤ م . وقد عجل به بعد رحلة ستانلي الثانية ، فكان من نتيجة هذه الرحلة إنشاء دولة الكنغو الحرة التي أدت بطريــق مباشر إلي تقسيم أفريقيا .



صورة المغامر الصحفي هنري مورتون ستانلي الذي جاء إلي افريقيا ليكتشف منابع نهر الكنغو عام ١٨٧٤ م . من إعداد المترجم

الخريطة رقم ١٨ والخاصة ببعثة ستانلي ١٨٧٤ – ١٨٧٧



بدأ ستانلي هذه الرحلة من زنجبار ماراً بياجامايو حتى الجنوب الشرقي لبحيرة فيكتوريا ، وسار فوق سطح مياه هذه البحيرة إبتداء من الشرق وحتى الشمال ، ثم سار بجوار الساحل الغربي للبحيرة حتى وصل إلي نقطة البداية .وبعد ذلك اتجه إلي الغرب فاكتشف بحيرة إدوارد ، ومنها اتجه جنوباً إلي أوجيجي، ومن هناك عبر بحيرة تنجانيقا إلي نقطة إلتقاء نهر لواما بنهر لولابا ، ثم اتجه شمالاً مع نهر لولابا ، فوصل إلي شلالات ستانلي ، ومن بعدها وصل إلي بحيرة ستانلي ، فشلالات لفنجستون ، فمستعمرة بوما ثم مصب نهر الكنغو

التعليق على الفصل العاشر

تعرضت مؤلفة هذا الكتاب في هذا الفصل إلي عدد من الموضوعات الهامة تناولت بعضها بالدراسة والتحليل ، وأشارت إلي البعض الآخر منها ، بمجرد إشارة .

وأما الموضوعات التي أشارت المؤلفة لها بمجرد إشارة ، فسنتناولها بالدراسة حتى نعطيها قدرها من الأهمية ، وحتى تتضح الرؤية أمام القارئ العربي بصفة عامة والمصري بصفة خاصة . وكان من هذه الموضوعات التي لم تتناولها المؤلفة بشئ من التفصيل إدوارد شنتزر أو أمين باشا الذي كان طبيباً ألمانياً ، والذي كان قد مارس مهنة الطب في تركيا . وهناك اعتنق العقيدة الإسلامية ، وبعد ذلك جاء إلي السودان فألحقه غوردون باشا — الذي كان آنذاك حكمداراً عاماً لمديريات خط الإستواء — بمعيته في وظيفة طبيب ، ولكن من الواضح أن أمين باشا لم يقم بأعباء هذه الوظيفة فحسب بل أنه قام بعدة مأموريات سياسية في البلاد المجاورة لمديرية خط الإستواء ، فكان قد قام بمأمورية إلي بلاد البونيورو وأوغندا . وفيما بعد عينه غردون باشا حكمداراً عاماً لمديريتي خط الإستواء ، وبحر الغزال اللتين كان غوردون باشا قد فصلهما عندما أصبح حاكماً عاماً للسودان [1] .

ومن الموضوعات التي لم تعطها المؤلفة حقها ، موضوع آكلي لحوم البشر Cannibals من أبناء أفريقيا ، ففي الواقع لم تكن هذه العادة منتشرة في كل أرجاء أفريقيا ، بل كانت منتشرة في مناطق محدودة وعلى

---

(١) عمر طوسون : المصدر السابق ، ص ٣٨٤ .

وجه التحديد منطقة جنوب غربي السودان ، أي المنطقة الواقعة بين حدود الكنغو والسودان . هذا فضلاً عن وجود بعض القبائل في غرب أفريقيا التي كانت تمارس هذه العادة .

ويرجع السبب في تناول هذه القبائل للحوم البشر ، إلي أن هذه المناطق كانت موبؤة بذبابة تسي – تسي Tse – Tse Fly ، فمن المعروف أن هذه الحشرة كانت تقضي على الحيوانات والإنسان معاً ، وكان من نتيجة ذلك ندرة الثروة الحيوانية التي من المحتمل أن تكون قد اختفت تماماً من هذه المناطق . وقد أدي ذلك إلي فقد السكان في هذه المناطق لعنصر غذاء هام ، يتمثل في البروتين ، لهذا لجأ السكان إلي البحث عن مصدر آخر للبروتين ، ولم يجدوا ضالتهم إلا في تناولهم للحشرات الأرضية كالنمل الذي كانت قبائل جنوب غرب السودان تقوم بتناوله بل وصل الأمر بهذه القبائل إلي تناول اللحوم البشرية ، فقد جاء في بعض المراجع التاريخية أن بعض القبائل الأفريقية كانت تتبادل المرضي والأسري ، كي تقوم بالتهام لحومهم ، فكانت القبيلة الأفريقية تستحي من أن تتناول لحوم مرضاها ، لهذا كانت تستبدلهم بغيرهم من القبائل المجاورة حتى لا يكون هناك حرج في ذلك . وكان الدكتور جورج شوينفرث عالم النبات الألماني قد جاء إلي منطقة بحر الغزال لدراسة أحوال هذه المنطقة والوقوف على أحوال القبائل التي اعتقد في أنها تتناول اللحوم البشرية ، فقد عثر على عدد من الجماجم البشرية في هذه المناطق . وعند سفره إلي ألمانيا حمل معه عدداً من هذه الجماجم إلي ألمانيا ، لوضعها في متاحفها وبعبارته:

" Manzu's tribes were cannibals , when I let it be known that he was looking for human skulls and bones , they poured in most had been boiled and scraped with knives . Some were still warm from the cooking pot , But out of 200 skulls , only 40 were intact the rest , Schweinfourth noted regretfully had been smashed to get at the brains , He Packed up the skulls , Labeled them , and sent them back to Berlin Via Khartoum [١]

هذا فضلاً عن أن هنري مورتون ستانلي قد ذكر أنه في يوم ١٧ نوفمبر ١٨٧٦ ، وعلى بعد مسيرة ١١ ميلاً نحو الشمال الغربي ، وصل إلي قرية كاميونزو حيث رأي في وسط القرية شارعاً ضيقاً صفت على جانبيه جماجم تبعد كل واحدة عن الأخرى عشرة أقدام ، وسرعان ما عرف أنها جماجم بشرية ، فعرف ستانلي على الفور أن أهل هذه القرية من آكلي لحوم البشر ، لذلك أحجم الرجال عن متابعة الرحلة معه إلي الغرب ، ولكنه تمكن من إقناعهم لمواصلة السير حتى ينهي مهمته .

ومن قراءة هاتين الفقرتين يتضح لنا أن عادة تناول لحوم البشر كانت تسود بعض مناطق من أواسط أفريقيا ، وخير دليل على ذلك في عصرنا المعاصر ، إن الإمبراطور بوكاسا إمبراطور أفريقيا الوسطي كان يفضل تناول اللحوم البشرية ويعتبر هذا العمل من جانب بوكاسا تأكيداً على أن هذه العادة كانت متأصلة في الكيان الأفريقي .

ويرجع ذلك إلي عدة عوامل من أهمها إنشار ذبابة تسي — تسي التي أشرنا إليها آنفاً ، ومنها كذلك التخلف الذي ساد المناطق الأفريقية بسبب العوامل الطبيعية التي فرضت العزلة القاتلة على هؤلاء السكان ، وجعلتهم في منأي عن المدنية الحديثة ، وأدي بهم ذلك إلي الإحتفاظ

---

[١] Doubleday and company Inc , : The Encyclopedia of discovery and Exploration , Exploring Africa and Asia , New York , 1973 , p . 299 .

بعاداتهم القديمة ومن المحتمل أن ترجع عادة تناول اللحوم البشرية في بعض أجزاء من أفريقيا إلي عادات قديمة ورثوها عن أسلافهم ، وظلوا يتمسكون بها .

ومن الموضوعات التي لم تتناولها المؤلفة بشئ من التفصيل ، التواجد الأوروبي على ساحل أفريقيا الغربي ، الذي يرجع إلي بداية القرن الخامس عشر ، وكانت البرتغال من أولي الدول الأوروبية التي قدمت إلي هذه المنطقة كي تحصل على إحتياجاتها من المواد الخام والتوابل ، واكتفت بتأسيس مراكز على الساحل الغربي الأفريقي لأن الهدف البرتغالي تمثل في الوصول إلي الهند ، والإستيلاء على تجارتها وحرمان المصريين والإيطاليين من ممارسة العمل في هذه التجارة . ولذلك كانت البرتغال من أول الدول الأوربية التي أنشأت أكبر إمبراطورية عرفها العالم في مطلع العصور الحديثة (١) .

وبعد ذلك جاء الأوربيون إلي غرب أفريقيا بالتتابع ، فجاء الهولنديون إلي جنوب أفريقيا ، وأخذوا يطاردون البرتغاليين ، ومن بعدهم جاء البريطانيون ، والدنمركيون ، والفرنسيون ، وحدث ما يعرف باسم التنافس الدولي في أفريقيا . وظل هذا التنافس في تزايد حتى كاد يؤدي إلي دخول هذه الدول في صراعات دموية خطيرة ، فاضطرت في نهاية الأمر إلي الإتفاق في مؤتمر برلين الذي عقد في الفترة ما بين ١٨٨٤ م ، ١٨٨٥ إلي تقسيم القارة الأفريقية فيما بينها (٢) .

وأرجو الله العلي القدر أن أكون قد وفقت فيما فشل فيه غيري من الباحثين ، إنه نعم المولي ونعم النصير .

---

(١) جيمس وفي : الاستعمار البرتغالي في أفريقيا . ترجمة الدسوقي حسنين المراكبي مراجعة د . محمد صبحي عبد الحكيم . القاهرة ١٩٦٣ .

(٢) Hobléy , L . F . : Opening Africa , G . B . 1971 , pp . 10 – 32 .

المصـــــادر العــربية والاجنبيـــة

المصادر العربية

١ – د. **إبراهيم نصحي** : دراسات في تاريخ مصر في عصر البطالمة ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٢ – د. **أحمد فخري** : مصر الفرعونية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

٣ – د. **أمين مصطفي عفيفي** ، د . **أحمد عزت عبد الكريم** : تاريخ أوروبا الإقتصادي ، القاهرة ١٩٥٤ م .

٤ – **أمين سامي باشا** : تقويم النيل ، وعصر إسماعيل ، ٦ أجـزاء ، القاهرة ، ١٩٣٦ م .

٥ – د. **السيد يوسف نصر** : جهود مصر الكـشفية في أفريقيـا في القرن ١٩ ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٦ – د. **السيد يوسف نصر** : الوجود المصري في أفريقيا في الفترة ما بين ١٨٢٠ — ١٨٩٩ ، القاهرة ١٩٨١ م .

٧ – **آلان مورهيد** : النيل الأبيض ، ترجمة محمد بدر الدين خليـل ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٨ – **بيير مونتييه** : الحياة اليومية في مصر في عهد الرعامسة ، ترجمـة عزيز مرقس ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٩ – د. **جميل عبيد** : المديرية الإستوائية ، القاهرة ١٩٦٧ م .

١٠ – **جيمس وفي** : الإستعمار البرتغالي في أفريقيا ، ترجمة ، الدوسوقي حسنين المراكبي ، مراجعة د. محمد صبحي عبد الحليم ، القاهرة، عام ١٩٦٣ م .

١١- **حسين كامل سليم** : تاريخ أوروبا الاقتصادي في القرن ١٩ ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٢- **د. زينب عصمت راشد** : المختصر في تاريخ أوروبا الحديث ، القاهرة ، ١٩٧٥ م .

١٣- **د. زاهر رياض** : كشف أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٩ م .

١٤- **سليجمان . س . ج** : السلالات البشرية في أفريقيا ، ترجمة يوسف خليل ، مراجعة محمد محمود الصياد ، القاهرة ، ١٩٥٩م.

١٥- **د. شوقي عطا الله الجمل** : تاريخ كشف أفريقيا ، واستعمارها، القاهرة ، ١٩٧١ م .

١٦- **عمر طوسون** : تاريخ مديرية خط الإستواء . المصرية ، من فتحها إلي ضياعها ، ٣ أجزاء . القاهرة ، ١٩٣٧م .

١٧- **عمر الإسكندري ، وسليم حسن** : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلي ما قبل الوقت الحاضر ، مراجعة ، أ . ج سفدج ، القاهرة ، ١٩٢١ م .

١٨- **فيج ، جى . دى** : تاريخ غرب أفريقيا ، ترجمة د. السيد يوسف نصر ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .

١٩- **د . فيليب رفله** : الجغرافيا السياسية الإفريقية ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

٢٠- **كاثرين سفدج** : قصة أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ، ترجمة د. راشد البراوي ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢١- د. **محمد إبراهيم بكر** : المدخل إلي تاريخ السودان القديم ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٢٢- د. **محمد فؤاد شكرى** ، د. **محمد أحمد أنيس** : أوروبا في العصور الحديثة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٢٣- د. **محمد فؤاد شكرى** : الحكم المصري في السودان ، القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٢٤- د. **محمد فؤاد شكرى** : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسية ، في القرن ١٩ ، ١٨٢٠ - ١٨٩٩ م ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢٥- د. **محمد عوض محمد** : الشعوب والسلالات الإفريقية ، الجيزة ، ١٩٦٥ م .

٢٦- د. **مكى شبيكة** : السودان عبر القرون ، بيروت ١٩٦٤ م .

٢٧- **نعيم زكي فهمي** : طرق التجارة الدولية ومحاطتها بين الشرق والغرب ، أواخر العصور الوسطي ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

٢٨- **هرست** : النيل ، ترجمة حسن أحمد الشربينى ، القاهرة ، ١٩٥٢ م .

٢٩- **وولتر إمرى** : مصر وبلاد النوبة ، ترجمة تحفة حندوسة ، القاهرة، ١٩٧٠ م .

Foreign references

1- Andrew Fedders : Maasai , London , 1973 .
2- Carol Morse Perkins and Markins : I saw you from Far , London , 1966 .
3- Carveth Wells :Introducing Africa . United States of Amireca , 1954 .
4- Colonel Chillé Long : My life in four Continents , Vol . 2 , London , 1917 .
5- David Mountfield :Ahistory of African Exploration . England , 1976 .
6- Derek Townsend : Kenya , Uganda and Tanzania , London , 1969 .
7- Elespeth Huxley :East Africa , London, 1941.
8- Elespeth Huxley : Encyclopedia of discoveries and Exploration , the Challenge of Africa , No . 12 , London , 1971.
9- George Young : Egypt , London , 1917 .
10- Guy Winchester Gould : Rhodesia , London , 1970 .
11- Heugline .V. : travel in the Sudan in the Sixties . S . N . R . July . 1892 , January 1893 , V .XXXIV .
12- John Lewis Burckhardt : Travels in Nubia , Published by the Association for Pormoting the discovery of the interior parts of Africa , London , 1819 .
13- Junker : Sept ans de Voyages dans L' Afrique Central Vol . 2 .
14- Dr Junker : Voyages dans L'Afrique , Equatoriale , Bul . Soc . Kh . Geog . N . 7 .
15- Kenneth Lupton : Mungo Park , the African traveler , Oxford , 1979 .
16- Norman . R . Bennett : Ahistory of the Arab state of Zanzibar , London , 1978 .
17- Sagay . J . O . Wilson . D . A . : Africa , amodern History , 1800 – 1975 , London , 1978 .
18- Shaikh . A . J . and Mannur . H . G . : Ashort Economic history, Delhi , 1971 .
19- The Encyclopedia of discovery and Exploration , Exploring Africa and Asia , Garden City , New York , 1973 .
20- Victor Ellenberger La fin iragique des Buchmen , Paris , 1953 .
21- Zoe Marsh and G . W . King Snorth : A history of east Africa , Cambridge , 1954 .

محتويات الكتاب

٢ ـ فهـرس الخرائـــط

٣ ـ فهـرس الصـــور



دكتور / السيد يوسف نصر

- ليسانس آداب من قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة القاهرة.
- ماجستير فى الآداب من قسم التاريخ « تاريخ حديث ومعاصر » من معهد البحوث والدراسات الإفريقية - جامعة القاهرة.
- دكتوراه فى الآداب من قسم التاريخ « تاريخ حديث ومعاصر » كلية الآداب - جامعة المنيا.
- مدرس بقسم التاريخ « لمادة التاريخ الحديث والمعاصر » كلية الآداب - جامعة أسيوط - فرع سوهاج.
- عمل أستاذاً مساعداً بقسم التاريخ لتدريس مادة التاريخ الحديث والمعاصر - بكلية الآداب - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم بالسودان.
- عمل أستاذاً مساعداً بكلية العلوم العربية والإجتماعية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية.
- له عدد من المؤلفات والتراجم على النحو التالى :-

١- جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى القرن ١٩م.
٢- مستعمرة كارولينا.
٣- كشف العالم الجديد.
٤- الدور الحضارى للجيش المصرى فى آسيا وأفريقيا.
٥- الوجود المصرى فى أفريقيا فى الفترة ما بين : ١٨٢٠م - ١٨٩٩م.
٦- الكشوف البرتغالية والأسبانية حول العالم بين الأستعمار والإستغلال.
٧- الحكام العظام فى أفريقيا.
٨- البحارة البريطانيون فى القرن ١٦م.
٩- أزمة الشرق الأوسط.
١٠- مكتشفو أفريقيا.
١١- تاريخ غرب أفريقيا.
١٢- الوثائق التاريخية لسياسة مصر الأفريقية.

- مقالة بعنوان : الخرطوم تحت الحكم المصرى.
- ومقالة بعنوان : Historical and natural factors which affected the african man
- أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه.